مغامرات شيرلوك هولمز

آرثر كونان دويل



فضيحة في بوهيميا

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
زياد إبراهيم

مراجعة
محمد فتحي خضر



الفصل الأول

بالنسبة إلى شيرلوك هولمز، كانت هي دائمًا «المرأة». نادرًا ما سمعتُه يَذكرها بأي اسم آخر. وفي نظره، كانت تتفوَّق على كلِّ بنات جنسها. لم يكن الأمر أنه يشعر بعاطفةٍ كالحب تجاه أيرين أدلر؛ فكل العواطف، وخاصةً الحب، كانت ممقوتة بالنسبة إلى عقله البارد الدقيق المتَّزن على نحوٍ مثير للإعجاب. أعتقد أنه كان أكثر آلات العالم دقة في الاستنتاج والملاحَظة، لكن دور العاشق كان مخالفًا لطبيعته. لم يكن يتحدَّث عن العواطف الرقيقة إلا باستهزاء وسخرية. كانت تلك العواطف أمورًا مُثيرة للإعجاب في نظر المراقب؛ فهي عوامل مساعِدة مُمتازة في كشف الغطاء عن أفعال البشر ودوافعهم، لكن إذا سمح المفكِّر الخبير لهذه العواطف بالتسرُّب إلى مزاجه الحسَّاس والمُنضبِط بدقة، فإن هذا يعني دخول عامل مشتِّت ربما يُلقي بالشك على كل نتائج استنتاجه العقلي. وبالنسبة إلى شخصٍ ذي طبيعة كطبيعته، لن يكون ثمَّة أي صرير في آلة حساسة أو شرخ في عدسة من عدساته القوية أكثر إثارة للاضطراب من عاطفة قوية. ومع ذلك، فإن ثمَّة امرأة وحيدة بالنسبة له، وهي الراحلة أيرين أدلر، كان لها ذِكرى مشوشة بشكل كبير.

لم أرَ هولمز كثيرًا مؤخرًا. كان زواجي قد فرَّق بيننا، وكانت سعادتي المُكتمِلة، والاهتمامات المنصبَّة على المنزل التي تُظهر لرجل يجد نفسه لأول مرة سيدًا للدار، كافيةً تمامًا للاستحواذ على انتباهي بالكامل؛ بينما بقيَ هولمز — الذي يَكره أي شكل من أشكال النظام المُجتمَعي بكلِّ كيانه وروحه البوهيمية — في محل إقامتنا المؤجَّر في شارع بيكر مدفونًا بين كتبه القديمة، مُتنقِّلًا أسبوعًا تلو الآخر بين الكوكايين والطموح، بين النعاس الذي يَجلبه المخدِّر والطاقة العنيفة المميِّزة لطبيعته الحادة. كان — كعادته دائمًا — مُنجذِبًا إلى حدٍّ كبير إلى دراسة الجريمة، وكان يَشغل قدراته العقلية الهائلة وقواه الاستثنائية في الملاحَظة بتتبُّع مفاتيح الجرائم وكشف الألغاز التي كانت الشرطة الرسمية

قد هجرتْها باعتبارها ألغازًا لا أمل في حلِّها. ومن وقتٍ لآخَر، كنتُ أسمع حكايات غامضة عما يقوم به؛ عن استدعائه إلى أوديسا بسبب جريمة قتل تريبوف، وإنهائه للمأساة الفردية للإخوة أتكينسون في ترينكومالي، وأخيرًا عن مهمَّة أنجَزَها بمهارة ونجاح للعائلة المالكة في هولندا. ولكن بخلاف هذه الأدلة على نشاطه، والتي اطَّلَعتُ عليها شأني شأن قراء الصحافة اليومية، لم أكن أعرف إلا القليل عن صديقي وزميلي السابق.

في إحدى الليالي — وكانت ليلة العشرين من مارس عام ١٨٨٨ — كنتُ عائدًا من زيارة مريض (إذ كنتُ قد عدتُ إلى ممارسة الطب المدني) عندما قادَني طريقي إلى شارع بيكر. وبينما مررتُ بالباب الذي لا يُنسى بسهولة، والذي ارتبَطَ لديَّ بأيام خطبتي والأحداث الكئيبة التي واكبَت قضية «دراسة في اللون القرمزي»، سيطرت عليَّ رغبة شديدة في رؤية هولمز مجدَّدًا ومعرفة كيف يَستخدم قواه الاستثنائية. كانت غرف المنزل مضاءة جيدًا وحتى عندما رفعت نظري لأعلى، كنت أستطيع رؤية جسده الطويل النحيل يمرُّ مرتَين مُلقيًا بظل أسود على الستارة. كان يذرع الغرفة بسرعة وحماس، وكان رأسه منكَّسًا لأسفل وكفَّاه مُتشابكين وراء ظهره. كان سلوكه وهيئته بالنسبة إليَّ؛ إذ كنتُ أعرف كل عاداته وحالاته المزاجية، يُفصِحان عما يمرُّ به. لقد عاد إلى العمل مجدَّدًا. لقد استيقظ من أحلامه التي صنَعها المخدر وبدأ السعي وراء مشكلة جديدة بكل حماس. رننتُ جرس الباب واقتِدْتُ إلى الغرفة التي كان جزء منها ملكًا لي فيما مضى.

لم يكن من طبعه الإسراف في التعبير عن عواطفه، ونادرًا ما كان هكذا، لكنه كان سعيدًا برؤيتي على ما أعتقد. ودون التحدُّث بكلمة، وبنظرة حانية، أشار لي أن أجلس على كرسي ذي ذراعين، وألقى إليَّ بعلبة السيجار، وأشار إلى قنينة تحوي مشروبًا كحوليًّا وأخرى للمياه المُكربَنة في زاوية الغرفة، ثم وقف قبالة نيران المدفأة ونظر لي بطريقته الفاحصة المتفردة.

علَّق قائلًا: «الزواج يليق بك. أعتقد يا واطسون أن وزنك قد زاد سبعة أرطال ونصفًا منذ آخر مرة رأيتك فيها.»

رددتُ: «سبعة!»

«بالتأكيد كان يجب أن أفكر قليلًا. أعتقد أنك زدتَ قدرًا ضئيلًا فوق السبعة الأرطال كما أتخيَّل، وعُدتَ إلى العمل مرةً أخرى كما ألاحظ. لم تقل لي إنك تنوي العودة إلى العمل مرة أخرى!»

«كيف عرفت إذن؟»

«إنني أستنتج مما أراه. وكيف لي أن أعرف أنكَ تعرَّضتَ للبلل الشديد مؤخرًا، وأن لديك خادمة هي الأكثر خَرَقًا وإهمالًا؟»

«عزيزي هولمز، هذا لا يُصدَّق! لو أنك عشتَ منذ قرون مضت لكانوا أحرقوك حيًّا بالتأكيد. لقد ذهبتُ بالفعل للتمشية يوم الخميس ورجعتُ إلى المنزل في فوضى مروِّعة، لكني غيَّرت ملابسي. لا يمكنني تخيُّل كيف استنتجتَ هذا. أمَّا بالنسبة إلى ماري جين، فهي عنيدة، وحذَّرتْها زوجتي؛ لكني مرةً أخرى لا يُمكنني أن أفهم كيف عرفت كل هذا.»

ضحك ضحكة مكتومة وفرك كفَّيه الطويلتَين المتوتِّرتَين معًا.

ثم قال: «الأمر هو البساطة نفسها؛ فعيناي تخبراني أنه داخل حذائك الأيسر في المكان الذي تَنعكِس عليه نار المدفأة بالضبط، هناك ستة خدوش مُتوازية تقريبًا على سطح جلد الحذاء. من الواضح أنها نتَجَت عن شخص كشط حوافَّ باطن النعل بإهمال ليتخلَّص من الطين الجاف؛ ومن ثَمَّ، كما ترى، توصلتُ إلى استنتاجي المزدوج، وهو أنك خرجت في طقس سيئ، وأن لديك خادمة سيئة للغاية من خدم لندن تقطع الأحذية. أما بالنسبة إلى عملك، فإذا دخل رجل إلى غرفتي تفوح منه رائحة اليودوفورم وعلى سبابته اليُمنى علامة سوداء من نترات الفضة، بينما يوجد انتفاخ في الجانب الأيمن من قبعته العالية، حيث خبأ سماعته، فسأكون غبيًّا بالفعل إذا لم أستنتج أنه يمارس مهنة الطب.»

لم أَستطِع منْع نفسي من الضحك لبساطة تفسيره لعملية الاستنتاج. قلتُ: «عندما أسمعك وأنت تسرد أسبابك، يبدو الأمر سهلًا للغاية لدرجة أنه يمكنني القيام به بنفسي، رغم أنني أكون مرتبكًا في كل مرة تسرُد فيها استنتاجك إلى أن تذكُر أسبابك. مع أني أعتقد أن عينيَّ تعملان كعينيك تمامًا.»

ردَّ مُشعِلًا سيجارة ومُلقيًا بجسده على كرسي ذي ذراعين: «بالضبط. أنت ترى لكنك لا تلاحظ. الفارق واضح. على سبيل المثال، اعتدتَ رؤية درجات السلم التي تؤدِّي من الردهة إلى هذه الغرفة بشكل متكرِّر.»

«مرارًا وتكرارًا.»

«كم مرة؟»

«مئات المرات.»

«إذًا كم درجة هناك؟»

«كم درجة؟ لا أعرف.»

«تمامًا! لم تُلاحظ، مع أنك رأيتها. هذا ما أقصده. الآن، أنا أعرف أن هناك سبع عشرة درجة لأنني رأيتها ولاحظتها في الوقت نفسه. وبالمناسبة، وبما أنك مُهتم بهذه المشكلات

الصغيرة، وبما أنك تكرَّمت بما يكفي بتسجيل أحداث تجربة أو اثنتين من تجاربي التافهة، ربما يُهمك هذا.» وألقى إليَّ ورقة سميكة ذات لون وردي لتدوين الملاحَظات كانت على الطاولة، ثم قال: «أتت هذه مع آخر مجموعة من البريد. اقرأها بصوت عالٍ.»

كانت الورقة غير مؤرَّخة، وبدون توقيع أو عنوان.

كانت تقول: «سيأتي إليك رجل مساء اليوم في تمام الثامنة إلا ربعًا يُريد استشارتك في مسألة عاجلة للغاية. لقد أظهرتْ خدماتك لإحدى العائلات المالكة في أوروبا أنك شخص ربما يُمكِن الوثوق فيه في الأمور ذات الأهمية البالغة. هذا الكلام عنك من كل مكان وصَلنا. كن في غرفتك إذن في الساعة المذكورة ولا تُسِئ فهم الأمر إذا كان زائرك يرتدي قناعًا.»

علقتُ قائلًا: «هذا لغزٌ بالفعل. ما الذي يعنيه في ظنك؟»

«ليس لديَّ أيُّ حقائق بعد. من الخطأ الفادح أن تُكوِّن نظرية قبل أن تمتلك أيَّ معطيات؛ إذ يبدأ المرء بدون أن يشعر في لَيِّ الحقائق لتُناسِب النظريات بدلًا من أن يقوم بالعكس. لكن ما الذي يمكنك استنتاجه من الورقة نفسها؟»

فحصت الكتابة بحرص وكذلك الورقة التي كُتِبَت عليها.

قلتُ وأنا أجاهد لتقليد ما يقوم به رفيقي: «أفترض أن الرجل الذي كتبها موسر. لا يُمكن شراء هذا النوع من الورق بأقل من شلنين ونصف للرزمة. إنها صلبة وقوية بشكل غريب.»

«غريب، هذه هي الكلمة التي أبحث عنها. إنها ليست ورقة إنجليزية الصنع على الإطلاق. انظر إليها تحت الضوء.»

فعلتُ ما قاله ورأيت حرف E كبيرًا وحرف g صغيرًا وحرف P وG كبيرَين وt صغيرًا، منسوجة داخل نسيج الورقة.

سألني هولمز: «ما الذي تَستنتجه من هذا؟»

«اسم صانع الورقة بلا شك، أو بالأصح المونوجرام الخاص به.»

«لا أظن هذا. حرفا G وt يرمزان إلى كلمة Gesellschaft الألمانية التي تعني شركة. إنها اختصار معتاد مثل Co. في الإنجليزية. وبالطبع فإن حرف P يشير إلى Papier أي ورق. أما بالنسبة لـ Eg فدعنا نلقِ نظرة على القاموس الجغرافي.» ثم تناول مجلَّدًا ثقيلًا بُنيَّ اللون من أحد الرفوف. «إيجلو. إيجلونيتز. ها هي، إيجريا. إنه بلدٌ يتحدث الألمانية في بوهيميا، لا يَبعُد كثيرًا عن كارلسباد. إنه يُشْتَهر بكونه محل وفاة الجنرال فالنشتاين، كما يضم العديد من مصانع الزجاج والورق. ها ها. ما الذي تستنتجه من هذا يا فتاي؟» لمعت عيناه ونفخ سحابة ضخمة زرقاء من سيجارته شاعرًا بالانتصار.

«أن الورقة مصنوعة في بوهيميا.»

«بالضبط. والرجل الذي كتب الرسالة ألماني. هل لاحظتَ التركيب الغريب للجملة: «هذا الكلام عنك من كل الأنحاء وصلنا»؟ لا يُمكن أن يكون قد كتبها روسي أو فرنسي. إنه ألماني لا يجيد استخدام الأفعال. لذا لا يتبقى لنا إلا اكتشاف ما الذي يريده ألماني يكتب على ورق مصنوع في بوهيميا ويُفضِّل ارتداء الأقنعة على أن يكشف وجهه لنتخلص من شكوكنا.»

وبينما كان يتحدث، سمعنا صوتًا حادًّا لحوافر حصان وصرير إطارات بجانب الرصيف تبعه دق الجرس بشدة. صفَّر هولمز.

«يبدو من الصوت أنهما حصانان.» ثم ألقى نظرة من النافذة، متابعًا: «نعم. مركبة صغيرة أنيقة المنظر يجرُّها حصانان جميلا الشكل، كُلفة كلٍّ منهما مائة وخمسون جنيهًا. سنَحصُد المال الوفير من هذه القضية يا واطسون، إن لم نحصل على شيء آخر أيضًا.»

«أعتقد أن عليَّ الرحيل يا هولمز.»

«إياك يا دكتور. ابقَ كما أنت. أنا ضائع بدون شخص يسجل ما يحدث. ما يواجهنا أمرٌ يعدُّ بأن يكون مثيرًا للاهتمام، وسيكون من المؤسف أن يفوتك.»

«لكن عميلك ...»

«لا تهتم به. ربما أحتاج لمساعدتك وربما يحتاجها كذلك. اجلس في هذا الكرسي يا دكتور وانتبه جيدًا.»

كانت ثمة خطوات صعود مُتثاقلة وبطيئة ثُم توقفت على الفور خارج باب الغرفة، ثُم سمعنا طرقة عالية وحازمة على الباب.

قال هولمز: «تفضل!»

دخل رجل لا يُمكن أن يقلَّ طوله عن مترَين، بينما كان صدره وأطرافه ضخامًا جديرِين بهرقل. كان لباسه فخمًا، لكنها الفخامة التي يَعتبرونها في إنجلترا تنمُّ عن ذوق سيئ. كانت ثمة شرائط ثقيلة من صوف الأستراخان تُزيِّن الكُمين والجانب الأمامي من معطفه المُزدوَج الصدر، بينما كانت تُغطِّي كتفَيه عباءة زرقاء داكنة مبطَّنة بحرير براق ومُثبتة عند الرقبة بدبوس مزخرَف مكوَّن من حجر البريل الكريم البراق. كان يَرتدي حذاءً طويل الرقبة يصل إلى منتصف ربلة الساق، وكان مزخرفًا من قمته بفراء بُني فاخر؛ مما أكمل الانطباع بالترف الهمَجي الذي ينمُّ عنه مظهره بالكامل. كان يحمل قبعة عريضة في يده، بينما يغطي الجزء العلوي من وجهه حتى عظام الوجنة قناع أسود كان من الواضح

أنه ما زال يضبطه على وجهه؛ لأن يده كانت لا تزال مرفوعة تُعدِّل من وضعه عندما دخل. أما الجزء الأسفل من وجهه فكان ينمُّ عن شخصية قوية؛ إذ كان له شفة غليظة متدلية وذقن طويل مستقيم ينمُّ عن حزم يصل إلى درجة التصلب والعناد.

سأل الرجل بصوت عميق أجشَّ وبلكنة ألمانية ثقيلة: «هل وصلتك رسالتي؟ أخبرتك أنني سآتي للزيارة.» ثم نقل بصره بيننا كأنه لا يَعرِف من تَجِب مخاطبته.

قال هولمز: «اجلس من فضلك. هذا صديقي وزميلي الدكتور واطسون الذي يمتلك الخبرة الكافية ليُساعِدَني بين الحين والآخر في حلِّ قضاياي. مَن الذي أشرُف بمخاطبته؟»

«يُمكنك مخاطبتي بالكونت فون كرام، من نبلاء بوهيميا. أفترض أن هذا الرجل، صديقك، رجل ذو شرف ويتميَّز بالكتمان ويُمكنني الوثوق فيه في مسألة ذات أهمية قصوى. إذا لم يكن الأمر كذلك، أُفضِّل التحدث معك على انفراد.»

نهضتُ لكي أرحل، لكن هولمز أمسكني من رُسْغي ودفعني للجلوس مرة أخرى في الكرسي، وقال: «كلانا أو لا. يُمكنك قول ما تريد لي أمام هذا الرجل.»

هزَّ الكونت كتفَيه العريضتَين ثم قال: «عليَّ البدء إذن بأن تتعهدا لي بالسرية المطلَقة لمدة عامين، وعند انتهاء هذه المدة لن يكون للمسألة أيُّ أهمية. حاليًّا لن يكون من المبالَغة أن نقول إنها مسألة من الأهمية بحيث يمكنها أن تؤثر في التاريخ الأوروبي.»

قال هولمز: «أعدك.»

قلتُ: «وأنا أيضًا.»

تابع زائرنا الغريب: «أتمنى ألا يضايقكما القناع الذي أرتديه؛ فالشخص الرفيع الشأن الذي أعمل لديه يُريد أن يظلَّ رسوله مجهولًا بالنسبة إليكما، وربما يُمكنني أن أعترف لكما الآن أن اللقب الذي قدمتُ به نفسي للتوِّ لا يخصُّني في الواقع.»

ردَّ هولمز بطريقة جافَّة: «كنتُ أعرف هذا.»

أكمل الرجل: «الظروف حسَّاسة للغاية، ويجب اتخاذ كل الاحترازات اللازمة لإخماد ما يمكن أن يُصبِح فضيحة كبرى تُشكِّل تهديدًا خطيرًا لمكانة إحدى العائلات الحاكمة في أوروبا. بصراحة إن الأمر يورِّط عائلة أورمشتاين العظيمة، ورثة عرش بوهيميا.»

دمدم هولمز وهو يجلس على كرسي ويغلق عينَيه: «كنتُ أعرف هذا أيضًا.»

نظر زائرنا، وقد ظهرت عليه الدهشة، إلى الشخص المتراخي المتكاسل الذي وُصف له بلا شك بأنه أكثر محقِّقي أوروبا حيوية وحِدَّة في الفكر. وأعاد هولمز فتح عينَيه مرة أخرى ببطء ونظر إلى عميله العملاق بنفاد صبر.

وقال: «إذا تنازلت جلالتك وقلتَ ما لديك يُمكنني تقديم النصح لك على نحو أفضل.»

انتفض الرجل من كرسيه فجأة وذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في حالة من الاهتياج يتعذَّر التحكُّم فيها. وبحركة تدلُّ على اليأس، رفع القناع عن وجهه وطرحه أرضًا وصاح: «أنت على حق! أنا الملك. لماذا يجب عليَّ إخفاء هذا؟»

ردَّ هولمز بصوت خفيض: «بالفعل، لماذا؟ من قبل أن تتحدَّث جلالتك وأنا أُدرِك أني أخاطب فيلهِلم جوتسريش سيجيسموند فون أورمشتاين، دوق كاسل-فيلشتاين الأكبر ووريث عرش بوهيميا.»

قال زائرنا الغريب وهو يَجلس مرة أخرى ويُمرِّر يده على جبهته البيضاء المرتفعة: «ولكن يُمكنك أن تتفهَّم أنني لم أعتدِ القيام بهذه الأمور بنفسي. لكن الأمر حسَّاس للغاية لدرجة أنه لم يُمكنِّي الوثوق في أي محقق دون أن أضع نفسي تحت إمرته. لقد أتيتُ متخفِّيًا من براغ لأستشيرك.»

قال هولمز وهو يعيد إغلاق عينَيه: «استشرني إذن.»

«الحقائق باختصار هي ما يلي: منذ خمس سنوات، وخلال زيارة طويلة إلى وارسو، تعرفتُ على مُغامِرة شهيرة وهي أيرين أدلر. الاسم مألوف لديك بلا شك.»

دمدم هولمز بدون أن يفتح عينَيه: «ابحث عن اسمها في الدليل الخاص بي يا دكتور.»

لسنوات تبنَّى هولمز نظامًا لتلخيص كل الفقرات التي تخص البشر والأشياء، حتى إنه كان من الصعب ذكر موضوع أو شخص ما لا يُمكن إخراج معلومات عنه فورًا. في حالتنا هذه، وجدت سيرتها بين سيرة تخص حاخامًا يهوديًّا، وأخرى تخص قائدًا للأركان كتب دراسة عن أسماك أعماق البحار.

قال هولمز: «دعني أرَ! هممم! وُلِدت في نيوجيرسي عام ١٨٥٨. مغنية كونترالتو! هممم! دار أوبرا لا سكالا! هممم! المغنية الأولى في دار الأوبرا الملَكية في وارسو! نعم! تقاعدَت من الأوبرا! ها! تعيش في لندن! حقًّا! كما أفهم جلالتُك تورطتَ مع هذه الشابة وكتبت لها بعض الرسائل التي يُمكن أن تتسبَّب لك في فضيحة وتُريد استردادها.»

«بالضبط. لكن كيف ...»

«هل تزوجتما سرًّا؟»

«لا.»

«أي أوراق أو شهادات رسمية؟»

«لا.»

«إذن أنا لا أفهم جلالتك. إذا أخرجَت هذه الشابة الرسائل لابتزازك أو أي غرض آخر، فكيف ستُثبِت صحتها؟»

«هناك الخط الخاص بي.»

«زورَتْه.»

«ورق الملاحظات الخاص بي.»

«سرقته.»

«ختمي الخاص.»

«قلدته.»

«صورتي.»

«ابتاعتها.»

«كنا نَظهر فيها معًا.»

«يا إلهي! هذا سيِّئ للغاية! لقد قمت جلالتك بفعل طائش حقًّا.»

«كنتُ مجنونًا، فقدتُ عقلي.»

«لقد أوقعتَ نفسك في موقف خطير للغاية.»

«كنتُ ولي العهد وحسبُ آنذاك، وصغير السن. أنا الآن في الثلاثين من عمري.»

«يجب أن تَسترجعها.»

«حاولْنا وفشلنا.»

«يجب أن تدفع المال يا جلالة الملك. يجب أن تَشتريها.»

«لا تريد بيعها.»

«تُسرَق إذن.»

«قمنا بخمس محاولات. مرتين دفعتُ المال لسارقين لتفتيش ونهب منزلها. ومرة سرقنا أمتعتها أثناء سفرها. ومرتين أخريَن هوجمَت في الطريق. لكن كل هذا لم يسفر عن أي نتيجة.»

«لا يوجد أي دليل على وجود الصورة؟»

«مطلقًا.»

ضحك هولمز ساخرًا: «يا لها من مشكلة بسيطة للغاية.»

ردَّ الملك موبِّخًا: «لكنها أمرٌ خطيرٌ للغاية بالنسبة إليَّ.»

«بالطبع، ولدرجة كبيرة. وما الذي تنوي فعله بهذه الصورة؟»

«تدميري.»

«كيف؟»

«أنا على وشك الزواج.»

«سمعت بهذا.»

«سأتزوج كلوتيلدا لوثمان فون ساكس منينجين، الابنة الثانية لملك اسكندنافيا. لعلَّك تعرف التقاليد الصارمة لعائلتها. هي نفسها الرقة مجسَّدة. وأي لمحة شكٍّ في سلوكي ستُنهي الزواج.»

«وأيرين أدلر؟»

«تُهدِّد بإرسال الصورة إليهم. وستَفعلها. أعلم أنها ستَفعلها. أنت لا تعرفها فهي متحجِّرة القلب. إنها تمتلك وجه أجمل النساء وعزم وإصرار أقوى الرجال. وستَفعل أي شيء لتمنع زواجي بأي امرأة أخرى. أي شيء.»

«هل أنتَ واثق من أنها لم ترسلها بعد؟»

«متأكد.»

«وما الذي يَجعلُك متأكدًا؟»

«لأنها قالت إنها سترسلها يوم إعلان الخِطبة رسميًّا، وهو يوم الإثنين المقبل.»

قال هولمز متثائبًا: «إذن لدينا ثلاثة أيام. هذا جيد جدًّا؛ فلديَّ أمرٌ أو أمران مهمان يجب أن أنظر فيهما حاليًّا. جلالتك بالطبع ستظلُّ مقيمًا في لندن في الوقت الراهن!»

«بالتأكيد. سأنزل في فندق لانجام تحت اسم الكونت فون كرام.»

«سأترك لك برقيةً إذن لأخبرك بما يستجد.»

«من فضلك افعل. سيظلُّ القلق مسيطرًا عليَّ كليًّا.»

«وبالنسبة إلى المال؟»

«لديك تفويض كامل.»

«مُطلَق؟»

«أنا على استعداد للتنازل عن إحدى مقاطعات مملكتي مقابل استرجاع هذه الصورة.»

«وبالنسبة إلى النفقات الحالية؟»

أخرج الملك حقيبة ثقيلة من جلد الشمواه كان يُخبِّئها تحت عباءته ووضعها فوق الطاولة، قائلًا: «هذه الحقيبة تحوي ثلاثمائة جنيه ذهبي وسبعمائة جنيه ورقي.»

كتب هولمز بسرعة إيصالًا بالاستلام على ورقة من دفتر ملاحظاته وسلَّمه إياه.

«وعنوان الآنسة؟»

«نُزُل بريوني، جادة سيربنتاين، حي سان جونز وود.»

دوَّن هولمز ما يقوله قبل أن يقول: «سؤال آخر: هل كانت الصورة كبيرة؟»

«نعم.»

«طابت ليلتك إذن يا جلالة الملك. أثق بأنه قريبًا سيكون لدينا أخبار تسرك. تصبح على خير. واطسون ...» ثم أضاف بينما يعلو صوت دوران عجلات المركبة في الشارع: «فلتتفضَّل بالاتصال بي غدًا في تمام الثالثة بعد الظهر، أودُّ أن أتحدث معك في هذا الأمر البسيط.»

الفصل الثاني

في تمام الثالثة كنت في شارع بيكر، لكن هولمز لم يكن قد عاد بعد. أخبرتني صاحبة المنزل أنه ترك المنزل بعد الثامنة صباحًا بقليل. وعلى الرغم من ذلك، جلست بجانب المدفأة عازمًا على انتظاره مهما طال غيابه. كنتُ مهتمًّا بالفعل بالمسألة بشكل كبير؛ لأنها على الرغم من أنها لم تُحِطْ بها ظروف غريبة ومشئومة مثل الجريمتَين اللتَين سجلت أحداثهما بالفعل، فإن طبيعة القضية والمكانة الرفيعة لعميل هولمز منحتاها سمة خاصة بها. وبالفعل، وبعيدًا عن طبيعة التحقيق الذي كان يشغل وقت صديقي، كان ثمة شيء يتعلق بتحكمه البارع في الموقف واستنتاجه الثاقب الفكر جعل من الممتع بالنسبة إليَّ دراسة نظامه في العمل واتباع الطرق السريعة الحَذِقة التي كان يحلُّ بها أكثر الألغاز تعقيدًا. وكنتُ قد اعتدت نجاحه المستمر حتى إن إمكانية فشله لم تَعُد تخطر بذهني.

بينما كانت الساعة تقترب من الرابعة فُتِح الباب ودخل إلى الغرفة سائس خيول أشعث ذو سالفَين طويلَين يبدو عليه السُّكر؛ حيث كان وجهه متورمًا وملابسه مزرية. كنتُ معتادًا على قدرة صديقي المُذهِلة على التنكُّر، واضطررت لتدقيق النظر ثلاث مرات قبل أن أتأكد أنه هو. أومأ برأسه واختفى داخل الغرفة ثم خرج منها بعد خمس دقائق يَرتدي حُلَّة من الصوف، وقد بدا مهندمًا كما اعتاد أن يبدو. وضع هولمز يدَيه في جيبَيه ومدَّ ساقَيه أمام المدفأة وضحك بلا تحفظ لدقائق.

ثم قال: «حسنًا، حقًّا!» ثم عاد ليضحك حتى اختنقَ من كثرة الضحك واضطرَّ للاستلقاء في كرسيه مترنحًا وعاجزًا.

قلت له: «ما الأمر؟»

«الأمر مُضحِك للغاية. أنا متأكد أنك لن تستطيع أن تُخمِّنَ كيف قضيت صباحي أو ما انتهى بي الأمر بالقيام به.»

«لا يمكنني التخيُّل. أعتقد أنك كنت تراقب روتين الآنسة أيرين أدلر، وربما منزلها.»

«صحيح تمامًا، لكن تتمَّة اليوم كانت غير متوقَّعة. لكنني سأخبرك. لقد تركت المنزل بعد الثامنة بقليل من صباح اليوم متنكِّرًا في شخصية سائس خيول عاطل عن العمل. هناك تعاطُف وترابط رائعَين بين سائسي الخيول. حاولِ التنكُّر في زي أحدهم وستعرف كل ما يجب معرفته. لم يمضِ وقت طويل قبل أن أعثُر على نُزُل بريوني. إنه عبارة عن فيلا صغيرة أنيقة من طابقَين بُنيت لتطلَّ مباشرة على الطريق وبها حديقة خلفية. كان هناك قفل من طراز تشاب على الباب. في الجانب الأيمن، كان هناك غرفة جلوس كبيرة مؤثَّثة جيدًا ذات نوافذ طويلة تكاد تصل إلى الأرض تقريبًا مزوَّدة بتلك الأقفال الإنجليزية المُثيرة للضحك التي يمكن لأي طفل أن يفتحها. وفي الخلف، لم يكن هناك أي شيء جدير بالملاحظة فيما عدا نافذة لرواق يُمكن الوصول إليها من أعلى مرآب المركبات. درت حول المنزل وفحصته جيدًا من كل الجهات لكن دون أن ألاحظ أي شيء مثير للاهتمام.

ثم تسكَّعتُ قليلًا في الشارع ووجدت كما توقعت أن هناك إصطبلًا في طريق يمتدُّ بمحاذاة أحد جوانب الحديقة. ساعدت السائسين في الاعتناء بالخيول وحصلتُ في المقابل على بنسين وكأس من الشراب وحفنتَين من التبغ وكل ما أودُّ معرفته من معلومات عن الآنسة أدلر؛ فضلًا عن نصف دستة من سكان الحي لم أكن مهتمًّا البتَّة بهم، لكني كنتُ مجبرًا على الاستماع إلى قصة حياة كل منهم.»

سألتُه: «وماذا عن أيرين أدلر؟»

«حسنًا، لقد لفتت انتباه جميع رجال المنطقة. إنها أجمل فتاة على ظهر الأرض، حسبما يقول كل رجل في إصطبلات جادة سيربنتاين. تعيش حياة هادئة وتُغني في الحفلات، وتخرج في الخامسة من كل يوم وتعود في تمام السابعة لتناول العشاء. نادرًا ما تخرج في أوقات أخرى إلا للغناء. هناك رجل واحد فقط يزورها، لكنه يزورها كثيرًا. رجل أسمر ووسيم وأنيق المظهر، لا يزورها أقل من مرة يوميًّا، وأحيانًا مرتَين، يُدعى السيد جودفري نورتون، من هيئة المعبد الداخلي القانونية. هذه هي ميزة اللجوء إلى سائقي العربات للحصول على الأسرار. فقد أوصلوه لمنزله من جادة سيربنتاين عشرات المرات ويعرفون كل شيء عنه. وبعدما استمعت إلى كل ما لديهم، بدأتُ التمشي ذهابًا وإيابًا بالقرب من نُزُل بريوني مرة أخرى معيدًا التفكير فيما سأقوم به.

كان من الواضح أن جودفري نورتون عامل مُهم في الأمر. كان يعمل محاميًا وهذا أمرٌ ينذر بسوء. ما نوع العلاقة بينهما؟ وما الهدف من زياراته المتكرِّرة؟ هل كانت عميلة

لديه أم صديقته أم عشيقته؟ لو كانت عميلة لديه، فربما ائتمنته على الصورة. إذا كانت صديقته، فسيَضعُف هذا الاحتمال. كان هذ الأمر يتوقَّف عليه تحديد إذا ما كنت سأستمر في فحص نُزُل بريوني أم سأُحيل اهتمامي إلى ديوان الرجل في المعبد. كان أمرًا حسَّاسًا من شأنه توسيع دائرة تحقيقي. أخشى أنني أضجرتك بهذه التفاصيل، لكن يجب أن تعرف الصعوبات القليلة التي قابلتْني إذا كنتَ تريد أن تفهم الموقف جيدًا.»

قلت: «أنا منتبه تمامًا.»

تابع قائلًا: «بينما كنتُ أفكر في الأمر، وصلَت عربة يجرُّها حصان إلى نُزُل بريوني ونَزَل منها رجل. كان رجلًا وسيمًا بشكل لافت للنظر، أسمر البشرة ذا شارب وأنف معقوف؛ كان من الواضح أنه هو الرجل الذي سمعت عنه. بدا في عجلة من أمره وصرخ في سائق العربة أن ينتظره وتجاوز الخادمة التي فتحت الباب كمن يدخل منزله الخاص.

مكث في المنزل نصف ساعة، واستطعت أن ألمحه من خلال نوافذ غرفة الجلوس، حيث كان يذرعها ذهابًا وإيابًا ويتحدَّث بانفعال محركًا ذراعَيه. بالطبع لم أقدر على رؤيتها. خرَج بعد قليل وكان مُهتاجًا أكثر من ذي قبل. وبينما كان يركب العربة، أخرج ساعة ذهبية من جيبِه ونظر فيها بتمعُّن ثم صرخ في السائق: «اذهب إلى جروس وهانكي في شارع ريجينت ثم إلى كنيسة سانتا مونيكا في طريق إيدجوير. قُدْ كأن الشيطان يُطاردك! لك نصف جنيه إذا أوصلتَني خلال عشرين دقيقة.»

وانطلَقا بعيدًا، وبينما كنت أتساءل هل كان عليَّ أن أتبعه ظهرت عربة صغيرة فاخرة ذات أربع عجلات عبر الشارع، وكان معطف السائق نصف مزرَّر ورابطة عنقه ترجع للوراء تحت أذنه بينما كانت أربطة لجام الحصان تبرز من مرابطها. لم تَكد تتوقَّف العربة أمام المنزل حتى انطلقت أيرين بسرعة خاطفة إلى داخل العربة. لمحتُها للحظة لكني أدركتُ أنها امرأة فاتنة ذات جمال قد يجعل الرجل يُضحِّي بنفسه من أجله.

قالت للسائق: «كنيسة سانتا مونيكا يا جون، ولك نصف جنيه ذهبي لو وصلتُ هناك في عشرين دقيقة.»

كانت فرصة لا تعوَّض يا واطسون. كنت أفكر إنْ كان عليَّ الدخول إلى البيت أو التعلق بالعربة عندما ظهرت عرَبة في الشارع. نظر السائق مرتين لحالتي الرثَّة لكني قفزت داخل العربة قبل أن يَعترض، وقلت له: «اذهب إلى كنيسة سانتا مونيكا ولك نصف جنيه إذا وصلنا في عشرين دقيقة.» كان يفصلنا عن تمام الثانية عشرة خمس وعشرون دقيقة، وبالطبع كان ما هو وشيك واضحًا بما يكفي.

قاد السائق بسرعة، ولا أظن أنني ركبت عربة أسرع من هذه من قبل، لكن الآخرين كانوا قد وصلوا قبلنا. كانت عربة الأجرة والعربة الأخرى الفاخرة بأحصنتهما التي تنفث البخار من مناخيرها تقفان أمام الباب عندما وصلت. دفعت الأجرة للرجل وهُرعت داخل الكنيسة. لم يكن أحد بالداخل سوى الاثنَين اللذَين أتتبَّعهما وقسٌّ يرتدي الرداء الكهنوتي الأبيض، بدا كأنه يحتج على ما يقولانه. كان الثلاثة مجتمِعين عند المذبح. أخذت أتسكَّع بجانب صف الكراسي كأي متسكع يدخل الكنيسة. فجأة استدار الثلاثة ليواجهوني وركض جودفري بأقصى قوته تجاهي.

قال جودفري: «حمدًا لله! أنت ستفي بالغرض! تعالَ! تعالَ!»

سألته: «ماذا يحدث؟»

ردَّ قائلًا: «تعالَ يا رجل تعالَ! ثلاث دقائق فقط وإلا لن يكون الأمر قانونيًّا.»

سحبَني إلى المذبح وقبل أن أدرك ما يحدث وجدت نفسي أتمتم بكلمات تُهمَس في أذني وأشهَد على أشياء لا أعرف عنها شيئًا، وأساعد بشكل عامٍّ في إتمام ارتباط العَزباء أيرين بالأعزب جودفري. تمَّ كل شيء في لحظات وأخذ الرجل يَشكُرني من جانب، وشكرتني زوجته من الجانب الآخر، بينما وقف القس أمامي مُبتسمًا. كنتُ في أغرب المواقف التي وجدت نفسي فيها على الإطلاق، وكان تذكُّري له هو ما دفعني للضحك الآن. يبدو أنه كان هناك قدر من عدم الرسمية يتعلق بزواجهما، وأن القس كان رافضًا تمامًا تزويجهما بدون شاهد، وكان ظهوري مؤاتيًا وأنقذ العروس من الخروج للشوارع والبحث عن إشبين. أعطتْني العروس نصف جنيه ذهبيًّا وأنوي ارتداءه في سلسلة الساعة الخاصة بي كتذكار.»

قلتُ: «هذا تحوُّل غير متوقَّع في سير الأمور. ماذا حدث بعد ذلك؟»

«وجدتُ أن خططي عرضة لتهديد فعلي. كان الأمر يبدو كما لو كان الزوجان سيُسافران على الفور لذا كان من الضروري أن يتصرَّفا بسرعة. لكنهما افترَقا عندما وصَلا إلى باب الكنيسة، حيث عاد هو إلى المعبد بينما عادَت هي إلى منزلها. وبينما كانت تتركه سمعتُها تقول: «سأذهب إلى الحديقة في الخامسة كالمعتاد.» لم تقل أكثر من هذا. ذهب كلاهما في اتجاه مُختلِف بينما ذهبت أنا لإتمام الترتيبات الخاصة بي.»

«وهي؟»

ردَّ وهو يَقرع الجرس: «تناول اللحم البارد وكأس جعة. لقد انشغلت تمامًا ونسيت الطعام. ومن المرجح أن أكون أكثر انشغالًا هذا المساء. بالمناسبة يا دكتور، سأحتاج إلى تعاونك.»

«سيكون هذا من دواعي سروري.»

«هل تمانع في التحايل على القانون؟»

«كلا البتَّة.»

«هل تخاطر بالاعتقال؟»

«لا بأس، إن كان الأمر يستحق.»

«الأمر يستحقُّ بالفعل.»

«إذن يمكنك الاعتماد عليَّ.»

«كنت متأكدًا من أنه يمكنني الاعتماد عليك.»

«ماذا تريد؟»

«سأُخبرك عندما تحضر السيدة تيرنر الصينية.» ثم قال وهو يبدأ التهام الطعام البسيط الذي أحضرته صاحبة المنزل: «يجب أن أتحدث وأنا أتناول الطعام؛ لأنني لا أمتلك الكثير من الوقت. لقد اقتربتُ من الخامسة الآن. يجب أن نكون في مسرح الأحداث في خلال ساعتين. سترجع الآنسة، أو السيدة، أيرين من جولتها في السابعة. ويجب أن نكون عند نُزُل بريوني لنقابلها.»

«ثُم؟»

«يجب أن تترك هذا لي. لقد رتبتُ بالفعل ما سيحدث. لكن يجب أن أؤكد لك على نقطة ما. يجب ألا تتدخَّل مهما حدث. أتفهمني؟»

«هل تُطالبني بألَّا أفعل شيئًا؟»

«لا تفعل أي شيء مهما حدث. سيكون هناك شيء بسيط سيُثير انزعاجك. لا تتدخل. سينتهي الأمر بدخولي المنزل. بعد ذلك بأربع أو خمس دقائق ستُفتَح نافذة غرفة الجلوس. أريدك أمام تلك النافذة.»

«حسنًا.»

«ستُشاهدني لأنني سأكون ظاهرًا بالنسبة إليك.»

«حسنًا.»

«وعندما أرفع يدي، هكذا، سترمي داخل الغرفة ما سأعطيه لك، وفي الوقت نفسه، ستصيح بأن هناك حريقًا. هل تفهمني؟»

«تمامًا.»

قال وهو يخرج لفافة طويلة تشبه السيجار من جيبه: «هذا ليس بالشيء الخطر. إنه صاروخ دخان تقليدي من النوع الذي يستخدمه السباكون، له غطاء بلاستيكي من

الناحيتين ليشتعل ذاتيًّا. ما ستقوم به سيَقتصِر على الآتي. عندما تَصيح بأن هناك حريقًا، سينتبه عدد من الناس. بعد ذلك ستذهب إلى نهاية الشارع، وسأَلحق بك في غضون عشر دقائق. أتمنى أن أكون قد أوضحت كل شيء.»

«لن أتدخل. سأقترب من النافذة لأشاهدك. وعند إشارتك سأرمي هذا الشيء داخل الغرفة، ثُم أصيح بأن هناك حريقًا وأذهب لانتظارك عند ناصية الشارع.»

«بالضبط.»

«يمكنك الاعتماد عليَّ إذن.»

«هذا ممتاز. أعتقد أنه ربما حان الوقت لأن أستعدَّ للدور الجديد الذي سألعبه.»

اختفى هولمز داخل غرفة النوم وعاد في غضون دقائق في هيئة قس بروتستانتي بسيط وودود. كان مظهره الذي يتكون من قبعة سوداء عريضة وسراويل ذات جيوب ورابطة عنق بيضاء وابتسامة متعاطفة، والمظهر العام الذي يُوحي بتحديق وفضول بريء لا يُضاهيه إلا السيد جون هير. لم يُغيِّر هولمز ملابسه فحسب، بل تعبيره وتصرفاته، وحتى روحه بدت كما لو كانت تتبدَّل مع كل دور جديد يقوم به. لقد خسر المسرح ممثلًا بارعًا، وخسر العلم مفكرًا فَطِنًا، عندما تخصص هولمز في حل الجرائم.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما تركنا شارع بيكر، وعندما وصلنا إلى جادة سيربنتاين كان لا يزال هناك عشر دقائق مُتبقية على تمام الساعة. كان المساء قد حلَّ بالفعل، وكانت المصابيح قد أنيرت للتوِّ، بينما كنتُ أتمشى ذهابًا وإيابًا أمام نُزُل بريوني في انتظار قدوم ساكنته. كان المنزل كما تخيَّلته بالضبط بسبب وصف شيرلوك الدقيق، لكن المكان كان أقل خصوصية مما ظنَنت. بل على النقيض؛ فقد كان شارعًا مليئًا بالحركة إلى حدٍّ كبير بالنسبة إلى ضيقه ووقوعه في حي هادئ. كانت هناك مجموعة من الرجال ذوي الملابس الرثَّة يقفون في إحدى زوايا الشارع يُدخِّنون ويَضحَكُون، ورجل يشحذ المقصات والسكاكين، وحارسان يُغازلان ممرِّضة، وبضعة شباب أنيقو الملبس يتسكَّعون ذهابًا وإيابًا ويُدخِّنون السيجار.

قال هولمز بينما كنا نتمشَّى أمام المنزل ذهابًا وعودة: «كما ترى فإن هذا الزواج يُسهِّل الأمور إلى حدٍّ ما. لقد أصبحت الصورة سلاحًا ذا حدَّين الآن. من المحتمَل أنها لا تريد أن يراها السيد جودفري نورتون مثلما لا يُريد عميلنا أن تراها أميرته. السؤال الآن هو: أين نجد تلك الصورة؟»

«بالفعل، أين؟»

«من المستبعَد أنها تَحملها معها؛ فمقاسها يناسب الخزانات ولا يمكن إخفاؤها بسهولة داخل فستان لكبر حجمها. هي تعلم أن الملك قادر على اختطافها وتفتيشها. لقد قام بمحاولتَين بالفعل. نستنتج إذًا أنها لا تحملها معها.»

«أين هي إذًا؟»

«إما في حوزة مصرفيها أو محاميها. احتمال مزدوج. لكني أميل إلى الظن بأنها لم تتركها مع أيٍّ منهما؛ فالنساء كَتومات بالفطرة، ويُحبِبن أن يخفين أشياءهن بأنفسهن. لماذا تتركها لغيرها؟ يُمكنها الوثوق في قدرتها على حماية مُقتنياتها، لكنها لا تستطيع إدراك النفوذ غير المباشر أو السياسي الذي يُمكن أن يُمارَس عليها. هذا إلى جانب أنه عليك أن تتذكَّر أنها عازمة على استخدامها خلال بضعة أيام. يجب أن تكون في متناول يدَيها. لا بد أن الصورة في منزلها.»

«لكن المنزل سُرِق مرتَين.»

«لم يَبحثوا بالطريقة المناسبة.»

«كيف ستبحث إذًا؟»

«لن أبحث.»

«ماذا إذًا؟»

«ستُريني إياها.»

«لكنها سترفض.»

«لن تَقدِر على الرفض. أسمع قعقعة إطارات. لا بدَّ أن عربتها وصلت. الآن نفِّذ ما أمرتك به حرفيًّا.»

وبينما كان يتحدث، لمعت النوافذ الجانبية للمركبة عند مُنعطَف الشارع. كانت عربة فاخرة صغيرة ذات أربع عجلات أخذت ترتجُّ حتى وصلت إلى باب النُّزُل. وبينما كانت المركبة تتوقف، اندفع أحد الرجال المتسكِّعين عند الناصية ليفتح الباب على أمل الحصول على بنس في المقابل، لكن مُتسكِّعًا آخر دفعه بعيدًا بمرفقه واندفع ناحية العربة ينوي القيام بالشيء نفسه. اندلع شجار حادٌّ وزاد من حدَّته تدخل الحارسين اللذَين انحازا لأحد الرجلين، بينما انحاز صاحب دولاب شحذ المقصات للآخر بالحمية نفسها. تطايَرت القبضات ووجدت المرأة التي كانت قد نزلت للتو من المركبة نفسها وسط مجموعة من الرجال المتصارعين الذين أخذوا يتبادلون الضرب بوحشية باستخدام الأيدي والعِصي. اندفع هولمز داخل المجموعة ليحميَها، لكنه بمجرد أن وصل إليها صرخ وسقط أرضًا بينما

تدفَّق الدم من وجهه بغزارة. عندما سقط هولمز أسرع الحارسان في اتجاهه، وبينما فر المتسكعون في الاتجاه المقابل، هُرِع عدد من الشباب الأنيق، الذين كانوا يُشاهِدون العراك بدون التدخل، لمساعَدة المرأة والرجل المصاب. كانت أيرين أدلر، كما سأظلُّ أدعوها، قد هُرعت لتصعد درجات سلم المنزل لكنها توقفَت أعلاه وقد رسم الضوء المنبعث من الردهة الحدود الخارجية لجسدها الفاتن وهي تلتفتُ نحو الشارع.

سألت قائلة: «هل تأذَّى السيد المسكين كثيرًا؟»

صاحت أصوات عدة: «لقد مات.»

صرخ آخر: «لا بل ما زال حيًّا، لكنه سيموت إذا لم تصحبيه إلى المستشفى.»

قالت امرأة: «إنه رجل شجاع. لقد كانوا سيَسرقون حقيبة السيدة وساعتَها لولا تدخله. إنهم أفراد عصابة خطرة. آه، إنه يتنفَّس الآن!»

«لا يمكنه البقاء ممددًا في الشارع. هل يُمكننا إدخاله إلى المنزل يا سيدتي؟»

«بالطبع. أدخلوه غرفة الجلوس. هناك أريكة مريحة. من هنا إذا سمحتم!»

حُمِل هولمز بروية وحذر إلى داخل نُزُل بريوني ومُدِّدَ في الغرفة الرئيسية بينما ظللتُ أتابع ما يحدث من مكاني من النافذة. أضيئت المصابيح لكن الستائر لم تُفتَح حتى أرى هولمز وهو مُستلقٍ على الأريكة. لا أعرف إنْ كان سيطر عليه وخز الضمير حينذاك بسبب ما يقوم به، لكني لم أشعر بمثل هذا الخزي من قبل في حياتي عندما رأيت المرأة الجميلة التي كنا نتآمر ضدها، أو العطف والرعاية اللذَين تعهَّدت بهما هولمز. في الوقت نفسه سيكون الانسحاب الآن من تنفيذ الدور الذي عهدَ لي به أقسى خيانة يمكن توجيهها إلى هولمز. تشجعتُ وأخرجت صاروخ الدخان من معطفي الطويل. وفي النهاية فكرتُ أننا لا نؤذيها بل نمنعها من إيذاء آخرين.

اعتدل هولمز جالسًا على الأريكة ورأيته يحرِّك يدَيه كمن يختنق وفي حاجة للهواء. هُرِعت خادمة لتفتَح نوافذ الغرفة. في اللحظة نفسها رأيته يرفع يده وفور إشارته رميتُ الصاروخ داخل الغرفة وصحتُ: «حريق!» لم أكد أنتهي من الصراخ إلا وصاح المُجتمِعون بالكامل سواء بملابس رثَّة أو أنيقة — سادة وسائسو خيول وخادمات — في صرخة جماعية «حريق!» انبعثت سحبٌ سميكة من الدخان في سماء الغرفة ثم خرجت من النافذة المفتوحة. لمحتُ ظلالًا مندفعة ثم سمعت صوت هولمز بعد لحظات من الداخل يُطمئنهم بأنه إنذار كاذب. انسللت من بين المحتشدين متجهًا نحو منعطف الشارع وفي خلال عشر دقائق سررتُ عندما رأيت يد صديقي تمسك بيدي لنبتعدَ عن الصخب والجلبة. سار

بسرعة في صمت لبضع دقائق قبل أن نَنحرف إلى أحد الشوارع الهادئة المؤدية إلى طريق إيدجوير.

قال هولمز: «لقد قمتَ بدورك على أفضل وجه ممكن يا دكتور. لا يُمكن أن يتم بأفضل من هذا. كل شيء على ما يرام.»

«هل الصورة بحوزتك؟»

«أعلم أين هي.»

«وكيف عرفت؟»

«هي مَن أرتني مكانها كما قلتُ لك.»

«ما زلت لا أفهم.»

قال ضاحكًا: «لا أريد أن أكون غامضًا. الأمر بسيط تمامًا. أنت خمنتَ بالتأكيد أن كل من في الشارع كانوا مشاركين في الأمر. لقد كانوا جميعًا متورطين طوال الأمسية.»

«خمنتُ هذا بشكل كبير.»

«عندما اندلع الشجار، كنت أمسك في راحة يدي قليلًا من الدهان الأحمر الرطب. اندفعت داخل العراك وسقطت ولطخت وجهي بيدي وأصبح منظري مثيرًا للشفقة. إنها خدعة قديمة.»

«يُمكنني استيعاب هذا أيضًا.»

«ثم حملوني داخل المنزل. كانت مضطرَّة لإدخالي — فما الذي يمكنها فعله خلاف هذا؟ — إلى غرفة الجلوس، وهي الغرفة نفسها التي شكَكتُ في وجود الصورة فيها. إما هذه وإما غرفة نومها. وكان عليَّ تحديد أيهما تحوي الصورة. أجلسوني على الأريكة وأشرت بأني أحتاج للهواء فاضطروا لفتح النافذة مما أتاح لك الفرصة.»

«وكيف ساعدك هذا؟»

«كان هذا أمرًا مهمًّا للغاية. عندما تظن امرأة أن منزلها يَحترق، فإنها تُهرع فورًا بشكل غريزي إلى حماية أهم شيء بالنسبة إليها. إنها غريزة لا يُمكن مقاومتها مطلقًا، وقد استغللتها من قبل؛ فقد أفادتني في فضيحة طفل دارلنجتون البديل وكذلك قضية قلعة أرنسوورث. تُهرع المتزوِّجة للإمساك بطفلها، بينما غير المتزوجة تسعى لإنقاذ صندوق مجوهراتها. الآن من الواضح لي أن سيدة اليوم لم يكن لديها ما هو أثمن مما نسعى وراءه، وأنها ستُهرَع لتُنقذَ الصورة. لقد نُفِّذَ إنذار الحريق ببراعة؛ فالصياح والدخان كانا كافيين لزعزعة أعصاب من الفولاذ. واستجابت هي بشكل رائع. كانت الصورة تقع في

تجويف وراء لوح متحرِّك فوق الحبل الأيمن للجرس. وصلت هناك في لحظة ولمحتُ جزءًا من الصورة وهي تخرجها. وعندما صرختُ قائلًا بأن الإنذار كاذب، أعادتها إلى مكانها ونظرت إلى الصاروخ ثم اندفعت خارجة من الغرفة ولم أرها منذ ذلك الحين. نهضتُ مُتصنِّعًا للأعذار ثم هربت من المنزل. ترددتُ بشأن ما إذا كان يجب أن أحاول الحصول على الصورة فورًا، لكن السائق كان قد دخل، وبينما كان يُراقبني عن كثب بدا من الأفضل الانتظار. ربما يُفسد المزيد من التعجل الأمر برمته.»

سألتُه: «والآن؟»

«لقد انتهَت مهمتنا عمليًّا. سأتصل بالملك غدًا وبك أيضًا إذا كنت مهتمًّا بالقدوم معنا. سنُدعَى للدخول إلى غرفة الجلوس لنَنتظرَ السيدة، لكن من المحتمل ألا تجدَنا أو تجدَ الصورة عندما تأتي للقائنا. ربما يكون من المُرضي لجلالته أن يستعيد الصورة بيديه.»

«ومتى ستتصل به؟»

«في الثامنة صباحًا. لن تكون مُستيقظة حينها، ولذا سيكون متاحًا أمامنا فرصة سانحة. هذا إلى جانب أن علينا أن نتصرَّف بسرعة؛ لأن هذا الزواج ربما يعني تغييرًا شاملًا في حياتها وعاداتها. يجب أن أرسل برقية للملك بدون تأخير.»

كنا قد وصلنا إلى شارع بيكر وتوقفنا عند الباب. كان هولمز يفتش في جيوبه بحثًا عن المفتاح عندما قال أحد المارة: «تُصبح على خير يا سيد شيرلوك هولمز.» كان هناك الكثير من الواقفين على الرصيف، لكن التحية كانت قادمة من شابٍّ نحيل يرتدي معطفًا طويلًا مرَّ مسرعًا.

ردَّ هولمز، وهو يُحدِّق النظر في الشارع المضاء بضوء خافت: «هذا الصوت مألوف لي. من يمكن أن يكون بحق الشيطان؟»

الفصل الثالث

بتُّ تلك الليلة في شارع بيكر، وفي الصباح كنا نتناول التوست والقهوة عندما اندفع ملك بوهيميا داخلًا الغرفة.

صرخ وهو يُمسك بأحد كتفَي هولمز: «الصورة معك؟»

«ليس بعد.»

«لكن لديك أمل؟»

«نعم.»

«هيا إذن. لا أستطيع الانتظار لأرحل من هنا.»

«يجب أن نستقلَّ عربة.»

«لا، عربتي تَنتظِر في الخارج.»

«هذا يسهل الأمور.»

نزلنا وذهبنا مرة أخرى إلى نُزُل بريوني.

علَّق هولمز: «لقد تزوجَت أيرين أدلر.»

«تزوجت؟ متى؟»

«يوم أمس.»

«من؟»

«محامٍ إنجليزي يُدعى نورتون.»

«لكنها لا يُمكن أن تكون قد أحبته.»

«أتمنى أن تُحبه.»

«لماذا؟»

«لأن هذا سيُريح جلالتك من أي مضايَقات مستقبلية. إذا كانت تحبُّ زوجها، فهي لا تحبك. وإذا كانت لا تحبك فلا يوجد سبب يدعوها لإفساد خططك.»

«هذا صحيح. ولكن ... حسنًا، أتمنى لو كانت من مكانتي الاجتماعية نفسها! كانت ستُصبِح ملكة لا مثيلَ لها.» ثم غرق في صمت كئيب حتى وصَلْنا جادة سيربنتاين.

كان باب النُّزُل مفتوحًا، وكانت هناك امرأة عجوز تقف على عتَبات سلَّم النُّزُل. نظرت لنا بعين ساخرة بينما كنا ننزل من المركبة.

قالت: «سيد شيرلوك هولمز كما أفترض؟»

أجاب رفيقي: «أنا السيد هولمز.» بينما كان يُحدِّق فيها بنظرة مُتسائلة وفزعة لحد ما.

«بالتأكيد! لقد أخبرتني سيدتي بأنه من المحتمَل أن تأتي. لقد رحلت هذا الصباح مع زوجها على متْن قطار الخامسة والربع من محطة تشارينج كروس متجهَين إلى القارة الأوروبية.»

رد هولمز وهو يَرتدُّ للوراء بينما شحب وجهه من المفاجأة والحسرة: «ماذا؟! هل تعنين أنها تركت إنجلترا؟»

«ولن تعود أبدًا.»

سأل الملك بصوت أجشَّ: «والأوراق؟ كل شيء ضاع.»

ردَّ هولمز: «سنرى.» ثم اندفع مُتجاوزًا الخادمة إلى غرفة المعيشة وتبعتُه أنا والملك. كان الأثاث مبعثرًا في كل مكان وكانت الأدراج مفتوحة والرفوف مفككة كما لو كانت قد أفرغتها بسرعة قبل رحيلها. هُرع هولمز إلى حبل الجرس وأزاح لوحًا مُتحرِّكًا صغيرًا ثم أدخل يده ليخرج صورةً وخطابًا. كانت الصورة لأيرين أدلر مرتدية فستان سهرة وكانت الرسالة مكتوب عليها: «حضرة السيد شيرلوك هولمز. تُحفَظ حتى يتسلَّمها شخصيًّا.» فتحها صديقي وقرأها ثلاثتنا معًا. كانت مؤقَّتة بمنتصَف ليلة أمس وكانت تقول ما يلي:

عزيزي السيد شيرلوك هولمز

لقد قمتَ بالأمر بشكل مُتقنٍ تمامًا. لقد خدعتني تمامًا. لم ينتبني أي شكٍّ بعد إنذار الحريق. لكن حينها، عندما اكتشفتُ كيف خُدِعت، بدأت في التفكير. لقد حُذِّرت منك منذ بضعة شهور. لقد حذروني أنه لو استأجر الملك محقِّقًا سريًّا فسيكون أنت بالتأكيد. كما حصلت على عنوانك. ورغم كل هذا، فقد جعلتَني أكشف ما تريد أنت معرفته. وحتى بعد ما انتابني الشك، كان من الصعب أن أظن سوءًا في قس عجوز لطيف وطيب المعشَر، لكنني كما تعلم تدربت على

التمثيل، والأزياء الذكورية ليست جديدة عليَّ، وغالبًا ما أستغلُّ الحرية التي تتيحها. لقد أرسلت جون، السائق، ليُراقبك وصعدت الدور العلوي وارتديت ملابس التمشية كما أسمِّيها ونزلت فور رحيلك.

تبعتكَ حتى بابك وتأكدت من أنني كنتُ شخصية مثيرة لاهتمام السيد شيرلوك هولمز الشهير. ثم، بكل طيش وحماقة، تمنَّيتُ لك ليلة سعيدة وذهبت إلى المعبد للقاء زوجي.

ظن كلانا أن أفضل ما يُمكن القيام به عندما نتعرض لمطاردة خصم قوي مثلك هو الهروب، لذا ستجد عش الزوجية الخاص بنا فارغًا عندما تصل غدًا. وبالنسبة إلى الصورة، يمكن لموكلك أن يَطمئن؛ فأنا أحب رجلًا أفضل منه، وهو يُبادلني الحب. يمكن للملك فعل ما يريده دون أن يعترض طريقه شخص آذاه هو بشدة. أنا أحتفظ بالصورة لأحمي نفسي فقط وكسلاح يؤمِّنني من أي خطوات ربما يقوم بها الملك مُستقبلًا. لقد تركت صورة ربما يحبُّ أن يمتلكها. وأظل ممتنة لك يا سيد شيرلوك هولمز.

مع خالص تحياتي.

أيرين نورتون (أدلر سابقًا)

بعد انتهاء ثلاثتنا من قراءة رسالة أيرين، صاح ملك بوهيميا: «يا لها من امرأة! آه! يا لها من امرأة! ألم أخبرك كم هي سريعة التصرُّف وحاسمة؟ ألم تكن لتُصبحَ ملكة جديرة بالإعجاب؟ أليس من المُحزِن أنها لم تكن من مكانتي الاجتماعية نفسها؟»

ردَّ هولمز: «مما رأيته من هذه السيدة حتى الآن يبدو بالفعل أنها من مكانة مُختلفة تمامًا عنك. أعتذر لأني لم أنهِ الأمر على نحو أكثر نجاحًا.»

صاح الملك: «على العكس يا سيدي الفاضل. لا يُمكن أن يكون أكثر نجاحًا من هذا. أنا أدرك أنها لن تَخرق وعدها. الصورة الآن بأمانٍ كما لو كانت قد احترقت.»

«سعيدٌ لسماع هذا.»

«أنا مدينٌ لك بشدة. أخبرني من فضلك كيف يُمكنني مكافأتك.» ثم خلع خاتمًا من الزمرد الأخضر على شكل ثُعبان وحمله في راحة يده.

لكن هولمز قال: «جلالتك تَمتلك شيئًا أعتبره أكثر قيمة.»

«سمِّ ما تريد.»

قضية هوية

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
صلاح عبد العزيز مفتاح

مراجعة
شيماء طه الريدي



قضية هوية

قال صديقي شيرلوك هولمز وقد انتحى كلٌّ منَّا جانبًا من جانبَيِ المِدفأة في منزله في شارع بيكر: «الحياةُ — يا صديقي العزيز — أغرب تمامًا من أي تصوُّرٍ يمكن لعقل المرء أن يَبتدِعه. ولو لم تكن الأشياء الشائعة موجودةً في حياتنا ما كُنَّا لنجرؤ على تخيُّلها. ولو استطعْنا التحليق من تلك النافذة معًا، وحُمْنا فوق هذه المدينة العظيمة، وأزلْنا الأسطح بلُطفٍ واختلسْنا النظر إلى ما يدور بداخلها من أحداثٍ غريبة، ومُصادفاتٍ عجيبة، ومُخطَّطات، ومقاصد مُتقاطعة، وسلاسل الأحداث الرائعة وهي تتصاعدُ عبر الأجيال لتؤدي في النهاية إلى النتائج الأشدِّ غرابة؛ لو حدث ذلك، لصارت كلُّ القصص الخيالية بتفاصيلها التقليدية وخواتيمها المُتوقَّعة، مُبتذلةً وتافهة.»

أجبتُه: «لكنني لستُ مقتنعًا بذلك؛ فالقضايا التي تُنشَر في الصُّحف هي — كقاعدةٍ عامة — خالية من التشويق ومُبتذَلة بما فيه الكفاية. كما أنَّ الواقعية تبلُغ أقصى مداها في تقارير الشرطة، ولكن يجِب الاعتراف أنها ليست آسِرةً ولا إبداعية.»

قال هولمز معلقًا: «لكي تُحدِثَ تأثيرًا واقعيًّا، يجب أن يكون لديك قدْر معين من حُسن الاختيار وحُسن التقدير، وهذا ما يعوز تقارير الشرطة؛ حيث يَنصبُّ التركيز على ملاحظات القضاة السطحية دون التفاصيل، التي تحوي جوهر الأمر كله. كن على يقينٍ أنه لا يُوجَد ما هو أشدُّ غرابةً من المألوف.»

ابتسمتُ وهززتُ رأسي قائلًا: «أستطيع أن أتفهَّمَ تفكيرك ذلك تمامًا؛ فكونك مُستشارًا غير رسمي ومساعدًا لكلِّ من تتملَّكه الحيرة المُطلَقة في ثلاث قارَّات، جعلك تتعرَّض لكلِّ ما هو غريب وعجيب. لكن انظُر هنا.» والتقطتُ جريدة الصباح من فوق الأرض وواصلتُ قائلًا: «لنختبرِ الأمر عمليًّا. إليك أول عنوان وقعتْ عليه عيناي: «قسوة زوجٍ على زوجته».

ثمَّة نصف عمود مكتوب تحت هذا الخبر، لكنني أعلم دون أن أقرأ أنَّ كلَّ ما به مألوفٌ بالنسبة إلي. هناك بالطبع المرأة الأخرى، والشراب، والدفع، والضرب، والكدمات، والأخت أو صاحبة العقار المُتعاطفة. لا يمكن حتى لأكثر الكُتَّاب سذاجةً أن يكتُبَ شيئًا ساذجًا أكثرَ من هذا.»

قال هولمز وهو يلتقط الجريدة ويقرؤها سريعًا: «في الواقع، مثالك غير ملائم لحُجَّتك؛ هذه قضية طلاق آل دونداس، وحدث أنني قد انخرطتُ في تحليل بعض النقاط الصغيرة المُتعلقة بتلك القضية. لم يكن الزوج يشرب الكحول على الإطلاق، ولم يكن ثمَّةَ أي امرأة أخرى، والسلوك موضع الشكوى أنه اعتاد بعدَ كلِّ وجبةٍ أن يخلع طقم أسنانه الاصطناعية ويقذِف به زوجته. واسمح لي، ليس هذا مما قد يخطُر بخيال روائيٍّ عادي أو قاصٍّ. هاك بعض السَّعُوط يا دكتور، ولتعترف أنني غلبتُك في مثالك.»

أخرج هولمز علبة السَّعُوط خاصَّته المصنوعة من الذهب العتيق، والتي زُيِّنَ غطاؤها بحجَرٍ كريم كبير في منتصفه. كانت في روعتها تُخالف ما كان عليه من أسلوب حياةٍ بسيط لا تَكلُّف فيه، حتى إنني لم أستطع مقاومة التعليق عليها.

قال هولمز: «آه، نسيت أنني لم أرك منذ بضعة أسابيع. إنها تَذْكار بسيط من ملك بوهيميا؛ تقديرًا لمساعدتي إياه في قضية أوراق أيرين أدلر.»

سألته، وقد لمحتُ شيئًا لامعًا في أصبعه: «والخاتم؟»

«لقد كان هديةً من العائلة المالكة في هولندا، وإن كان لا يُمكنني الإفصاحُ عن الأمر الذي كنتُ أُحقِّق لهم فيه حتى لك، رغم تكرُّمك بتدوين واحدةٍ أو اثنتين من قضاياي الصغيرة؛ نظرًا لكونه على درجةٍ عالية من الحساسية.»

سألته في اهتمام: «وهل تعمل على أيٍّ منها حاليًّا؟»

«أجل، ثمَّة حوالي عشر أو اثنتي عشرة قضية، ولكن ليس بها ما يدعوني للاهتمام. إنها مهمة، كما تعلم، ولكنها لم تُثِر اهتمامي. في الواقع، لقد وجدتُ أن الأمور غير المُهمة عادةً ما يكون بها مجال للملاحظة. والتحليل السريع للسبب والنتيجة هو ما يُعطي للتحقيق سحرًا خاصًّا. إن الجرائم الكبرى عُرضة لأن تكون أبسط. وكقاعدة عامة: كلما كانت الجريمة أكبر، كان الدافع وراءها أكثر وضوحًا. كل تلك القضايا ليس بها ما يُميِّزها، باستثناء قضيةٍ واحدةٍ معقَّدةٍ إلى حدٍّ ما أُحيلَتْ إليَّ من مرسيليا. ومع ذلك، من الممكن أن يكون لديَّ شيءٌ أفضل في غضون دقائق قليلة؛ لأن هذا الرجل أحدُ عملائي، إن لم أكن مخطئًا.»

قام من مقعده ووقف بين الستائر المفتوحة ينظر إلى شارع لندن الغائم الباهت اللون. وعندما نظرتُ فوق كتِفه، رأيتُ امرأةً طويلة ترتدي شالًا ثقيلًا من الفرو حول رقبتها، وتضع ريشةً حمراء مجعَّدة على قُبَّعة عريضة الحواف تنثني على أُذنَيها كأنها دوقة لعوبٌ من دوقات ديفونشاير. كانت تختلس النظر من تحت هذه القبعة الكبيرة إلى نافذتنا بعصبية وتردُّد، بينما تُقدِّم ساقًا وتؤخِّر الأخرى، وتعبَثُ بأصابعها في أزرار القُفَّاز. وفجأة، وفي حركة اندفاعٍ مُتهوِّرة، قطعت الطريق بسرعةٍ كسبَّاح يقفز في البحر، ثم سمِعْنا رنين الجرس الحاد.

قال هولمز وهو يلقي بسيجارته في نار المدفأة: «لقد رأيتُ تلك الأعراض من قبل. التردُّد على الرصيف يعني دائمًا علاقة غرامية. إنها ترغب في الحصول على مشورة، لكنها لا تعرِف إن كان من الجائز مناقشة أمر بهذه الحساسية مع آخرين. ولكن حتى هنا قد يمكننا أن نُميِّز بعض الأمور. عندما تتعرَّض امرأة لإساءة جسيمة من قِبَل رجل، تكفُّ عن التردُّد، وعادةً ما تتمثَّل الأعراض في رنينٍ مُتواصلٍ لجرس الباب يُنهِكُ أسلاكه. وهكذا هنا قد نَعدُّها قضية حب، لكن الآنسة ليست غاضبةً بقدْر ما هي حائرة أو حزينة، وها هي قد أتَتْ شخصيًّا لتحسم شكوكنا.»

وبينما كان يتحدَّث، جاءه صوت نقْرٍ على الباب، ودخل الخادم ببزَّته المُميَّزة ليعلن عن قدوم الآنسة ماري سازرلاند، بينما كانت السيدة نفسها تقِف خلف قامَتِه السوداء الصغيرة كسفينةٍ تجارية ضخمة تُبحِر خلف زورق إرشادي صغير. رحَّب بها شيرلوك هولمز بكياسته المعهودة، وبعد أن أغلق الباب انحنى لها داعيًا إيَّاها للتفضُّل بالجلوس، وأخذ يتفحَّصها بأسلوبه الدقيق والمُجرَّد في الوقت ذاته، وهو الأسلوب الذي كان مميِّزًا له.

سألها: «أَلَا تجدين أنَّ كثرة الكتابة على الآلة الكاتبة رغم قِصَر نظركِ مُرهقةٌ بعض الشيء؟»

أجابتْه: «كنت أجده كذلك في البداية، لكنني الآن أعرف مكان الحروف بدون النظر ...» ثم أدركتْ ما قاله فأجفلتْ بشدَّة ونظرتْ إليه، وقد ارتسمَتْ على وجهها العريض ذي الملامح الرقيقة علامات الدهشة والخوف وصاحت: «حتمًا سمعتَ عنِّي يا سيد هولمز، وإلَّا فكيف لك أن تعلم كلَّ هذا؟»

قال هولمز ضاحكًا: «هَوِّني عليكِ، فمعرفة الأشياء من صميم عملي. ربما أكون قد درَّبتُ نفسي على رؤية ما يُغفِله الآخرون. لو لم أكن كذلك، فما الذي سيدفعُكِ إلى المجيء إليَّ لاستشارتي؟»

«أتيت إليك يا سيدي لِما سمعتُه عنك من السيدة إيثريدج، التي عثرتَ على زوجها بسهولة بعد أن عجزتِ الشرطة والجميع عن إيجاده، وسلَّموا بموته. آه يا سيد هولمز، أتمنَّى أن تقوم بالشيء نفسه معي. أنا لست ثرية، لكنَّ دخلي السنوي يبلُغ مائة جنيه إسترليني تحت تصرُّفي، بالإضافة لبعض المال الذي أجنيه من الكتابة على الآلة الكاتبة، وأنا على استعدادٍ لإعطائك كلَّ ذلك لأعرفَ ماذا حلَّ بالسيد هوزمر أنجيل.»

سألها شيرلوك هولمز وقد ضمَّ أطراف أصابعه معًا وصوَّب بصرَه تجاه السقف: «وما سبب استعجالكِ في القدوم لاستشارتي؟»

أجابت الآنسة ماري ساذرلاند وقد بدت أمارات الاندهاش مرة أخرى على وجهها الخالي من أي تعبير: «لقد خرجتُ مُسرعةً من المنزل، بعدما أغضبني ما رأيتُه من السيد ويندیبانك — والدي — من استهتار في التعامُل مع الأمر كله. فهو لم يذهب إلى الشرطة، ولم يأتِ إليك، وفي النهاية، وبما أنه لن يفعل شيئًا وظلَّ يُردِّد أنه لا يُوجَد أيُّ ضررٍ وقَع، ممَّا كاد يدفعني إلى الجنون، حسمتُ أمري وها قد جئتُ إليك على الفور.»

قال هولمز: «والدكِ؟ تقصدين زوج والدتكِ بالتأكيد؛ نظرًا إلى اختلاف الأسماء.»

«نعم، إنه زوج أمي؛ ولذا أدعوه والدي، ما يجعل الأمر يبدو غريبًا أيضًا؛ فهو يكبُرني بخمسة أعوام وشهرين فقط.»

«وهل والدتُك على قيد الحياة؟»

«نعم، وبصحَّة جيدة، ولم أكن مسرورةً بزواجها ثانيةً بتلك السرعة يا سيد هولمز بعد وفاة والدي، ومن رجلٍ يصغُرها بخمسة عشر عامًا. كان والدي يعمل في مجال السباكة وكان مقرُّ عمله في طريق توتنهام كورت، وقد ترك عملًا ضخمًا قامَتْ أمي بإدارته بمساعدة السيد هاردي، رئيس العمال، ولكن عندما أتى السيد ويندیبانك جعلها تبيع الشركة؛ لكونها لا تَليق به؛ نظرًا لعمله مندوبًا مُتجوِّلًا لتسويق الخمور. وقد حصلا على مبلغٍ قدره ٤٧٠٠ جنيه إسترليني مُقابل الشركة وسُمعتها الحَسَنة، وهو مبلغ لا يقترب بأي حال مما كان والدي سيحصل عليه لو كان حيًّا.»

توقعتُ أن ينفدَ صبر شيرلوك هولمز من حديثها المُسترسِل والذي لا يمتُّ للموضوع بصِلة، لكن على العكس من ذلك، فقد كان يُنصِتُ إليها بتركيزٍ واهتمام شديدَين.

سألها قائلًا: «وهل دخلكِ البسيط مصدره تلك الشركة؟»

«أوه، لا يا سيدي، إنه أمرٌ مُنفصلٌ تمامًا، فقد ترك لي عمي نيد في أوكلاند أسهمًا في بورصة نيوزيلندا بعائد يبلُغ أربعةً ونصفًا في المائة، أما المبلغ فكان ألفَين وخمسمائة جنيه إسترليني، لكن لا يمكنني التصرُّف إلا في العوائد فقط.»

قال هولمز: «أنت تُثيرين اهتمامي للغاية، وبما أنكِ تحصلين على مائة جنيه إسترليني في العام وهو مبلغٌ كبير، بالإضافة إلى حِصتكِ في الصفقة، فلا شكَّ أنكِ تسافرين قليلًا وتتنعَّمين بكلِّ السُّبل. وأعتقد أن سيدة بمُفردها يمكنها أن تعيش حياةً جيدة جدًّا بدخل يبلغ حوالي ٦٠ جنيهًا إسترلينيًّا.»

«بل أستطيع أن أعيش بأقلَّ من ذلك بكثيرٍ يا سيد هولمز، لكنك تفهم أني ما دمتُ أعيش في المنزل، فأنا لا أرغَب أن أكون عبئًا عليهما؛ ومن ثَمَّ فهما يتحصَّلان على المبلغ خلال فترة بقائي معهما، وهذا وضعٌ مؤقَّت بالطبع. فيقوم السيد وينديبانك بتحصيل عوائدي كلَّ ثلاثة أشهر ويدفعها إلى أمي، وأرى أنني يمكنني العَيش على نحوٍ جيد بما أتكسَّبه من الكتابة على الآلة الكاتبة. فهي تدرُّ عليَّ بنسين على كلِّ صفحة أكتُبها، وأستطيع في الغالِب كتابة ما بين خمس عشرة إلى عشرين صفحةً في اليوم.»

قال هولمز: «لقد أوضحتِ لي موقفكِ بجلاء. هذا هو صديقي، الدكتور واطسون، والذي يمكنكِ التحدُّثُ أمامه بحُريَّة كما تتحدَّثين إليَّ. نرجو منكِ إخبارنا الآن عن صلتكِ بالسيد هوزمر أنجيل.»

تسلَّلتْ حُمرة خجلٍ إلى وجه الآنسة سازرلاند، وأخذت تعبَثُ بتوتُّرٍ بطرف سترتها، وقالت: «أول مرةٍ التقَيتُه كانت في حفل عمال توصيل الغاز. لقد اعتادوا إرسال دعوات لأبي عندما كان على قيد الحياة، وبعد وفاته بمُدةٍ تذكَّرونا، وأرسلوا الدعوات إلى أمي. لم يكن السيد ويندیبانك يرغب في أن نذهب إلى الحفل، بل كان يرفُض دائمًا أن نذهب إلى أي مكان. وكان ينتابُه غضب شديد إذا رغبتُ في الانضمام إلى مأدُبةٍ من مآدب مدرسة الأحد. لكن هذه المرة كنتُ عازمةً على الذهاب؛ فبأيِّ حقٍّ يمنعني؟ قال: إن القوم ليسوا بالمستوى اللائق لنتعرَّف عليهم. بينما كان مُزمَعًا أن يكون أصدقاء أبي جميعًا هناك. وقال إنه ليس لديَّ ما أرتديه، بينما كان لديَّ ثوب أرجواني مخملي لم أكن قد ارتديتُه من قبل إلَّا قليلًا. وأخيرًا، عندما لم يجد بدًّا، ذهب إلى فرنسا بِعِلَّة تسيير أعمال الشركة، لكننا ذهبنا، أنا وأمي، مع رئيس العمال السيد هاردي، وهناك التقيتُ بالسيد هوزمر أنجيل.»

قال هولمز: «أفترِضُ أنه عندما عاد السيد ويندیبانك من فرنسا، كان مُنزعجًا للغاية من ذَهابكما إلى الحفل.»

«أوه، حسنًا، لقد كان ردُّ فِعله على الأمر جيدًا جدًّا. أتذكر أنه ضحك، وهزَّ كتفَيه، وقال إنه لا فائدة من منْع المرأة من أيِّ شيءٍ تريده؛ لأنها ستجد وسيلةً للوصول إليه.»

«فهمت، وفي حفل عمَّال توصيل الغاز، قابلتِ سيِّدًا نبيلًا يُدعى السيد هوزمر أنجيل.»

«نعم سيدي. قابلتُه في تلك الليلة، واتَّصل في اليوم التالي للسؤال عمَّا إذا كنَّا قد وصلْنا إلى المنزل بأمان، وبعد ذلك قابلناه، أو بالأحرى يا سيد هولمز التقيتُ به مرَّتَيْنِ للتنزُّه، ولكن بعد أن عاد أبي للمنزل، لم يعُدِ السيد هوزمر يستطيع القدوم إلى المنزل.»

«حقًّا؟»

«حسنًا، أنت تعرف أن أبي لا يُحِبُّ أيَّ شيء من هذا القبيل. لو كان باستطاعته لما زارَنا أحد. وكان يقول دائمًا: إن المرأة يجِب أن تكون سعيدةً في مُحيط أسرتها فقط. ولكن بعد ذلك، كما اعتدتُ أن أقول لأمي، كل امرأة تريد أن تحظى بدائرتها الخاصَّة، وأنا لم أكن قد حظيتُ بها بعد.»

«لكن ماذا عن السيد هوزمر أنجيل؟ ألم يبذُل أيَّ محاولة لرؤيتكِ؟»

«حسنًا، كان أبي سيتوجَّه إلى فرنسا مرةً أخرى في غضون أسبوع، وكتب لي هوزمر يقول إنه سيكون من الأفضل والأسلم ألَّا يرى أحدُنا الآخر حتى يرحل. كان بإمكاننا التراسُلُ في هذه الأثناء، وكان يكتُب لي كلَّ يوم. كنتُ آخُذ الرسائل في الصباح؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو لأن يعرف أبي بأمرها.»

«هل خُطبتِ للسيد هوزمر أنجيل في ذلك الوقت؟»

«أوه، نعم، سيد هولمز. لقد خطبَني بعد أوَّل نُزهةٍ لنا معًا. كان هوزمر — أقصد السيد أنجيل — يعمل صرَّافًا في مكتبٍ في شارع ليدنهول و…»

«أي مكتب؟»

«هذا أسوأ ما في الأمر يا سيد هولمز؛ فأنا لا أعرف.»

«أين كان يعيش إذن؟»

«كان يُقيم في مبنى يتبَع مقرَّ عمله.»

«ولا تعرفين عنوانه؟»

«لا، لا أعرف سوى أنه في شارع ليدنهول.»

«إلى أين كنتِ تُرسِلين الرسائل إذن؟»

«إلى مكتب بريد شارع ليدنهول، وتظلُّ هناك حتى يطلُبها المُرسَل إليه. فقد قال إنني إذا أرسلتُ إلى المكتب، فسوف يسخر منه زملاؤه لتلقِّيه رسائل من امرأة؛ لذلك عرضتُ عليه أن أكتُبها على الآلة الكاتبة، كما يفعل هو مع رسائله، لكنه لم يكن يرغَب في ذلك؛ لأنه قال إنني عندما أكتُبها بخطِّ يدي يبدو عليها أنها جاءت منِّي مباشرة، لكن عندما أكتُبها

على الآلة، يُراوِده دائمًا شعور بأنَّ الآلة تحُول بيننا. إن ذلك يُظهِر لكَ كم كان مُولعًا بي يا سيد هولمز، بجانب الأشياء الصغيرة التي كان يفكر فيها.»

قال هولمز: «لقد كان ذلك مُثيرًا للعاطفة إلى أبعد الحدود. من بديهيَّاتي منذ فترةٍ طويلة أنَّ الأشياء الصغيرة هي الأهمُّ على الإطلاق، فهل يمكنكِ أن تتذكَّري أيَّ أشياء صغيرة أخرى عن السيد هوزمر أنجيل؟»

«لقد كان رجلًا خجولًا للغاية يا سيد هولمز؛ فكان يُفضِّل التنزُّه معي في المساء عن وضَح النهار؛ لأنه قال إنه يكرَه الظهور ولفتَ الأنظار. وكان مُنكفئًا على نفسه ورقيقًا جدًّا. حتى صوته كان رقيقًا. أخبَرَني أنه كان قد أُصيب بالتِهابٍ في اللوزتَين وتوَرُّمٍ في الغُدَد الليمفاوية عندما كان صغيرًا، وقد خلَّفَ لديه ذلك ضعفًا في الحلْق، وجعل أسلوب حديثه مُتردِّدًا وهامسًا. كان دائمًا حسَنَ المظهر، وفي غاية البساطة والأناقة، لكن عينيه كانتا ضعيفتَين كعينيَّ، وكان يرتدي نظارةً ذات عدسات مُعتِمة لتحميَه من الأضواء المُتوهِّجة.»

«حسنًا، وماذا حدث بعد عودة السيد وينديبانك — زوج والدتك — إلى فرنسا؟»

«جاء السيد هوزمر أنجيل إلى المنزل مرةً أخرى، واقترح أن نتزوَّج قبل أن يعود أبي. لقد كان في غاية الجدِّية وجعلني أُقسِم على الكتاب المُقدَّس، إنَّني سأكون دومًا مُخلصةً له مهما حدث. قالت أمي إنَّ من حقِّه أن يجعلني أُقسِم، وإنَّ ذلك كان علامةً على قوة حُبِّه؛ فقد كانت أمي في جانبه منذ البداية وكانت مَفتونةً به أكثر منِّي. ثُمَّ عندما تطرَّقا إلى الحديث عن إتمام الزواج في غضون أسبوع، شرعتُ أتساءل عن أبي، فأخبَرَني كلاهما بألَّا أشغلَ بالي به أبدًا، وأنه سيَعلَم بعد إتمام الزواج، وقالت أمي إنها ستُسوي الأمرَ معه وتُقنعه. لكنَّ ذلك لم يُعجبني يا سيد هولمز. ومع أنه بدا غريبًا أن أطلُب مُوافقتَه؛ لأنه كان يكبُرني بسنواتٍ قليلة؛ فإنني لم أشأ أن أفعل شيئًا خِلسة، فكتبتُ إلى أبي في بوردو؛ حيث فرع الشركة في فرنسا، لكن الرسالة عادت لي في صباح يوم الزفاف.»

«لَمْ يتسلَّم الرسالة إذن؟»

«نعم يا سيدي، فقد غادر إلى إنجلترا قُبَيْل وصولها إليه.»

«ها، يا لَسوء الحظ! وكان مُقررًا لزفافكِ إذن أن يكون يوم الجمعة. هل كان مُخططًا له أن يكون في الكنيسة؟»

«نعم يا سيدي، ولكن وسط تكتُّمٍ شديد. كان من المُقرَّر أن يكون في كنيسة سانت سافيور، بالقُرب من كينجز كروس، وكان المُقرَّر أن نتناول وجبة الإفطار بعد ذلك في فندق سانت بانكراس. قدِمَ إلينا هوزمر في عربة تجرُّها الخيول تتَّسِع لشخصين، ولأنَّنا

كنا اثنتَين، فقد تركها لنا وركب هو عربةً أخرى، تصادَف أنه لم يكن هناك عربة سواها في الشارع. وصلتْ عربتُنا إلى الكنيسة أولًا، وعندما وصلتْ عربة هوزمر، انتظرْنا أن يخرج منها، لكنه لم يفعل. وعندما ترجَّل سائق عربة الأجرة من فوق مقعده ونظر في العربة لم يجِد أحدًا هناك! قال السائق إنه لا يُمكنه تصوُّر ما حدَث له؛ لأنه رآه يدخل العربة بأمِّ عينَيه. كان ذلك يوم الجمعة الماضية، يا سيد هولمز، ولم أرَ أو أسمعْ أيَّ شيء منذ ذلك الحين يساعد في تفسير ما حدَث له.»

قال هولمز: «يبدو لي أنكِ عُوملتِ بطريقةٍ مُشينة.»

«أوه، لا يا سيدي، لقد كان أفضل وأكرم من أن يترُكني بهذه الطريقة؛ فقد ظلَّ طوال الصباح يقول لي إنني يجِبُ أن أكون مُخلصةً له مهما حدَث، وإنه لو حدَث أيُّ شيء غير مُتوقَّع وفرَّق بيننا، فعليَّ أن أتذكَّر دائمًا أن ثمَّةَ عهدًا بيننا بأنني سأكون له، وأنه سيأتي آجلًا أو عاجلًا؛ ليُطالبني بالوفاء بالعهد الذي بيننا. بدا ذلك حديثًا غريبًا ليُقال في صباح يوم زفاف، لكن ما حدَث بعد ذلك يجعله ذا مَغزى.»

«لقد كان حديثًا غريبًا بكلِّ تأكيد. في رأيكِ إذن أنَّ كارثةً ما غير مُتوقَّعة قد حلَّتْ به؟»

«نعم يا سيدي، أعتقد أنه تنبَّأ بوجود خطرٍ ما، وإلَّا فلِمَ قال ما قاله؟ لذا أظنُّ أنَّ ما توقَّعَه قد حدَث.»

«لكن أليس لدَيكِ أية فكرة عمَّا يمكن أن يكون قد حدَث؟»

«نعم، على الإطلاق.»

«لدي سؤال آخر، كيف تقبَّلَتْ أمكِ الأمر؟»

«لقد غضبتْ، وقالت إنني يجِب ألَّا أتحدَّث في هذا الشأن مرة أخرى.»

«وماذا عن أبيك؟ هل أخبرتِه؟»

«نعم فعلت، وبدا مُتَّفِقًا معي في الرأي أنه قد حدَث خطبٌ ما، وأن هوزمر سيتَّصِل بي ثانية. فكما قال: ما الفائدة العائدة على أي شخص من إحضاري إلى باب الكنيسة ثم التخلِّي عنِّي هكذا؟ لو كان قد اقترَض منِّي مالًا، أو كان حصل على مالي بعد الزواج، لصار هناك سبب، لكن هوزمر كان مُستقلًّا جدًّا فيما يخصُّ المال، ولم يكن لينظُر قطُّ إلى مالي. ولكن ما الذي يمكن أن يكون قد حدَث؟ ولمَ لا يُمكنه الكتابةُ إليَّ؟ يا إلهي! إنَّ التفكير في الأمر يدفعني للجنون، ولا يكاد يغمِض لي جفنٌ طوال الليل.» ثم أخرجتْ منديلًا صغيرًا من غِطاء من الفِراءِ كانت تُدفِّئ به يدَيها وظلَّتْ تَنتحِبُ فيه نحيبًا شديدًا.

قال هولمز وهو ينهض: «سأنظُر في القضية من أجلكِ، ولا يُساورني أدنى شكٍّ في أننا سنصِل إلى نتيجةٍ قاطعة. اترُكي الأمر لي الآن، ولا تُرهِقي نفسكِ بالتفكير فيه بعدَ الآن. وفوق كلِّ شيء، حاوِلي أن تَطوي صفحة السيد هوزمر من ذاكرتكِ، كما تلاشى من حياتك.»

«إذن هل تعتقد أنَّني لن أراه بعدَ اليوم؟»

«أخشى ذلك.»

«إذن ماذا حدَث له؟»

«ستترُكين هذا السؤال بين يديَّ. أودُّ الحصول على وصفٍ دقيق له وأي خطاباتٍ منه يمكنكِ توفيرها.»

«لقد نشرتُ إعلانًا عنه في عدد السبت الماضي من جريدة «كرونيكال»، وها هي أربع رسائل منه.»

«شكرًا لكِ. وما عنوانكِ؟»

«المنزل رقم ٣١ شارع ليون بليس، كامبرويل.»

«أفهم أنكِ لم تعرفي عنوان السيد أنجيل قط، فما عنوان عمل أبيكِ؟»

«إنه مندوب مبيعات لدى شركة ويستهاوس آند ماربانك أكبر مُستوردي النبيذ في شارع فينْتشيرش.»

«شكرًا لكِ. لقد أدليتِ بأقوالكِ بوضوحٍ شديد. اترُكي الأوراق هنا ولتتذكَّري النصيحة التي أسديتُها لكِ اليوم. اعتبِري الأمر كلَّهُ كأنْ لم يكُن، ولا تسمحي له بالتأثير على حياتكِ.»

«أنت لطيف للغاية يا سيد هولمز، لكنني لا أستطيع فعل ذلك. سأكون مُخلصةً لهوزمر. يجِب أن يجِدَني في انتظاره عندما يعود.»

على الرغم من القُبَّعة السخيفة والوجه الأبله، كان ثمَّةَ شيء نبيل في الإخلاص الساذج لزائرتنا فرَضَ علينا احترامَها. وَضَعَت مجموعةَ أوراقها الصغيرة على الطاولة ومضتْ في طريقها، مع وعدٍ بالمجيء مرةً أخرى متى دُعيَتْ للحضور.

جلس شيرلوك هولمز صامتًا لبضع دقائق وظلَّ ضامًّا أطرافَ أصابعه معًا، مُمدِّدًا ساقَيْهِ أمامه، مُصوِّبًا نظرَهُ للسقف، ثم أخذ من الرفِّ غليونَه الفخاري المُشحَّم العتيق — والذي كان بمثابة مُستشار له — وبعد أن أشعله، اضطجع في كرسيِّه، بينما تصاعدَتْ حوله على نحوٍ دائري سحبٌ كثيفةٌ من الدُّخان الأزرق، وبدَتْ على وجهه نظرةُ إرهاقٍ وضجَر لا نهائيَّيْن.

قال مُعلقًا: «هذه الآنسة موضوعٌ جديرٌ بالدراسة، وأجِدُها أكثر إثارةً للاهتمام من مُشكلتها البسيطة، والتي هي — بالمناسبة — مشكلة تافِهة. ستجِد قضايا مُشابهة لها،

لو راجعتَ دليل القضايا خاصَّتي، جرتْ أحداثها في أندوفر في عام ٧٧، وكان ثمَّة شيءٌ مشابهٌ أيضًا في لاهاي العام الماضي. ومع أنَّ الفكرة قديمة، فإن بعض التفاصيل كانت بها نقطةٌ أو اثنتان جديدتان بالنسبة لي. لكن الآنسة كانت مُفيدة لي للغاية.»

قلت: «يبدو أنك رأيتَ فيها ما خفي عليَّ منها.»

«لم يخفَ عليك يا واطسون، وإنما لم تُلاحظه؛ فأنت لم تدرِ أين يجِب أن تنظُر؛ لذا فاتك ما يُهم. لا يُمكنني أن أُنبِّهك إلى مدى أهمية الأكمام، وما يُوحي به ظُفر الإبهام، أو عِظَم دلالة ما يتدلَّى مع رباط الحذاء. والآن، ما الذي استخلصْتَهُ من مظهر هذه المرأة؟ صِفْه لي.»

«حسنًا، لقد كانت ترتدي قُبَّعة رمادية داكنة من القشِّ ذاتَ حافة عريضة، مع ريشة ذات لون أحمر طوبي. كانت سترتها سوداء، مُطرَّزة بحبَّات الخرَز السوداء، ومُزيَّنة الأطراف بالقليل من حبَّات الكهرمان الأسود. كان فستانها بُنيًّا أكثر دُكنة من لون القهوة، مُزينًا بخمائل أرجوانية صغيرة على الرقبة والأكمام. كانت قفازاتها ضاربة إلى الرمادي وكانت إصبع السبابة اليمنى منها بالية. أما حذاؤها فلمْ ألاحِظه. كانت ترتدي أقراطًا ذهبية صغيرة دائرية تتدلَّى من أذنيها، ما يعطي انطباعًا عامًّا بأنها مُوسِرة إلى حدٍّ ما وتعيش حياة رغيدة مُريحة.»

صفَّق هولمز بلُطف ضاحكًا وقال: «يا للعجب يا واطسون! إنك تتقدَّم على نحوٍ مُذهل. لقد قمتَ بعملٍ جيد جدًّا في الحقيقة. صحيح أنه فاتك كلُّ ما هو مُهم، لكنك اقتربتَ كثيرًا، كما أنَّ لديك عينًا سريعة الملاحظة فيما يخصُّ الألوان. لا تثِقْ في الانطباعات العامة يا صديقي، بل التفاصيل هي ما يجِب أن تُركِّز عليها. إن أول ما يقع عليه نظري في المرأة دائمًا هو أكمامُها، أما الرجل فالأفضل أن أبدأ بالنظر إلى رُكبتي بنطاله. وكما ترى، لقد كان على كُمَّيْ هذه الفتاة قماش مخملي، وهو أفضل الأقمشة في إظهار الأثر. فالخطُّ المزدوَج فوق المعصم بقليل، حيث يسند كاتب الآلة الكاتبة يدَيه على الطاولة، كان جليًّا. ماكينة الخياطة اليدوية أيضًا تترُك أثرًا مُشابهًا، لكن على الكمِّ الأيسر فقط، وعلى جانبِه الأبعَدِ من الإبهام، بدلًا من أن يكون عبر الجزء الأعرض، كما كان في حالتِنا هذه. بعد ذلك، نظرتُ إلى وجهها، ولاحظتُ تجويفًا على جانبي أنفها من أثر ارتداء نظارةٍ أنفية، فجازفتُ بإبداء الملاحظة الخاصة بالكتابة على الآلة الكاتبة وقصر النظر، والتي بدتْ مُفاجئةً لها.»

«لقد فاجأْتَني أنا أيضًا.»

«لكن، بكلِّ تأكيد، كان الأمر واضحًا. بعد ذلك فوجئتُ — وأُثِير فضولي كثيرًا عندما نظرتُ إلى قدَميها — أن فردَتَي حذائها الذي كانت ترتديه كانتا مُختلفتَين إحداهما عن الأخرى، لقد كانتا غريبتَين تمامًا؛ فقد كانت إحداهما ذات مُقدِّمة مُغطَّاة بقليلٍ من الزينة، والأخرى كانت عادية بلا أي زخارف. كانت إحداهما مغلقة عند اثنين فقط من الأزرار السُّفلية الخمسة، والأخرى كانت مُغلقة عند الزرِّ الأول والثالث والخامس. والآن، عندما ترى أن سيدة شابة، ترتدي ملابس أنيقة، قد خرجت من منزلها بحذاء غريب، أزرار نصف مغلقة، فليس من العظمة في شيء أن نستنتِج أنها كانت على عجلةٍ من أمرها.»

سألتُه باهتمامٍ شديد كعادتي عندما يبدأ صديقي باستنتاجه المنطقي للأمور: «وماذا أيضًا؟»

«لاحظتُ، عَرَضًا، أنها كَتَبَتْ رسالة قبل مُغادرتها للمنزل، ولكن بعد أن ارتدَتْ ملابسها بالكامل. فقد لاحظتَ أن قفَّازها الأيمن ممزَّق عند السبابة، لكنك لم ترَ على ما يبدو أن كلًّا من القفاز والإصبع مُلطَّخٌ بالحِبر البنفسجي؛ ذلك يعني أنها كتبتْ في عجلةٍ من أمرها فانزلَق قلمُها عميقًا في الحِبر. لا بُدَّ أن يكون هذا قد حدث صباح اليوم، وإلَّا لما بقِيَت العلامة واضحةً على الإصبع. كان هذا مُسلِّيًا، رغم أنه أساسي، لكن يجِب أن أستأنف العمل يا واطسون. هل تُمانع في أن تقرأ عليَّ وصف السيد هوزمر أنجيل كما جاء في الإعلان؟»

أمسكت بالقُصَاصة المطبوعة الصغيرة وسلَّطتُ عليها الضوء.

يقول الإعلان: «فُقد في صباح يوم الرابع عشر من الشهر الجاري، سيد يُدعى هوزمر أنجيل، يبلغ طوله حوالي خمسة أقدام وسبع بوصات، ذو بِنيَةٍ قوية، شاحِب البشرة، أسود الشعر، به بعض الصَّلع في منتصف الرأس، ذو شَعْرٍ كثيف وأسود عند السوالف والشارب، يرتدي نظَّارة مُعتمة، وفي صوته وهَن. آخِر مرة شُوهد فيها كان يرتدي معطفًا طويلًا أسود مُقدِّمته من الحرير، وصدرية سوداء، وسلسلة ساعة جيب ذهبية، وبنطالًا من الصُّوف رماديَّ اللون، وواقيَ ساقين بنيَّ اللون، فوق حذاءٍ مطاطيِّ الجانبين. كان يعمل في أحد مكاتب شارع ليدنهول. أي شخص يُدلي ...»

قال هولمز: «يكفي هذا.» ثم نظر إلى الخطابات وأردف قائلًا: «أما هذه فمجرد خطابات عادية للغاية، وليس فيها ما يدلُّ على شخصية السيد أنجيل على الإطلاق، عدا اقتباسه مرة واحدة كلمات لبلزاك. غير أن ثمَّةَ شيئًا واحدًا جديرًا بالملاحظة، ولا شكَّ أنه قد لفت نظرك.»

قلت: «إنها مكتوبة على الآلة الكاتبة.»

«ليس ذلك فحسب، ولكن التوقيع أيضًا مكتوب على الآلة الكاتبة. انظر إلى اسم «هوزمر أنجيل» الصغير الأنيق في الأسفل. هناك تاريخ كما ترى ولكن لا يُوجَد عنوان للرسالة باستثناء شارع ليدنهول، وهو غامض إلى حدٍّ ما. والنقطة التي تتبَع التوقيع لها دلالة كبيرة؛ بل يُمكننا أن نقول إنها حاسِمة.»

«وما وجه الدلالة والحسْم؟»

«صديقي العزيز، هل من المعقول ألَّا تكون قد رأيتَ مدى قوة تأثير ذلك على القضية؟»

«لا يُمكنني الادِّعاء أنني أرى ذلك، إلَّا إذا كان يرغب في أن يكون بمقدوره إنكار صحَّة التوقيع إن أُقيمت ضدَّه دعوى لنكثِ الوعد بالزَّواج.»

«لا، لم يكن هذا هو المقصود. ومع ذلك، سأكتُب رسالَتَين ستحسُمان الأمر، إحداهما لشركة في المدينة، والأخرى لزَوج والدة الفتاة الشابة، السيد وينديبانك، أسأله فيها عمَّا إذا كان بإمكانه مُقابلتنا هنا في الساعة السادسة من مساء غدٍ؛ فسيكون من الجيد كذلك أن نتعامل مع الأقارب الذكور. والآن يا دكتور، لا يُمكننا فعلُ أيِّ شيء حتى تأتي الردود على تلك الرسائل؛ لذلك فلنضعْ قضيتنا الصغيرة جانبًا لفترةٍ مؤقتة.»

كان لديَّ الكثير والكثير من الأسباب للإيمان بقُدرات صديقي الفائقة في الاستدلال وطاقته الاستثنائية العملية؛ لدرجة أنني شعرتُ أنه لا بدَّ أن يكون لديه بعض الأُسس القوية لأسلوبه الواثق والسهل في التعامُل مع اللُّغز الغريب الذي دُعِيَ إلى سبْرِ أغواره وحلِّه. لم أعلم أنه فشِل في ذلك من قبل إلَّا مرةً واحدة، في قضية ملك بوهيميا وصورة أيرين أدلر، ولكن عندما تذكرتُ غرابة قضية «علامة الأربعة»، والظروف الاستثنائية المُرتبطة بقضية «دراسة في اللون القرمزي»، شعرتُ أنه سيكون به عقدة غريبة بالفعل لن يستطيع حلَّها.

تركتُه عند ذاك وهو لا يزال يُدخِّن من غليونه الفخاري الأسود، وكُلِّي قناعةٌ أنني عند عودتي مجددًا في المساء التالي، سأجده قد توصَّل إلى كلِّ الأدلَّة التي من شأنها أن تؤدِّيَ إلى كشف هُوِيَّة عريس الآنسة ماري ساذرلاند المفقود.

كانت لديَّ حالة طبية شديدة الخطورة تشغل بالي في ذلك الوقت، وانشغلتُ في اليوم التالي بمُتابعة حالة المريض، ولم أفرغ من ذلك حتى الساعة السادسة تقريبًا، وتَمَكَّنْتُ من القفز في عربة أُجرة مُتوجِّهًا إلى شارع بيكر، مُتخوِّفًا بعض الشيء من أن يكون الأوان قد فات لتقديم يد المساعدة في حلِّ اللغز الصغير. ولكنني وجدتُ شيرلوك هولمز وحده يُغالب النُّعاس، بجسده الطويل النَّحيل مُكوَّرًا في كُرسيِّه. وعلمتُ من المجموعة الكبيرة من

الزجاجات وأنابيب الاختبار، ومن الرائحة النفَّاذة لحمض الهيدروكلوريك، أنه قضى يومه في التجارب الكيميائية التي كان مُغرمًا بها.

قلت: «حسنًا، هل تمكَّنتَ من حله؟»

«نعم بالفعل. كانت النتيجة ثانيَ كبريتات الباريوم.»

صِحْتُ: «لا، لا، أعني اللغز!»

«أوه، تقصد هذا! ظننتُكَ تعني الملح الذي كنتُ أعمل عليه. لم يكن بالأمر أيُّ غموض، وإن كانت بعض التفاصيل مُهمة كما قلتُ بالأمس. لكن أخشى أن العقَبة الوحيدة هي أنه ما من قانون يُمكنه أن يُحاكم الأوغاد.»

«من كان إذن؟ وما كان هدفه من هجْر الآنسة ساذرلاند؟»

لم يكَدْ يخرُج السؤال من شفتي وما لبِثَ هولمز يفتح شفتَيه للإجابة عنه، حتى سمِعْنا وقْعَ أقدامٍ ثقيلة في المَمرِّ ثم طرقًا على الباب.

قال هولمز: «لا بُدَّ أن هذا زَوج والدة الفتاة، السيد جيمس ويندِيبانك. لقد أرسل إليَّ ليُخبرني أنه سيكون هنا في تمام السادسة. تفضَّل يا سيد جيمس.»

دخل رجلٌ قويُّ البنية مُتوسط الحجم، يبلُغ من العمر حوالَي ثلاثين عامًا، حليق الذقن، شاحِب البشرة، رقيق الملامح، ذو عينَين رمادِيَّتَين ثاقِبتَين بهما حدَّة بالِغة. رمَقَ كلًّا منا بنظرة مُتسائلة، ثم وضع قُبَّعته ذات السطح اللامع على نَضَدِ المائدة، وجلس بعد انحناءةٍ خفيفة في أقرب كُرسي.

قال هولمز: «مساء الخير، يا سيد جيمس ويندِيبانك، أعتقِد أن هذه الرسالة المكتوبة على الآلة الكاتبة هي منك، وقد حددْتَ فيها موعد لقائنا عند تمام الساعة السادسة؟»

«نعم يا سيدي. أخشى أنَّني تأخرتُ قليلًا، لكنَّني لا أملك وقتي كما تعلمان. أنا آسف لأن الآنسة ساذرلاند قد أزعجتْكَ بشأن هذه المشكلة الصغيرة؛ لأنني أعتقد أنه من الأفضل بكثيرٍ عدَم طرح المشاكل الشخصية على الملأ. لقد جاءتْ إليكم على عكس رغْبتي، لكنها فتاة سريعة الانفعال ومُندفعةٌ للغاية، وربما لاحظتَ ذلك، ويصعُب السيطرة عليها عندما تقتنِع بأمرٍ مُعيَّن. لكنني لم أُعارض قدومها إليكَ كثيرًا، كونك لا تتبَع الشرطة الرسمية، ولكن ليس من اللطيف أن تنتشِر أصداء مِحنةٍ أُسرِيَّة كهذه في الخارج. علاوة على ذلك، فهي تكلفة غير مُجدية؛ فكيف يمكن أن تجِد هوزمر أنجيل؟»

قال هولمز بهدوء: «على العكس، فلديَّ كلُّ الأسباب التي تجعلني أعتقد أنني سأنجح في الكشف عن مكان السيد هوزمر أنجيل.»

جفل السيد وينديبانك بشدَّة فأسقط قُفازَيه وقال: «يُسعدني سماع ذلك.»

علق هولمز قائلًا: «إنه لأمرٌ مُثير للفضول أن تتَّسِم الآلة الكاتبة بقدْرٍ كبير ممَّا يتميَّز به خطُّ اليد من التفرُّد. ولا يُوجَد آلتان تكتُبان على نحوٍ مُتطابق قطُّ ما لم تكونا جديدتَين تمامًا؛ فبعض الحروف تبلى أكثرَ من غيرها، وبعضها يَبلى فقط من أحد الجوانب. والآن، ستُلاحظ يا سيد وينديبانك في رسالتك هذه، أن ثمَّة لطخةً بسيطةً فوق كلِّ حرف e، وعيبًا طفيفًا في ذيل كلِّ حرف r. يُوجَد أربع عشرة علامة مُميَّزة أخرى، ولكن هذه هي الأكثر وضوحًا.»

قال ضيفُنا وهو ينظر بعَينَيه الضيِّقتَين البرَّاقَتَين في حدَّة إلى هولمز: «إننا نستخدِم هذه الآلة في جميع مُراسلات المكتب، ولا شكَّ أنها قد بَلِيتْ بعض الشيء.»

تابع هولمز: «والآن سأريك يا سيد وينديبانك ما يُعدُّ بحقٍّ دراسة مُثيرة جدًّا للاهتمام. أفكر في كتابة دراسة صغيرة أخرى هذه الأيام عن الآلة الكاتبة وعلاقتها بالجريمة، وهو موضوعٌ كرَّستُ له بعض اهتمامي. لديَّ هنا أربع رسائل يُدَّعى أنها أُرسلت لابنة زَوجتك من الرجل المفقود، جميعها مكتوب على الآلة الكاتبة. وفي كلِّ حالة لن تُلاحظ فقط وجود «لطخة» على حرف e أو عدم وجود ذيل حرف r، لكنك ستُلاحظ أيضًا إذا كنتَ مُهتمًّا باستخدام العدسة المُكبِّرة، أن العلامات الأربع عشرة الأخرى التي أشرتُ إليها من قبلُ موجودةٌ أيضًا.»

انتفض السيد وينديبانك من كرسيه والتقط قُبَّعته قائلًا: «لا يُمكنني تضييع الوقت في سماع مثل هذا الكلام الخيالي يا سيد هولمز، لو كان في استطاعتك أن تُمسكَ بالرجل فلتُمسكْ به، وأخبِرْني عندما تفعل.»

قال هولمز: «بالتأكيد.» ثم سار نحوَ الباب وقال وهو يُدير المفتاح في القفل: «وها أنا الآن أُخبرك أنَّني قد أمسكتُ به!»

شحبَ وجه السيد وينديبانك وابيضَّتْ شفتاه وصار يتلفتُ حوله كفأرٍ في المصيدة ثم صاح قائلًا: «ماذا! أين؟»

قال هولمز بلُطف: «لن يُجديَ ذلك، بالفعل لن يُجديَ يا سيد وينديبانك، فما من طريقةٍ يُمكنك أن تتملَّص بها، فالأمر في غاية الوضوح، ولم يكن من الجيد إطلاقًا قولك إنه من المُستحيل عليَّ أن أحُلَّ قضية بهذه السهولة. هذا صحيح! اجلس ولنُناقِش الأمر معًا.»

انهار ضيفُنا على أحد الكراسي، وشحب وجهُه وتلألأت قطرات العرَق على جبينه، وتمتم قائلًا: «إن ... إنه لا يستوجب رفع دعوى قضائية.»

قال هولمز: «للأسف هذا صحيح، لكن فيما بيننا يا ويندبانك، لقد كانت تلك من أكثر الحِيَل التي مَرَّتْ بي قسوةً وأنانيةً وانعدامًا للرحمة والشفقة. والآن، دعْني أعرِض عليك باختصار مسار الأحداث ولتُعارضني إن أخطأتُ.»

تقوقَع الرجل على الكرسي، وتهدَّل رأسه على صدْره، كحال رجلٍ سحقَهُ القهر سحقًا. مدَّد هولمز قدمَيه على زاوية المِدفأة، وبدأ يميل إلى الخلْف واضعًا يدَيه في جيوبه ثُمَّ بدأ في الكلام، وبدا كأنه يتحدَّث إلى نفسه لا إلينا.

قال: «تزوَّج رجل امرأة تكبُره بكثيرٍ من أجل المال، كما استمتع بأموال ابنتِها ما دامت تعيش معهما، وكان المبلغ كبيرًا لأُناسٍ في مركزهما الاجتماعي، وخسارَتُه كانت ستُحدِث فرقًا بالغًا، ولذا كان الأمر يستحقُّ جهدًا من أجل الحفاظ عليه، خاصَّةً أن الابنة لم تكن ذات طباع ودودة ولطيفة فقط، بل كانت حنونةً ورقيقة القلب أيضًا؛ لذا كان من الواضح أنها لن تبقى بدون زَواجٍ لفترة طويلة، بالنظر لمزاياها الشخصية الجميلة ودخْلها المعقول، وزواجها يعني بالطبع خسارة مائة جُنيه سنويًّا، إذن ماذا يفعل زَوج الأم ليمنع حدوث تلك الخسارة؟ يسلك الطريق الواضح بإبقائها في المنزل ومنعها من الاختلاط بمن هُم في مِثل سنِّها، لكن سُرعان ما اكتشف أن ذلك لن يؤتيَ جدواه للأبد؛ فقد صارتْ عنيدة، وأصرتْ على المُطالبة بحقوقها، وأعلنتْ أخيرًا نِيَّتها القاطعة في الذَّهاب إلى حفلٍ مُعيَّن، فماذا يفعل زوج أمها الحاذق؟ نسج فكرة نابعة من عقله أكثر من قلبه تنمُّ عن مكرٍ وقسوة؛ فتنكَّر بمساعدة زَوجته ومُباركتِها مُغطِّيًا عينَيه الحادَّتَين بنظارةٍ مُعتمة، ومُقنِّعًا ذلك الوجه بشاربٍ وزوجٍ من السوالف الكثيفة، كما خفَضَ صوته ليصير همسًا غير مُبين، بالإضافة إلى قِصَر نظر الفتاة، ليظهر في صورة السيد هوزمر أنجيل، الذي يقوم بدور المُحبِّ ليُبقِيَ المُحبِّين الآخرين بعيدًا.»

قال ضَيفُنا مُتذمِّرًا: «لقد كان الأمر مُزحةً في البداية. لم نظنَّ قطُّ أنَّ عاطفتها ستنجرِف بهذا الشكل.»

«لا يبدو أنه كان كذلك. وبغضِّ النظر عن حقيقته، فقد انجرفَتِ الفتاة في الأمر بلا رَيب، وبما أنها مُقتنِعة بأن زَوج أمها في فرنسا، فلم يتطرَّق احتمال الخيانة إطلاقًا إلى ذهنها. لقد كان في إعجاب السيد النبيل بها إرضاءٌ لغُرورها، وممَّا زاد هذا التأثير إعجابُ أُمِّها الصريح به أيضًا. عند ذلك بدأ السيد أنجيل في الاتصال عبر الهاتف؛ إذ كان واضحًا أنَّ الأمر يحتاج لأقصى قدْرٍ ممكن من الدفع إذا كنَّا نرغَب في إحداث تأثير حقيقي. فصار هناك مُقابلات، وخطبة، الأمر الذي من شأنه أن يُؤمِّن عواطف الفتاة من التَّحوُّل نحوَ أيِّ

شخصٍ آخر، ولكن الخداع لا يُمكن أن يدوم للأبد، كما أنَّ تلك الرحلات المزعومة إلى فرنسا كانت شاقَّةً إلى حدٍّ ما؛ لذا لم يكن هناك بدٌّ من وضع نهاية درامية للعلاقة تترُك أثرًا دائمًا في عقل الفتاة الشابَّة، وتمنعُها من النظر إلى أي خاطبٍ آخر لفترة. ومن هنا جاء القسم بالوفاء على الكتاب المُقدَّس، إلى جانب تلك الإلماحات إلى احتمال وقوع خطْبٍ ما صباح يوم الزفاف. لقد أراد جيمس وينديبانك أن ترتبط الآنسة ساذرلاند بالسيد هوزمر أنجيل ولا تعرِف ما حدَث له، لمدة عشر سنوات قادمة على الأقل، تحت أي ظرف، وبذلك لن تلتفت لرجل آخر. وعندما أحضرها إلى باب الكنيسة، ولأنه لا يُمكنه المضيُّ لأبعدَ من ذلك، فقد اختفى بسهولةٍ مُستخدمًا الحِيلة القديمة بالركوب من باب إحدى العربات التي تجرُّها الخيول والنزول من الباب الآخر. أعتقد أنَّ هذا هو تسلسُل الأحداث يا سيد ويندیبانك!»

استعاد ضيفُنا بعض ثقتِهِ بنفسه بينما كان هولمز يتحدَّث، فنهض من كُرسيِّه وقد عَلَتْ وجهه نظرةُ تهكُّمٍ باردة، وقال: «قد يكون ما قلتَه صحيحًا يا سيد هولمز وقد يكون خاطئًا، ولكن بما أنك تتمتَّع بهذا الذكاء الحاد، فمِن المُفترَض أنك من الذكاء لتعلم أنك الآن من يخرِق القانون وليس أنا. فأنا لم أفعل شيئًا يُعاقِب عليه القانون، بينما بإبقائك هذا الباب مُغلقًا، تُعرِّض نفسك لعقوبة الاعتداء والاحتجاز غير القانوني.»

قال هولمز وهو يفتح الباب على مِصراعيه: «كما قلتَ، لا يمكن أن يُعاقبك القانون، ولكنك أكثر من يستحقُّ العقاب. لو كان لهذه الفتاة الشابَّة أخٌ أو صديق، لوجَبَ عليه جلدُك على ظهرك بالسوط.» واحتقنَ وجهه غضبًا عندما رأى نظرة التهكُّم البادية على وجه الرجل ثم أردف قائلًا: «يا ألله! إن ذلك ليس من واجباتي تجاه عميلتي، لكن ها هو السوط في مُتناوَل يدي وأظنُّ أنني سأستمتع بـ...»ثم اتَّخذ خطوتَين سريعتَين نحو السوط، وقبل أن يتمكَّن من الإمساك به كانت هناك جلبةٌ من خطواتٍ راكضة على السُّلَّم، ثم صوت إغلاق باب القاعة السُّفلي بقوة، ورأينا السيد جيمس ويندیبانك من النافذة وهو يُطلِق ساقَيه للرياح ويجري بأقصى سرعته عبر الطريق.

قال هولمز ضاحكًا وهو يُلقي نفسه في كرسيِّه مرة أخرى: «يا له من نذلٍ عديم الشفقة! سينتقِل هذا الشخص من جريمة إلى أخرى حتى يقترف جريمةً بالغةَ السوء، وينتهي به الحال على مِقْصَلَة الإعدام، ولكن القضية لم تخلُ في بعض نقاطها من الإثارة.»

علَّقتُ قائلًا: «لا يُمكنني أن أفهم تمامًا الخطوات التي بَنيْتَ عليها استنتاجك.»

«حسنًا، كان من الواضح منذ البداية بالطبع أن السيد هوزمر أنجيل هذا يجِب أن يكون لديه دافعٌ قوي يُفسِّر سلوكه الغريب، وكان من الواضح بالقدْر نفسه أنَّ الشخص

الوحيد الذي استفاد بالفعل من الواقعة، حسبما نعلم، كان زوج الأم. ثم كانت حقيقة أن الرُّجلَين لم يجتمِعا معًا قط، بل كان دائمًا ما يظهر أحدُهما حين يختفي الآخر، وكانت تلك الحقيقة تُوحي بشيء. كذلك الحال بالنسبة إلى النظارة المُعتِمة والصوت الغريب اللذين يدُلَّان على التنكُّر، كحال السوالف الكثيفة. وتأكدتْ جميع شكوكي من خلال تصرُّفاته الغريبة في كتابة توقيعه على الآلة الكاتبة، الذي يدلُّ بالطبع على أن خطَّ يدِه كان مألوفًا لها لدرجة أنها كانت تتعرَّف حتى على أصغر عيِّنةٍ منه. كل هذه الحقائق المُنفصِلة، إلى جانب العديد من الحقائق الثانوية، كلها تُشير إلى الاتجاه ذاته.»

«وكيف تأكدتَ من صحَّتِها؟»

«ما إن وضعتُ الرجل في موضع الاتهام، حتى صار من السهل تأكيد الاتهامات. لقد عرفتُ الشركة التي يعمل بها هذا الرجل؛ فأخذتُ الوصفَ المطبوع وحذفتُ منه كلَّ ما يُمكن أن يكون نتيجة تنكُّر — السوالف، والنظارة، والصوت — وأرسلتُه إلى الشركة، وطلبتُ منهم إبلاغي إن كانت تلك المواصفات تنطبِقُ على أيٍّ من مندوبي الشركة. وقد لاحظتُ بالفعل الخصائص المُميزة للآلة الكاتبة، وكتبتُ إلى الرجل نفسه على عنوان عمله وطلبتُ منه أن يأتي إلى هنا. وكما توقَّعت، فقد كان ردُّه مطبوعًا بالآلة الكاتبة وظهرتْ فيه نفس العيوب المُميزة رغم تفاهتِها. وقد استلمتُ مع البريد أيضًا خطابًا من شركة ويستهاوس آند ماربانك، الكائنة بشارع فينتشيرش، يقولون فيه: إن الوصف ينطبق تمامًا على موظف عندهم يدعى جيمس وينديبانك. هذا كلُّ ما في الأمر!»

«وماذا عن الآنسة سازرلاند؟»

«لو أخبرتُها بحقيقة الأمر فلن تُصدِّقَني. لعلك تذكُر المثل الفارسي القائل: «إن سلْبَ المرأة وهمًا تعيشُه، كصُعوبة انتزاع شِبل النمر.» إن في أشعار حافظ الشيرازي الكثير من المنطق كما في أشعار هوراس، والكثير من المعرفة بالعالم.»

عُصبة ذوي الشعر الأحمر

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
صلاح عبد العزيز مفتاح

مراجعة
محمد فتحي خضر



عُصبة ذوي الشعر الأحمر

زرتُ صديقي السيد شيرلوك هولمز في أحد أيام الخريف من العام الماضي، فوجدتُه مستغرقًا في حديثٍ مع رجل مهذبٍ كَهْلٍ سمين، مُتورِّد الوجه، ذي شعرٍ أحمرَ كاللَّهَبِ. كنتُ على وشك التراجُع معتذرًا عن مقاطعتي لهما، عندما جَذَبني هولمز بسرعة داخلَ الحجرة، وأغلقَ الباب من خلفي.

وقال بحميميَّةٍ: «لم تكنْ لِتأتي في وقتٍ أكثر ملاءمةً من هذا يا عزيزي واطسون.»

«خشيتُ أن تكون مشغولًا.»

«نعم، أنا كذلك بالفعل، مشغولٌ جدًّا.»

«يمكنني انتظارُك إذن في الغرفة المجاورة.»

«لا، على الإطلاق. هذا الرجل، يا سيد ويلسون، لطالما كان شريكًا ومساعدًا لي في العديد من قضاياي الناجِحة، ولا يُساوِرُني شكٌّ في أنه سيكون ذا فائدة عظيمة في قضيَّتِك.»

نهض الرجل البَدينُ في نصف وقفة، وحرَّك رأسه مُرحِّبًا، وألقى نظرةً عَجلى من عينَين متسائلتَين مُحاطتَين بالدُّهون.

قال هولمز، وهو يعود ليجلس على كرسيِّه المريح ضامًّا أصابعَه، كما كانت عادته عند التفكير بعمق للحُكم على الأشياء: «فلتجلسْ على الأريكة يا عزيزي واطسون، فأنا أعلم أنك تتقاسم حبِّي لكل ما هو غريب ومخالفٌ لعاداتِ ورتابةِ روتين الحياة اليومية. لقد أبدَيتَ وَلَعك بذلك من خلال الحماس الذي دفعك إلى التسجيل الزمني للأحداث، أو فلتَسمحْ لي أن أقول: تزيينُ الكثير من مغامراتي.»

قلتُ: «لطالما كانت قضاياك ذات أهميةٍ كُبرى بالنسبة لي.»

«كما تذكر فقد قلتُ يومًا، قبل أن نبدأ العمل في القضية البسيطة للغاية التي عرضَتْها الآنسة ماري سادرلاند مباشرةً: إننا يجب أن نقصد الحياة ذاتها؛ من أجل تفسير التأثيرات

الغريبة والتركيبات غير العادية، وأنَّنا سنجد في الحياة ما هو أكثر جرأةً ممَّا قد يخطُر على الخيال.»

«وهو الأمر الذي سمحتُ لنفسي أن أشكِّك في صحته.»

«هذا صحيحٌ يا دكتور، لقد فعلتَ، ولكن مع ذلك يجب أن تسلِّم بوجهة نظري، وإلا فسأواصل تكديس الحقائقِ الواحدة فوق الأخرى أمامك؛ حتى ينهارَ منطِقُك تحت وطأَتها، وتعترف بأنني على صواب. والآن، أكرمني السيد جابز ويلسون بزيارتِه هذا الصباح، وحكى بالتفصيل قِصةً تنبئُ بأن تكون واحدةً من أغرب القضايا التي استمعتُ إليها منذ زمن. لقد سمِعْتَني وأنا أقول: إن أكثر الأشياء غرابةً وتفرُّدًا لا ترتبط في كثير من الأحيان بالجرائم الكُبرى، وإنَّما بالجرائم الصغرى، وأحيانًا نجدها، في الواقع، عندما يكون هناك مجالٌ للشكِّ أن هناك جريمة مؤكَّدة قد ارتُكبَت. وبحسب ما سمعت من الحكاية، لا يمكنني أن أجزم ما إذا كانت هناك جريمة قد ارتُكبَت بالفعل أم لا، ولكن مسارَ الأحداثِ بالتأكيد من بين أكثر الأحداث التي استمعت إليها غرابةً. ربما تتفضَّل يا سيد ويلسون بإعادة سَرْد الأحداث مرةً أخرى. أنا أطلب ذلك لا لأن صديقي السيد واطسون لم يسمع بداية الحديث، ولكن أيضًا لأن الطبيعةَ الغريبة للقصَّة تجعلني متشوِّقًا لسَماع كل التفاصيل المُمكِنة من شَفتَيك. وكقاعدةٍ عامة، عندما أستمع إلى بعض الإشارات البسيطة لتسلسل الأحداث، فإنني أسترشدُ بآلافِ القضايا المماثلةِ الأخرى التي تخطُر على بالي. إلا أنني في الوضع الراهن مضطرٌّ للاعتراف أن هذه الوقائعَ — حسب ما أرى — غير عادية.»

نفَخ العميل البَدينُ صدرَه — وقد بدا عليه الفخر قليلًا — وسحب صحيفةً متسخةً مجعَّدةً من الجيب الداخلي لمعطفه الثقيل. وبينما كان ينظر إلى عمود الإعلانات في الصحيفة، مع توجيه رأسه للأمام والورقة منبسطة على ركبتَيه، ألقيتُ نظرةً فاحصةً على الرجل وجهدتُ، كعادة رفيقي، في قراءة المؤشرات التي قد يبديها زِيُّه أو مظهره.

ومع ذلك، فلم أجنِ الكثير من المعلومات بتفحُّصي إيَّاه؛ إذ كان لدى زائرنا كلُّ الدلائل التي تشير إلى أنه تاجرٌ بريطاني عادِيٌّ من النوع المألوف، يُعاني من السِّمْنة المُفرطة والغرور والتراخي. كان يرتدي بنطالًا واسعًا ذا مربعاتٍ رماديَّة وبيضاء، وعليه سترةٌ سوداء غير نظيفة مشقوقة الذَّيل، لم تُزرَّر من الأمام، تصل إلى ركبتَيه، وصدرية رمادية تتدلَّى منها سلسلة جَيْب نحاسية ثقيلة، معلَّق بطرفِها قطعة معدنية مربَّعة الشكل كنوع من الزينة. وبجانبه على الكرسيِّ استقرَّت قبَّعة أعلاها مهترئٌ، ومعطف بُنِّيٌّ باهت له ياقة مِخمَلية مُجعَّدة. وعلى الرغم من إمعاني النظر فإنه لم يكن هنالك شيء يَلفِت الانتباهَ فيما

يخصُّ الرجل، باستثناءِ شعر رأسه المُتوهِّج احمرارًا، وما يبدو على ملامحه من استِياءٍ وانزعاج.

سرعان ما لاحظ شيرلوك هولمز بنظره الحادِّ نظراتي المتسائلة، فهزَّ رأسه مبتسمًا، وقال: «لم أستطع التوصُّلَ إلى أكثرَ من كَوْنه مارس لفترةٍ ما عملًا يدويًّا، وأنه يتعاطى السَّعُوط، وأنه عضوٌ ماسونيٌّ، وأنه قد زار الصين من قبل، وأنه قد قام بالكثير من الكتابة مؤخَّرًا.»

قفز السيد ويلسون من فوق كرسيِّه، بينما كانت أصبعه السَّبابة لا تزال على الورقة، وعيناه تنظران إلى رفيقي.

وصاح قائلًا: «كيف بالله عليك استطعتَ أن تعلمَ كلَّ هذا يا سيد هولمز؟ كيف عرفتَ مثلًا أنني مارست أعمالًا يدويةً، إن ما قلتَهُ صحيحٌ تمامًا، حيث قد عملت في بدايتي نجَّارًا على إحدى السفن.»

«من يديك سيدي العزيز، فيدُكَ اليمنى أكبر قليلًا من يدك اليُسرى، ما يعني أنك كنت تعمل بها، فنَمَت عضلاتها أكثر من الأخرى.»

«حسنًا، ماذا بشأن السَّعُوط إذن، والماسونية؟»

«لن أقدَح في ذكائك بإخباركَ كيف استطعتُ الاستدلالَ على ذلك، لكن برغم التكتُّم الشديد على إظهار الرموز فإنك ترتدي رمز الماسونية (المثلَّث والفِرْجار) دبُّوسًا على صدرك.»

«آه! بالطبع لقد نسيت ذلك، لكن كيف عرفت بشأن الكتابة؟»

«وهل أَدَلُّ على ذلك من اهتراء طرف كُمِّك الأيمن من عند المِعْصم، ووجود بقعة مَلْساء عند كوعك الأيسر من المنطقة التي تستند بها على المكتب؟»

«حسنًا، وماذا عن الصين؟»

«إن السمكة التي وَشَمْتَها أسفل رُسْغك الأيمن لا يمكن وَشْمها إلا في الصين، لقد قمت بدراسة عن علامات الوُشُوم، وساهمت بالكتابة في الموضوع، إن التلوين الدقيق لحَراشِف السمكة باللون الوَرْدي تنفرد به الصين، كما أنني رأيتُ عملةً صينيةً تتدلَّى من سلسلة الساعة، وهو ما جعل الأمر أكثر وضوحًا بالنسبة لي.»

ضحك السيد جابز ويلسون بقوة قائلًا: «حسنًا، لم يخطر هذا على بالي مطلقًا! لقد ظننتُ في بادئ الأمر أنك قمت بعملٍ فائق الذكاء، إلا أنني أرى الآن أن الأمر كان بديهيًّا.»

قال هولمز: «أظن أنني أخطئ يا واطسون بصراحتي هذه، فالجهل بالشيء يجعله أكثر روعةً، وإن التزامي بالصراحة والوضوح قد يكلِّف سمعتي المتواضعة غاليًا، ألم تستطع العثور على الإعلان بعد يا سيد ويلسون؟»

قال، وأصبعه الحمراء الغليظة مُثبتة على منتصف أحد أعمدة الصحيفة: «بلى، ها قد وجدته، ها هو، هذا بداية الأمر بِرُمَّته، يمكنك قراءته بنفسك يا سيدي.»

أخذْتُ منه الصحيفة، وشرعْتُ في قراءة ما يلي:

> تُعلن عُصبة ذوي الشعر الأحمر — بناءً على وصية المرحوم إيزيكيا هوبكنز من مقاطعة لبنان في ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية — عن توفُّر وظيفة شاغرة، وهي تطلب لها موظفًا براتب أسبوعيٍّ قيمته أربعة جنيهات إسترلينية، مقابل خدمة بسيطة للغاية؛ أيُّما رجل ذي شعر أحمر يَجِد في نفسه القدرةَ البدنية والذهنية، ويكون قد تخطَّى سِنَّ الواحد والعشرين عامًا؛ فهو مُؤَهَّلٌ لهذه الوظيفة، وعليه أن يتقدَّم شخصيًّا يوم الإثنين، في تمام الساعة الحادية عشرة في مَقرِّ العُصبة ٧ شارع محكمة البابا، مُتفرِّع من شارع فليت.

هتفتُ قائلًا، بعد أن قرأت الإعلان مرَّتَين: «ما معنى هذا بحقِّ السماء؟»

ضحك هولمز ضحكةً مكتومةً، وتلوَّى في كرسيِّه كعادته عندما تكون معنوياته مرتفعةً، وقال: «إنَّه شيءٌ خارج المألوف أليس كذلك؟! والآن يا سيد ويلسون لنَعُدْ إلى البداية، احْكِ لنا كلَّ شيء عن نفسك، وعن الأفراد المقيمين معك، وعن تأثير هذا الإعلان على ثَروتك، لكن قبل كل شيء يا دكتور واطسون دوِّن في ملاحظاتك: اسم الجريدة، وتاريخ صدور العدد.»

«إنَّها صحيفة الكرونيكل الصباحية، بتاريخ ٢٧ أبريل من عام ١٨٩٠، منذ شهرَين فقط.»

«جيِّد جدًّا، والآن يا سيد ويلسون، فلتتفضَّل.»

قال السيد جابز ويلسون ماسحًا جَبينَهُ: «حسنًا، الأمر كما قلتُ لك تمامًا يا سيد هولمز، أنا سمسار رهونات، لديَّ مكتبٌ صغيرٌ في ميدان كوبورج، بالقُرب من المدينة. إنه ليس عملًا تجاريًّا كبيرًا، كما أنني في السنوات الأخيرة لم أَجْنِ منه أكثرَ من الكَفَاف. لقد كنتُ معتادًا على الاستعانة بمساعدَين اثنَين، لكنني الآن لا يُمكنني إلا الإبقاء على واحد

فقط، ولم أكنْ حتى لأَستطيع تحمُّلَ راتبِه لولا أنه وافق على أن يتَقاضَى نصفَ راتبِه مقابل تعلُّم المِهنة.»

سأل هولمز: «ما اسمُ هذا الشابِّ الكريم؟»

«اسمه فينسنت سبولدنج، كما أنه ليس شابًّا، ومن الصَّعب تحديدُ عمرِه. ولم أكن لأتمنَّى مساعدًا أذكى منه يا سيد هولمز، وأنا على يقينٍ أنه يُمكنه أن يجِد وظيفةً أفضل وأن يجني ضِعْف ما أعطيه إيَّاه، ولكن على أية حال، ما دام راضيًا بوضعه، فلِمَ عليَّ أن أنبِّهه لذلك؟»

«صحيح، لماذا عليك فعلُ ذلك؟ يبدو أنك محظوظ جدًّا بالحصول على خدمات مثل هذا الموظف الذي قَبِل بأَجْرٍ أقل من المتعارف عليه. فليس هذا شائعًا لدى أربابِ العمَل في هذا الزَّمان، وأرى أن مساعدَك جديرٌ بالملاحَظة كإعلان الصَّحيفةِ تمامًا.»

«آه، إن له عيوبَه أيضًا، فلم أرَ شخصًا في مثل وَلَعِه بالتصوير الفوتوغرافي، فهو ينشغل بالتصوير في الوقت الذي ينبغي فيه أن يعمَل على تطوير تفكيره، ثم يغوصُ في السرداب — كما يختفي الأرنب في جُحْره — لتحميض الصُّوَر. هذا هو عَيْبُه الرئيسي، لكنه في المُجْمل عاملٌ جيِّد ولا غُبار عليه.»

«أفترض أنه لا يزال يعملُ لديك، أليس كذلك؟»

«نعم سيدي، لا يزال يعمل لديَّ هو وفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، تقوم ببعض الطَّهْو البسيط، وتحافظ على إبقاء المكان نظيفًا، وهما كل ما لديَّ في منزلي، لأنني أرملٌ، ولم أَحْظَ بعائلة قَطُّ. نحن الثلاثة نعيش في هدوء تام سيدي، إننا نحافظ على المكان الذي نعيش تحت سقفِه وندفع المستحقَّات التي علينا، ولا شيءَ أكثرُ من ذلك.

إن أول ما أزعَجنا كان ذلك الإعلان، حيث جاء سبولدنج إلى مكتبي في مثل هذا اليوم منذ ثمانية أسابيع، ومعه في يده هذه الصحيفة بعَيْنها، وقال:

«كم أتمنى لو كنتُ ذا شعرٍ أحمر يا سيد ويلسون!»

سألته: «ولماذا؟»

قال: «لماذا؟ ها هي وظيفة أخرى شاغِرة في عُصبة الرجال ذوي الشعر الأحمر، وهي تساوي ثروةً صغيرةً لأيِّ رجلٍ يحصُل عليها، وما فهمتُهُ هو أن الوظائفَ المتاحة أكثر من الأشخاص المؤهَّلين لها، لذا فالأوصياء على التَّركة لا يدرون ماذا يصنعون بالأموال، لو أنَّ بإمكاني صَبْغَ شعري بالأحمر فقط، لكان لديَّ فرصة أن أحصل على تلك الوظيفة.»

سألته: «لماذا؟ ماذا في الأمر؟» حيث إنني يا سيد هولمز رجلٌ أحِبُّ لزوم منزلي، كما أن عملي هو مَن يأتي إليَّ ولستُ مضطرًّا للخروج إليه، وقد تمرُّ الأسابيع دون أن أَطَأَ عتبة بيتي؛ لذا فأنا لا أعرف الكثير عمَّا يدور بالخارج، وأسعد بأيِّ خبرٍ يأتي من هناك.

سألني بعينَين مندهشتَين: «ألَمْ تسمع قطُّ بعُصبة الرجال ذوي الشعر الأحمر؟»

قلْتُ: «مطلقًا.»

قال: «هذا أمرٌ يدعو للعجَب، حيث إنَّك من المؤهَّلين لإحدَى هذه الوظائف.»

سألته: «وما المقابل؟»

«تقريبًا مائتا جنيه في العام، لكن العمل بسيط، ولا يتعارض مع أي عمل آخر.»

حسنًا يمكنُك أن ترى الآن بسهولة كيف أنَّ هذا الأمر حاز اهتمامي، فأعمالي لم تكُن على ما يُرام لسنوات، ومائتا جنيه إضافية ستكون مفيدة جدًّا.

قلتُ له: «أخبرني أكثر عن تفاصيل الأمر.»

قال وهو يريني الإعلان: «حسنًا، يمكن أن ترى أن العُصبة لديها وظائف شاغرة، وهذا هو العنوان الذي يجب أن تُقدِّم فيه الطلب، وعلى حسب معلوماتي فإن العُصبة أسَّسها المليونير الأمريكي إيزيكيا هوبكنز، والذي كان ذا سيرة عجيبة، فقد كان هو ذاتُه ذا شعر أحمر، وكان لديه تعاطُف كبير تِجاه الرجال ذوي الشعر الأحمر، وعندما وافَتْه المنية ترك ثروةً ضخمةً في عُهدة الأوصياء، مع تعليمات أن تُخصَّص العوائد من أجل توفير أعمال سهلة للرجال ذوي الشعر الأحمر، وكل ما سمعته أن الأجر ممتاز، والعمل بسيط.»

سألتُه: «لكن قد يكون هناك الملايين من الرجال ذوي الشعر الأحمر الذين سيتقدَّمون للوظيفة.»

قال: «إنهم ليسوا بتلك الكثرة التي تعتقدها، فكما ترى يقتصر الأمر على الأشخاص البالغين المُقيمين في لندن فقط، فقد بدأ ذلك الأمريكي طريقَهُ من لندن عندما كان صغيرًا، وأراد أن يرُدَّ المعروف للمدينة العجوز، كما أنني سمعت أيضًا أنه لن يكون هناك فائدة من التقديم إن كان لون الشعر فاتحًا أو داكنًا، بل يجب أن يكون أحمر زاهيًا مُتوهِّجًا، والآن إن قرَّرت التقديم يا سيد ويلسون فسوف تحصل عليها بمنتهى السهولة، ولكن ربما يكون الأمر أقل شأنًا من أن تغيِّر له نمط حياتك وعاداتك من أجل بضع مئات من الجنيهات.»

في حقيقة الأَمرِ أيها السادة، وكما ترون بأنفسكم، إن شعري ذو لون زاهٍ وصارخ، وقد بدا لي أنه لو كان هناك أي تنافس على هذا الأمر؛ فإن فرصتي فيه أفضل من فرصة أي شخصٍ قابلتُهُ في حياتي، وبما أن فينسنت سبولدنج يعرف عن هذا الأمر الكثير، فقد فكَّرت

في أنه ربما يكون مفيدًا؛ لذا أمرته أن يغلق المكتبَ لهذا اليوم، وأن يأتيَ معي في الحال، وقد بدا سعيدًا للحُصول على يوم إجازة، وهكذا أغلقنا المكتب، وتوجَّهنا نحو العنوان المُدوَّن في إعلان الجريدة.

لا أتمنى أن أرى مثل هذا المنظر مرةً أخرى يا سيد هولمز؛ فقد حضر كل رجل في شعره مِسْحَة من احمرار من شمال البلاد وجنوبها وشرقها وغربها؛ تلبيةً لإعلان الصحيفة، واكتظَّ شارع فليت بذوي الرؤُوس الحمراء، وتحوَّل شارع محكمة البابا إلى ما يشبه عربة الخضريِّ الممتلئة بالبرتقال. لم أكن أعتقد أن في البلاد بأكملها كلَّ هذا العدد من ذوي الرءوس الحمراء، لولا أن جَمَعَهم هذا الإعلان الأَوْحَد. كان هناك كل درجات الألوان بدايةً من صُفْرَة القَشِّ والليمونيِّ والبرتقاليِّ والأحمر الطوبيِّ، والبُنيِّ المائل للكِسْتنائي (لون كلب الصيد من نوع آيريش سيتير)، والبُنيِّ الضارب للحُمْرة، والبُنيِّ الصَّلْصالي، ولكن — كما قال سبولدنج — لم يكن هناك الكثير من أصحاب الشَّعر الأحمر المُتوهِّجِ الزَّاهي. عندما رأيتُ كَمَّ المنتظرين، تملَّكني اليأس وكِدْت أستسلم، ولكن سبولدنج لم يكن لِيسمح بذلك، إن ما قام به لم أكن لأتخيَلَه، فقد أخذ يدفع الناس ويجذبهم ويناطحهم؛ حتى استطاع أن يجد لي طريقًا وسط تلك الحشود، ليوصِّلني إلى الدَّرَج المؤدِّي إلى المكتب. كان ثمةَ طابوران من الناس على الدَّرَج، أحدهما يصعد في أمل باتجاه المكتب، والآخر يهبط في كآبة وقد رُفض، ولكننا واصلنا شقَّ طريقنا بصعوبة؛ حتى انتهى بنا الأمر سريعًا في المكتب.»

قال هولمز مُعلِّقًا، عندما اعترى عميلَنا الصمت وهو يحاول إنعاشَ ذاكرتِه باستنشاق السَّعوط: «لقد كانت تجربتك ممتعةً جدًّا، أرجو أن تكمل لنا روايتك المثيرة للاهتمام.»

أكمل العميل قائلًا: «لم يكن في المكتب سوى كرسيَّين خشبيَّين وطاولة، يجلس خلفها رجل صغير الحجم، ذو شعر أكثر احمرارًا حتى من شعري. كان يقول بضع كلمات لكل مُرشَّح يدخل عليه، وكان ينجح دائمًا في إيجاد عيبٍ ما في كل مُرشَّح يستبعده من المنافسة. لقد بدا أن الحصول على هذه الوظيفة ليس بالأمر السهل أبدًا. على أية حال، عندما حان دَوْرُنا، أظهر الرجل اهتمامًا بي أكثر من أي مُتقدِّم آخر، وأغلق الباب بعد دخولنا؛ ليتسنَّى له أن يخاطبنا على انفراد.»

قال مساعدي: «هذا هو السيد جابز ويلسون، وهو يطمح في شَغْل الوظيفة المتاحة في العُصبة.»

أجاب الرجل الآخر: «وهو مناسب لها بشكل رائع، فهو مستوفٍ لكل متطلباتها، إنني حتى لا أذكر متى رأيت شيئًا بتلك الملاءمة.» ثم أخذ خطوة للوراء وأمال رأسه، وأخذ

يُحدِّق فيَّ حتى استحييت، ثم مال باتجاهي بطريقة مفاجئة وصافحني بقوة مهنئًا إيايَ بحرارة لحصولي على الوظيفة.

وقال: «سيكون من الإجحاف أن أتردَّد. لكنني متأكِّد أنك ستعذرني لاتخاذي إجراءات واضحة للتأكُّد من صحة توفُّر الشروط.» قال ذلك وقبض بكلتا يديه على شعري وشَدَّه بعنف حتى صرَخت من شدة الألم. ثم قال بعد أن أفلَتَ شعري: «هناك دموعٌ في عينيك، وأعتقد أن كلَّ شيء كما ينبغي، لكننا يجب علينا أن نكون حَذِرين؛ إذ تعرَّضنا للاحتيال مرتَين؛ مرةً باستخدام الشعر المُستَعار، ومرةً بالشعر المصبوغ، يمكنني أن أخبرك حكايات عن شمع الإسكافي ستشعرك بالاشمئزاز من الطبيعة البشرية.» بعد ذلك ذهب إلى النافذة، وصرخ بأعلى صوتِه معلنًا أن الوظيفة الشاغرة قد شُغلَت. تصاعدت صَيْحات التذمُّر المُحبَطة من الأسفل، وتفرَّقَت الجموع مبتعدةً في اتجاهات شتَّى؛ حتى لم يبقَ ذو شعر أحمر سواي أنا والمدير.

قال: «اسمي السيد دنكان روس، وأنا نفسي أحد المستفيدين من التَّرِكة التي أوصى بها مُحسِننا النبيل، هل أنت متزوج يا سيد ويلسون؟ ألديك أسرة؟»

أجبته نافيًا ذلك.

فتغيَّر وجهُه على الفور.

وقال بحزن: «يا إلهي! هذا أمرٌ جِدٌّ خطير، آسِفٌ لسماعي ذلك، لأن الغَرَض من التمويل في الأصل هو تكاثُر وزيادة أعداد ذوي الشعر الأحمر وإعالتهم. إنه لمن الحظ السيء جدًّا أن تكون عَزَبًا.»

عند ذلك شعرتُ بالكآبة يا سيد هولمز، فقد ظننت أنني لن أحصل على الوظيفة بعد كل هذا، ولكنه قال، بعد أن فكَّر لعدَّة دقائق: إن الأمرَ قد ينجح.

«لو كان شخصٌ غيرك يا سيد ويلسون لَمَا نجح معه الأمر، ولكان عدم قبوله شيئًا مفروغًا منه، ولكنه شرطٌ يمكننا التغاضي عنه، نظرًا لأنك رجلٌ لديه مثل هذا الشعر الذي على رأسك. متي يمكنك البدء في ممارسة مهامِّ عملك الجديد؟»

قلت له: «إن الأمر مزعج بعضَ الشيء، إذ إنني لديَّ بالفعل عملٌ آخر.»

قال فينسنت سبولدنج: «آه، لا تحمل هم ذلك يا سيد ويلسون، فسأعتني بذلك لأجلك.»

قلت: «ما هي ساعات العمل؟»

قال الرجل: «من العاشرة إلى الثانية.»

إن أعمال سمسرة العقارات يا سيد هولمز غالبًا ما تجري في المساء، خصوصًا مساء الخميس والجمعة، واللذين يكونان قُبَيل يوم الدفع للمُستحِقِّين؛ لذا فقد بدا لي أنه سيكون

من المناسب جدًّا أن أكسب القليل من المال الإضافي في الفترة الصباحية، كما أنني على عِلْم أن مساعدي رجلٌ طيِّبٌ، وسيُحسِن التصرُّف مع أي مُستجدَّات في العمل.

قلت: «هذا يناسبني جدًّا، وماذا عن الراتب؟»

«أربعة جنيهات أسبوعيًّا.»

«وما هي طبيعة العمل؟»

«إنه عملٌ سهلٌ للغاية.»

«وما هو ذلك العمل الذي تصِفُه بأنه سهلٌ للغاية؟»

«حسنًا، ينبغي عليك التواجُد في المكتب، أو في المبنى على الأقل، طوال الوقت. لو انصرفت في أي وقت طوال فترة عملك؛ فستخسر هذه الوظيفة للأَبَد، إن الوصية واضحة جدًّا فيما يخصُّ هذا الشرط، ولن تكون ملتزمًا بالشروط إن تحرَّكْتَ من المكتب طوال ذلك الوقت.»

قلتُ: «إن ساعات العمل أربع ساعات فقط، ولن أفكِّر في الانصراف.»

قال السيد دنكان روس: «لن تُقبَل أَيَّةُ أعذار؛ لا أعذار مرضية، ولا بسبب أعمالك، ولا أيَّة أعذار أخرى، وسيتوجب عليك المكوث هناك وإلا فستخسر وظيفتك.»

«وما هي طبيعة العمل؟»

«ستقوم بنسخ دائرة المعارف البريطانية، ها هو المجلد الأول منها، سيتوجب عليك إحضار الحِبْر والأقلام وورق تجفيف الحِبْر، وسنوفِّرُ نحن لك هذه الطاولة والكرسي. هل ستكون جاهزًا غدًا؟»

«بالتأكيد، سأكون جاهزًا.»

«إلى اللقاء إذن يا سيد جابز ويلسون، واسمح لي أن أهنِّئك مرةً أخرى على هذا المنصب المهمِّ الذي كنت محظوظًا كفايةً للحصول عليه.» وانحنى لي وأنا خارج من المكتب، ثم ذهبتُ إلى منزلي مع مساعدي، وأنا لا أدري ما أقول ولا ما أفعله من شدَّة سعادتي بحسن حَظِّي.

حسنًا، لقد ظللت أفكِّر في الأمر طوال اليوم، وعند حلول المساء كانت معنوياتي قد انخفضت مرةً أخرى، وأقنَعتُ نفسي أن الأمر لا يعدو عملية خداع أو نَصْب كبيرة، ولكنني لم أستطِعْ تحديد المغزى منها، ولا الغرض من ورائها. فقد كان من الصَّعب تصديقُ أن يقوم شخصٌ ما بكتابة مثل هذه الوصية، أو بدَفْع مثل ذلك المبلغ نظير عمل في بساطة نَسخ الموسوعة البريطانية. لقد فعل فينسنت سبولدنج كل ما في استطاعتِه ليبهجني، ولكن

عند حلول وقتِ النوم كنت قد أقنعتُ نفسي بعدم جدِّيَّة الأمر كله، وعقدت العزم في الصباح على إلقاء نظرة مرة أخرى في الأمر برُمَّتِه، فاشتريت زجاجة حِبْر صغيرةً، وقلمًا مصنوعًا من الرِّيش، وسبع رُزَمٍ من الأوراق، ثم اتَّجهت إلى المكتب.

بلغ السرورُ والدهشة مني مَبلغًا عندما رأيت كل شيءٍ كما يَنبغي له أن يكون. فرأيت الطاولة موضوعةً هناك لأجلي، والسيد دنكان روس كان حاضرًا؛ ليتأكَّد من حُضوري في الموعد المُحدَّد، وقد تابعني حتى بدأت النسخ من أول الموسوعة ثم تركَني ومضَى، على أن يمرَّ عليَّ من وقت لآخر؛ ليرى إن كانت أموري تسير بشَكلٍ سليم. وفي تمام الساعة الثانية تمنَّى لي يومًا طيِّبًا، وأظهر إعجابه بالقَدْر الذي نسخته من الموسوعة، وأغلق الباب خلفي بعد خروجي.

جرى الأمر على هذا المنوال يومًا بعد يوم يا سيد هولمز، وفي يوم السبت أتى المدير ودفع لي أربعة جنيهات ذهبيةً نظير عملي لأسبوع. تكرَّر الأمر في الأسبوع التالي ثم الأسبوع الذي يليه، كنت أذهب إلى هناك في العاشرة صباحًا، وأنصرِف في الثانية بعد الظهر، وبالتدريج أصبح السيد دنكان يأتي مرةً واحدةً صباح كل يوم، ثم بعد ذلك لم يَعُدْ يأتي مطلقًا، ومع ذلك لم أجرؤ على الخروج من الغرفة قطُّ، لأنني لم أكُن أعلم متى سيأتي، وقد كانت الوظيفة جيدةً ومناسبةً لي جدًّا، ولم أكن لأخاطر بضَياعها من يدي.

«مرَّت ثمانية أسابيع على هذا الحال، كتبت فيها الشيء الكثير ممَّا يبدأ بحرف الألف، وتمنَّيْتُ أن أصل لحرف الباء قريبًا. لقد كلَّفني ذلك الكثير من الورق وملأت كتاباتي ما يقرب من رَفٍّ كامل، ثم انتهى كلُّ شيء فجأةً.»

«انتهى كل شيء فجأةً؟»

«نعم يا سيدي، حدث هذا صباح هذا اليوم، حين ذهبت إلى عملي كالمعتاد في الساعة العاشرة، لكن الباب كان موصدًا وعليه قطعة مُربَّعة صغيرة من الورق المُقوَّى مُثبَّتة بمسمار في وسط الباب، ها هي، يمكنك قراءَتها بنفسك.»

ثم أمسك بقطعة بيضاء من الورق المُقوَّى بحَجم ورقة الملاحظات، كُتِبَ عليها ما يلي:

حُلَّتْ عُصبة ذوي الشعر الأحمر
في ٩ أكتوبر ١٨٩٠.

تفحَّصْت أنا وشيرلوك هولمز هذا الإعلان المُقتَضَب ووجهَ الرجل الكئيب، حتى غلب الجانب الهزليُّ للموقف تمامًا على أيَّة اعتبارات أخرى. فانفجرنا ضاحكَين.

هتف عميلُنا، وقد احمرَّ وجهُهُ حتى منابت شَعْرِه المُتوهِّج: «لا أرى في الأمر أي مَدْعاة للضحك، إذا لم يكن لديكما ما تفعلانه سوى السخرية مني؛ فيمكنني الذهاب لمكان آخر.»

صاح هولمز، وهو يعيد الرجل إلى كرسيِّه الذي هَمَّ بالقيام عنه قائلًا: «لا لا، أنا لن أترك قضيَّتَك مهما بلغ الأمر، فهي غريبة بشكل مُنعِش. ولكن اعذرني إن قلت لك إنها طريفة إلى حدٍّ ما. أرجوك أن تقول لي ماذا صنعت عندما قرأتَ الورقة المُعلَّقة على الباب؟»

«لقد كنت أترنَّح يا سيدي، لم أكن أدري ماذا أصنع، وقمت بسؤال المَكاتِبِ المُجاوِرة، لكن أحدًا لم يكن يعلم أي شيء عن الأمر، وفي نهاية الأمر ذهبتُ إلى صاحب المبنى، وهو محاسبٌ يعيش في الطابق الأرضيِّ، وسألته عمَّا إذا كان يستطيع إخباري بما حلَّ بالعُصبة، لكنه قال إنه لم يسمع بهذا الكيان من قبل، ثم سألته مَن يكون السيد دنكان روس، فأخبرني أن هذا الاسم لم يطرق سَمْعه من قبل.

قلت له: «حسنًا ماذا عن الرجل المُهذَّب في المكتب رقم ٤؟»

«أتقصد الرجل ذا الشعر الأحمر؟»

«نعم.»

«آه، اسمه السيد ويليام موريس، وهو محامٍ كان يستخدم إحدى حجراتي كمأوًى مؤقَّت حتى يجهِّز مبناه، وقد انتقلَ بالأمس.»

«أين يمكنني إيجاده؟»

«آه، في مكتبه الجديد، لقد أخبرني بعنوانه، ١٧ شارع الملك إدوارد، بالقُرب من كنيسة سانت بول.»

مَضَيْت يا سيد هولمز، لكن عندما وصَلتُ للعنوان وجدتُه مصنعًا للرُّكَب الاصطناعية، ولم أجد هناك مَن سمع بالسيد ويليام موريس، أو السيد دنكان روس.»

قال هولمز: «ماذا صنعتَ عندها؟»

«عُدْت إلى منزلي بساحة ساكس كوبورج، وأخذت بنصيحة مساعدي، ولكنها لم تغنِ عني شيئًا، إذ قال لي أن أنتظر حتى أسمع بالأمر عن طريق البريد، ولكنها نصيحة لم تكن جيدةً كفايةً يا سيد هولمز، لم أشَأْ أن أخسر هذا العمل دون أن أبذل جهدي للحفاظ عليه. ولأنني سمعت أنك لا تتوانى عن تقديم النُّصح للمُحتاجين، فقد أتيتُ إليك مباشرةً يا سيد هولمز.»

قال هولمز: «وهو تصرُّفٌ حكيم جدًّا، فقضيَّتُك غريبةٌ لأبعد الحدود، ولسوف أكون سعيدًا بالنَّظَر فيها، وممَّا أخبرتني إيَّاه، أعتقِدُ أن في الأمر خطرًا أكبر ممَّا قد يبدو من الوهلة الأولى.»

قال السيد جابز ويلسون: «خطيرٌ كفايةً! فقد كلَّفني خسارة أربعة جنيهات في الأسبوع.»

قال هولمز مُعلِّقًا: «أمَّا فيما يخصُّ شخصَك، فلا أرى أساسًا أيَّ مَظْلَمة وقعت عليك من هذه العُصبة غير المعتادة، بل على العكس من ذلك فقد جعلتك أغنى من ذي قبل بحواليَْ ثلاثين جنيهًا كما فهمت منك، هذا إن لم نأخذ في الاعتبار المعلومات الدقيقة التي اكتسبتها من المواضيع التي نسخْتَها البادئة بحرف الألف؛ لذا فأنت لم تخسر أي شيء بسببهم.»

«لا سيدي، ولكنني أريدُ أن أعرف كل شيء عن حقيقة هذه العُصبة، ومن هُم أصحابها؟ وماذا كان الهدف من وراء هذه المُزْحَة؟ إن كانت كذلك؛ فهي مُزْحَة مُكلِّفة جدًّا في رأيي، إذ كلَّفَتْهم اثنين وثلاثين جنيهًا.»

«سنسعى جاهِدِينَ لتوضيح هذه النقاط من أجلك، ولكن أولًا، لديَّ سؤال أو اثنان أودُّ منك الإجابة عليهما يا سيد ويلسون. مساعدك الذي لفت نظرك للإعلان أول مرة، كم من الوقت كان قد عمل لديك وقتها؟»

«كان قد عمل لمدة شَهرٍ تقريبًا.»

«كيف حصَل على وظيفتِه؟»

«عن طريق إعلان.»

«هل كان هو المُتقدِّم الوحيد؟»

«لا، بل كان هناك الكثيرون.»

«ولِمَ اخترتَهُ هو بالتحديد؟»

«لأنه كان بارعًا وقَبِل بالأجر الزهيد.»

«بل بنصف الأجر في الواقع.»

«نعم.»

«كيف يبدو، فينسنت سبولدنج هذا؟»

«صغير الحجم، قويَّ البِنْيَة، حليق الوجه، سريع الحركة جدًّا، ولا يقلُّ عمره عن الثلاثين عامًا، وعلى جبهته بقعةٌ بيضاء من أَثَر حَرْق قديم.»

اعتدل هولمز في جلسته، وقال في انفعال واضح: «ذلك ما توقَّعْتُه، هل لاحظتَ إن كانت أذناه مثقوبتَين؟»

«أجل يا سيدي، وقد أخبرني أن غَجَرِيًّا صنع له ذلك عندما كان صَبِيًّا.»

هَمْهَم هولمز، وهو يغرق في التفكير راجعًا إلى الوراء، ثم قال: «هل ما زال يعمل لديك؟»

«نعم يا سيدي، فقد تركته منذ قليل.»

«وهل كان عملك يسير بشكل جيد في غيابك؟»

«ليس في الأمر ما يدعو للشكوى، فكما أسلفْتُ، العمل قليل جدًّا في فترة الصباح.»

«هذا يكفي يا سيد ويلسون، وسأكون مسرورًا بتقديم رأيي فيما يتعلَّق بهذه القضية في غضون يوم أو اثنين. اليوم هو السبت، وأتمنَّى أن نصل إلى نتيجة بحلول يوم الإثنين.»

قال هولمز، بعد أن غادر ضيفنا: «حسنًا يا واطسون، ماذا تستنتج من هذا الأمر برُمَّتِه؟»

قلتُ بصراحة: «لا شيءَ، الأمرُ في غاية الغموض.»

قال هولمز: «كقاعدة عامة، أشدُّ الأشياء غرابةً هي ما يتبيَّن فيما بعد أنها الأقل غموضًا، وإن أكثر القضايا وضوحًا هي في الحقيقة أكثرها غرابةً، تمامًا كصُعوبة تحديد ملامح الوجه العادي، حسنًا ينبغي عليَّ الآن الإسراع في حلِّ هذه القضية.»

سألتُهُ: «إذن، ما الذي ستَفعلُه؟»

قال: «سأقوم بالتدخين أولًا، إن الأمر يحتاج إلى تدخين الغليون لثلاث مرات، كما أرجو منك ألا تحادثني لمدة خمسين دقيقةً.» ثم احتبى في كرسيِّه جاذبًا ركبتَيه النحيلتَين تجاه أنفه المعقوف كمِنقار الصقر، وجلس مُغمِضًا عينَيه ويبرز غليونه الصَّلْصالي الأسود كمنقار طائر غريب. استنتجت من وضعِيَّتِه تلك أنه غطَّ في نومه، وبينما كان يميل رأسي أنا أيضًا للنعاس، قفَزَ فجأةً من فوق كرسيِّه، كما لو أنه استقرَّ على رأيٍ ما، ووضَع غليونه على المدفأة.

وقال لي: «سيعزف ساراسيت في قاعة سانت جيمس هذا المساء، ما قولك يا سيد واطسون، هل يمكنني أن أستعيرك من مرضاك لسُوَيْعات معدودة؟»

قلتُ: «ليس لدي ما أفعلُه اليوم، فمِهنتي لا تشغل حيِّزًا كبيرًا من وقتي.»

«فلترتدِ قبعتَكَ إذن، ولتأتِ معي، سأذهب لوسط المدينة أولًا، وربما يمكننا تناول الغداء في طريقنا، لقد لاحظتُ أن البرنامج يحتوي على مقدار دسِمٍ من الموسيقى الألمانية، التي تناسب ذوقي أكثر من نظيرتها الإيطالية أو الفرنسية، فالموسيقى الألمانية تُجلِّي الأفكار وتمكِّن المَرْءَ من فحص أفكاره الذاتية، وهذا ما أريده، هيَّا بنا.»

ركِبْنا قطار الأنفاق حتى وصلنا إلى شارع إلدرسجيت، ثم سِرْنا على الأقدام مسافةً قصيرةً حتى ميدان ساكس كوبورج، ذات المكان الذي شَهِد وقائع القصة التي سمعناها هذا الصباح، وهو مكان ضيِّق مُبتَذَل، شَبِيهٌ رديءٌ بالأماكن الراقية، حيث تُطِلُّ أربعة صفوف من المباني الحجرية المُلوَّثَة ذات الطابقَين على مساحة مُلحَقَة مُسيَّجة تنمو فيها الكثير من الأعشاب، وبعض شُجَيْرات إكليل الغار الباهتة التي تكافح ضدَّ الهواء المُشبَّع بالدخان والجوِّ غير الملائم لنُموِّها. أرشدتنا ثلاث كُرَيَات مُذَهَّبات ولوح بُنِّيٌّ — مكتوبٌ عليه بحروف بيضاءَ: «جابز ويلسون»، مُعلَّق على زاوية أحد البيوت — إلى مقرِّ عمل عميلنا ذي الشعر الأحمر. توقَّف شيرلوك هولمز أمام المنزل، ورأسه مائل، وأخذ يتفحَّص بنظراتِهِ المكان كله، وعيناه تلمعان بين جفنَيه الضيِّقَين، ثم سار ببطءٍ نحوَ ناصية الشارع، ثم عاد إلى حيثُ الزاوية مرةً أخرى، وظلَّ ينظر عن كَثَب إلى المنازل، ثم عاد إلى منزل السِّمْسار أخيرًا، وضَرَب بعصاه الرصيف بقوةٍ مرَّتَين أو ثلاثةً. صعدَ إلى الباب وطَرَقَه، ففتح في الحال شابٌّ حُلْوُ المظهر حليقٌ، طلب منه أن يتفضَّل بالدخول.

قال هولمز: «شكرًا لك، أنا فقط كنت أودُّ أن أسأل عن كيفية الذهاب إلى شارع ستراند.»

أجاب المساعد بسرعة مُغلِقًا الباب: «ثالث منعطف إلى اليمين، ثم الرابع إلى اليسار.»

علَّق هولمز قائلًا، بينَما نمضي: «يا لَهُ من شخصٍ ذكيٍّ! إنه في رأيي رابع أذكى رجل في لندن، ويمكنني أن أقول: ربما يكون الثالث طِبْقًا لِمَا علمته عنه سابقًا.»

قلتُ: «هذا واضح، فمساعد السيد ويلسون عليه عامل كبير في حلِّ لُغْز عُصبة ذوي الشعر الأحمر، وأنا على يقين أنك سألته عن الطريق فقط لكي تراه.»

«ليس لأراه هو.»

«ماذا إذن؟»

«رُكبتَي بنطاله.»

«وماذا رأيت؟»

«ما توقَّعْتُ أن أراه.»

«ولماذا طَرَقْت على الرصيف؟»

«عزيزي الدكتور، هذا وقت الملاحظة، لا وقت الكلام، فنحن كالجواسيس خلف خطوط العدوِّ، وقد علِمْنا شيئًا عن ميدان ساكس كوبورج، فلنكتشِفِ الجزء الواقع خلفه.»

كان الشارع الذي وجدنا أنفسنا فيه بعدما استدَرْنا حول زاويةِ ميدان ساكس كوبورج المنعزل يمثِّل صورةً معاكسةً تمامًا لِمَا بدا عليه الميدان كتناقض وجهِ الصورة وظَهْرِها،

كان ذلك الشارع بمثابة الشِّرْيان الرئيسي لحركة المرور التي تربط شمال المدينة بجنوبها، وكان الطريق مُغلَقًا بسيلٍ من التجارة المُتدفِّقة في كِلا الاتجاهَين ذهابًا وإيابًا، بينَما غمرت ممراتِ المشاة أسرابٌ مسرعةٌ من الناس. وقد كان من الصَّعب أن نستوعب، ونحن نرى صفَّ المحلات الراقية والمباني التجارية الفخمة، أنها تقع على الجهة الأخرى من الميدان المُضمَحِلِّ الكاسد الذي كُنَّا نعاينه منذ قليل.

قال هولمز، وهو يقِف في الزاوية وينظر إلى صفِّ المتاجر: «لِنَرَ، فأنا أودُّ لو تذكَّرْت ترتيب المنازل هنا. إنها لمن هواياتي أن أكون على علم بالأماكن في لندن، ها هو متجر مورتيمر بائع التَّبْغ، وها هو محل الجرائد الصغير، وفرع المدينة والضواحي لبنك كوبورج، ثم المطعم النباتي، وأخيرًا مستودع مكفارلين لصُنْع العربات، والذي يؤدِّي بنا إلى مُجمَّع البنايات التالي مباشرةً. والآن يا دكتور، لقد أنجزنا ما أَتَيْنا لأجله، وحان وقت التسلية، لنتناولْ شطيرةً، ولنَحْتَسِ فنجانًا من القهوة، وبعدها لنذهب إلى أرض الموسيقى، حيث الجمال ورهافة الحِسِّ والتناغُم، وحيث لا وجود لعملاء ذوي شعر أحمر يرهقوننا بحلِّ ألغازهم.»

كان صديقي موسيقيًّا متحمِّسًا، ولم يكن عازفًا قديرًا جدًّا وحسب، بل كان مُلحِّنًا بارعًا أيضًا واستثنائيًّا. وقد جلس طوال المساء في مقعد المسرح مُتدثِّرًا بسعادته البالغة، وهو يلوِّح بلطفٍ بأصابعه الطويلة النحيلة متناغمًا مع الموسيقي، بينما تعلو وجهَه ابتسامةٌ هادئة، وعيناه حالمتان، كأنهما ليستا عينَيْ ووجه هولمز مطاردِ اللصوص، هولمز القاسي عديم الشفَقة، حادِّ الذِّهْن المُتأهِّب دائمًا للقَبْض على المجرمين، كما يصعب ذلك على التَّصوُّر. كانت طبيعتاه تفرضان أنفسَهما على شخصيته الفريدة، فكانت دِقَّتُه وفِطْنَته تمثِّلان، كما أعتقد، ردَّة فعل على مِزاجِه الشاعري التأملي الذي يغلب عليه بين الفَيْنَة والأخرى. كان التُّقلُّب بين طبيعتَيه ينقله من حالة الكسل الشديد إلى حالة الحماسة الضارِيَة، وكما تأكَّد لي أن عظمتَه تصل إلى ذِرْوَتها عندما يسترخي على كرسيِّه المريح وسط كتاباته المُرتجَلَة، عندها تطغى عليه لذةُ المطاردة، وتصحو بداخِله قوة تبصُّرٍ هائلة قد تصل إلى مستوى الحَدْس، حتى ينظرَ إليه أولئك الجاهلون بأساليبه نظرةً مِلْؤُها الشكُّ أن ما لديه من معرفة يتجاوز ما يمكن لبشَر عادي أن يتَّصف به. عندما نظرت إليه ذلك المساء مستغرقًا في موسيقاه في قاعة سانت جيمس شعرت أن وقتًا عصيبًا ينتظر أولئك الذين يطاردهم هولمز.

قال هولمز عندما خرجنا: «لابد أنك تودُّ الذهاب إلى منزلك الآن يا دكتور.»

«نعم، هذا ما سأفعله.»

«وأنا لديَّ بعض العمل الذي سيستغرق منِّي ساعات لإنجازه، إن العمل الذي لدينا في ميدان كوبورج خطير.»

«ولِمَ هو عمل خطير؟»

«هناك جريمة ضخمة على وشك الحدوث، لديَّ كل الأسباب التي تجعلني أعتقد أننا سنكون هناك في الموعد المناسب لمنع وقوعها. ونظرًا لأن اليوم هو السبت، فضلًا عن اعتبارات أخرى مُعقَّدَة؛ فإنني أرغب في مساعدتك لي الليلة.»

«في أيِّ وقت بالتحديد؟»

«الساعة العاشرة، ستكون مبكرةً بما يكفي.»

«سأكون في شارع بيكر في تمام العاشرة.»

«حسنًا، أودُّ أن أُعلِمَك يا دكتور أنه ربما يكون هناك بعض المخاطر؛ لذا فضلًا أحضر مسدسك معك في جيبك.»

ثم لوَّح بيدَيْه، واستدار ومضى ليغيب عن ناظري سريعًا وسطَ الجموع.

أنا على يقينٍ أنني لست أكثر غباءً من أقراني، لكنني طالما شعرتُ بغبائي في تعاملي مع شيرلوك هولمز. فلقد سمعت ما سَمِعَه، ورأيت ما رآه، ومع ذلك وطبقًا لِمَا قاله، فلقد ثبت لديه بما لا يدع عنده مجالًا للشكِّ ليس ما حدث وفقط، ولكن ما كان على وشك الحدوث أيضًا، بينما لا تزال القضية غامضةً وملتبسةً بالنسبة لي. وفي طريقي للمنزل فكَّرْت في الأمر مَلِيًّا بدءًا من القصة الاستثنائية للرجل ذي الشعر الأحمر ناسخ الموسوعة، مرورًا بزيارتنا لميدان كوبورج، وانتهاءً بالكلمات المُنذِرَة بوقوع شرٍّ ما والتي كانت آخر عهدي بشيرلوك هولمز. ما سِرُّ عجلته في هذه الليلة؟ ولماذا طلب مني أن آتي إليه مُسلَّحًا؟ إلى أين سنذهب؟ وماذا الذي سنفعله؟ لقد لَمَّح لي هولمز أن مساعد سمسار الرُّهونات العقارية ذا الوجه الناعم كان شخصًا مُخيفًا، شخصًا يمكنه صُنْع خُطَّة عَوِيصة. حاولْتُ أن أَحُلَّ الأُحْجِية، لكنني استسلمْتُ في يأس ونحَّيْت الأمر عن تفكيري في انتظار ما سيُسْفر الليل عن شَرْحه.

كانت الساعة التاسعة والربع عندما خرجتُ من منزلي وسلكت طريقي عَبْر المتنزَّه، ومن ثَمَّ مرورًا بشارع أكسفورد حتى وصلتُ إلى شارع بيكر. كانت هناك عربتان تجرُّهُما الخيول واقفتان أمام الباب، وفي مدخل المبنى طَرَق سمعي أصواتٌ قادمة من الطابق الأعلى، وعندما دخلتُ الحجرة وجدتُ هولمز في محادثةٍ حيويةٍ مع رجلَين، تعرَّفْتُ على أحدهما،

فقد كان بيتر جونز، وكيل الشرطة الرسمية، بينما كان الآخر رجلًا طويلًا نحيفًا، مُكفَهِرَّ الوجه، ذا قُبَّعة شديدة اللمعان وسترةٍ فاخرة طويلة تصل حتى الركبة مَشقوقَة الذَّيل.

قال هولمز، وهو يغلق أزرار مِعطَفه الصوفيِّ المُضاعَف الصَّدْر ويأخذ سَوْط الصيدِ الثقيلِ من فوق الرَّفِّ: «ها قد اكتمل الحفل! أعتقد أنك تعرف السيد جونز من سكوتلاند يارد يا واطسون؟ لكن دعني أقدِّم لك السيد ميريويذر، الذي سيكون رفيقنا في مغامرة الليلة.»

قال السيد جونز في زُهُوٍّ: «سنصطاد الليلةَ كفريق مرةً أخرى يا دكتور، فكما ترى صديقنا هنا ماهر جدًّا في بدء المطاردات، وكل ما ينقصه كلبٌ عجوز ليساعده في القبض على الفريسة.»

علَّق السيد ميريويذر في وَجَم بقَوْلِه: «أرجو ألا تنتهي مطاردتُنا بحصولنا على مُجرَّد إِوَزَّة برية.»

قال رجل البوليس بتعالٍ: «يمكنك أن تثق تمام الثقة في السيد هولمز يا سيدي، فلديه أساليبه الخاصة، والتي أراها — وليعذرني — نظريةً أكثر من اللازم، إلا أنه يحمل بين جنبَيه مُحقِّقًا قد لا أبالغ إن قلتُ إنه قد تفوَّقَ على الشرطة المحليَّة مرةً أو مرتَين كما في قضية قتل شولتو، وقضية كَنْز أَجْرا.»

قال الرجل الغريب بخضوع: «ما دام هذا رأيك يا سيد جونز، إلا أنني ما زلتُ أفتقد لعب الورق، إنها المرة الأولى منذ سبع وعشرين سنة التي يفوتني فيها لعب الورق.»

قال شيرلوك هولمز: «أعتقد أنك ستكتشف أنك ستلعب الليلة على رهان أكبر من أي رهان لَعِبتَ عليه، وأن هذا الرِّهان سيكون أكثر إمتاعًا. بالنسبة لك يا سيد ميريويذر، سيكون الرهان بقيمة ثلاثين ألف جنيه، أمَّا بالنسبة لك يا جونز، فسيكون الرهان على الرجل الذي تودُّ أن تُلقِيَ القبض عليه.»

«جون كلاي، القاتل اللصُّ المُخرِّب المُزوِّر، اتَّضَح أنه رجلٌ شابٌّ يا سيد ميريويذر، ولكنَّه على رأس محترفي مهنته، إنني أفضِّل القبض عليه أكثر من القبض على أيِّ مجرم في لندن، إنه رجل غير عادي، الشاب جون كلاي. لقد كان جَدُّه دوقًا ملكيًّا، وهو ذاته درس في إيتون ثم أكسفورد، وعقله مخادع كأصابعه، ومع أننا نجد آثاره في كل منعطف، فإننا لم نعرف قطُّ أين يمكنُنا العثورُ على الرجل نفسه، فهو قد يَنْقُب مبنًى لتخزينِ القمح في اسكتلندا في أسبوع، ثم يجمَع المال في الأسبوع الذي يليه لبناء دار أيتام في كورنوال. لقد كنت أتعقَّب أَثَرَه لسنوات، لكن عينيَّ لم تقعا عليه قطُّ حتى الآن.»

«أرجو أن أنال شَرَف تعارُف بعضكما ببعض الليلةَ، لقد كان لي مع السيد جون كلاي جولةٌ أو اثنتان كذلك، وأنا أتفق معك فهو على رأس مهنته. إنها العاشرة والربع، وهو وقت مناسب للبدْءِ، يمكنكما الركوب معًا في إحدى العربات المنتظرة في الخارج، وسأتبعكما أنا وواطسون في العرَبة الأخرى.»

لم يكن شيرلوك هولمز كثير الكلام خلالَ الرحلة الطويلة، وظلَّ مُسنِدًا ظهره للمقعد في العربة، وهو يُدندن بالألحان التي استمَعَ لها في المساء. وسارتْ بنا العربة بصَوْتِها المُقَعْقِع، عبر متاهة لا متناهية من الشوارع المُسرَجَة، حتى وصلنا لشارع فارينجتون.

قال صديقي مُعلِّقًا: «ها قد اقترَبْنا الآن، هذا الشخص ميريويذر يعمل مدير بنك، وهو طرف أساسي في هذه القضية، ورأيت أن أشرك جونز معنا فيها أيضًا، فهو ليس شخصًا سيئًا، وبالرغم من بلاهته فيما يخصُّ عمله، فإن له قيمة إيجابية، فهو مِقْدام ككلب بولدوج ومُتشَبِّثٌ كسرطان البحر، إذا أنشب مَخالِبَه في أحدهم. ها قد وصَلْنا، وها هما ينتظرانِنا.»

وصلنا إلى نفس الطريق المزدحم الذي وجدنا أنفسنا فيه في الصباح. فصرفنا عربتَي الأجرة، وبناءً على إرشادات السيد ميريويذر، مرَرْنا بممرٍّ ضيِّق، ودخلنا من باب جانبي فَتَحَه لنا. كان هناك دهليز صغير، انتهى ببوابة حديديَّة ضَخمة للغاية، فتَحها لنا أيضًا، فأوصلتْنا إلى درجات سُلَّم ملتوِيَة تنتهي عند بوابةٍ أخرى هائلة. توقَّف السيد ميريويذر لإضاءةِ المصباح، ثم قادَنا إلى أسفلٍ في ممر مظلم، تفوح منه رائحة الأرض، وهكذا، بعد فتح بوابة ثالثة، وصَلْنا إلى قَبْوٍ أو سِردابٍ ضَخمٍ، كُدِّس بالكاملِ بالصناديق والأقفاص الضخمة.

علَّق هولمز وهو يحمل الفانوس ويحدِّق حوله: «من الصعب جدًّا اختراقكم من الأعلى.»

قال السيد ميريويذر وهو يدقُّ بعصاه على الأرض: «ومن الأسفل أيضًا.» ثم أردَفَ قائلًا: «يا إلهي! إنه يصدر صوتًا أَجْوَف.»

قال هولمز بصرامة: «يجب أن أطلُب منك حقًّا أن تكون أهدأَ قليلًا، لقد أضعفت حقًّا فرصة نجاحِ مهمتنا. هل يُمكنني أن أطلب منك أن تجلِس على أحدِ هذه الصناديق، وألا تتدخَّل؟»

جلس السيد ميريويذر المُوقَّر على أحد الصَّناديق، وترتَسمُ ملامح الضِّيق الشديد على وجهه، بينما نزل هولمز بركبتَيه على الأرض، وبدأ يتفحَّصُ بدقَّة الشقوقَ بين الحجارة مُمسِكًا بيدَيْه المصباح والعدسة المُكبِّرة. كانت بضع ثوانٍ كافيةً لينهض على قدمَيْه مرةً أخرى، ويضع عدسته في جَيْبه.

وعلَّق قائلًا: «أمامنا ساعةٌ واحدة على الأقل، لأنهم لا يُمكنهم اتخاذُ أيِّ خُطوات حتى يصبح سمسار العقارات الطيب نائمًا في سريره. ثم عندئذٍ لن يضيِّعوا دقيقةً واحدةً، وكلَّما أسرعوا في أداءِ عملهم أتاح لهم ذلك وقتًا أطولَ يمكنهم فيه الهرَب. نحن في الوقت الحالي، يا دكتور — كما أعتقد أنك بلا شك خَمَّنْت — في قَبْو فرع المدينة لأحد البنوك الرئيسية في لندن. السيد ميريويذر هو رئيس مجلس الإدارة، وسوف يشرحُ لك الأسباب التي تجعل أعتى مجرمي لندن يهتمُّون بهذا القَبْو في الوقت الحالي.»

همس مدير البنك: «إنه ذَهَبُنا الفرنسي، فقد تلقَّيْنا العديد من التحذيرات أن أحدَهم قد يحاولُ سرقته.»

«ذَهَبُكم الفرنسي؟»

«نعم، كانت لدينا فرصة منذ بضعة أشهر لتعزيز مواردنا، واقترضنا لهذا الغرض ثلاثين ألف قطعةٍ ذهبيَّة من بنك فرنسا. لقد أصبح معروفًا أنه لم تُتَحْ لنا الفرصةُ مُطلَقًا لتسييل الأموال، وأنها لا تزال مُلقاةً في قَبْوِنا. يحتوي الصندوقُ الذي أجلِس عليه على ألفَيْ قطعة ذهبية فرنسية مُعبَّأَة بين طبقات من رقائق الرصاص. إن مخزوننا من السبائك أكبرُ بكثير في الوقت الحالي ممَّا يُحتفَظُ به عادةً في مكتب فرعيٍّ واحد، وكان لدى المديرين مخاوفُ بشأن هذا الموضوع.»

قال هولمز مُعلِّقًا: «وهي المخاوف التي كان لها تبريراتها القوية. والآن حان الوقت لترتيب خُطَّتِنا الصغيرة. أتوقَّع أن الأمور ستصل إلى أَوْجِها خلال ساعة. في هذه الأثناء، السيد ميريويذر، علينا أن نضَعَ الغطاءَ على ذلك المصباح الداكن.»

«ونجلس في الظلام؟»

«أخشى أن ذلك صحيحٌ. لقد أحضرت معي مجموعةً من ورق اللعِب، ورأيت بما أننا مُتمرِّسين في اللعِب؛ فبإمكاننا تكوينُ مجموعة للعب الورَق، لكنني رأيتُ أن استعدادات العدوِّ قد قطعت شوطًا طويلًا، للدَّرجة التي لا يمكننا معها المخاطرة بوجود أي ضوء، وقبل كل شيء، يجب أن نختار مواقعنا. فمَن نتعامل معهم رجال لا تنقصهم الجرأةُ، وعلى الرغم من أننا سنأخذهم على حين غِرَّةٍ، فإنهم قد يُلحِقون بنا بعض الأذى ما لم نتوخَّ الحذر. سأقفُ وراء هذا الصندوق، وأطلب منكم الاختباء وراء هذه الأخرى. ثم، عندما أفاجئُهم بتسليط الضَّوء عليهم هاجموهم بسُرعة. وإذا أطلقوا النار فلا تتردَّد يا واطسون في إطلاق النار عليهم.»

جهَّزْتُ مُسدَّسي، ووضعته على الجزء العلوي من الصندوق الخشبي الذي جلسْتُ وراءه. وأغلق هولمز الجانب الأمامي لمصباحه وتركَنا في ظلام دامس، ظلامٍ كما لم أشهده من قبل. بقيت رائحة المعدن الساخن تُطمْئِننا إلى أن الضوءَ كان لا يزال هناك، وعلى استعدادٍ للإنارة في أي لحظة. بالنسبة لي، ومع حالة الاستنفار العصبي التي كنْتُ فيها، فقد كان هناك شيء مُحبِط في الظُّلمة المفاجئة، وفي الهواء الرطب البارد للقَبْو.

همس هولمز قائلًا: «ليس لديهم إلا مهربٌ واحدٌ، عبر المنزل إلى ميدان ساكس كوبورج. آمُل أن تكون قد فعلت ما طلبت منك يا جونز.»

قال جونز: «لديَّ مفتش وضابطان ينتظرون عند الباب الأمامي.»

«إذن؛ فلقد أغلَقْنا كلَّ المنافذ، الآن ما علينا سِوى الانتظارِ في هدوء.»

ما كان أطول فترة الانتظار تلك! رغم أنها — من مقارنة الملاحظات بعد ذلك — لم تَدُمْ سوى ساعة وربع، فقد بدا لي أن الليل يُفتَرَض أن يكون قد انتهى، وأن الفجر بدأ في الإسفار فوقنا. كانت أطرافي مُرهَقَة ومُتشنِّجَة، لأني خشيت أن أغيِّر وضعيتي، ومع ذلك كانت أعصابي في أعلى درجات التأهُّب، وكان سمعي حادًّا لدرجة أنني لم أتمكَّن فقط من سماع التنفُّس اللطيف لمرافقيَّ، بل استطعتُ التمييزَ بين التنفُّس الأعمق والأثقل لجونز الضَّخم، من التنفس الخفيف والمُتقطِّع لمدير البنك. وكان يُمكنني، من مكاني، أن أرى الأرضية من فوق الصندوق. وفجأة لمحَتْ عينايَ بصيصًا من الضوء.

في البداية لم تكن سوى شرارةٍ لامعةٍ على حَجَر الأرضية. ثم استطال حتى أصبحَ خطًّا أصفر، وبعد ذلك، ودون أي تحذير أو صوت، بدا أن هناك شَرْخًا مفتوحًا وظهرَتْ يدٌ، يدٌ بيضاء وكأنَّها يد امرأة، أخذَتْ تتحسَّس وسطَ منطقة الضوء الصغيرة. لدقيقة أو أكثر، برزت اليدُ بأصابِعِها المُتفحِّصَة من الأرض. ثم سُحِبَت فجأةً كما ظهرت، وعاد كل شيء مظلمًا مرةً أخرى باستثناء الشرارة الساطعة في الشقِّ بين الحجارة.

لم يدُمْ ذلك الاختفاءُ طويلًا، فقد سمعنا صوت تشقُّقٍ وهَدْمٍ، كان ذلك أحد الأحجار التي قُلِبَت على أحد جوانبها مُخلِّفًا فتحةً مربعةً، شَعَّ منها ضوء مصباح. ومن حافَة الفتحة ظهر وجه مميَّز لفتًى يَختلِس النظر، ناظرًا حوله في لَهْفَة، عند ذلك وضع يدَيه على جانبَي الحافة، ورفع كتفَيه ووسطه حتى وضع إحدى ركبتَيه على الحافَة، وفي لحظةٍ كان واقفًا على جانب الحافة ليجذِب رفيقه، كان رشيقًا وضئيلًا مِثْله، بوجه شاحبٍ وشعر شديد الحُمْرة.

همس قائلًا: «كل شيء واضح، هل معك الإزميل والحقائبُ؟ يا لَلروعة! اقفِزْ يا أرشي، اقفز، وسأحاولُ متابعتك.»

هبَّ شيرلوك هولمز وأمسك بالمُقتحِم من ياقته، بينَما غاص الآخر أسفلَ الحفرة، ثم سمعت صوت القماش يتمزَّق بينَما كان جونز يحاول الإمساك بطَرَف ثيابه. ومَضَ الضوء على فُوَّهَة مُسدَّس، لكن سَوْط هولمز نزل على مِعْصَم الرجل؛ فسقط المُسدَّس على الأرضية الحجرية.

قال هولمز: «لا فائدةَ من المقاومة يا جون كلاي، ليس لديكَ أيَّة فرصة على الإطلاق.»

قال جون كلاي وهو في منتهى الهدوء: «حسنًا، أرى ذلك، لكن أظنُّ أن صديقي بخير رغم أنكم ألقَيتُم القبض على ذَيْلِ مِعطفه.»

قال هولمز: «هناك ثلاثة رجال في انتظاره عند الباب من الجهة الأخرى.»

«آه، بالطبع! يبدو أنكم قُمتم بهذا الأمر على أتمِّ وَجهٍ، يجبُ عليَّ أن أبدي إعجابي بذلك.»

«وأنا كذلك، فقد كانت فكرة عُصبة ذوي الشعر الأحمر جديدةً جدًّا وفَعَّالةً.»

قال جونز: «ستلتقي صديقَك في القريب العاجل، لقد كان أسرعَ مني في نزولِه للحُفرة، اثبت حتى أضعَ الأصفاد.»

قال سجينُنا، بينما كانت الأصفاد تلتفُّ على معصمَيه: «أرجو ألا تلمسني بيدَيك القذرتَين، قد لا تعلم بأن لديَّ دمًا ملكيًّا في عروقي؛ لذا أرجو منك عندما تخاطِبُني دائمًا أن تقول لي «سيدي» و«من فَضلِك».»

قال جونز وقد ضَحِك ضحكةً مكتومةً: «حسنًا، هل تسمح يا سيدي بالتَّفضُّل معي إلى الطابق الأعلى؛ لنُوقف لك عربة تحمل سُمُوَّك إلى مَخْفَر الشرطة؟»

قال جون كلاي بهدوء: «هذا أفضل.» ثم انحنى لثلاثَتِنا انحناءةً كبيرةً، وانصرف بهدوء في صُحبة المُحقِّق.

قال السيد ميريويذر، ونحن نخرُج خلفَه من القَبْو: «حقًّا يا سيد هولمز لا أعرف كيف يمكن للبنك أن يشكرك أو يردَّ لك الجميل؛ إذ لا شكَّ في أنك اكتشفت وأحبطت بأكثر الطرق إحكامًا واحدةً من أكثر محاولات سرقة البنوك التي أعرفها إصرارًا.»

قال هولمز: «لقد كان هناك حسابٌ خاص بيني وبين السيد جون كلاي، وقد أنفقتُ بعض النقود على هذه القضية وأتوقَّع من البنكِ أن يقومَ بدفعها لي، أمَّا غير ذلك؛ فإن التجربة المُميَّزة التي خضْتُها تُعتبَر مكافأةً شخصيةً، هذا غير سماعي لحكاية عُصبة ذوي الشعر الأحمر المثيرة للاهتمام.»

شرح لي هولمز في الساعات الأولى من الصباح، بينما كنا نحتسي كأسًا من الويسكي والصودا في شارع بيكر قائلًا: «كما ترى، يا واطسون، كان من الواضح تمامًا من البداية أن الهدفَ الوحيد الممكن للإعلان عن العُصبة، ومن وظيفة نسخ «الموسوعة»، هو إبعاد هذا السمسار الضَّيِّق الأُفُق لعدَّة ساعاتٍ كل يوم. ورغم غرابة الفكرة والطريقة؛ فإنه في الحقيقة ليس هناك أفضل منها. ولا بدَّ أن هذه الطريقة هي من بناتِ تفكيرِ كلاي، بسبب لَوْن شعر شريكِه. كما أن راتب الجنيهات الإسترلينية الأربعة في الأسبوع كانت إغراءً يصعُب رفضه من قِبَل السمسار، ولم يكن هذا المبلغ ليساوي شيئًا بجانب ما يسعَوْن خلفَهُ من آلاف الجنيهاتِ الذهبية؟ لقد وضعا الإعلان، بينما قام أحدُهما باستئجار مكتَبٍ، في حين قام الآخر بحثِّ السمسار على التقدُّم إليها، وعملا معًا من أجل تأمين غيابه كل صباح. ومنذ أن سمعتُ أن المساعد قَبِل الوظيفة بنصف الأجر تأكَّدْت أنه كان لديه دافعٌ قوي للحُصول عليها.»

«ولكن كيف أمكنك تخمينُ دافعه؟»

«لو كان هناك نساء في المنزل، لثارتْ لديَّ شكوك في كَوْنها مُجرَّد مؤامرات مُبتذَلة. ومع ذلك، فقد كان هذا غيرَ وارد. كان عمل الرجل عملًا صغيرًا، ولم يكن هناك شيء في منزله يمكن أن يفسِّر مثل هذه الاستعدادات المُعقَّدَة، ومثل هذه النفقات التي كانوا ينفقونها؛ إذن كان يجب أن يكون شيءٌ ما خارجَ المنزل. ماذا يمكن أن يكون؟ فكَّرت في وَلَعِ المساعد بالتصوير الفوتوغرافي، وحيلة اختفائه في القَبْو. القبو! هناك كانت النهاية لهذه الفكرة المتشابكة. ثم استفسرت عن هذا المساعد الغامض ووجدت أنه كان عليَّ التعامل مع أحد أذكى المجرمين وأكثرهم جرأةً في لندن. كان يفعل شيئًا في القَبْو، وهو الأمر الذي استغرق عدَّة ساعات في اليوم لعدَّة أشهر متتالية. ماذا يمكن أن يكون، مرةً أخرى؟ لم أستطعِ التفكيرَ في شيء سوى أنه كان يصنعُ نفقًا إلى مبنًى آخر.

وهذا ما حصلتُ عليه عندما ذهبنا لزيارة مسرح الأحداث. لقد فاجأْتُكَ بالضرب على الرصيف بعَصاي؛ فقد كنت أتأكَّد ممَّا إذا كان القبوُ ممتدًّا أمامي أم من خلفي. ولم يكن يمر من أمام المنزل. ولما دَقَقْتُ الجرس أجابه المساعد، كما كنت آمُلُ. ومع أنه كانت لدينا بعض المناوشات من قبل، فإنه لم يرَ أحدنا الآخر قطُّ. بالكاد نظرت إلى وجهه؛ فقد كانت ركبتاه هي ما تمنَّيْت أن أراه. ينبغي أن تكون قد لاحظتَ كيف كانتا بالِيَتَين ومُجعَّدَتَين ومُلطَّخَتَين. كانت ركبتاه شاهدتَين على ساعات الحَفْر تلك. النقطة المتبقية الوحيدة هي ما الذي كانوا يحفرون لأجله. مَشَيْت حول الزاوية، ورأيت بنك سيتي وسوبربان مجاورَيْن

لمقرِّ صديقنا، وشعرْتُ أنني قد حلَلْت قضيتي. وعندما وصلتُ إلى المنزل بعد الحفل، زُرْتُ مقرَّ الشُّرطة في سكوتلاند يارد ورئيس مجلس إدارة البنك، وأطلَعْتُهم على النتيجة التي رأيتُهَا.»

سألته: «وكيف عرفت أنهما سيقومان بمحاولة السرقة في هذه الليلة؟»

«حسنًا، لقد أغلقا مقرَّ العُصبة، ذلك يعني أنهما لم يعودا يكتَرِثان بحضور السيد جابز ويلسون، بعبارةٍ أخرى، لقد أتمَّا حَفْر نفقهما. لكن كان من الواضح أنهما سيستخدمانه قريبًا، قبل أن يُكتَشَف أو أن تُنقَل سبائك الذهب. كان يوم السبت موعدًا مناسبًا لهما أفضل من أي يومٍ آخر، لأنه سيتيح لهما يومَين يُمكنهما فيهما الهرَب، لكل هذه الدلائل خمَّنْت أن يكونَ موعد سَطْوهم الليلة.»

هتفتُ بإعجابٍ صادق: «ما أجمل ما حلَلْت به الأمر! وبالرغم من كَوْنها سلسلةً طويلةً من الأحداث، إلا أن كل حلقة منها وُضعَت في مكانها الصحيح.»

أجابني وهو يتثاءب: «لقد أنقذَتني من المَلَل، يا لَلخسارة! كنتُ قد شعرت بالفعل أنه تمَلَّكني، حيث أقضي حياتي محاولًا التخلُّص من الروتين، وهذه القضايا الصغيرة تساعدني في ذلك.»

قلتُ: «كما أنك تقوم بأعمالٍ مفيدة من أجل البشرية.»

قال بعد أن هزَّ كتفَيه: «حسنًا، ربما يكونُ في الأمرِ بعضُ الفائدةِ رغم كلِّ شيء، كما كتب جوستاف فلوبرت ذات يوم لجورج ساند: «إن الإنسانَ لا يساوي شيئًا، لكن الأفعالَ تُساوي كل شيء».»

لغز وادي بوسكومب

تأليف

آرثر كونان دويل

ترجمة

صلاح عبد العزيز مفتاح

مراجعة

شيماء طه الريدي



لغز وادي بوسكومب

كنا جالسَين — أنا وزوجتي — نتناول الإفطار في صباح أحد الأيام، عندما دخلَت الخادمة ومعها برقية. كانت البرقية من شيرلوك هولمز، وكان نصها كالتالي:

> هل يمكنك أن تتفرَّغ لمدة يومَين؟ وصلتْني للتوِّ برقية من غرب إنجلترا بخصوص مأساة وادي بوسكومب، سأكون سعيدًا إذا رافقتَني، الهواء نقيٌّ والمناظر الطبيعية هناك خلَّابة. سأغادر محطة بادينجتون في قطار الساعة الحادية عشرة والربع.

نظرتْ إليَّ زوجتي وقالت: «ما رأيك يا عزيزي؟ هل ستذهب؟»

«لا أعلم حقًّا ماذا أقول، فلديَّ قائمة طويلة من المهام في الوقت الحالي.»

«سوف ينوب عنك أنستروثر في العمل. إنك تبدو شاحبًا قليلًا مؤخَّرًا، وأظن أن تغييرَ الأجواء سيكون له تأثير جيد عليك، كما أنك دائمُ الاهتمام بقضايا السيد شيرلوك هولمز.»

أجبتُها: «لو قلتُ إنني لست مهتمًّا لكنت جاحدًا، بالنظر إلى ما استفدتُ به من إحدى تلك القَضايا، ولكن إذا كنتُ سأذهب، فيجبُ أن أحزم حقائِبي على الفَور؛ فلم يتبقَّ على موعد القطار إلا نصفُ ساعةٍ فقط.»

كان لتجربتي مع حياةِ المعسكرات في أفغانستان، على الأقل، تأثيرٌ جعلني دائمَ الاستعداد والحماس للسَّفر. وكانت احتياجاتي قليلةً وبسيطة، لذلك كنتُ قبلَ الوقت المطلوب أستقلُّ عربة أجرة مع حقيبة سفري، في طريقي إلى محطة بادينجتون. كان شيرلوك هولمز يذرَع رصيف المحطة ذهابًا وإيابًا، وقد بدا قوامه النَّحيل الطويل أكثرَ نحولًا وطولًا، في معطف السفر الرمادي الطويل، وقبعته القماشية المُحكَمة على رأسه.

قال هولمز: «إنه لأمرٌ جيد حقًّا أن تأتي يا واطسون؛ فوجود شخصٍ معي يمكنني الاعتماد عليه كليًّا، من شأنه أن يُحدِث فارقًا كبيرًا بالنِّسبة لي؛ فالمساعدون المحليُّون دائمًا ما يكونون إما بلا فائدة أو متحيِّزين، لو أمكنَك أن تحجِز لنا مقعدَين في الزاوية، فسأذهب لآتِي بالتَّذاكر.»

لم يكن ثمَّة أحدٌ في عرَبة القطار سِوانا، وكمية هائلة من الجرائد جلَبها معه هولمز، اندمج في قراءتها وفحصها بعناية، وتخلَّل ذلك فتراتٌ من تدوينِ الملاحظات والتأمُّل، حتى تجاوزنا محطة ريدينج، عندئذٍ قام هولمز فجأةً بلفِّ الجرائد كلِّها معًا في كرة ضخمةٍ، وألقاها على الرَّفِّ.

قال هولمز: «هل سمعت أيَّ شيءٍ عن هذه القَضيَّة؟»

قلتُ: «ولا كلمةً واحدة، كما أنَّني لم أرَ أيَّ صحفٍ منذُ أيام.»

«لم تغطِّ الصحف اللندنية الخبرَ على نحوٍ كامل؛ فقد اطَّلعت الآن على كلِّ الصُّحف التي صدرت مؤخَّرًا؛ لأتمكَّن من فَهم التفاصيل، ويبدو ممَّا فهمته أنها إحدى تلك القضايا التي تبدو بسيطةً؛ بينما هي في حقيقتها بالغةُ الصعوبة.»

«هذا يبدو متناقضًا بعضَ الشيء.»

«لكنه صحيحٌ تمامًا. والغرابةُ دائمًا ما تكون مفتاحًا لحل اللُّغز. وكلَّما كانت الجريمة عاديةً وبلا معالم، زادَت صعوبةُ حلِّها؛ غير أنَّهم في هذه القضية جمَعوا أدلةً خطيرة للغاية ضدَّ ابنِ الرجل المقتول.»

«هي جريمةُ قتلٍ إذن؟»

«يُعتقد أنَّها كذلك، ولن آخذ بأيِّ مُسلَّمات في القضية؛ حتى تُتاح لي الفرصة للاطِّلاع عليها بنَفسي، وسأشرحُ لك طبيعة الأمور حسبَما استطعتُ فهمَه، بإيجازٍ شديد.

إن وادي بوسكومب مقاطعة ريفية ليسَت بعيدة عن روس في هيرفوردشاير، ويُعدُّ السيد جون تيرنر أكبرَ مُلَّاك الأراضي في هذه المَنطقة، وقد كوَّن ثروته في أستراليا، ثم عادَ إلى وطنِه الأصلي منذ سنَوات عدَّة. وقد أجَّر إحدى مزارعه التي يمتَلكُها، وهي مزرعة هاذرلي، للسيد تشارلز مكارثي، الذي كان يُقيم فيما مضَى في أستراليا أيضًا، وتعارفا هناك في المُستعمرات؛ لذا كان من الطَّبيعيِّ أن يستقرَّ أحدهما بجانب الآخر قَدر المستطاع. كان تيرنر كما يبدو هو الأكثَر ثراءً؛ ومن ثمَّ أصبح مكارثي هو المُستأجِر منه، ولكن ظل التعامل بينهما، كما يبدو، قائمًا على التَّساوي البَحت؛ إذ كانا يقضيان معًا الكثير من الوقتِ. كان لمكارثي ابنٌ وحيد شابٌّ في الثامنةَ عشرةَ، وكان لتيرنر ابنة في السنِّ ذاته؛ لكن لم يكن

لأيٍّ منهما زوجة على قَيد الحياة. والظاهرُ أنهما كان يتجنَّبان الاختلاط — اجتماعيًّا — بمن جاورَهما من الأَسَر الإنجليزية، ويعيشان حياةً منعزلةً، بالرغم من ولَع مكارثي وولدِه بممارسَة الرياضة، وشُوهدا كثيرًا في السِّباقات التي تُعقَد في الجِوار. كان لدى مكارثي خادمان، رجل وفتاة، أما تيرنر، فكان لدَيه الكثير من الخدَم، ستةٌ على الأقل. هذا كل ما أمكنني جمعُه من معلوماتٍ عن العائلتَين، وسأتطرَّق الآن للحقائق.

في الثالث من يونيو الموافق يوم الإثنين الماضِي، غادر مكارثي منزلَه في هاذرلي في حوالَي الساعة الثالثة مساءً، وسار نحو بُحيرة بوسكومب، وهي بُحيرةٌ صغيرة تشكَّلت بفعل اتِّساع النهر الذي يجري عبرَ وادي بوسكومب. وقد كان في الصَّباح بصُحبة خادمِه في روس، وأخبرَ الخادمَ أن عليهما الإسراعَ كي يلحَقَ بموعد مُهمٍّ في تمام السَّاعة الثالثة؛ ذلك المَوعد الذي لم يرجِع منه حيًّا.

تبلغ المسافةُ بين مزرعة هاذرلي وبحيرة بوسكومب ربعَ مِيل، وقد رآه شخصان وهو يَسيرُ في ذلك الطريق؛ أحدهما سيدة عجُوز لم يُذكَر اسمُها، أما الآخر فكانَ ويليام كراودر، وهو حارسُ صيدٍ كان يعمَل لدى السيد تيرنر، وقد شهِد كلاهما بأنَّ السيد مكارثي كان يسيرُ وحدَه. وأضاف الحارسُ أنه بعد دقائقَ من رُؤيته للسيد مكارثي، وهو يمُرُّ، شاهدَ ابنَه السيد جيمس مكارثي يسيرُ في الطريق نفسِه حاملًا بندقيةً تحتَ ذراعه، وأغلبُ ظنه أن الأب كان في مرمَى البصَر بالفعل في ذلك الوَقت، وكان الابن يتبَعه، ولم يفكِّر الحارس كثيرًا بالأمر حتى سمِع في المسَاء بالمأساة التي حدَثت.

شُوهد الأب وابنُه مرة أخرى، بعدما غابَا عن نظرِ ويليام كراودر حارسِ الصيد. إن بحيرة بوسكومب محاطة بالأشجار الكثيفة، ويَحفُّ بها القليل من الحشائِش والخيزُران حولَ الحافَّة. وكانت بيشنس موران — وهِي فتاةٌ تبلُغ من العُمر أربعةَ عشرَ عامًا، وابنة حارسِ بوَّابةِ منطقة وادي بوسكومب — تتمشى بين هذه الأشجار الكثيفة تقطِف الأزهار. وقد قالت إنها أثناءَ وجودها هناك رأَتْ عند حدود الغابة، بالقُرب من البحيرة، السيد مكارثي وابنَه، ويبدو أنهما كانا يتشاجَران مشاجرةً عنيفة. وقد سمعَت السيد مكارثي الأكبر يتفوَّه بألفاظٍ حادة جدًّا لابنه، ورأَت الأخير يرفَعُ يدَه كما لو كان سيضرب والدَه. شعرَت الفتاة بخوفٍ شديد من هذا العُنف إلى درجة أنها هُرِعَت إلى المنزل، وأخبرَت والدتها أنها تركَت السيد مكارثي وابنَه يتشاجران بالقُرب من بحيرة بوسكومب، وأنها تخشَى أن يتقاتَلا. وما كادت الفتاة تُخبر أمَّها بذلك، حتى جاء السيد مكارثي الابن مُسرعًا إلى كوخ الحارس؛ ليقولَ إنه وجَد والده ميِّتًا في الغابة، وطلب منه المُساعدة. كان في حالة من الهِياج

الشَّديد، ولم يكن معه بندقيتُه ولا قبَّعتُه، ولُوحظ أن يدَه اليُمنى وكمَّه الأيمن ملطَّخان بدماءٍ حديثة. وعندما اتَّبعوه وجدوا الجثة مُلقَاةً على الحشائش بجانب البُحيرة. كان الرأسُ قد تعرَّض لضربات متكرِّرة من سلاح ثقيلٍ غيرِ حاد. من المحتمل أن تكونَ هذه الإصابات قد وقعت بواسطةِ مؤخِّرة بندقية ابنِه التي عُثِر عليها ملقَاةً على الحشائش، على بُعد بضع خُطواتٍ من الجُثَّة. وفي ظل هذه الظُّروف، قُبض على الشابِّ على الفَور، ووُجهتْ له تهمةُ «القتل العَمْد» في التَّحقيقِ الذي أُجري يومَ الثلاثاء، وعُرض يومَ الأربعاء أمامَ هيئةِ محلَّفي روس الذين أحالوا القضيةَ إلى الجلسةِ التالية. تلك هي الوقائعُ الرئيسَة في القضية، مثلما عُرضَت على قاضي التحقيق الجنائي والمحكَمة الشرطية.»

قلتُ مُعلِّقًا: «لا يمكنني تصوُّرُ قضيةٍ أبشع من هذه القضية. ما من قضيةٍ تُشير فيها الأدلةُ الظرفية إلى القاتل مثل هذهِ القضيَّة.»

أجاب هولمز وهو مستغرق في تفكير عميق: «إن الأدلَّة الظرفيةَ شيء خادعٌ للغَاية. فقد تبدُو أنها تشير مباشَرةً إلى شيءٍ ما، ولكن إذا غيَّرت وجهةَ نظرِك قليلًا، فقد تجدُها تشيرُ بالقوَّة ذاتها إلى شيء مختلِف تمامًا. ومع ذلك، يجِب الاعترافُ بأن الأدلةَ ضدَّ الشاب قويةٌ جدًّا، ومن الوارد تمامًا أن يكون هو الجَاني بالفعل، ولكن يوجد العديدُ من الأشخاص في الحيِّ، من بينهم الآنسة تيرنر، ابنة مالك الأرض المجاورة، يؤمنون ببراءَة الشَّاب، وقد وكَّلوا ليستراد — قد تذكرُه من قضية «دراسة في اللون القرمزي» — ليُدافعَ عنه، ولكنه شعَر بالحَيْرة، فأحال بدَوْره هذه القضية إليَّ، وهذا ما جعَل رجلَين مثلِنا في منتصَف العمر يُسافران غربًا بسُرعة خمسين ميلًا في الساعة؛ بدلًا من تناول إفطارِهما في مَنزلَيهما في هُدوء.»

قلتُ: «أخشَى أنَّ الحقائق واضحةٌ، لدَرجة أنَّك لن يكونَ لك فضلٌ كبير في حلِّ هذه القَضية.»

أجاب ضاحكًا: «لا شيءَ أكثرُ خداعًا من حقيقةٍ واضحة؛ علاوةً على ذلك، ربَّما نصادف بعضَ الحقائق الواضِحة الأخرى التي ربَّما لم تكُن واضحةً بأي حالٍ من الأحوال للسيد ليستراد. وأنتَ تعرفني جيِّدًا للدرَجة التي تَجعلُك لا تظن أنَّني أتفاخر عندما أقول: إنني سوف أؤكِّد أو أدحضُ نظريته بطرُق لا يستطيع هو استخدامها أو حتى فهمَها. لنأخذ أول مثال بين أيدينا الآن؛ أدرِكُ تمامًا أن نافذةَ غرفة نومِك تقَعُ على الجانب الأيمن، ومع ذلك أتساءَل عمَّا إذا كان السيد ليستراد قد لاحظَ حتى مثلَ هذا الأمر البَديهيِّ.»

«كيفَ بالله عليك ...؟!»

«إنني أعرِفك جيدًا، يا صَديقي العزيز، وأعرفُ ما تتميَّز به من دقَّة عسكريَّةٍ صارمةٍ. فأنت تَحلِق ذقنك كلَّ صَباح، كما أنك في هذا الوقت من العام تستَعين بأشعَّة الشمس في الحِلاقة؛ ولكن نظرًا لأن دِقَّة حلاقتك تقلُّ بالتدريج كلَّما اتَّجَهنا إلى الجانب الأيسر، حتى تُصبح سيئةً تمامًا عند دوران زاويةِ الفَكِّ؛ فمن الواضح جدًّا أن هذا الجانبَ أقلُّ إضاءةً من الآخر. لا يمكنني تَخيُّلُ رجلٍ، له مثل ما لك من الطِّباع، يرضَى بتلك النتيجةِ عند النظَر لنَفسه في المِرآة في إضاءةٍ متساوية. أقول هذا فقط مثالًا متواضعًا على قوَّة الملاحظَة والاستِدلال. وهنا تكمُن مهارَتي، التي من المُمكن أن تكونَ ذات نفعٍ في التحقيق الذي أمامنا. فقد ذُكِر في التحقيق نقطةٌ أو نقطتان صغيرتان جديرتان بإمعانِ النظر فيهما.»

«وما هما؟»

«يبدو أن اعتِقالَ الفتى لم يحدُث على الفور، وإنما بعد عودَته إلى مزرعة هاذرلي. فعند إبلاغِ مفتش الشرطة له أنه رهن الاعتقال، قال إنه لم يتفاجأ لسَماع ذلك، وإنه يستحق ذلك. وكان من الطبيعيِّ مع هذه الملاحظة أن يزولَ أي شكٍّ، ربَّما قد تبقَّى في أذهان هيئة المحلَّفين.»

صِحتُ قائلًا: «لقد كان هذا اعترافًا منه.»

«لا، فقد أتبَع ذلك بادِّعاءِ أنه بَريء.»

«لكنَّ قوله هذا، وسط كل هذه الأحداث البشعة، يُثير الرِّيبة إلى أبعَد الحدود.»

قال هولمز: «على العكس من ذلك، إنَّها الفُرجة الأكثر إشراقًا الآن وسطَ الغُيوم. فمهما كان بريئًا، لا يمكن أن يكُون شخصًا أبلهَ للدرجة التي لا يمكنه معها أن يرَى أن الظروف كانت سيئة جدًّا ضدَّه. ولو بدا أنه فُوجئ باعتقاله، أو تصنَّعَ الغضبَ من ذلك، لنظرتُ إلى ذلك بعين الرِّيبة إلى حدٍّ كبير؛ لأن مثل هذه المفاجأة أو الغضب لن تكون طبيعيةً في ظل هذه الظروف؛ بل قد تبدو أفضلَ ما ينتهجه شخصٌ يخطِّط لمثل هذا الأمر. إن قبولَه الصريح للوَضع؛ إما أنه إشارةٌ إلى أنه بَريء، أو أنَّه رجلٌ يتمتَّع بقدر كبيرٍ من ضبط النَّفس والثَّبَات. أما بالنسبة إلى ملاحظتِه حول استحقاقِه لذلك، فلم يكُن غريبًا أيضًا إذا وضعتَ في الاعتبار أنَّه كان يقِفُ بجوار جثَّة والِده، وأنه لا شكَّ نسِي في ذلك اليوم واجبَ الابن تجاه أبيه، ما جعله يقسُو معه في الحديثِ، حتى وصَل الأمرُ — وَفقًا للفتاةِ الصَّغيرة التي تُعتَبر شهادتُها بالغةَ الأهمية — إلى رَفعِ يدِه، كما لو كان على وَشك أن يَضربه. يبدو لي أنَّ الشعور بالذنبِ والندَم اللذَين تجلَّيَا في عبارته تلك، إنَّما هي دلالاتٌ على عقلٍ سليم، وليس عقلًا إجراميًّا.»

هزَزْتُ رأسي قائلًا: «كم من رجالٍ أُعدِموا بأدلةٍ أتفهَ من هذه بكَثير.»

«أجلْ، وكم من رجالٍ أُعدِموا ظلمًا!»

«وما أقوالُ الشابِّ عن الوَاقعة؟»

«ليست مُشجِّعةً لأنصارِه للأسف، وإن كان فيها نقطةٌ أو اثنتان لهما دِلالات، ستجدُها هنا، ويمكن أن تقرأَها بنفسك.»

والتقَط من بين كَومة الجرائد التي كانت معه نسخةً من جريدة «هيرفوردشاير» المحلِّية، وبعد أن قلب الصفحةَ، أشار إلى فقرة فيها أقوال الشابِّ السيئِ الحظِّ بشأن ما حدَث. فجلستُ في ركن عربة القطار وقرأتها بعنايةٍ شديدة، وكان هذا نصها:

تمَّ استدعاءُ السيد جيمس مكارثي، الابن الوحيد للقتيل، وقدَّم إفادته على النحوِ التالي: «لقد كنتُ خارجَ المنزل لمدة ثلاثة أيَّامٍ في بريستول، ولم أعُدْ إلا صباح يوم الإثنين الماضي الموافق الثالثَ من الشهر. لم يكُن والدي موجودًا بالمنزل وقتَ وصولي، وأبلغَتْني الخادمةُ أنه قد غادَر إلى روس بصُحبَة جون كوب، السَّائس. بعد فترةٍ وجيزة من عَودتي، سمِعت صوتَ عجلاتِ عرَبته في الفِناء، ولمَّا نظرتُ من نافذتي، رأيتُه يمضِي مُسرعًا مغادرًا الفناء، ولكنِّي لم أدرِ إلى أين سيذهب. بعد ذلك، أخذتُ بندقيتي وذهبتُ لأتجوَّل في اتِّجاه بحيرةِ بوسكومب؛ بقَصد زيارةِ أرضِ الأرانِب الواقعة على الجانب الآخر. وفي طريقِي رأيتُ الحارسَ ويليام كراودر — كما ذكَر في شَهادته — لكنه مخطئٌ في ظنِّه أنني كنتُ أتبَع والدي. فلم يكن لديَّ أيُّ فكرةٍ أنه كان يَسير أمامي. ولما صِرتُ على بُعد حوالَي مائةِ ياردة من البُحيرة، سمعتُ صيحةَ «كوي!» التي كانت إشارةً مألوفةً بيني وبين والدي. فأسرعت الخُطى؛ لأجدَه واقفًا بجانبِ البُحيرة. وبدا أنه قد فوجئَ برؤيتي فسَألني بفظاظة عمَّا أفعلُه هناك. ودار بعد ذلك بيننا حوارٌ تحوَّل إلى جدالٍ عنيف وكاد يتطوَّر إلى الضَّرب؛ لأن والدي كان رجلًا ذا طباعٍ عَنيفة للغاية. ولما رأيتُ انفعالَه خارجًا عن السَّيطرة، تركتُه وعدت إلى مزرعة هاذرلي. لم أبتعِد أكثر من ١٥٠ ياردة؛ حتى سمعتُ صرخةً بَشِعة ورائي، ممَّا دفعني للعودة مرةً أخرى ركضًا، لأجِدَ والدي يُحتضَر على الأرض، مُصابًا بجروحٍ بالغةٍ في رأسِه. فألقيت بندقيتي واحتضَنْتُه بين ذراعَيَّ، لكنه مات في الحال. جثَوْتُ بجانبه لبضعِ دقائق، ثم توجَّهت إلى منزلِ السيد تيرنر — لكَوْن منزلِه هو الأقرَب —

لطلبِ المُساعدة. لم أرَ أحدًا بجوار والدي عندما عدتُ، وليس لديَّ أيُّ فكرة عن كيفيةِ إصابته. وبرغم أنه لم يكُن رجلًا محبوبًا، لأنه كان قاسيًا إلى حدٍّ ما وصعبَ المِراس، فإنه — حسَب علمي — لم يكن لدَيه أعداءٌ يُجاهرونه بالعداء، هذا كلُّ ما أعرِفه عن الموضوع.»

القاضي: «هل أدلَى إليك والدُك بأيِّ شيءٍ قبل وفاتِه؟»

الشاهد: «لقد غَمغم بكلماتٍ قليلة، لكنني لم أميِّزْ منها إلا كلمةَ (رات).»

القاضي: «وما الذي فهِمتَه من ذلك؟»

الشاهد: «لم يكُن لها أيُّ معنًى لديَّ. لقد ظنَنتُه يهذِي.»

القاضي: «وما الشَّيءُ الذي تسبَّب في شِجارِكما الأخير؟»

الشاهد: «أفضِّلُ عدمَ الإجابة.»

القاضي: «أخشَى أنَّني مُضطر للإصرار على مَعرفته.»

الشاهد: «من المستحيل فعلًا أن أخبرك؛ ولكنني أؤكِّدُ لك أنه لم يكن له علاقة بالمأساة المُؤسِفة التي تَبعت ذلك.»

القاضي: «المحكمة هي التي تُقرِّر ذلك، ولستُ بحاجة لأن أوضِّح لك أن رفضَك الإجابةَ سيضُر بمَوقفِك في القضية بشكلٍ كبير، في الجلسات التي قد تنعَقد فيما بعد.»

الشاهد: «ما زلتُ مُصِرًّا على الرَّفض.»

القاضي: «فهمتُ من كلامِك أنَّ صيحة «كوي» كانت إشارةً متعارفًا عليها بينك وبينَ والدِك.»

الشاهد: «نعم، كانَتْ كذلك.»

القاضي: «فكيف إذن أطلَق تلك الصيحة، قبل أن يراكَ، أو قبل أن يَعرِف أنَّك رجَعت من بريستول؟!»

الشاهد (وقد بدَت عليه الحَيرةُ الشَّديدة): «لا أعلَم.»

عضو هيئة المُحلَّفين: «ألم ترَ أي شيءٍ أثارَ الشكَّ عند عودتِك بعد أن سمِعتَ الصَّيحة؛ لتَجد والدَك مصابًا هذه الإصابةَ القاتلة؟»

الشاهد: «لم أرَ شيئًا مُحدَّدًا.»

القاضي: «ماذا تعني؟»

الشاهد: «لقد كنتُ مضطرِبًا ومنفعِلًا عندما أسرَعتُ بالخروج إلى المنطقة المَكشُوفة، ولم أتمكَّن من التفكير في أيِّ شيءٍ سِوى والدي، بالرَّغم من الإحساسِ الغامضِ الذي راوَدني

بوُجود شيءٍ كان مُلقًى على الأرض على يَساري عندما كنتُ أجري للأمام. كان شيئًا رماديَّ اللون، ربما كان مِعطفًا من نوعٍ ما، أو شَالًا؛ ولكن عندما نهَضتُ من جوار أبي وذهبتُ لأبحثَ عنه، كان قد اختَفى.»

«أتعنِي أنه كانَ قد اختفَى قبل أن تذهَب لطلَب المساعدة؟»

«أجل، كان قد اختَفى.»

«ألا يمكِنُك تحديدُ ماهيَّتَه؟»

«لا، فقط كان لديَّ شعورٌ أنه كان ثمَّة شيءٌ ما.»

«كم كان يبعُد عن موقعِ الجُثَّة؟»

«اثنتي عشرةَ ياردة، أو نحو ذلك.»

«وكم كان يبعدُ من حافَّة الغابَة؟»

«تقريبًا المسافةَ نفسَها.»

«إذن، عندما اختَفى هذا الشيء كنتَ أنت على بعد اثنتَي عشرةَ ياردة؟»

«أجل؛ ولكنْ من جِهة ظَهري.»

«وبهذا انتَهى استجوابُ الشاهد.»

قلتُ، وأنا أُطالِع المقال: «أرى أن قاضيَ التحقيقِ كان قاسيًا نوعًا ما في ملاحظاتِه النِّهائية على مكارثي الصغير؛ فهو ينبِّهُ — وهو مُحقٌّ في هذا — إلى التناقُض في قوله: إن والده صاحَ له بالإشَارة التي بينهما، قبل أن يرَاه، وأيضًا لرَفضِه إعطاء تفاصيلِ المحادثة التي جرَت بينهما، بالإضافةِ إلى روايتِه الغريبة لكلمات والدِه الأخيرة قُبَيل موته. وكلُّ ذلك، كما يذكر، يُشكِّل دليلًا قويًّا ضدَّ الفتى.»

ضحك هولمز في نفسِه بلُطف، ومدَّد جسمَه على المِقعد ذي الوَسائد، ثم قال: «لقد بذلتَ جهدًا — أنت وقاضِي التحقيق — لانتقاءِ أقوَى النِّقاط التي تصُبُّ في صالِح الشاب. ألا ترى أنَّكما تتناوبان امتداح الشابِّ لسَعة خيالِه، ثم تعودانِ وتصفانِه بالافتِقار إليه؟! فإذا لم يتمكَّن من اختراع سبَبٍ للمشاجَرة، من شأنه أن يُعطيه تعاطفَ هيئةِ المحلَّفين، فهو يَفتَقِر للخَيال؛ وإذا استطاعَ أن يأتي من عقلِه الباطن بشيءٍ في مثل غرابةِ ذِكْرِ القتيل لكَلِمة «رات»، بالإضافة إلى مسألةِ قِطعة القماش التي اختفَتْ، فهو إذن ذو خيالٍ خِصب. لا يا سيدي، سأتعامل مع هذه القضية على اعتبار أن ما يقوله هذا الشاب صَحيحٌ، وسنرى إلى أين ستقودُنا هذه الفرضيَّة. والآن ها هو كُتيِّب قصائد بترارك للجيب خاصَّتي، ولن

أقول كلمةً أخرى عن هذه القضيَّة حتى نصِل إلى مَسرح الجَريمة. سنتَناول الغداءَ في سويندن، وأرَى أننا سنكُون هناك في غُضون عشرين دقيقة.»

كانت الساعةُ تقارِب الرابعة مساءً عندما وصَلْنا أخيرًا، بعدما مرَرْنا عبرَ وادي ستراود الجَميل، وفوق نهر سيفرن الواسِع اللامع؛ لنجد أنفسَنا في مدينة روس الرِّيفية الصَّغيرة الجميلة. كان في انتظارنا على رصيف المحطَّة رجلٌ نحيفٌ يشبه حيوان ابن مُقرِض، يبدو عليه الخبثُ والمَكر، وبالرَّغم من ارتدائه مِعطَفًا طويلًا ذا لونٍ بُنِّي فاتحِ اللون، وغِطاء ساقٍ جلدية ارتدَاهما تَماشِيًا مع مُحيطه الرِّيفيِّ. لم أجِد أيَّ صعوبةٍ في التَّعرُّف على ليستراد، مفتشِ شُرطة سكوتلاند يارد. وقد استقللنا معه عرَبةً إلى فندق هيرفورد أرمز، حيثُ كانت هناك غرفةٌ محجوزة لنا.

أثناء جلوسِنا لاحتساء كوبٍ من الشاي، قال ليستراد: «لقد أرسَلتُ في طلَب عربةِ أجرةٍ. فأنا أعرف طبيعتَك النَّشِطة، وأعرِف أنه لن يهدأ لك بال؛ حتى تزُور موقعَ الجريمة.»

قال هولمز: «هذا لطفٌ وإطراءٌ شديدان منكَ، ولكنَّ الأمر يتوقَّف كليًّا على الضَّغطِ الجوي.»

بدَا ليستراد جَافلًا وقال: «لا أفْهَم.»

«إلامَ يشيرُ البارومتر؟ تسعٌ وعشرون درجةً، كما أرَى. ما مِن رياح ولا غُيوم في الأفق، ولديَّ هنا كَمية من السَّجائر التي أوَد تدخينها، كما أنَّ الأريكة أفضَل بكثير مما هو مُعتاد في الفنادق الريفيَّة المقيتة؛ ولذلك لا أعتَقد أنَّ هناك أيَّ احتمالٍ أنْ أركَب العربةَ الليلةَ لأيِّ مكان.»

ضَحك ليستراد، بتسامحٍ، وقال: «لا شكَّ أنك قد كوَّنت استنتاجاتِك من الصُّحف. فالقضيَّة في غاية الوُضوح، وكلَّما توغَّل المرء في تفاصيلِها، أصبحَت أكثرَ وُضوحًا. ولكِن بالطَّبع يظَل المرءُ عاجزًا عن رفِض طلَبٍ لسيِّدَة، خاصةً إذا كان لديها كلُّ هذا الإصرار في مَطلبِها. لقد سمِعَت عنك، وترغَب في سماعِ رأيك، برغم أنَّني أخبرتُها مرارًا وتكرارًا أنه لا يوجَد شيءٌ يُمكنُك فعلُه، ولم أقُم به بالفِعل. لكن ما هذا؟! ها هي عربتُها عند الباب.»

ولم يكَد يُنهِي حديثَه، حتى اندفعَت إلى الغرفة واحدةٌ من أجمَل الشابَّات اللائي رأيتُهن في حياتي. كانت عَيناها البنفسجيتان لامعتَين، وشفَتاها مفروقتَين، ووَجْنتاها متوردتَين بحُمرَة وَرديَّة، وقد فقدَت تحفُّظَها الطبيعيَّ، في غَمرة قلَقها وانفعالها اللذَين سيطَرا عليها.

راحت توزِّعُ نظراتِها بيننا، وأخيرًا — وبحَدس المرأةِ السَّريع — ثبَّتَت عينَيها على صديقِي، وصاحَت قائلةً: «أوه! سيد شيرلوك هولمز، أنا سعيدة جدًّا لقُدومك. لقد جئتُ

خُصُوصًا؛ لأخبرَك بذلك. أعلمُ أن جيمس لم يقُم بتلك الجَريمة. أنا على يقينٍ من ذلك، وأريدُك — أنت أيضًا — أن تَعرِف ذلك قبل أن تشرعَ في عمَلك. لا تدعِ الشكوكَ تساورك مطلقًا في ذلك الأمر. لقد عرَف أحدُنا الآخر منذ نعومة أظفارِنا، وأعلم عيوبَه وزلاتِه أكثرَ من أيِّ شخص آخر؛ ولكن قلبَه أرقُّ من أن يؤذِي ذبابة. وكلُّ من يعرف جيمس بحق، يعرِف أنَّ من السُّخف اتهامَه بتُهمة كهذه.»

قال هولمز: «آمل أن نتَمكَّن من تبرئتِه، يا آنسة تيرنر. يمكنُك أن تثِقي بأنني أبذُل كلَّ ما في استطاعتي في سبيلِ ذلك.»

«لكنَّك قرأتَ أدلةَ الاتهام، فهل كوَّنتَ أيَّ استنتاج؟ ألا ترَى أيَّ ثغراتٍ أو أخطاء يمكِنُ الطعنُ بها؟ ألا تظنُّ أنتَ نفسك أنَّه بريءٌ؟»

«أعتقد أنَّ هذا واردٌ للغاية.»

صاحتْ قائلةً، وهي تلتَفت ناحيةَ ليستراد، ناظرةً إليه بتَحَدٍّ: «هذا ما أردْتُه، هل سمِعتَ؟ لقد بعَث في نفسِي الأمَل.»

هزَّ ليستراد كَتفيه قائلًا: «أخشَى أن زميلي قد تسرَّعَ قليلًا في تكوينِ استنتاجاتِه.»

«لكنَّه مُحق، أوه! أنا على يقينٍ أنه مُحقٌّ. إن جيمس لم يفعَلْها قطُّ. وبخصوص مشاجرَتِه مع والده، أنا متأكِّدةٌ أنه لم يُطلعِ القاضي على تفاصيلِها؛ لأنَّ الأمر كان يتعلَّق بي.»

سألها هولمز: «وكيفَ ذلك؟»

«لا يمكِنُني إخفاءُ الحقيقةِ أكثرَ من ذلك. لقد كان بين جيمس وبين أبيه خلافاتٌ كثيرةٌ بسببي؛ فقد كان السيِّد مكارثي في غايةِ اللهفة لتَزويجي لجيمس، بينما كنت أنا وجيمس متحابَّينِ كالأخوَين، ولكنَّه بالطبع لا يزالُ في مقتبل العمر، ولم يمرَّ بالكثير من التجارِب في الحياة بعدُ، وبالطبع لم يكن راغبًا في أن يُقدِم على شيء كهذا الآن؛ لذا كثيرًا ما كانت تَنشِبُ مشاحناتٌ بينهما بسبَب ذلك، وأنا متأكِّدة أن هذه كانَت إحدَاها.»

سألها هولمز: «وماذا عن والدِك. هل كان مؤيِّدًا لهذا الارتِباط؟»

«لا، كان معارِضًا له أيضًا. لم يكن أحدٌ مؤيِّدًا لذلك سِوى السيد مكارثي.» وتضرَّج وجه الفتاة بحُمرة الخجَل، عندما رمَقَها هولمز بإحدى نظراتِه الثاقبة المُتفحِّصة.

قال: «شكرًا على هذه المَعلومات، هل يُمكنني رؤية والدِك غدًا إذا جئتُ لزِيارته؟»

«أخشى أن الطبيبَ لن يسمَح بذلك.»

«الطبيب؟»

«نعم، ألم تعلَم بذلك؟! لم يكن أبي المسكين بصحَّةٍ جيِّدة منذ أعوامٍ طويلة، ولكنَّ ما حدث حطَّمه تمامًا وجعله ملازمًا للفِراش، ويقولُ الدكتور ويلوس: إن حالتَه بالغةُ السوء، وإن جهازَه العصَبي قد دُمِّر. لقد كان السيد مكارثي هو آخر مَن تبقَّى على قيدِ الحياة ممَّن عرفهم أبي في فيكتوريا، في الأيام الخوالي.»

«ها، في فيكتوريا! هذا مُهِم.»

«نعم، كانا يعمَلان في المَناجم.»

«تمام، في مناجم الذَّهَب، هناك حيث جنَى السيد تيرنر ثروتَه حسبما أفهَم.»

«نعم، بالتَّأكيد.»

«شكرًا يا آنسة تيرنر، لقد ساعدْتِني كثيرًا.»

«أرجو أن تبلِّغني بأيِّ مستجداتٍ غدًا. لا بدَّ أنك ستذهَبُ لمقابلة جيمس في السِّجن؛ فلو فعلْت، يا سيد هولمز، فأخبِرْه أني أثِقُ ببَراءَته.»

«سأخبره، يا آنسة تيرنر.»

«عليَّ أن أنصرفَ الآن؛ فأبي مريضٌ بشِدَّة، وهو يفتقدني إذا غِبتُ عنه. وداعًا، وكان الله في عَونك فيما كُلِّفتَ به!» واندفعت الفتاة خارجةً من الغرفة مثلما دخلَتها، ثم سمِعنا صوتَ عجلاتِ عرَبتها، وهي تبتَعد عبرَ الشَّارع.

قال ليستراد بإباء، بعد عدَّة دقائق من الصَّمت: «أشعُر بالخِزي مما فعلتَه يا هولمز. لِمَ تغرس في قلب الفتاةِ آمالًا سوف تخيبُ حتمًا؟ لستُ بصاحِب قلبٍ رقيق؛ إلا أنني أعتَبر ذلك من القَسوة.»

قال هولمز: «أظنُّ أني أعرِف كيف سأبرِّئُ جيمس مكارثي، هل لديك إذنٌ بزيارته في السِّجن؟»

«نعم، لكِن لنا نحن الاثنينِ فقَط.»

«إذن، يجب أن أُعيد النظَرَ في قراري بشأنِ الخُروج. ألا يزالُ لدينا متَّسعٌ من الوَقت لاستقلال قِطار إلى هيرفورد وزيارتِه الليلة؟»

«بلى، ما يكفي من الوَقت ويَزيد.»

«لنفعلْ إذن. أخشَى أنك ستَجد الوقت يمرُّ ببطء يا واطسون؛ لكنني لن أغيبَ أكثرَ من بضع ساعاتٍ فقط.»

سرتُ معهما إلى المحطَّة، ثم تجوَّلتُ عبرَ شوارع المدينة الصَّغيرة، وأخيرًا عُدْتُ إلى الفندق، حيث استلقَيتُ على الأريكة، وحاولتُ أن أشغَل نفسي بإحدَى الرِّوايات المُثيرة

الرَّخيصة؛ غيرَ أنَّ الحبكة الدِّرامية للِقصة كانَت ضعيفةً للغاية، مقارنةً باللُّغز العميق الذي كُنَّا نَبحَث عن سبيلٍ لحلِّه؛ لذا وجدتُني أشرُد بتفكيري باستمرارٍ من الخيالِ إلى الواقع، حتى رميتُها في آخر المطاف عبرَ الغرفة، واستسْلَمت تمامًا للتَّفكير في أحداثِ اليوم. لنفترضْ أن قصةَ هذا الشابِّ التعِسِ كانت حقيقيةً تمامًا، فما الكارثةُ المفاجِئة والاستثنائيةُ التي يمكن أن تكون قد حدثَت بين الوقت الذي ترَك فيه الشاب والدَه، وبين اللحظَة التي عادَ فيها مسرعًا إلى الممرِّ الخالي من الأشجار بعدما سمِعَ صرخات والدِه؟ لقد كان شيئًا فظيعًا ومُميتًا. فماذا عسَاه أن يكون؟! أليسَ من المُمكن أن يَكشِف حدسي الطبِّيَّ شيئًا من طبيعة الإصاباتِ؟ قرَعْتُ الجرسَ، وطلبتُ صحيفةَ المقاطعة الأسبوعية، التي كانت تحتوي على بيانٍ حرفيٍّ للتَّحقيق. وردَ في شهادةِ الجرَّاح أن الثُّلُث الخَلفيَّ من عظمة الجُمجمة اليسرى والنِّصفَ الأيسر من عظمة مُؤخِّرة الرأس قد تهشَّما، إثرَ ضربةٍ قويةٍ من سلاحٍ غيرِ حادٍّ. حددتُ البقعةَ المذكورة على رأسي. كان من الواضِح أن مثلَ هذه الضربةِ يجبُ أن تكونَ من الخَلف. وكان هذا إلى حدٍّ ما لصالح المتَّهم؛ لأنه عندما شُوهِد يتشاجَر مع والده، كان يقِف أمامه وجهًا لوَجه. ومع ذلك، لن يؤثِّر هذا كثيرًا؛ لأن الرجل العَجوز ربَّما يكونُ قد أدار ظهرَه قبل تسديد الضَّربة؛ ولكنَّه قد يستحقُّ أن نلفِت انتباهَ هولمز إليه. ثم كان هناك تلك الإشارةُ الغَريبة لكلمة «رات» وهو يُحتضَر. ماذا يمكِن أن يعنِي ذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمرُ هذيانًا؛ فالشخصُ الذي يموتُ من ضربةٍ مفاجئةٍ لا يُصاب عادةً بالهذيان. لا، بل ربما تكون على الأرجَح محاولة لشرحِ الكيفية التي لقِيَ بها مصيرَه؛ ولكن إلامَ قد تشيرُ تلك الكَلمة؟ لقد اعتصَرْت ذهني؛ لأجد تفسيرًا ممكنًا لهذه الكَلمة. ثم هناك واقعةُ قطعة القماشِ الرمادية التي رآها مكارثي الصَّغير. لو كان هذا الأمرُ حقيقيًّا، فلا بد أنَّ القاتلَ قد أسقط قطعةً من لِباسه، ربَّما معطفه، أثناءَ فراره، ولا بدَّ أنه يَمتلك من الجَرأة ما دَفعه للرُّجوع مُجدَّدًا والتقاطِها في اللحظة التي كان الابن فيها جاثِيًا على رُكبتَيه، مُوَلِّيًا ظهرَه له على بعد اثنتَي عشرة خطوةً فقط. يا لَها من شبكةٍ مُعقَّدة من الألغازِ والاحتمالات! لم أتعجَّب من رأي ليستراد، لكنَّني كنتُ أومن كثيرًا برُؤية شيرلوك هولمز، لدرجة منَعتني من فقدان الأمَل؛ ما دامت كلُّ حقيقةٍ جديدةٍ — كما يبدو — تُعزِّز قناعتَه ببراءَةِ مكارثي الصغير.

لم يعُد شيرلوك إلا مُتأخرًا، وقد عادَ بمفرده؛ لأنَّ ليستراد كان يُقيم في مَسكنٍ في المَدينة.

قال وهو يَهُمُّ بالجلوس: «لا يزالُ البارومتر يُشير إلى ارتفاع الضَّغط الجوِّي، المهمُّ ألا تُمطر قبل أن نتمكَّن من فَحص الأرضِ. ومن ناحيةٍ أُخرى، على المَرء أن يكونَ في أفضلِ حالاتِه وأَوجِ حِذَقِه وحَماسته للقيام بمِثل هذه المُهمَّة اللطيفة؛ لذا لم أرغَب في القِيام بها عندما كنتُ مرهقًا؛ جرَّاءَ الرحلة الطَّويلة. لقد قابلتُ مكارثي الصَّغير.»

«وبماذا خرجتَ من هذه المُقابلة؟»

«لا شَيء.»

«ألم يستطِع شرحَ أيِّ شيء؟»

«لا شيءَ على الإطلاق. لقد كنتُ أميلُ في وقتٍ من الأوقات إلى الاعتِقادِ بأنه يعرِف القاتلَ، وأنه يتستَّر عليه، لكنَّني مقتنعٌ الآن أنه في حَيرة من أمرِه، شأنُه شأنُ الجميع. إنه ليس شابًّا فطِنًا للدرَجة، بالرَّغم من وَسامته التي تسرُّ الأعين، وأظنُّ أنه سليمُ القَلب.»

قلتُ معلِّقًا: «ولكن لا يمكنني أن أوافقه على ذَوقه في النِّساء، لو أنه بالفِعل يرفُض الزواج من شابَّة في مثلِ جمالِ وجاذبيةِ الآنسَة تيرنر.»

«آه، ثمَّة قصةٌ مؤلِمة وراءَ هذا المَوضوع؛ فهذا الفتَى عاشقٌ لها حتى الجُنون، ولكنَّه قبل عامَين — وكان حينَها فتًى صغيرًا، وقبلَ أن يعرِفها حقَّ المعرفة؛ لأنها قضَتْ خمسَ سنوات في مدرسَة داخلية بعيدة — وقَع ذلك الأحمَقُ في حبائل نادلةٍ في حانَةٍ في بريستول، وتزوَّجها في مكتبٍ لتوثيقِ الزواج. لا أحدَ يدري أيَّ شيءٍ عن ذلك؛ ولكن لك أن تتخيَّل كَم هو مثير للغضَب والجنون أن يوبَّخ على عدم فعل ما يتمنَّى أن يفعلَه من صميمِ قلبه؟! لكنه يعلمُ مدَى استحالةِ حُدوثِه. وقد كانت نوبةٌ من نَوبات الجنون هذه هي ما جعلَه يُلوِّح بيدَيه في الهواء عندما كان والدُه — في آخِر مقابَلة له — يحثُّه بشدَّة على التقدُّم للزَّواج من الآنسة تيرنر. من ناحيةٍ أخرى، لم يكُن لديه أيُّ مصدرِ دخلٍ لإعالَة نفسه، ووالِدُه — الذي كان بشَهادة الجميعِ فظًّا غليظًا للغَاية — كان سيتَخلَّى عنه تمامًا لو عرَف الحقيقةَ. لقد قضَى مع زوجتِه النَّادِلة الأيامَ الثلاثةَ الأخيرةَ في بريستول، ولم يكُن والدُه يعرِف مكانَ وجودِه. سجِّل هذه النقطة؛ فهي ذاتُ أهميةٍ. ومع ذلك، رُبَّ خيرٍ يولَد من رَحِم الشَّرِّ؛ لأنَّ النادلةَ علِمت عن طريقِ الصُّحف أنه في مأزِق خطيرٍ ومِن المحتمل أن يُعدَم، فتخلَّت عنه تمامًا وكتَبت تخبِرُه أنها متزوجةٌ — بالفعل — من رجُل يعمَل في حوض برمودا لبناءِ السُّفن؛ ولذا فلا يوجَد ما يَربِطُهما. وأعتقد أنَّ هذا الخبر كان بمثابة عزاءٍ لمكارثي الصغير وسطَ كلِّ ما يُعانيه.»

«ولكن إن كان بَريئًا، فمَن القاتل؟»

«نعم، مَن إذن؟ أودُّ أن ألِفت انتباهك، على نحوٍ خاصٍّ جدًّا، لنُقطتَين؛ أُولاهما: أنَّ القتيلَ كان على موعدٍ مع شخصٍ ما عند البُحيرة، وأن ذلك الشخصَ ليسَ ابنه؛ لأن ابنَه كان مُسافرًا في ذلك الوَقت، ولم يكن يدرِي متى سيعود؟ والنقطةُ الثانية: أن القتيل سُمع يَصيح بـ «كوي!» قبل أن يعرف بعودَة ابنِه. تلك هي النِّقاط الحاسِمةُ التي تعتمِد عليها القَضية، والآن، لنَتحدَّث من فضلك عن الكاتب جورج ميريديث، ولنَترك كلَّ الأمور الثانويةِ للغَد.»

في صباح اليوم التالي لم تمطرِ السماء، كما توقَّع هولمز تمامًا، وكان الجو صَحْوًا صافيًا بلا غُيوم. وفي التاسعة جاء ليستراد في العربة واستدعانا، ثم انطلَقنا إلى مزرَعة هاذرلي، وبحيرة بوسكومب.

قال ليستراد: «ثمَّة أخبار خطيرَة هذا الصَّباح. يقالُ: إنَّ السيد تيرنر مالك مزرعة هول مريضٌ جدًّا، ولا يُرجَى شفاؤُه.»

سأل هولمز: «أظنه رجلًا مُسنًّا، أليسَ كذلك؟»

«في نحو الستين من العُمر، ولكن بِنيتُه ضعفت من عمَله خارجَ البلاد، وكانَت حالتُه الصحيَّة في تدهوُر منذ حِين، يبدو أن عملَه هذا كان له تأثير سيئٌ للغَاية على صحَّتِه. لقد كان صديقًا قديمًا لمكارثي، ويمكِنُني أن أضيفَ أنه كان خيرَ معين له أيضًا؛ فكما علِمت، فقد أعطاه مزرعةَ هاذرلي دونَ مطالبتِه بدَفْع إيجار.»

قال هولمز: «حقًّا! هذا مثيرٌ للاهتِمام.»

«أوه، نعَم! وقد ساعدَه بطُرق أخرى عديدَة، كلُّ مَن في هذه الأنحاء يحكِي عن كرَمه معه.»

«حقًّا! ألا تريان بعضَ الغَرابة في أن يتحدَّث هذا المدعُو مكارثي، والذي يبدُو أنه لا يملِك الكثيرَ من المال، وهو المُحاط بكرَم تيرنر وأفضالِه، بتلك الطريقةِ الواثقة عن تزويجِ ابنِه بابنةِ تيرنر، والتي يُفترَض أنها وريثةٌ لأملاكِه، كما لو أنَّ الأمرَ متوقِّفٌ فقط على عَرض الزواج، وبعده ستَسير الأمور بسلاسةٍ بلا أيِّ عائق؟ ويشتد الأمر غرابةً في ظِل علمِنا بأن تيرنر نفسَه، كان معارِضًا للفِكرة. لقد أخبرتْنا الابنةُ بالكثير. ألا تَستَنتجانِ شيئًا من ذلك؟»

قال ليستراد، وهو يَغمِز لي بعينِه: «ها قد جِئنا للاستنتاجات والاستِنباطات، يا هولمز. إنني أجِد صعوبةً في فَهم الحقائق، ما بالُك بالتَّحليق خلفَ النظَريات والتَّخيُّلات؟!»

قال هولمز بوقار وتحفُّظ: «معَك حقٌّ، أنتَ تجد صعوبةً في فهم الحقائِق.»

قال ليستراد ببعض الانفعال: «على كلِّ حالٍ، لقد تمكَّنتُ من إدراك حقيقةٍ، يبدو أنَّك تجد صعوبةً في إدراكِها، وهي أن مكارثي الكبير قد لقِي حتفه على يد مكارثي الصَّغير، وأن كل النَّظَريات التي تُشير إلى غير ذلك هي محضُ هراء.»

فقال هولمز ضاحكًا: «حسنًا، قد تكونُ هُراء، ولكنِّي على يقين تام أن مزرعة هاذرلي، هي تلك التي على يَسارِنا.»

«أجل، إنها هِي.» كان مَبنى المزرعة متراميَ الأطراف، مكوَّنًا من طابقَين، يسُرُّ الناظرين، مسقوفًا بألواح الإردواز، وتُلطِّخ جدرانَه الرماديةَ بقعٌ صفراءُ كَبيرة من الطَّحالب والفِطريات، وإن كانت السَّتائر المُسدَلة والمداخنُ التي لا يتصاعَد منها الدُّخان قد أعطَت المكان مظهرًا يوحي بالنَّكبَة التي حلَّت عليه، وكأنَّه لا يزالُ يرزَح تحتَ وطأة تلك الكارِثة المُرعبة. وقَفنا بالباب، بَينما عرَضت علينا الخادِمة — بناءً على طلَب هولمز — الحذاءَ الذي كان يَرتديه سيِّدُها عند وفاتِه، وكذلك حذاءً يخصُّ الابن؛ ولكنَّه لم يكن الحذاءَ الذي كان يرتدِيه في ذلك الوَقت. وبعد أن أخَذ قياساتِ الحِذاءَين بعنايةٍ فائقة من سبع نقاط مختلفة، أو ثمانٍ، رغِب هولمز في الذَّهَاب إلى فِناء المنزل، ومن هناك اتَّبَعنا جميعًا المسارَ المتعرِّج الذي أدَّى بنا إلى بحيرة بوسكومب.

كان شيرلوك هولمز يتحوَّل عند تعقُّبِ مثل هذه الآثار بتركيزٍ حادٍّ، حتى لَيعجز مَن يعرِف المفكِّرَ الهادئ، والرجل المنطقيَّ المُقيم في شارع بيكر أن يتعرَّف عليه وهو في مِثل هذه الحَالة؛ فقد احتقَن وَجهُه حمرةً وامتَلأ غموضًا، وتحوَّل حاجباه إلى خطَّينِ أسودَينِ مشدُودَين، بينما التَمعت من تحتهما عيناه بلَمعة قوية كَلمَعان الفولاذ. كان وجهُه منكفِئًا للأسفل وقد احدَوْدَب ظهره، وزمَّ شفتَيه ونفرَت عروقُ رقبتِه الطَّويلة القوية؛ لتُصبح كحَبْل مُبرَم، وبدتْ فتحتا أنفِه متَّسعتَين كَحيوان برِّيٍّ يتُوق لمُطاردة فريستِه، وقد ركَّز جُلَّ تفكيرِه في الأمر الذي كان بصدَده؛ حتى إنَّه لم يكُن يَلتفِت إلى أيَّةِ ملاحظةٍ أو سؤال، أو في أفضل الحالات يردُّ سريعًا بزَمجرةٍ ونفادِ صبر. شقَّ هولمز طريقَه بين المُروج برشاقة وهُدوء، عبرَ طريق الغابة المؤدِّي إلى بحيرة بوسكومب. كانت الأرضُ رَطبة ومُوحِلة، كسَائر أراضي المَنطقة، وبها العَديد من آثار الأقدَام، سواءٌ على الطريق أو وسط العُشب القَصير الذي يحدُّه من كِلا الجَانبَين. كان هولمز يُسرع أحيانًا ويتوقَّف تمامًا في أحيانٍ أخرى، كما انعطَف قليلًا مرَّةً نحو طريقٍ جانبيٍّ وسط المروج. كنتُ أنا وليستراد نمشي خلفه، وكان

المحقِّق يَسير هازِئًا بما يَفعله وغيرَ مبالٍ به، بينما رُحْتُ أنا أراقب صديقي باهتمام انطلاقًا من قناعَتي الشخصية بأن كلَّ حركة يقومُ بها موجَّهةٌ لغرَض معين.

تقَع بحيرة بوسكومب — وهي عِبارة عن صَفحة مياهٍ صَغيرةٍ مُطوَّقةٍ بحِزام من القصَب عرضُه حوالي خمسين ياردة — على الحُدود بين مزرَعة هاذرلي والمنتزه الخاصِّ المملوك للسيد تيرنر الثري. كان يُمكِن رؤيةُ الأبراج الحَمراء البارِزة التي تميِّز موقعَ منزلِ مالِك الأرض الثريِّ من فوقِ الغابات المُصطَفَّة عبر البحيرة من الجِهة الأَبعد. كانَت الغاباتُ ناميةً على نحو كثيفٍ للغاية على الجانب المُطِلِّ على مزرعة هاذرلي للبحيرة. وكان يوجَد حزامٌ ضيِّق من الحشائش المبلَّلة يمتدُّ على مسافة عشرين قدَمًا بين حافَّة الأشجار والقصَب المتراصِّ عبرَ البحيرة. وقد دلَّنا ليستراد على الموقع الذي عُثِر فيه على الجُثَّة بالضبط، وكانَت الأرض رطبة، لدَرجة أنني استطعت أن أرَى بوضوحٍ الآثار التي تخلَّفت جرَّاءَ سُقوط الرجل بعد ضربِه. أما هولمز فقد رأيتُ في عينَيه المُحَملقتَين ووجهِه الناضح بالشغَف واللَّهفَة أنَّ ثمَّة العديد من الأشياء يمكن قراءَتُها بين الحشائش المتكسِّرة. ظلَّ هولمز يدورُ في المكان كالكَلب الذي يقتفي أثرًا، ثم استدَار صوبَ مرافقي.

سأله: «عمَّ كنتَ تبحثُ في البُحيرة؟»

«لقد مشَّطتُها بواسطة جرَّافة؛ ظنًّا مني أنه قد يكون هناك أيُّ سلاحٍ، أو أيُّ أثَر آخر، لكن كيفَ بحق السماء ...»

«لا لا، لا وقتَ لديَّ للشَّرح. إن آثارَ قدمِك اليُسرى التي بها اعوجاجٌ للداخل منتشرَةٌ في المكان برُمَّته، حتى خلد المَاء يُمكنه تتبعُها، وها هو الأثَر يتوارَى بين القصَب. آه، كما كان الأمرُ سيصبح أسهَل لو كنتُ قد جئتُ قبل أن يأتي الجميع ويجتاحوا المكان كقَطيع من الجامُوس. ها هو المكان الذي جاء منه الجَمع الذي جاء برفقة حارس المُنتجع، وقد غطَّت آثارُهم كلَّ الآثارِ الموجودة لمسافةٍ تتراوح بين ستٍّ إلى ثماني أقدامٍ حَول الجثة، لكن ثمَّة ثلاثة مسارات منفَصِلة للقدَم نفسِها.» ثم أخرج عدستَه، وانبطح على الأرضِ فوق مِعطَفه المُقاوِم للماء؛ ليحظى برؤية أفضل، وهو يتحدَّثُ معظمَ الوقت إلى نفسِه؛ وليسَ إلينا. «هذه آثارُ أقدام مكارثي الصَّغير، مشَى مرَّتَين، ثم جرَى مهروِلًا فجأةً؛ ولذلك ترَك نعلُ الحذاء آثارًا عميقةً، بينما الكَعب يكَاد لا يُرى، وهذا يدعَم روايتَه. لقد ركَض عندما رأى أباه مُلقًى على الأرض، وها هي آثار قدمَيْ والدِه عندما خطَا ذهابًا وإيابًا. ما هذا إذَن؟ هذا أثَرُ عَقِبِ البندقية عندما وضعها الابنُ ووقفَ يستمِعُ لوالده، وهذا؟ ها ها! ماذا لدينا هنا؟ إنها آثارُ أقدامٍ لشخصٍ يمشِي على أطرافِ أصابعه، ومُقدِّمةُ حذائِه مُربَّعةُ الشَّكل، يا له من حذاءٍ

غير عاديٍّ! الآثارُ تأتي وتذهب ثم تعود ثانيةً؛ عادَت لأخذ المعطَف بالطَّبع. والآن لِنَرَ من أين جاءتْ؟» ركض هولمز ذهابًا وإيابًا، يجِد الأثَرَ تارةً ويفقِده تارةً، حتى وجدنا أنفسنا عند حافةِ الغابة تظلِّلنا شجرةُ زانٍ ضَخمة، كانت هي الأضخَم وسطَ أشجارِ المنطقة. تتبَّع هولمز الأثَرَ، حتى وصَل إلى الناحية الأبعَد من الشجرة، ثم استلقَى مرةً أخرى على وجهِه، وهو يُطلق صيحةَ ارتياحٍ خافتَة. وظلَّ هناك لفترةٍ طويلة، يقلِّب الأوراق والعِصيَّ المُجفَّفة، ويجمَع — ما بدا لي — غبارًا في مَظروف ويفحَصُ بعدَسته الأرض، وما أمكنه الوصولُ إليه من لِحاءِ الشَّجرة. كان ثمَّة حجرٌ مُسنَّن بينَ الطَّحالب، وقد فحصَه أيضًا بعنايةٍ واحتفَظ به، ثم اتَّبع طريقًا عبرَ الغابة؛ حتى وصَل إلى الطَّريق الرئيسيِّ حيث فُقدَت كلُّ الآثار.

قال هولمز، وقد عاد إلى طبيعتِه: «إنها قضيَّةٌ مثيرةٌ للاهتِمام. أعتقدُ أنَّ هذا المنزلَ الرَّماديَّ على اليمين هو منزِل الحارِس. سأدخُل وأتحدَّث مع موران، وربَّما أكتبُ رسالة صغيرة، بعد ذلك يمكننا أن نعودَ لتناوُل الغداء. يمكنُكما التوجُّه نحو عرَبة الأجرة، وسأكون معكما بعدَ قليل.»

مرَّت حوالي عشْرِ دقائق قبل أن نستعيد عربتَنا، ونعود إلى روس. كان هولمز لا يزالُ يحمِل معه الحجَر الذي التقَطه عندما كان في الغابَة.

قال هولمز، وهو يستعرض الحجَر: «قد يعينُك هذا يا ليستراد. إنه السِّلاحُ الذي نُفذَت به الجَريمة.»

«لا أرى عليه أيَّ علاماتٍ تدلُّ على ذلك.»

«كلا، ليس به أيةُ علاماتٍ.»

«كيف عرفتَ إذن؟»

«كانت الحشائشُ ناميةً تحته؛ فهو لم يوضع هناك إلا منذ أيامٍ فقط، كما لا يوجد أثرٌ يدل على المكان الذي أُخذ منه، كما أنه يتَطابق مع الإصابات، ولا يوجد أثرٌ لسلاحٍ آخر.»

«وماذا عن القاتِل؟»

«رجلٌ طويلُ القامة أعسَر اليَد، مصابٌ بعَرَج في قدَمه اليمنى، يرتدي حذاءَ صيد ذا نعل سَميك، ومعطفًا رماديًّا، ويدخِّن سجائرَ هندية باستخدام المبسم، ويحمِل في جَيبه مطواةً غير حادَّةٍ. توجد علاماتٌ كثيرة أخرى؛ إلا أن هذه قد تكونُ كافيةً لمساعدتنا في البحث.»

قال ليستراد ضاحكًا: «أخشى أنَّني ما زلتُ مُتشكِّكًا، فبرغم جودةِ نظريَّاتِك، فإن علينا أن نتعامل مع هيئة محلَّفين من الإنجليز شديدي المِراس.»

أجاب هولمز بهدوء: «فلْيَعمل كلٌّ منَّا بطَريقتِه وسنَرى، سأكونُ مشغولًا بعد ظهرِ اليوم، وربَّما أعود إلى لندن في قِطار المَساء.»

«وهل ستَتركُ قضيَّتك دونَ أن تُنهيَها؟»

«لا، بل أنهَيْتُها.»

«وماذا عن اللُّغز؟»

«لقد حلَلْتُه.»

«مَن القاتلُ إذَن؟»

«الرجل الذي وصفتُه لك.»

«لكن مَن يكونُ؟»

«بالطَّبع لن يكون العثورُ عليه صَعبًا؛ فهذه المنطقة ليسَت مزدحمةً بالسُّكان.»

هزَّ ليستراد كتفَيه، قائلًا: «أنا رجلٌ عمَلي، ولا أستطيع أن أتعهدَ بتفتيش البلدَة بحثًا عن رجُلٍ أعسرِ اليد ذي ساقٍ عرجاء؛ وإلا فسأصبح أضحوكةَ سكوتلاند يارد.»

قال هولمز بهدوء: «لا بأسَ، لقد منحتُك الفرصة. ها هو مسكنُك، وداعًا! وسأترك لك رسالة قبل مغادَرتي.»

ذهبنا إلى فندقِنا بعد أن تركنا ليستراد في مَسكنه؛ لنجد الغداءَ جاهزًا على الطَّاولة. كان هولمز صامتًا مُستغرقًا في التَّفكير، وترتَسم على وجهِه ملامحُ الانزِعاج والضِّيق، كمَن يجِد نفسَه في موقف مُحيِّر.

وعندما رُفع الطعام عن المائدة، قال هولمز: «انظر يا واطسون، اجلِس على هذا الكُرسي، ودعني أُضجرك قليلًا؛ فأنا لا أدري بالضبط ما عليَّ فعلُه، وسأقدِّرُ لك نصيحتك. فلتُشعل سيجارًا، ولتدعْني أشرَح لك الموضوعَ.»

«كلِّي آذانٌ مُصغية.»

«حسنًا، الآن، عندما بحَثنا هذه القضيةَ، كان هناك نقطَتان في قصَّة الشابِّ مكارثي استوقفَتانا معًا على الفور، على الرغم من أنني اعتبَرتها دليلًا في صالحِه، وأنت اعتبَرتها دليلًا ضدَّه؛ النقطةُ الأولى كانت حقيقةَ أنَّ والده صاحَ — بحسَب روايتِه — «كوي!» قبلَ رؤيتِه. والنُّقطةُ الأخرى أنه ذكَر كلمة «رات» وهو يُحتضَر. لقد غمغَم بعدَّة كلماتٍ، كما تعلَم؛ ولكن كان هذا كلَّ ما استطاع الابنُ أن يسمَعه. الآن يجِب أن ينطلِق بحثُنا من هذه النقطة المُزدَوجة، وسوف نبدؤه بافتراضِ أنَّ ما قاله الفتَى حقيقيٌّ تمامًا.»

«إذن، ماذا عن صَيحة «كوي!» هذه؟»

«حسنًا، بالطبع لم تكن موجَّهةً إلى الابن؛ فقد كان يعلم أن ابنَه في بريستول، وكان وجودُ الابنِ في مَجال سَماع الصيحة مجردَ صُدفة بحتة. لقد أطلَق القتيل الصيحةَ؛ لجذب انتباهِ الشخص الذي كان على موعد معه، أيًّا كانت هويتُه. لكن «كوي» صيحةٌ أسترالية مميَّزة، وهي مستعملَةٌ بين الأستراليِّين، ولديَّ افتراضٌ قويٌّ أنَّ الشخصَ الذي كان يتوقَّع مكارثي ملاقاتَه، عند بُحيرة بوسكومب، كان يعيشُ في أستراليا.»

«وماذا عَن كلِمة رات إذن؟»

أخرج شيرلوك هولمز ورقةً مطويَّة من جَيْبه، وبسَطها على الطَّاولة، ثم قال: «هذه خريطةٌ لُمستعمرة فيكتوريا، وقد أرسَلتُ في طلَبها من بريستول عبرَ البرق.» ثم وضع يدَه على جزءٍ في الخَريطة وقال: «ماذا تَقرأ؟»

قرأتُ: «أرات.»

ثم رفَع يدَه وقال: «والآن؟»

«بالارات.»

«بالضَّبط. كانت تلك هي الكلمة التي نطَق بها الرجُل، ولم يسمَع ابنُه سوى المقطعِ الأخير منها. لقد كان يُحاول النُّطق باسمِ قاتلِه. شخص ما من بالارات.»

صحتُ قائلًا: «هذا رائِع!»

«إن الأمر واضِح. والآن، كما ترَى، لقد ضيَّقتُ نطاق البحثِ إلى حدٍّ بعيد؛ أما حيازة معطف رمادي — إذا سلَّمنا بصحة أقوال الشَّاب — فتلكَ نقطةٌ ثالثة مؤكَّدة. ها قد خرَجنا من نِطاق الغُموض التَّام وتوصَّلنا إلى تخيُّلٍ محدَّد لشخصٍ أسترالي من بالارات، يرتدي مِعطفًا رماديًّا.»

«بالتَّأكيد.»

«وهو شخصٌ سكن بالمنطقة؛ إذ لا يمكن الوُصول إلى البحيرة إلا عن طريق المزرعة، ويصعُب على الغُرباء أن يتجوَّلوا فيها.»

«بالضَّبط.»

«نأتي الآن إلى رِحلتنا التي قُمنا بها اليوم. من خِلال فحصِي للأرض، عرَفتُ التَّفاصيل التَّافهة التي زوَّدت بها ليستراد الأبلَه، فيما يتعلَّق بشَخصية المُجرِم.»

«ولكن كيف حصَلت على تلك المعلومات؟»

«أنت تعرفُ أسلوبي، وهو قائمٌ بالأساس على ملاحظة تَوافِه الأمور.»

«أعرف أنَّك قد تكون خمَّنتَ طولَه من اتساع خطوته، وحذاؤه أيضًا يمكِن معرفته عن طريقِ آثاره على الأَرض.»

«أجَل، لقد كان حذاءً مميَّزًا.»

«ولكن كيفَ عرفت أنه أعرَج؟»

«كان أثر القدم اليُمنى دائمًا أقلَّ وضوحًا من القدَم اليسرى. إنه يضَع ثقلًا أقلَّ عليها، لماذا؟ لأنه يعرَج؛ إذن فهو أعرَج.»

«ولكن كيف عَرفت أنه أعسَر؟»

«لقد لفتَ نظرَك طبيعةُ الإصابات التي ألَمَّت بالقَتيل كما سجَّلها الجرَّاحُ في التحقيق. فبالرغم من أن الإصابة وُجِّهت من الخَلف، فقد وقعَت على الجانبِ الأيسَر من الرَّأس، فكيف يُمكن أن يحدُث هذا؛ إن لم يكُن القاتل أعسَر؟ لقد كان واقفًا خلفَ الشَّجرة خلال المُقابلة التي جرَت بين الأب وابنِه، بل إنَّه دخَّن، ووجدتُ رمادَ سيجار هناك، وتمكَّنت عن طريق مَعرفتي الخاصَّة برَماد التَّبغ من الحُكم بأنه سيجارٌ هِنديٌّ. فقد كرَّستُ بعضًا من اهتمامي لهذا الأَمر، كما تعلَم، وكتبت دراسةً صغيرة حول رماد ١٤٠ نوعًا مختلفًا من الغليون، والسيجار، وتَبغ السجائر. وبعد أن وجدتُ الرَّماد، نظرتُ حولي فوجَدتُ العقب وسطَ المستنقع حيثُ رماه. لقد كان سيجارًا هنديًّا من النَّوع الذي يُلف في روتردام.»

«وماذا عن المبسم؟»

«لقد استطعتُ أن أخمِّن أن عقب السيجار لم يلمس فمه، إذن فقد كان يَستخدم مبسمًا، كما أن السيجار كان مقطوعًا وليس مقضومًا، ولكنَّ القطع لم يكُن متساويًا، لذا علمتُ أنه قُطع بمطواة غيرِ حادة.»

قلت: «لقد أحكمتَ الحصارَ حول ذلك الشخص، يا هولمز؛ بحيث لا يمكنُه الفرار، وأنقذْتَ روح إنسان بريءٍ من المَوت، كما لو أنك قطَعتَ الحبل الذي كان سيُشنق به. أرى الاتِّجاهَ الذي تسير فيه كل هذه النِّقاط. المُجرم هو ...»

صاح نادل الفُندق، وهو يفتح بابَ الصَّالون الذي كُنَّا نجلس فيه، ويدخل زائرًا: «السيد جون تيرنر.»

كانت بنية الرَّجل الذي دخلَ غريبةً ومثيرةً للإعجاب؛ فقد أعطَت خطوتُه البطيئة العَرجاء وانحناءةُ كتفَيه إيحاءً بالهرَم والعجز، بينما دلَّت ملامحُ وجهه القاسية الخَشنة وخطوطُه العميقة على قوةٍ غير عاديةٍ في الجِسم والشَّخصية. وبدت لحيتُه الكثَّة، وشعرُه

الرمادي، وحاجباه المتدلِّيان البارِزان، قد اتَّحَدوا معًا لإضفاءِ انطباعٍ بالوَقار والقُوة على مَظهره، وإن بدا وجهُه شاحبًا كالمَوتى، بينما اصطبغَت شَفتاه وزوايا منخارَيه بزُرقة خفيفة. كان واضحًا لي، من نظرةٍ واحدة، أنه فريسةٌ لأحد الأمراض الفتَّاكة والمُزمِنة.

قال هولمز بلطف: «أرجو أن تجلِسَ على الأريكة، هل وصلَتْك رسالتي؟»

«نعم، سلَّمها لي الحارس، قلتَ إنك توَدُّ مقابلتي هنا؛ تجنُّبًا للفضيحة.»

«فكَّرتُ أن الناس سيُثرثرون، إذا ذهبتُ إلى القَصر.»

نظر إلى رَفيقي وفي عينَيه المُرهقتَين نظرةُ يأس، وكأنه قد تلقَّى الإجابةَ على سؤاله قبل أن يسمَعها.

«ولماذا رغبتَ في رُؤيتي؟»

قال هولمز، وكأنه يُجيب عينَي الرجلِ، لا سؤالَه: «حقيقةُ الأمر أنني أعرِف كلَّ ما حدَث لمكارثي.»

أخفَى الرجلُ العجوز وجهَه في كفَّيه، وصاح قائلًا: «فليساعِدني الرَّب! لكنني ما كنت لأدَع أيَّ مكروهٍ يحدُث للشاب، أقسِم لك أنِّي كنت سأعترف، لو حكَموا عليه في المَحكمة.»

قال هولمز بجدِّيَّة: «أنا سعيدٌ لسَماع ذلك منك.»

«كنت سأعترف الآن لولا ابنتي العزيزة، قد يفطُر الأمر قلبَها، وقد يتحطَّمُ فؤادُها عندما تعلَم أنني اعتُقِلت.»

قال هولمز: «قد لا يصِل الأمرُ إلى هذا الحَدِّ.»

«ماذا؟»

«أنا لستُ ضابطًا رسميًّا، وأتفهَّمُ أن ابنتَك هي مَن طلبَت حُضوري هنا، وأنا أعمَل لصالحها، ولكن مكارثي الصَّغير يجِب أن يخرُج.»

قال السيد تيرنر العجوز: «أنا رجلٌ أُحتضَر، فقد أُصبتُ بداء السُّكري منذُ أعوامٍ، ويقول الطبيب إنني قد لا أعيشُ شهرًا آخَر، ولكنِّي أفضِّلُ الموت على فراشِي، على الموت في السِّجن.»

نهَض هولمز، وجلَس على الطاولة مُمسكًا بقلَم في يدِه، وأمامه حزمةٌ من الأوراق، وقال: «أخبِرنا فقط بالحقيقة، وسأدوِّنُ الحقائق، وستُوقِّع عليها، وها هو السيد واطسون، يمكِنه أن يشهَد على ذلك، عندئذٍ يُمكنني تقديمُ اعترافِك للمحكمة ملجأً أخيرًا لإنقاذِ مكارثي الصغير، وأعدُك أنني لن أستخدِمها إلا إذا اضطرَّتني الظروفُ لذلك.»

قال العجوز: «هذا جيِّد، ليسَ مؤكَّدًا إن كنت سأظل حيًّا حتى موعِد المحاكمة؛ لذا فالأمرُ لا يهمُّني كثيرًا، ولكن كل ما أريده أن أجنِّبَ ابنتي أليس ويلاتِ الصدمة، والآن سوف أوضِّح لك كلَّ شيء. لقد وقعَت الأحداثُ على مدار زمنٍ طويل، ولكنني لن أطيلَ في سردها.

أنتما لم تعرفا القتيلَ، السيد مكارثي، لقد كان شيطانًا في صورةِ إنسان. أدعو الله ألا تقعا في براثن شخصٍ مثلِه. لقد أحكم سيطرته عليَّ على مدار العشرين عامًا الماضية، ودمَّر حياتي. سأخبِركما كيف وقعتُ تحت قَبضته.

كانت البداية في أوائل السِّتينيات في المَناجم. كنتُ وقتَها شابًّا يافعًا مُتهوِّرًا، مُستهتِرًا، مُستعِدًّا لفعل أي شيء. صاحبتُ رِفاق السوء، وأدمنتُ الخَمر، وحينما لم نوفَّق في استخراج الذَّهب، توجَّهت نحو الأدغال. باختصارٍ أصبحت قاطعَ طريق، كما تطلقون عليه هنا. كُنَّا ستةَ رجال، وكنا نعيشُ حياة همجية بلا أيِّ ضوابط، نسطُو على محطةٍ من حينٍ لآخر، أو نستوقِف العرَبات المتوجِّهة للمناجم، وكان الاسم الذي اخترتُه لنفسي «بلاك جاك، من بالارات»، ولا يزالون يتذكَّرون اسمَ عصابتنا في المُستعمرة باسم عصابة بارالات.

ذاتَ يومٍ، مرَّت قافلةٌ محمَّلة بالذهب في طريقِها من بالارات إلى ملبورن، فتربَّصنا بها وسطَونا عليها. كان هناك ستة حراسٍ في مواجهة ستةٍ مِنَّا، وكانَت معركة عصيبة وكِدنا نُهزم، ولكننا أسقَطنا أربعة منهم في الجولة الأولى؛ غير أن ثلاثة من فتياننا قُتِلوا قبل أن نحصُل على الغنيمة. صوَّبتُ مسدسي على رأس سائقِ العربة، وكان ذلك المدعو مكارثي. ليتَني قتلتُه في ذلك الوقت، ولكنني تركته، وإن كنتُ قد رأيت عينَيه الضيقتَين الماكِرتَين تحدِّقان في وَجهي كما لو كان يريدُ أن يتذكَّر تفاصيلَه، بعد ذلك هرَبنا بالذَّهب وصِرنا أغنياء، وجِئنا لإنجلترا، دون أن يشكَّ فينا أحدٌ، ثم ترَكتُ أصدقائي القُدامى وقرَّرتُ الاستقرار وبناءَ حياةٍ هادئة محترمة؛ فاشتريتُ هذه المزرعة، التي تَصادف أن كانت معروضةً للبيع، وقرَّرت أن أستخدِم بعض المال في القيام بالقليلِ من الأعمال الخيرية؛ للتَّكفير عن الطريقة التي حصلتُ عليه بها، وتزوَّجتُ أيضًا، وبالرغم من أن زوجتي قد ماتَت في رَيعان شبابها، فقد تركَت لي صغيرتي الحَبيبة أليس، حتى عندما كانَت رضيعة، كانت يدُها الصَّغيرة كأنها تقُودني عبرَ الطريق القويم، كما لم يفعل أي شيء آخَر من قبل، باختصار فتحتُ صفحةً جديدة، وبذلت قُصارى جهدي للتَّعويض عن الماضي، وكان كلُّ شيءٍ يسير على ما يرام، حتى أحكَم مكارثي قبضتَه عليَّ.

كنت ذاهبًا إلى المَدينة؛ لمتابعة أحد الاستثمارات، وقابلته في شارع ريجنت، ولم يكُن يرتدي سوى معطفٍ مهترئ، وحذاءٍ بالٍ.

لَمَس ذراعي وقال: «ها قد التَقينا يا جاك، وسنكونُ لك بمثابة العائِلة. نحن اثنان أنا وابني، ويمكِنك أن تتكفَّل بنا. إن لم تَفعل، فلا ضَيْرَ؛ فإنجلترا بلدُ القانون، ورجالُ الشرطةِ في كل مكان دائمًا.»

حسنًا، لم أستطع التخلُّص منهما؛ فانتَقلا إلى ضَيعتي، وعاشا منذ ذلك الحين في أفضل مَزارعي دون دفعِ أيِّ إيجار، ولم أشعُر من وقتها بالسَّلام أو النسيان، فحيثُما أذهب أجِد وجهَه الماكر المستهزئ. وازداد الأمر سُوءًا عندما كبرَت أليس؛ إذ سرعان ما أدرك أن خَوفي من اكتشاف ماضيَّ كان أكبرَ من خوفي من الشُّرطة. وهكذا صار لزامًا أن يحصل على كلِّ ما يريد من أرض، ومال، ومنازل، دون تردُّد؛ حتى طلب أخيرًا شيئًا، لم يَكن بمقدوري أن أمنحَه إياه؛ لقد طلَب أليس!

كان ابنُه، كما تعلَم، قد كبِر، وكذلك ابنتي؛ ولعلمه بسُوء حالتي الصحية، بدا له أن استيلاءَ ابنه على كل مُمتلكاتي سيكون ضربةً موفَّقةً له، ولكني وقفتُ بصرامةٍ أمام هذا الأمر؛ فلم أكُن لأسمَح لسلالته الملعونة بالاختلاط بسلالتي، ليس لأنني أحمل أي ضغينة للفتى، ولكن لأنه يحمل دمه، وكان هذا كافيًا؛ لذا تصدَّيت لهذا الأمر، وهدَّدني مكارثي، فتحدَّيته أن يُخرِج أسوأَ ما في جَعبَته، وكان مُقرَّرًا أن نتقابل عند البحيرة، في مكان محايِد بين منزلي ومنزله؛ كي نناقشَ الأمر.

عندما ذهبتُ إلى هناك، وجدته يتحدَّث إلى ابنه، فأشعلتُ سيجارًا، وانتظرتُ خلفَ إحدى الأشجار؛ حتى يصبح بمفرده. ولكن عندما استمعتُ لكلامه، بدا كلُّ ما بداخلي من شرٍّ وعُنف ومرارةٍ، وقد طفَا على السَّطح؛ فقد كان يحثُّ ابنَه على الزواج من ابنتي، دونَ اعتدادٍ برأيِها، وكأنها بائعةُ هوًى من الشارع. وحينما فكَّرت بأنني أنا وأعزَّ ما لديَّ في الوُجود، سنكون تحتَ رحمة هذا الرجل، دفَعني هذا إلى الجنون ولم أتمالَكْ نفسي، ألا يُمكنني كسرُ هذا القَيْد؟! أنا رجل يائسٌ على شَفا الموتِ على أيَّةِ حالٍ. وبرغم أنني كنتُ حاضرَ الذِّهن قويَّ الأوصال، فقد عرَفت أنَّ مَصيري مَحتوم، لكن ألا يُمكنني أن أُنقذ ابنتي وذكرايَ؟ نعم، يمكنني إنقاذُهما فقط لو أخرَستُ فمَ هذا القذِر. لقد فعلتُها يا سيد هولمز، وسأفعلها مجدَّدًا لو عاد بي الزمن، لقد أذنبت كثيرًا، إلا أنَّني عشتُ حياةً مليئة بالعذاب تكفيرًا عن ذنوبي، لكن أن تقعَ ابنتي في الشَّرَك الذي وقعتُ فيه، فهذا يفوق قدرتي على

التحمُّل. لقد ضربته دون أيِّ ندمٍ، كما لو كان وَحْشًا سامًّا قذرًا. دفعَتْ صرختُه ابنَه للعودة فاختبأتُ بين الأشجار، ولكنني اضطررتُ للعَودة؛ لاستعادَة معطفي الذي سَقط أثناء فراري. هذه حقيقةُ ما حدَث أيها السادة.»

قال هولمز، بينما كان العجوزُ يوقِّع على الشَّهادة التي كتَبها: «حسنًا، ليس لي أن أحكُم عليكَ، وأرجو ألا أخضَع لمثل هذا الإغرَاء.»

«أرجو ذلك يا سيدي. وماذا تَنوي أن تفعَل؟»

«بالنظر إلى حالتِك الصحية، لا شَيء. لا بدَّ أنك نفسك تدرِك أنك سوف تقف قريبًا أمام محكمة أعلى؛ لتُحاسَب على أفعالك. سأحتفظ باعترَافك، وإذا ما أُدِين مكارثي، فسوف أكون مُجبَرًا على استخدامِه؛ أما إذا برَّأت المحكمةُ ساحتَه، فلن تقع عليه عينا مخلُوق، وسيكون سِرُّك في أمانٍ معنا؛ سواء كنتَ حيًّا أم ميتًا.»

قال العجوز في وقار: «الوداع إذن. حينَ يأتي الأجل، ستشعران بالرَّاحة، وأنتما على فراش الموت، عند تفكيرِكما بالأمان الذي مَنحتماه لي.» وخرَج من الغرفة، وهو يمشِي ببُطء وصعوبة، وجسدُه العِملاق يرجُف ويرتعد.

قال هولمز بعد صمت طويل: «فليُعِنَّا الله! لماذا تحدثُ مثل تلك الأمور للمساكِين والبؤساء؟ إنني لا تمرُّ بي قطُّ قضية مثل هذه، إلا وقلتُ، كما قال باكستر من قبل: «الحمد لله الذي عافَى شيرلوك هولمز».»

بُرِّئ جيمس مكارثي من تهمةِ القتل؛ بناءً على عدد من الاعتراضات التي قدَّمها شيرلوك هولمز إلى محامِي الدفاع، وعاش تيرنر العَجوز سبعة أشهر بعد مقابلتِنا، ولكنَّه ميت الآن، ومن المُحتمل أن يكون الابن والابنة قد تزوَّجا، وعاشا في سعادة دونَ أن يعرفا بالسحابة السوداء التي ألقت بظِلَالِها على ماضِيهما.

بذور البرتقال الخمس

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
لبنى أحمد نور

مراجعة
محمد حامد درويش



بذور البرتقال الخمس

عندما أُلْقِي نظرةً عابرةً على ملاحظاتي وسجلَّاتي الخاصة بقضايا شيرلوك هولمز ما بين عامَي ١٨٨٢ و١٨٩٠، أجد عددًا كبيرًا منها يتَّسم بخصائص غريبة ومثيرة للاهتمام مما يجعل من الصعب أن أُقرر أيها أختار وأيها أترك. ومع ذلك، فقد اكتسب بعض تلك القضايا بالفعل شُهرة من خلال الصحف، ولم يُتِح بعضها الآخر مجالًا لإظهار تلك الميزات الخاصة التي تمتَّع صديقي بقدرٍ كبير منها، والتي تهدف هذه الصحف إلى إبرازها. كذلك أربكَ بعضُ القضايا مهارته التحليلية، ومن شأنها أن تكون، كالقصص، بدايات بلا نهايات، بينما لم تُحَل قضايا أخرى إلا جزئيًّا، ولها تفسيراتها المبنية على الحَدْس والتخمين بدلًا من الدليل المنطقي الكامل الذي كان يُفضِّله كثيرًا. ومع ذلك فإن واحدة من تلك الأخيرة، كانت لافتة للغاية في تفاصيلها، ومُذهلة للغاية في نتائجها، وإن ذلك يُغريني لسرد وقائعها، بصرف النظر عن أن ثمة نقاطًا ذات صِلة بها، لم تُحَل كُليًّا قط، وعلى الأرجح لن تُحلَّ أبدًا.

حملت لنا سنة ١٨٨٧ سلسلة طويلة من القضايا المتفاوتة الأهمية، التي أحتفظُ بسجلاتها. ومن بين العناوين الرئيسية في تلك السنة، تحضُرني مغامرة مجلس البارادول، ومغامرة جمعية الرهبان الهُواة، التي امتلكت ناديًا فاخرًا في قبو أحد مخازن الأثاث، وأيضًا الحقائق المتَّصلة بفقدان السفينة البريطانية «صوفي أندرسون»، والمغامرات الفريدة لعائلة جرايس باترسون في جزيرة أوفا، وأخيرًا قضية التسمُّم في كامبرْوِيل. في المغامَرة الأخيرة، كما قد تذكرون، استطاع شيرلوك هولمز، من خلال إعادة مَلْء ساعة القتيل، أن يُثبتَ أنها كانت قد مُلئت قبل ساعتين، وأن المُتوفَّى، بِناءً على ذلك، كان قد ذهب للنوم في تلك الأثناء؛ وهو الاستنتاج الذي كان له أعظم أهمية في حلِّ القضية. قد أستعرض كل

هذه القضايا لاحقًا، لكن أيًّا منها لا تتَّسم بتلك السمات الفريدة التي اتَّسمت بها سلسلة الملابسات الغريبة التي أنا بصدد وصفها الآن.

كُنا في أواخر شهر سبتمبر، وكانت عواصف الاعتدال الخريفي تهبُّ بعنف غير مسبوق. على مدار اليوم، كانت الريح تعوي والأمطار تَقصِف النوافذ، حتى إننا هنا في قلب مدينة لندن العظيمة والعريقة، اضطُرِرنا إلى التوقُّف لبعض الوقت عن ممارسة حياتنا الطبيعية، وملاحظة تجلِّيات تلك القوى الطبيعية العظيمة التي تزأر في وجه الإنسان المتواري خلف قضبان حضارته، كأنها وحوش جامحة حبيسة. وحالَما حلَّ المساء، ازدادت العاصفة شِدة وصخبًا، وعوتِ الريح وانتحبت في المدخنة كالطِّفل. جلس شيرلوك هولمز على أحد جانبَي المدفأة مُضطربَ المزاج، يُرتِّب سجلات الجريمة خاصَّته، بينما كنت أنا على الجانب الآخر من المدفأة، مُستغرِقًا في واحدة من قصص كلاك راسل البحرية الجميلة، حتى بَدا لي وكأن عواء العاصفة في الخارج قد امتزج مع النص، وأن زخَّات المطر تمتدُّ لتتَّصل باندفاع أمواج البحر. كانت زوجتي في زيارة لمنزل والدتها، ولبضعة أيام عُدتُ مرة أخرى إلى مسكني القديم في شارع بيكر.

قلتُ متطلِّعًا إلى رفيقي: «عجبًا، كان ذاك بالتأكيد جرس الباب. من عساه يأتي الليلة؟ لعله أحد أصدقائك؟»

أجابني: «ليس لدي أصدقاء غيرك. كما أنني لا أرحِّب بالزوَّار.»

«ربما كان عميلًا إذن؟»

«لو كان كذلك، فلا بدَّ أنها قضية خطيرة. فلا شيء أقل من ذلك يُمكن أن يحمل أحدًا على المجيء في يومٍ كهذا، وفي ساعة كهذه. ولكنَّني أُرجِّح احتمال أن تكون إحدى صديقات صاحبة البيت.»

غير أن شيرلوك هولمز كان مخطئًا في حدسه؛ فقد سَمعنا خطوًا في الردهة وطرقًا على الباب. مدَّ ذراعَه الطويلة ليُحوِّل المصباح عن نفسه إلى الكرسي الخالي الذي لا بدَّ أن الزائر سيَجلس عليه، وقال: «ادخل!»

كان الرجل الذي دخل شابًّا، يبدو في الثانية والعشرين تقريبًا، أنيقًا وحسن الهيئة، وفي ملامحه شيء من الدماثة والرهافة. ودلَّت مظلَّة المطر التي حملها بيده، ومعطفه الطويل اللامع المُقاوم للماء، عن الطقس القاسي الذي عانى منه في طريقه. تفحَّصه شيرلوك هولمز في ضوء المصباح بقلق، واستطعت أن أرى الشحوب البادي على وجهه وعينَيه المرهقتين، كمن يرزح تحت وطأة قلق بالغ.

قال الرجل رافعًا إطار نظارته الذهبي: «أسألك أن تقبَلَ اعتذاري، وأرجو ألَّا أكون متطفِّلًا. يؤسفني أنني جلبت إلى غرفتك الدافئة شيئًا من آثار العاصفة والمطر.»

قال له هولمز: «أعطني معطفك ومظلَّتك، سأعلقهما هنا على المِشجب، وسيجفَّان سريعًا. يبدو لي أنك آتٍ من الجنوب الغربي.»

«أجل، من هورشام.»

«هذا المزيج من الطين والطبشور الذي أراه على مقدمة حذائك مميزٌ للغاية.»

«لقد أتيتُ طالبًا مشورتك.»

«ذاك أمر سهل.»

«ومساعدتك.»

«هذا ليس سهلًا جدًّا دائمًا.»

«لقد سمعتُ عنكَ يا سيد هولمز. سمعتُ من الميجور برندرجاست كيف أنقذتَه من فضيحة نادي تانكرفيل.»

«آه، بالطبع. لقد اتُّهِم زورًا بالغشِّ في لعب الورق.»

«قال إنَّ باستطاعتكَ حلَّ أي شيء.»

«في قوله هذا مبالغة.»

«قال إنك لم تُهزم قط.»

«لقد هُزمت أربع مرات؛ ثلاثًا على يد رجال، وواحدة على يد امرأة.»

«ولكن ما قيمة ذلك مقارنةً بعدد نجاحاتك؟»

«أنت محقٌّ، لطالَما كنت موفَّقًا في العموم.»

«ربما ستنجح إذن في حلِّ قضيتي.»

«رجاءً قرِّب كُرسيك من المدفأة، وتفضَّل بإعطائي تفاصيل قضيتك.»

«إنها ليست قضية عادية.»

«ما من قضية تأتيني عادية؛ فأنا الملاذ الأخير.»

«ومع ذلك فإنني أشكُّ يا سيدي في أن تكون قد سمعت، في كل ما خبرته، عن أحداث أكثر غموضًا واستعصاءً على التفسير، من سلسلة الأحداث التي وقعَت لعائلتي.»

قال هولمز: «إنك تُثير اهتمامي. رجاءً أخبرنا بالحقائق الأساسية من البداية، ويُمكنني بعد ذلك أن أسألك عن التفاصيل التي تبدو لي أكثر أهمية.»

سحب الشاب كرسيَّه ومدَّ قدميه الرطبتين باتجاه اللهب.

تحدَّث قائلًا: «اسمي جون أوبنشو، ولكن على حدِّ علمي، ليس لي علاقة بهذه القضية الفظيعة. فالأمر متوارَث؛ لذا فلكَي أُعطيك فكرة عن الحقائق المتعلِّقة بالقضية، عليَّ أن أعود بك إلى بداية الأمر.

لا بدَّ أن تعلم أنه كان لجدي ولدان؛ عمي إيلايس وأبي جوزيف. امتلك أبي مصنعًا صغيرًا في كونفنتري، أجرى فيه توسُّعات عندما اختُرعَت الدراجات الهوائية، وحصل على براءة اختراع إطارات أوبنشو المتينة، ولاقى عمله نجاحًا مكَّنه من بيعه والتقاعد وهو في سَعة من العيش.

أما عمي إيلايس فقد هاجر إلى أمريكا في شبابه، وعمل مُزارعًا في فلوريدا، حيث أفادت أخباره بأنه قد أبلى بلاءً حسنًا جدًّا. وإبَّان الحرب، قاتل في جيش جاكسون، ثم تحت إمرة هوود؛ حيث ترقَّى إلى رتبة كولونيل. وحينما ألقى الجنرال لي سلاحه، عاد عمي إلى مزرعته، وظلَّ بها مدة ثلاث أو أربع سنوات. وفي حوالي عام ١٨٦٩ أو ١٨٧٠، عاد إلى أوروبا وعاش في ضَيعة صغيرة في مقاطعة ساسكس، بالقرب من هورشام. كان قد جمع ثروة طائلة في أمريكا، والسبب في تركه لذلك البلد هو بُغضه للسُّود، وعدم رضاه عن سياسة الجمهوريين في منحهم الامتيازات. كان رجلًا غريبًا، عنيفًا وحادَّ الطِّباع، ويتفوَّه ببذاءات حينما يغضب، ويَميل للانطواء؛ حتى إنه على مدار كل السنوات التي عاشها في هورشام، أشك أن تكون قدمه قد وطئت البلدة مرة. كان لديه حديقة وحقلان أو ثلاثة حول منزله، وهناك كان يتريَّض، رغم أنه كثيرًا ما كان يلزم غرفتَه لأسابيع متَّصلة. وكان يُفرط في شرب البراندي ويُدخِّن بشراهة، لكنه لم يحتكَّ بالمجتمع قط، ولم يرغب في أن يكون له أيُّ أصدقاء، ولا حتى شقيقه نفسه.

غير أنه لم يُمانع وجودي معه؛ بل في الواقع كان يُحبني؛ إذ كنت صغيرًا في الثانية عشرة أو نحوها حينما رآني للمرة الأولى. كان ذلك في عام ١٨٧٨، بعدما أمضى ثماني أو تسع سنوات في إنجلترا. وقد ترجَّى أبي ليسمح لي بالعيش معه، وكان بالغ اللطف معي، على طريقته. فقد اعتاد في غير أوقات سُكره، أن يلعب معي الطاولة والضامة، وكان يُنيبُني عنه في التعامل مع الخدم والتجار، حتى إنني غدوت في سن السادسة عشرة رب المنزل. كانت المفاتيح كلها معي، وكان باستطاعتي الذهاب أينما شئتُ وفعل ما أحبَبت، ما دمت لا أقتحم عزلته. ومع ذلك، كان يوجد استثناء واحد فقط؛ إذ كانت له غرفة خشبية واحدة في الْعِلِّيَّة، مغلَقة على الدوام، لم يسمح قطُّ لي ولا لأي مخلوق كان بدخولها. وقد دفَعني

فضول الصبية إلى أن أُلقي نظرة عليها عبر ثقب المفتاح، لكني لم أَستطِع رؤية أي شيء أكثر من مجموعة من الصناديق والحِزَم القديمة المتوقَّع وجودها في غرفة كتلك.

وذات يوم من أيام شهر مارس من عام ١٨٨٣، رأيت خطابًا عليه طابع بريدي أجنبي موضوعًا على الطاولة أمام صحن الكولونيل. لم يَكُن من عادته أن يتلقى خطابات؛ إذ كانت فواتيره كلها تُدفع نقدًا، ولم يكن له أي أصدقاء من أي نوع. قال وهو يَلتقطُه: «من الهند! الختم البريدي لبونديشيري! ما هذا يا تُرى؟» فتح الظرف بسرعة، فسقطت منه خمسُ بذورِ برتقالٍ مجفَّفة في صحنه مُحْدِثةً طقطقةً. أوشكَت أن تُفلِتَ منِّي ضحكة، لكني كتمتُها حين رأيت التعبير البادي على وجهه؛ فقد فغَرَ فاه، وجحظَت عيناه، وشحب لونه، وظلَّ يُحدِّق في الظرف الذي ما زال يُمسكه بيده المرتعشة، صارخًا: «كيه! كيه! كيه! يا إلهي! يا إلهي! لقد أهلكتني ذنوبي.»

صِحت: «ما الأمر يا عمَّاه؟»

قال: «إنه الموت!» ثم نهَض عن الطاولة وغادَرَ إلى غرفته، تاركًا إياي أرتعدُ من الخوف. تناولتُ الظرف ورأيتُ مكتوبًا بخطٍّ رديء في داخله بحبر أحمر فوق الختم بالضبط، الحرف كيه، مكرَّرًا ثلاث مرات. لم يكن في الظرف شيء آخر عدا البذور المجفَّفة الخمس. ماذا عساه يكون السبب في فزعِه الهائل؟ تركتُ مائدة الإفطار، وبينما كنتُ أصعد الدَّرَج، لقيتُ عمي نازلًا وفي يده مفتاح قديم صدئ، لا بدَّ أنه كان خاصًّا بالعليَّة، وفي اليد الأخرى صندوقٌ نحاسيٌّ صغيرًا يُشبِه الحصَّالة.

أقسم قائلًا: «ليفعلوا ما يَحلو لهم، ولكن والله لأهزمنَّهم!» ثم وجَّه كلامه لي قائلًا: «قُل لماري إنَّني سأحتاج إلى نارٍ في غرفتي اليوم، وأرسلْ في طلب فوردهام، محامي هورشام.»

فعلتُ ما أَمَرني به، وحين وصَل المحامي، طَلب مني أن أصعد إلى الغرفة. كانت النار مُستعِرَة، واحتوى الموقد على كومة من الرماد الأسود المُتطاير، كأنه نتاج ورق مُحترِق، بينما قبَع الصندوق المعدني بجوار الموقد مفتوحًا وخاليًا. حينما استرقتُ النظر إلى الصندوق لاحظتُ أن غطاءه مكتوب عليه أحرف «كيه» الثلاثة التي رأيتُها على الظرف في الصباح.

قال عمي: أريد منك يا جون أن تشهد على وصيَّتي. سأترك مزرعتي بكل ما فيها من ميزات وعيوب لأخي، والدك، وستئول إليك بلا شك. إذا استطعتَ التمتُّع بها بسلام، فبِها ونِعْمَت! وإن لم تَستطِع فاعمل بنصيحتي يا بُنيَّ واتركها لألدِّ أعدائك. يُؤسفُني إعطاؤك مثل هذا السلاح ذي الحدَّين، لكن لا يُمكنني أن أعرف ما ستئول إليه الأمور. لُطفًا وقِّع على الورقة حيث يُشير لك السيد فوردهام.

وقَّعتُ مثلَما أُشير عليَّ، وأخذ المحامي الورقة معه. وبقدر ما تتصوَّر، أثَّرت فيَّ هذه الواقعة الغريبة أعمق تأثير، وأخذتُ أفكر فيها وأُقلِّبها في عقلي بكلِّ طريقة مُمكِنة، من دون أن أستخلِصَ منها أي استنتاج. لكنَّني لم أستطِع أن أنفضَ عنِّي ذلك الخوف الغامض الذي خلَّفته تلك الواقعة، على الرغم من أن حدَّة هذا الشعور أخذت تخفُّ بمرور الأسابيع دون أن يَحدُث ما يُعكِّر صفو الروتين المُعتاد لحياتنا. ومع ذلك فقد لاحظتُ تغييرًا اعترى عمي؛ إذ أفرط في الشرب أكثر من أي وقتٍ مضى، وتضاءل اكتراثه بالاختلاط بأي نوع من البشر. كان يَقضي معظم وقته في غرفته وقد أقفل الباب من الداخل، إلا أنه في بعض الأحيان كان يَظهر في حالة من الهياج من أثر الخمر ويَندفِع خارجًا من المنزل إلى الحديقة حاملًا مسدَّسًا في يده، صارخًا أنه لا يَخاف أحدًا، وأنه ما من إنسٍ ولا شيطانٍ سيَحبِسه كما تُحْبَس الخِراف في حظيرة. ومع ذلك، فما إن كانت تَنتهي نوبات الهياج هذه، حتى كان يُسرع في عصبية إلى غرفته موصدًا الباب خلفه بإحكام، كما لو أنَّ الرجل لم يَعُد بوسعه تحدِّي الخوف الرابض في أعماق روحه. في تلك الأوقات، كنت أرى وجهه يتصبَّب عرقًا، حتى في الأيام الباردة، كما لو كان قد خرج للتوِّ من الحمَّام.

حسن، لأصلَ إلى خاتمة القصة، وحتى لا أُسيء استغلال سَعة صدرك، يا سيد هولمز، ففي ليلة من الليالي، دخَل في نوبة من نوبات هياج المخمور تلك، ولم يَخرج منها قط. وحينما ذهبْنا للبحث عنه، وجدْناه مُنكفئًا على وجهه في بركة صغيرة مغطَّاة بزبد أخضر في نهاية الحديقة. لم يكن ثمَّة أثر لأيِّ عنف، ولم يَزِد عمق البِركة على قدمَين؛ لذا حكَمَت هيئة المحلِّفين بأنه «انتحار»، آخِذين في الاعتبار غرابة أطوار الضحية. غير أنني؛ إذ كنت أعلم مدى نفوره من مجرد فكرة الموت، جابهتُ صعوبةً شديدةً في أن أُقنع نفسي بأنه سعى جاهدًا لملاقاة الموت بنفسه. ومع ذلك فقد أُقفلت القضية، وتقدَّم أبي لحيازة الضيعة، ومبلغ قدره ١٤ ألف جنيه، أُودع في حسابه البنكي.»

قاطعه هولمز قائلًا: «لحظة واحدة! إنَّ قصتك، في ظني، إحدى أكثر القصص التي سمعتُها إثارة على الإطلاق. أخبرني بتاريخ تسلُّم عمِّك للخطاب، وتاريخ انتحاره المزعوم.»

«وصل الخطاب في العاشر من مارس، عام ١٨٨٣، وحدثت الوفاة بعد سبعة أسابيع، ليلة الثاني من مايو.»

«أشكرك. أكمل أرجوك.»

«حينما تسلَّم أبي تركة هورشام، وبناءً على طلبي، تفقَّد بعناية العليَّة التي لطالَما كانت موصَدة. وجدْنا الصندوق المعدني هناك، غير أنَّ محتوياته كانت قد أُتلِفت. وكان على السطح الداخلي لغطائه مُلصَق ورقي مكتوب عليه الحرف «كيه» مكرَّرًا هكذا «كيه كيه كيه» في الأعلى، وقد كُتب تحته: «رسائل، ومذكرات، وإيصالات، وسِجل.» افترضْنا أن هذه الكلمات تُشير إلى طبيعة الأوراق التي أتلَفَها الكولونيل أوبنشو. أما باقي مُحتويات العليَّة، فلم يكن بينها شيء ذو أهمية كبيرة، عَدا عدد كبير جدًّا من الأوراق المبعثَرة والدفاتر التي تحتوي على مذكِّرات عمي في أمريكا. كان بعضها يعود إلى زمن الحرب، وظهَر فيها أنه أدَّى واجبه على خير وجه، واشتُهرَ بشجاعته كجنديٍّ. وكان قسمٌ آخر من المذكِّرات يعود إلى عصر إعادة إعمار الولايات الجنوبية، وكان معظمُها يتعلَّق بالسياسة؛ إذ كان من الجليِّ اضطِلاع عمِّي بدور مؤثِّر في معارضة الساسة الانتهازيِّين الذين جاءوا من الولايات الشمالية.

على كُلِّ حال، كنَّا في بداية عام ١٨٨٤ حين أتى أبي ليُقيم في هورشام، وكان كل شيء على خيرِ ما يُرام، حتى يناير ١٨٨٥. ففي اليوم الرابع بعد رأس السنة، سمعتُ أبي وهو يُطلِق صيحة دهشة عالية بينما كنا نَجلِس معًا على مائدة الإفطار. كان جالسًا وفي إحدى يدَيهِ ظرف فُتح للتوِّ، وفي اليد الأخرى المبسوطة خمس بذور برتقال مجفَّفة. لطالَما سخر مما أسماه قصَّتي التي لا تُصدَّق عن الكولونيل، لكنه كان يبدو حينئذٍ مرتعبًا وفي أشد الحيرة؛ إذ كان الأمر ذاته يتكرَّر معه.

تمتم قائلًا: «عجبًا! ما الذي يعنيه هذا بحق الجحيم، يا جون؟»

اختلج قلبي وقلت: «إنها الحروف كيه كيه كيه.»

نظر إلى داخل الظرف وصاح: «إنها كذلك، ها هي الحروف نفسها، لكن، ما هذا المكتوب فوقها؟»

اختلست النظر من فوق منكبه فوجدت مكتوبًا: «ضعِ الأوراق على المزولة الشمسية.»

تساءل: «أي أوراق؟ وأي مزولة؟»

قلت: «المزولة في الحديقة. لا يوجد غيرها، ولكن لا بدَّ أن الأوراق هي تلك التي أُتلفَت.»

قال وهو يُحاول استجماع شجاعته: «أُف! نحن في بلد متحضِّر، ولا نَقبل بحماقة من هذا النوع. من أين بُلينا بهذا؟»

أجبتُه ناظرًا إلى الختم البريدي: «من مدينة دَنْدِي.»

علَّق قائلًا: «يا لها من مُزحة سخيفة بحق! ماذا عليَّ أن أفعل بالمَزاول والأوراق؟ لن ألتفتَ إطلاقًا إلى هذا الهُراء!»

قلت: «لا بدَّ بالطبع إبلاغ الشرطة.»

قال: «ليَسخروا من محنتي؟ لن أسمح بشيء كهذا.»

قلت: «دعني أنا إذن أقوم بذلك.»

قال: «لا، لن أسمح لك. لن أسمح بإيلاء مثل هذا الهراء أي اهتمام.»

لم يكن الجِدال ليُجدي معه نفعًا؛ إذ كان رجلًا شديد التعنُّت، ومع ذلك فقد حاولتُ مناقشته وأنا مُتشائم في قرارة نفسي.

في اليوم الثالث بعد وصول الخطاب، غادَرَ أبي البيت ذاهبًا لزيارة أحد أصدقائه القُدامى، الميجور فريبَدي الذي كان يتولى قيادة أحد حصون بورتسداون هيل. كنتُ سعيدًا لمغادرته؛ إذ بدا لي أنه سيكون بمأمن مِن الخطر ببُعدِه عن البيت. غير أني كنت مخطئًا في ذلك؛ ففي ثاني أيام غيابه، تلقَّيتُ برقيةً من الميجور، يُناشدُني فيها أن أحضُر في الحال. كان أبي قد سقط في إحدى حُفر الطباشير العميقة التي تَكثُر في المنطقة، ورقَد فاقدًا الوعي ورأسه مهشَّم. عجلت إليه، لكنه قضى نحبه دون أن يَستعيد وعيه أبدًا. كان، على ما يبدو، عائدًا من فيرهام وقت الغسق، وإذ لم يكن خبيرًا بالبلدة، ولم تكن حفرة الطباشير مُسوَّرة، فلم تتردَّد هيئة المحلِّفين في الحُكم بأن حادثة الوفاة كانت، حسب قولهم، «قضاءً وقدرًا». ورغم أنني تفحَّصت بعناية جميع مُلابَسات موته، لم أجد ما يوحي بأنها جريمة قتل. لم يكن ثمَّة أي أثر للعنف، ولا آثار أقدام، ولا سرقة، ولم يُبلِّغ أحد عن رؤيته لغرباء مرُّوا بالطريق. ومع ذلك فلست في حاجة لإخبارك أنه لم يهدأ لي بال، وأنني كنت متأكدًا تمامًا من أن مؤامرة خسيسة قد حِيكت ضده.

وبهذه الطريقة المشئومة، آلت إليَّ التركة. ستسألني لماذا لم أتخلَّص منها، وسأجيبك بأنني كنت مقتنعًا بأن مأساتنا متعلِّقة بشكل أو بآخر بحادثةٍ ما في حياة عمي، وعليه فإن الخطر سيظل قائمًا سواءٌ في هذا المنزل أو غيره.

لقي والدي المسكين حتفه في شهر يناير من عام ١٨٨٥، وقد مرَّ عامان وثمانية أشهر منذ ذلك الحين. في تلك الأثناء عِشت بهناء في هورشام، وكنتُ قد بدأت أستعيد الأمل في أن تكون هذه اللعنة قد زالت عن أسرتي، وأنها قد انتهَت بنهاية الجيل السابق. غير أنني تعجَّلت في الركون إلى الطمأنينة؛ إذ حلَّت بي صباح أمس النَّكبة، بالطريقة نفسها التي حلَّت بها على أبي.»

أخرج الشاب من صدريته ظرفًا مكرمَشًا، والتفت إلى الطاولة ناثرًا عليها خمس بذور برتقال صغيرة مجفَّفة.

وتابع قائلًا: هذا هو الظرف، وعليه الختم البريدي للندن؛ قسمها الشرقي، وفي داخله الكلمات نفسها التي كانت في الرسالة الأخيرة التي تلقَّاها أبي: «كيه كيه كيه.» ثم: «ضع الأوراق على المزولة الشمسية.»

سأله هولمز: «وماذا فعلت؟»

«لا شيء.»

«لا شيء؟»

قال الشاب وقد طأطأ رأسه واضعًا إياه بين يديه البيضاوين النحيلتين: «في الحقيقة، شعرت بالعجز. شعرتُ كما لو أنني أحد تلك الأرانب المسكينة حينما تجد الأفعى قادمة تتلوى باتجاهها. يبدو لي أنني واقع في ربقة شرٍّ لا يرحم، وما من عاصم يعصمني منه.»

صاح به شيرلوك هولمز: «لا! لا! يجب أن تتصرَّف يا رجل، وإلا هلكت. لا شيء سينقذك سوى التحرك. هذا ليس وقت اليأس.»

«لقد ذهبتُ إلى الشرطة.»

«حسنًا!»

«لكنهم استمعوا إلى قصتي باستهزاء. أَجزم بأن المفتش تكوَّن لديه انطباع بأن الخطابات كلها ما هي إلا مقالب، وأن وفاة أبي وعمي كانت محض حادثة طبيعية مثلَما حكم المحلِّفون، وليس لها علاقة بالتهديدات.»

لوَّح هولمز بقبضتيه في الهواء، وصاح: «يا لها من حماقة لا تُصدق!»

«لكنهم، مع ذلك، عيَّنوا لي شرطيًّا، سيُقيم معي في المنزل.»

«هل أتى معك الليلة؟»

«لا؛ فالتعليمات التي لديه كانت تقضي بأن يبقى في المنزل.»

لوَّح هولمز بقبضتيه في الهواء في حنق مرة أخرى.

وصاح به قائلًا: «لماذا أتيت إليَّ إذن؟ والأهم من ذلك، لماذا لم تأتِ في الحال؟»

«لم أكن أعرف؛ إذ لم أُحدِّث الميجور برندرجاست بمشكلتي إلا اليوم، ونصحني بالمجيء إليك.»

«لقد مضى بالفعل يومان منذ أن تسلمتَ الخطاب. كان علينا أن نتحرَّك قبل هذا. ليس بحوزتك أدلة أخرى، على ما أعتقد، غير تلك التي عرضتها علينا، هل ثمَّة تفصيلة مفيدة يمكن أن تساعدنا؟»

قال جون أوبنشو: «هناك شيء واحد.» ثم فتَّش في جيب معطفه، وأخرج ورقة باهتة، تميل إلى اللون الأزرق، ووضعها على الطاولة قائلًا: «أتذكَّر أنه في اليوم الذي أحرق فيه عمي الأوراق، لاحظت أن الحواف الصغيرة غير المحترقة التي بقيت بين الرماد كان لها هذا اللون بالضبط. وجدت هذه الورقة المنفردة على أرضية غرفته، وأميل إلى الاعتقاد بأنها ربما كانت إحدى الأوراق التي من المحتمل أن تكون قد طارت من الرزمة؛ ومن ثمَّ أفلتَت من الحريق. لا أظن أن الورقة ستُساعدنا كثيرًا عدا ما ذُكِر فيها عن البذور، أعتقد أنها صفحة من مذكرات خاصة. الخط المكتوبة به هو خط عمي بلا ريب.»

حرَّك هولمز المصباح، وانحنَينا كلانا ننظر إلى الورقة، التي بدا لنا من حافتها غير المنتظمة أنها بالفعل منزوعة من دفتر. كانت مُعنونةً: «مارس ١٨٦٩»، وتحت هذا العنوان، وردت الملاحظات الغامضة الآتية:

الرابع: أتى هدسون. الرصيف القديم نفسه.
السابع: وضعتُ البذور لماكولي، وبارامور، وجون سوين، من سان أوجستين.
التاسع: انتهى ماكولي.
العاشر: انتهى جون سوين.
الثاني عشر: زرت بارامور. كل شيء على ما يرام.

قال هولمز وهو يطوي الورقة ويعيدها إلى ضيفنا: «أشكرك! والآن يجب ألَّا تُضيِّع لحظة واحدة تحت أي ظرف. ليس لدينا وقت حتى لمناقَشة ما أخبرتني به. عليك أن تعود إلى البيت فورًا وتتصرف.»

«ماذا ينبغي أن أفعل؟»

«لا يوجد سوى أمر واحد عليك فعله في الحال. يجب أن تضع هذه الورقة التي أريتَنا إياها، في الصندوق النحاسي الذي ذكرته. ويجب أيضًا أن تضع قصاصةً تقول إن عمك أحرق باقي الأوراق، وهذه هي الورقة الوحيدة المتبقية. يجب أن تؤكد ذلك بكلماتٍ تُقنعهم. وبعد أن تفعل ذلك، عليك أن تضع الصندوق على المزولة الشمسية فورًا، كما هي التعليمات. مفهوم؟»

«تمامًا.»

«لا تفكر في الانتقام، ولا في أي شيء من هذا القبيل، في الوقت الحالي. أعتقد أننا قد نصل إلى ذلك بالوسائل القانونية؛ ولكن علينا أن نَنصب فِخاخنا، بينما فخاخهم قد نُصِبَت

بالفعل. أولويتنا الأولى هي إزالة الخطر الذي يتهدَّدك. أما الأولوية الثانية فهي كشف الغموض ومعاقبة الأطراف المذنبة.»

قام الشاب وارتدى معطفه قائلًا: «شكرًا لك، لقد منحتَني أملًا وحياة جديدة. سأعمل بنصيحتك بالتأكيد.»

«لا تُضيِّع لحظة واحدة، والأهم من ذلك أن تنتبه لنفسك في هذه الأثناء؛ إذ لا يساورني شك في أنك مهدَّد بخطر حقيقي ووشيك للغاية. كيف ستعود إلى البيت؟»

«بالقطار من واترلو.»

«الساعة لم تبلُغ التاسعة بعد، والشوارع مزدحمة؛ لذا أعتقد أنك ستكون بمأمن، ومع ذلك يجب ألَّا تتساهل في حماية نفسك.»

«بحوزتي سلاح.»

«هذا جيد. غدًا سأشرع في العمل على حلِّ قضيتك.»

«سأراك في هورشام إذن؟»

«لا، سرُّك يَكمن في لندن؛ لذا يجب أن أبحث هناك.»

قال: «إذن سأُهاتفك بخصوص مُستجدات الصندوق والأوراق، في غضون يوم أو يومين. وسأعمل بنصيحتك بحذافيرها.» وصافحْنا مغادرًا. كانت الريح بالخارج لا تزال تُصفِّر والمطر يَنهمِر ويقصف النوافذ. بدا أن هذه القصة الغريبة غير المألوفة قد خرجت علينا من وسط الطبيعة الغاضبة — كهشيم تذروه الرياح في وجوهنا — وها هي الطبيعة تستعيدها مرة أخرى.

جلس شيرلوك هولمز واجمًا هنيهة، وقد طأطأ رأسه وثبَّت عينيه على ألسنة اللهب الحمراء، ثم أشعل غليونه وأسند ظهره إلى كرسيه متطلِّعًا إلى دوائر الدخان الزرقاء التي أخذت تتسابق متصاعدة إلى سقف الغرفة.

وأخيرًا قال: «أعتقد، يا واطسون، أن كل القضايا التي عملنا عليها لا تُضاهي هذه القضية إثارة.»

«ما عدا قضية «علامة الأربعة»، ربما.»

«نعم، صحيح. ما عدا تلك، ربما. ومع ذلك يبدو لي أن جون أوبنشو هذا محاطٌ بأخطار أكبر من تلك التي جابهها آل شولتو.»

سألته: «لكن، هل كوَّنت أي فكرة محدَّدة عن ماهية هذه الأخطار؟»

أجابني: «لا يُساورني شكٌّ في طبيعتها.»

«ما هي إذن؟ من هو كيه كيه كيه هذا؟ ولماذا يلاحق هذه العائلة التعيسة؟»

أغمض شيرلوك هولمز عينيه، ووضع مرفقيه على ذراعي كرسيه، وقد لامست أنامل إحدى يديه أنامل يده الأخرى. وقال: «المحلِّل المثالي لن يستنتج من حقيقة واحدة — ما إن تظهر له من جميع جوانبها — سلسلة الأحداث التي أدَّت إليها فقط، وإنما أيضًا النتائج التي من شأنها أن تترتَّب عليها كافة. فكما استطاع كوفييه أن يصف بدقة حيوانًا كاملًا من خلال تأمل عظمة واحدة، كذلك لا بدَّ أن يكون في مقدور المراقِب — الذي فهم جيدًا حلقة واحدة من سلسلة من الأحداث — أن يُحَدِّد كل الأحداث الأخرى بدقة، سواء السابقة عليها أو اللاحقة. نحن لم نُحِط بعدُ بالنتائج التي يقود إليها المنطقُ وحده. والمشكلات التي حيَّرت كل من حاولوا حلها بمجرد النظر، يمكن حلها بالدراسة. ومع ذلك، فلإجادة هذا الفن أقصى إجادة، من الضروري أن يكون المُحلِّل قادرًا على استخدام جميع الحقائق المتوفِّرة لديه، وهذا في حدِّ ذاته يقتضي ضِمنًا، كما سترى بسُهولة، امتلاكًا للمعرفة بكل فروعها، وهو إنجاز نادر إلى حدٍّ ما، حتى في عصرنا هذا الذي تتوفَّر فيه الموسوعات والتعليم المجاني. ومع ذلك ليس مستحيلًا أن يحوز الإنسان كل المعارف التي من الراجح أن تفيده في عمله، وهذا هو ما سعيت شخصيًّا لتحقيقِه. ذات مرة، إن لم تخنِّي الذاكرة، وصفتَ معارفي المَحدودة في بداية صداقتنا وصفًا دقيقًا للغاية.»

أجبتُ ضاحكًا: «أجل، لقد كانت وثيقة فريدة من نوعها. أتذكر أني أعطيتُك صفرًا في الفلسفة وعلم الفلك والسياسة، وقلتُ إنَّ مستواك في علم النبات مُتذبذِب، لكنه فائق في الجيولوجيا، فيما يخصُّ رصدك لبُقَع الطين من أيِّ مكان في نطاق خمسين ميلًا حول البلدة، وخارج عن المألوف في الكيمياء، وغير منهجي في علم التشريح، ومتميِّز في الأدب الراقي وسجلات الجريمة، وعازف كمان، وملاكم، ومبارز، ومحامٍ، ومُدمِّر لنفسك بتعاطي الكوكايين والتبغ. كانت هذه، على ما أتذكَّر، النقاط الرئيسة في تحليلي لك.»

اتَّسعت ابتسامة هولمز عند ذكري للنقطة الأخيرة، وقال: «حسنًا، سأقول لك الآن ما قلته حينذاك، وهو أن على الإنسان أن يحتفظ في الغرفة العليا الصغيرة من دماغه بجميع الأشياء التي من المرجح أن يستخدمها، ويُمكنه وضع باقي الأشياء جانبًا في حجرة سقط المتاع في مكتبة دماغه، حيث يُمكنه العودة إليها إذا ما احتاج إليها. الآن، أمام قضية مثل هذه التي وُضعَت بين أيدينا الليلة، نحتاج بالتأكيد إلى استحضار جميع مصادرنا. من فضلك ناوِلني الحرف كيه من «الموسوعة الأمريكية» الموضوعة على الرف بجوارك. شكرًا لك. والآن دعنا ندرس الوضع، لنرى ما يمكننا استنتاجه منه. بادئ ذي بدء، يمكننا أن

نرجح فرضية أن الكولونيل أوبنشو كان لديه سبب قوي للغاية لمغادرة أمريكا؛ فالرجال في مرحلته العمرية لا يُغيِّرون عاداتهم كلها ويستبدلون طواعيةً حياة الوحدة في بلدة ريفية إنجليزية بمناخ فلوريدا الساحر. إن حبه المبالغ فيه للوحدة في إنجلترا يدلُّ على أنه كان خائفًا من شخص ما أو من شيء ما؛ لذا يمكننا أن نفترض فرضية، يمكن البناء عليها، أن الخوف من شخص ما أو من شيء ما هو ما أدَّى به إلى الخروج من أمريكا. أما ماهية ما أخافَه، فلا يسعنا سوى الاستدلال عليه عن طريق البحث في الخطابات المروِّعة التي تسلَّمها هو وورثياه. هل لاحظت الأختام البريدية الخاصة لتلك الخطابات؟»

«الأول كان من بونديشيري، والثاني من دَندِي، والثالث من لندن.»

«من شرق لندن. ما الذي تَستنتجه من ذلك؟»

«كلها موانئ؛ لذلك فالمُرسل كان على متن سفينة.»

«ممتاز. لدينا دليل الآن. ليس ثمة شك في وجود احتمال، واحتمال قوي، أن المُرسِل كان على ظهر سفينة. والآن دعنا نتناول نقطة أخرى. في حالة بونديشيري، انقضت سبعة أسابيع بين الوعيد وإنفاذه، بينما استغرَق الأمر في حالة دَندِي ثلاثة أيام أو أربعة فقط. ألا يُشير ذلك إلى أي شيء؟»

«مسافة سفر أطول.»

«لكن الخطاب قطع أيضًا مسافة أطول ليصل.»

«لا يُمكنني أن أفهم المغزى.»

«لدينا على الأقل افتراض بأن المركب الذي يستقلُّه الرجل أو الرجال هو عبارة عن سفينة شراعية. ويبدو أنهم اعتادوا إرسال تحذيرهم الغريب أو رمزهم، ليتقدَّمهم قبل البدء في مهمَّتهم. لاحِظ كم كانت سرعة التنفيذ بعد إرسال العلامة حينما أتت من دَندِي. لو أنهم أتوا من بونديشيري مستقلِّين سفينة بخارية، لكانوا قد وصلوا في نفس موعد وصول خطابهم تقريبًا. ولكن، في الواقع، كانت سبعة أسابيع قد مرت. أظن أن هذه الأسابيع السبعة تُمثِّل الفرق بين سرعتَي قارب البريد الذي جلب الخطاب، والقارب الشراعي الذي أحضر كاتبه.»

«هذا محتمل.»

«ليس محتملًا فقط، بل هو مرجَّح. الآن تفهم مدى الأهمية الفائقة للسرعة في هذه القضية الجديدة، والسبب الذي جعلني أُلِحُّ على الشاب أوبنشو في توخِّي الحذر؛ فلطالَما وقعت النكبة في نهاية المدة التي يستغرقها المرسلون في قطع المسافة. لكن هذا الخطاب آتٍ من لندن؛ لذا لا يمكننا التعويل على تأخرهم.»

صحتُ قائلًا: «رحماك يا إلهي! ماذا عساه يعني هذا التعذيب القاسي؟»

«من الواضح أن الأوراق التي حملها أوبنشو ذات أهمية ماسَّة للشخص أو الأشخاص في السفينة الشراعية. أظن أنه من الواضح جدًّا أنهم أكثر من واحد حتمًا. لم يكن رجل واحد ليستطيع تنفيذ عمليتَي قتل بمثل هذه الطريقة التي تَنطلي على هيئة محلِّفين جنائية. لا بدَّ وأن كثيرين كانوا ضالعين في الأمر، ولا بدَّ أنهم كانوا رجالًا أشدَّاء ومقتدرين، عازمين على أخذ أوراقهم، كائنًا من كان من يحوزها. وبهذه الطريقة ترى أن كيه كيه كيه يتجاوز كونه الأحرف الأولى لاسم أحد الأشخاص، لأن يكون رمزًا لجماعة.»

«لكن، لأي جماعة؟»

قال شيرلوك هولمز، منحنيًا إلى الأمام وخافضًا صوته: «ألم، ألم تسمع قط بجماعة «كو كلوكس كلان»؟»

«لم أسمع بهم قط.»

قلَّب هولمز صفحات الكتاب الموضوع على ركبتيه، وقال من فوره: «ها هي، كو كلوكس كلان؛ اسم مشتق من الصوت الناتج عن قدح البندقية. تشكَّلَت هذه الجماعة السرية البغيضة في الولايات الجنوبية على يد عدد من الجنود الكونفدراليين السابقين، عقب انتهاء الحرب الأهلية، وسرعان ما شكَّلت فروعًا محلية لها في مناطق مختلفة من البلاد، من أبرزها تينيسي، ولويزيانا، وكارولينا الشمالية والجنوبية، وجورجيا، وفلوريدا. استغلت نفوذها لأهداف سياسية، في مقدمتها ترهيب الناخبين السود، وقتل وتهجير أولئك المعارضين لآرائها. وعادة ما كان يسبق اعتداءاتها تحذيرٌ يُرسل إلى الشخص المُستهدَف، وكانت طريقة هذا التحذير تتسم بغرابتها وإن كانت مميزةً عادةً؛ غصن من أوراق البلوط في بعض الأماكن، وبذور ليمون أو بذور برتقال في أماكن أخرى. وحينما يتلقَّى الضحية الرسالة، إما أن يتراجع علانيةً عن مواقفه السابقة، وإما أن يُهاجر من البلد. أما إذا اختار التحدي، فسيحصد الموت روحه بلا ريب، وعادةً ما يكون ذلك بطريقة غريبة وغير متوقَّعة. كان تنظيم الجماعة من المثالية بمكان، وكانت أساليبها من النظامية بمكان، إلى درجة أنه ليس هناك حالة واحدة مسجَّلة لنجاح أي شخص في تحدي الجماعة والإفلات من قبضتها، ولا حدث أن تمَّ التوصُّل إلى مرتكبي أيٍّ من اعتداءاتها. وظلت المنظمة مزدهرة لسنوات، بالرغم من جهود حكومة الولايات المتحدة وطبقات المجتمع العليا في الجنوب. وأخيرًا، بحلول عام ١٨٦٩، انهارت الحركة انهيارًا كان مُفاجئًا نوعًا ما، لكن عملياتها المعهودة ظلت تحدث على نحو مُتقطِّع منذ ذلك التاريخ.»

ثم قال هولمز، وهو يضع المجلد من يده: «ستُلاحظ أن تفكُّك الجماعة المفاجئ تصادف مع اختفاء أوبنشو من أمريكا ومعه أوراقهم. ربما كان حريًّا بذلك أن يكون سببًا ونتيجةً. ولا عجب من وجود من يُلاحقه هو وأسرته بإصرار لا يلين. لك أن تعرف أن صفحة مذكراته هذه قد تُدين عددًا من الشخصيات الأعلى مكانةً في الجنوب؛ ومن ثَم فربما يوجد كثيرون ممَّن لن يغمض لهم جفن في الليل، حتى يستردُّوا هذه الورقة.»

«إذن فالصفحة التي رأيناها ...»

«هي كما نتوقع. كانت تقول، على ما أتذكَّر: أُرسلت البذور إلى فلان وفلان وفلان؛ ما يعني أن تحذير الجماعة أُرسل إليهم. ثم وردَت بها إشارة إلى النجاح في التخلص من فلان وفلان، أو مغادرته البلد، وأخيرًا أنه تمَّت زيارة الشخص الثالث، وكانت النتيجة، كما أخشى، وبالًا عليه. حسنًا، في اعتقادي، يا دكتور، أننا ربما نكون قد أضأنا شمعة في هذه العتمة، وأعتقد أن الفرصة الوحيدة أمام الشاب أوبنشو في الوقت الحالي، تتمثَّل في تنفيذ ما قلته له. ما من شيء آخر يُقال أو يُفعل الليلة؛ فأعطني آلة الكمان، ودعنا نحاول لنصف ساعة أن نَنسى حالة الطقس البائسة، والظروف الأكثر بؤسًا التي يمر بها رفقاؤنا في الإنسانية.»

في الصباح كانت حالة الطقس قد تحسَّنت، وشقَّت الشمس بأشعتها الخافتة وشاح العتمة الذي لفَّ المدينة الكبيرة. كان شيرلوك هولمز قد بدأ يتناول فطوره بالفعل حينما نزلتُ إليه.

قال لي: «اعذرني لعدم انتظاري لك؛ فأمامي، كما أتوقع، يوم مزدحم بالعمل على قضية ذلك الشاب أوبنشو.»

سألته: «ما الخطوات التي سوف تتخذها؟»

«سيتحدَّد الأمر إلى حدٍّ كبير بناء على نتائج تحرياتي الأولى. قد أضطر، في النهاية، للذهاب إلى هورشام.»

«ألن تذهب إلى هناك أولًا؟»

«كلا، سأبدأ بالمدينة. فقط اقرع الجرس وستُحضِر لك الخادمة قهوتك.»

بينما كنت منتظرًا، التقطت من فوق الطاولة جريدة مطوية وتصفحتُها، فوقع بصري على عنوان أصاب قلبي بالقشعريرة.

صِحت: «هولمز، لقد تأخرْت!»

قال واضعًا فنجانه على المائدة، ومتكلِّمًا بهدوء، غير أنه كان بمقدوري أن ألاحظ تأثره الشديد: «آه! هذا ما كنت أخشاه. كيف حدث الأمر؟»

التقطت عيني اسم أوبنشو، والعنوان هو «مأساة بالقرب من جسر واترلو». وها هي التفاصيل:

> بين التاسعة والعاشرة من ليلة أمس، بينما كان الشرطي كوك، من الشعبة إتش، يؤدي خدمته بالقرب من جسر واترلو، سمع نداء استغاثة وصوت ارتطام شيء بالماء. كان الليل حالك الظلام وعاصفًا؛ لذلك وعلى الرغم من أن العديد من المارَّة مدُّوا يد المساعدة، كانت مهمة الإنقاذ مستحيلة إلى حدٍّ كبير. ومع ذلك فقد أُطْلِقَت صافرة الإنذار، وانتُشِل الجثمان في نهاية الأمر بمساعدة شرطة المسطحات. تبيَّن أن الجثمان لشاب اسمه جون أوبنشو، حسبما يظهر من ظرف عُثر عليه في جيبه، وكان يَسكُن بالقرب من هورشام. ويُعتقد أنه ربما كان يسير مسرعًا للحاق بآخر قطار مغادِر لمحطة واترلو، وفي غمرة إسراعه ووسط الظلمة الحالكة، ضل طريقه ووطئ على حافة أحد المرافئ الصغيرة الخاصة بالقوارب النهرية. لم يظهر على الجثة أي آثار للعنف، ولا شكَّ في أن المتوفَّى كان ضحية لحادث مؤسف، من شأنه أن يجذب انتباه المسئولين إلى حالة المرافئ النهرية.

جلسنا صامتَين لدقائق، ولم أرَ هولمز في حياتي أكثر اكتئابًا وتداعيًا.

وأخيرًا نطق قائلًا: «الأمر جارح لكبريائي يا واطسون. إنه شعور تافه، ولا شك، ولكن كبريائي جريح. لقد أصبحَت مسألة شخصية بالنسبة لي الآن، ولإنْ قدَّرني الله سأقبض بيدي على هذه العصابة. لقد أتى إليَّ طالبًا العون، وأرسلته أنا إلى حتفه!» ثم انتفض من كرسيه وأخذ يذرع الغرفة بغضب خارج عن السيطرة، وقد احمرَّت وجنتاه الشاحبتان، وهو يُشبِّك يديه النحيلتين الطويلتين ويحلُّهما بعصبية.

وأخيرًا صاح قائلًا: «يا لهم من شياطين ماكرين! كيف استطاعوا استدراجه إلى هناك؟ الجسر ليس على الطريق إلى المحطة. ولا شكَّ أن الجسر كان مزدحمًا للغاية، حتى في ليلة كهذه، فلم يكن مناسبًا لتنفيذ غرضهم. حسنًا يا واطسون، سنرى لمن سيكون الفوز في نهاية المطاف. أنا ذاهب الآن!»

«إلى الشرطة؟»

«لا، سأكون شرطة نفسي. بعدما أنسج شبكتي، يُمكنهم أن يأتوا لأخذ الذباب، لكن ليس قبل ذلك.»

كنت منهمكًا في عملي طول اليوم، ولم أعد إلى شارع بيكر إلا في وقت متأخِّر من المساء. لم يكن شيرلوك هولمز قد عاد بعد. كانت الساعة تقترب من العاشرة حين دخل، وقد بدا

شاحبًا ومرهقًا. توجه إلى المائدة، وقطع قطعة من الخبز، وازدردها بشراهة، وأتبعها بشربة طويلة من الماء.

علَّقت قائلًا: «تبدو جائعًا.»

«أتضور جوعًا. فاتني أن آكل. لم أتناول شيئًا منذ الإفطار.»

«لا شيء؟»

«ولا لقمة واحدة. لم يكن لدي وقت للتفكير في الطعام.»

«وهل نجحت؟»

«تمامًا.»

«هل توصلت إلى دليل؟»

«الأدلة باتت في قبضة يدي. لن يطول الأمر بالشاب أوبنشو دون الثأر له. حسنًا، يا واطسون، دعنا نَسِمهم بوسم شرِّهم نفسِه. لقد فكَّرت في الأمر جيدًا!»

«ماذا تقصد؟»

أخذ برتقالة من الخزانة، وقطَّعها مُخرجًا بذورها على الطاولة. ومن بين البذور، أخذ خمسًا وألقاها في ظرف. وعلى الوجه الداخلي لفتحة الظرف، كتب: «إس إتش من أجل جيه أوه». ثم أغلق الظرف ووجَّهه إلى: «كابتن جيمس كالهون، السفينة «لون ستار»، سافانا، جورجيا».

قال وهو يكتم ضحكته: «سيكون هذا الظرف بانتظاره حين يدخل إلى الميناء، وسيجعل النوم يجافي عينيه. سيعتبره نذيرًا أكيدًا بموته، مثلما حدث لأوبنشو من قبله.»

«ومن هو الكابتن كالهون هذا؟»

«إنه زعيم العصابة. سأنال من الآخرين، لكن هذا أولًا.»

«وكيف توصلت إليه؟»

أخرج هولمز من جيبه ورقة كبيرة ممتلئة بالتواريخ والأسماء، وقال: «لقد قضيت اليوم كله بين سجلات شركة لويد للشحن، وملفات الصحف القديمة، أتتبَّع خط السير المُقبل لكل مركبة مرت بميناء بونديشيري في شهري يناير وفبراير من عام ١٨٨٣. سجلت التقارير مرور ست وثلاثين سفينة ذات حمولة كبيرة، خلال هذين الشهرين. من بين هذه السفن واحدة هي السفينة «لون ستار»، شدت انتباهي على الفور، والسبب هو أنه رغم أن السجلات تقول إنها انطلقَت من لندن، فإن هذا الاسم يُطلق على إحدى الولايات الأمريكية.»

«تكساس على ما أعتقد.»

«لم أكن متأكدًا أي الولايات هي، وما زلتُ غير متأكد، لكنني عرفت أن للسفينة أصلًا أمريكيًّا ولا بد.»

«وماذا بعد؟»

«بحثتُ في سجلات دَندِي، وعندما وجدت أن السفينة «لون ستار»، كانت هناك في يناير ١٨٨٥، تأكدت شكوكي. وبعد ذلك استعلمتُ عن السفن الراسية حاليًّا في ميناء لندن.»

«وماذا وجدت؟»

«وصلت السفينة «لون ستار» إلى هنا الأسبوع الماضي. ذهبتُ إلى حوض السفن ألبرت دوك، ووجدت أنها أبحرت مع المد في الصباح الباكر اليوم عبر النهر، متجهةً إلى موطنها في سافانا. فأرسلتُ برقية إلى بلدة جريفسند وعلمت أنها مرت بها في وقت سابق اليوم، وبما أن الريح شرقية، فلا يُساورني شك في أن السفينة تجاوزت الآن ساحل جودوين، وشارفت على جزيرة وايت.»

«ماذا ستفعل إذن؟»

«أوه، لقد أمسكتُ به. هو وزميلاه، كما علمت، هم الأشخاص الأمريكيو المولد الوحيدون على متن السفينة. أما الآخرون ففنلنديون وألمان. وعرفت أيضًا أن ثلاثتهم لم يكونوا في السفينة ليلة أمس. حصلتُ على هذه المعلومة من العامل الذي حمل أمتعتَهم. وحالَما تصل سفينتهم الشراعية إلى سافانا، سيكون القارب البريدي قد حمل هذه الرسالة، وستكون البرقية قد أعلمت الشرطة في سافانا بأن هؤلاء الرجال الثلاثة مطلوبون هنا على وجه السرعة، لاتهامهم بارتكاب جريمة قتل.»

ولكن دائمًا ما توجد ثغرة في أكثر الخطط البشرية إحكامًا، فلم يُقدَّر لقتلة جون أوبنشو أن يتسلَّموا بذور البرتقال التي كانت ستُريهم أن ثمَّة من كان يلاحقهم بعزيمة ومكر يضاهيان عزيمتهم ومكرهم هم أنفسهم. كانت العواصف الخريفية في تلك السنة طويلة وعنيفة للغاية. انتظرنا طويلًا أن يصلنا خبر عن السفينة «لون ستار» من سافانا، ولكن لم يصلنا أي خبر. وفي النهاية، سمعنا أنه في مكان ما بعيد في المحيط الأطلنطي، شوهدت مؤخِّرة قارب محطمة يتقاذفها الموج، والحرفان «إل إس» محفوران عليها، ليكون هذا هو كل ما سنعرفه يومًا عن مصير السفينة «لون ستار».

ذو الشفة الملتوية

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
محمد حامد درويش



ذو الشفة الملتوية

كان عيسى ويتني، شقيق الراحل إلياس ويتني الحاصل على دكتوراه في علم اللاهوت ومدير كلية سان جورج للاهوت، مدمنًا بشدة للأفيون. وقد أصبح معتادًا على هذه العادة، كما أفهم، عن طريق أحد الحمقى المهووسين عندما كان في الكلية؛ فبعدما قرأ وصف دي كوينسي لأحلامه وأحاسيسه، كان يغمس تبغه في صبغة الأفيون في محاولة منه للحصول على نفس التأثيرات. وجد، مثل أناس كثيرين، أن ممارسة هذه العادة أسهل من التخلص منها، فظل لسنوات عديدة عبدًا لهذه المادة المُخدِّرة، وأصبح يثير خليطًا من الرعب والشفقة لدى أصدقائه وأقاربه. بوسعي الآن أن أراه، بوجهٍ مصفرٍّ شاحب وجفنَين مرتخيَين وبؤبؤَين كرأس الدبُّوس، يجلس منكمشًا على نفسه في أحد المقاعد؛ حُطام رجلٍ نبيلٍ.

في إحدى ليالي شهر يونيو عام ١٨٨٩، دقَّ جرس باب منزلي في الوقت الذي يبدأ فيه الناس بالتثاؤب، فيلقون نظرة سريعة على الساعة استعدادًا للنوم. كنت جالسًا على مقعدي، بينما وضعت زوجتي أدوات شُغْل الإبرة في حجرها وبدا على وجهها قليلٌ من خيبة الأمل.

قالت: «إنه أحد المرضى! سيكون عليك أن تخرج.»

تأوَّهت متأففًا؛ إذ إنني لم ألبث أن عدت إلى المنزل بعد يومٍ مُرهِقٍ.

سمعنا باب المنزل يُفتَح، وبعض الكلمات السريعة، ثم وَقْع خطوات سريعة على مشمع الأرضية. فُتِحَ بابنا على مصراعيه، ودخلت الغرفة سيدة ترتدي بعض الملابس الداكنة ووشاحًا أسود.

استهلَّت حديثها قائلة: «أعتذر عن الحضور في هذا الوقت المتأخر.» وفجأة، فقدت السيطرة على نفسها وهُرعَت إلى الأمام، وألقت بذراعَيها حول رقبة زوجتي وبكت على كتفها. قالت، وهي تبكي: «أوه، إنني في مشكلة كبيرة! أنا في أشد الحاجة إلى المساعدة.»

قالت زوجتي، وهي تُهَندِمُ وشاح السيدة: «يا إلهي! إنها كيت ويتني! كم أفزعتِني يا كيت! لم تكن لديَّ أدنى فكرة عمَّن كنتِ حينما دخلتِ الغرفة.»

«لم أكن أعرف ما يجب عليَّ فعله؛ لذا جئت إليكِ مباشرةً.» كان ذلك ما يحدث دائمًا؛ فكل مَن يُعانون فاجعةً يأتون لزوجتي، كما تلجأ الطيور إلى الفنار.

«أهلًا بكِ في أي وقت. والآن، لا بد أن تحتسي بعض النبيذ والماء، وتجلسي هنا مرتاحة، وتخبرينا بكل شيء ألَمَّ بكِ. أم تفضلين أن أطلب من جيمس الذهاب إلى الفراش؟»

«أوه، لا، لا! أرغب في نصيحة الطبيب ومساعدته أيضًا؛ فالأمر يخصُّ عيسى؛ فهو لم يعد إلى المنزل منذ يومين، وأنا شديدة الخوف عليه!»

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتحدث فيها إلينا عن مشكلة زوجها؛ إليَّ بصفتي طبيبًا، وإلى زوجتي باعتبارها صديقة قديمة وزميلة دراسة. هدَّأنا من رَوْعها، وحاولنا أن نطمئنها بقدر ما أمكننا من كلمات. فهل كانت تعرف مكان زوجها؟ وهل كان من الممكن أن نعيده إليها؟

بدا هذا ممكنًا؛ إذ كان لديها معلومات أكيدة أنه في الآونة الأخيرة كان يرتاد أحد أوكار الأفيون في أقصى شرق مدينة لندن عندما كانت تشتد عليه النوبة. حتى ذلك الوقت، كان انغماسه المفرط في تدخين الأفيون مقتصرًا على يوم واحد في الأسبوع، وكان يعود في المساء مرتعشًا وفي حالة يُرثَى لها. لكن النوبة صارت تأتيه كل ثمانٍ وأربعين ساعة؛ ولذا، فهو كان يرقد هناك بلا شك وسط قاذوراتِ أحواض السفن يُدخِّن تلك المادة السامة أو يَغِطُّ في النوم حتى يزول أثرها. لا بد أنَّه موجودٌ هناك، كانت متأكدة من ذلك، في حانة جولد في زقاق أبَر سواندَم لين. ولكن ما الذي كان يتوجب عليها فعله؟ كيف يمكن لامرأة شابة وخجولة أن تدخل مكانًا كهذا وتُخرِج زوجها من وسط الهَمَج الذين يحيطون به من كل جانب؟!

كان ذلك هو الحال، وبالطبع لم يكن ثمة طريقة للتعامل مع الأمر سوى طريقة واحدة. هل من الممكن أن أصطحبها إلى هذا المكان؟ وبعد إعادة التفكير، لماذا يتعيَّن أن تأتي معي من الأساس؟ لقد كنت المستشار الطبي لعيسى ويتني؛ ومن ثَمَّ كان لي تأثير عليه. يمكنني تدبُّر الأمر بصورة أفضل إذا كنت وحدي. قطعت لها وعدًا بأنني سأُعيده إلى

المنزل في عربة أجرة في غضون ساعتَين إن كان موجودًا بالفعل في العنوان الذي أعطتني إياه. وهكذا، بعد عشر دقائق كنت قد تركت ورائي مقعدي وغرفة جلوسي المبهجة، مهرولًا نحو الشرق في عربة أجرة في مهمة غريبة، كما بدت لي في ذلك الوقت، ولكن المستقبل وحده كان كفيلًا أن يبيِّن مدى غرابتها.

ولكن لم يكن ثمة صعوبة كبيرة في أول مرحلة من مغامرتي. أبَر سواندَم لين عبارة عن زُقاق حقير يقبع خلف أرصفة الميناء العالية التي تحُدُّ الجانب الشمالي من النهر حتى شرق جسر لندن. بين محل لبيع الملابس الرخيصة وآخر لبيع نبيذ الجِن، تصل إليهما عبر مجموعة من السلالم المنحدرة التي تقود إلى أسفل نحو فجوة سوداء تشبه مدخل مغارة، وجدتُ الحانة التي كنت أبحث عنها. وبعد أن طلبت من عربة الأجرة أن تنتظرني، نزلتُ درجات السُّلَّم، التي أبلاها من المنتصف وطءٌ لا يتوقف لأقدام سكارى، وعلى ضوءٍ متذبذب لمصباح زيتي موجود فوق الباب، وجدتُ المِزلاج وشققت طريقي داخل غرفة طويلة ومنخفضة مُفعَمة بدخان الأفيون الثقيل الكثيف بنيِّ اللون، ومزوَّدةٍ بأَسِرَّةٍ خشبيةٍ مثبتة كالموجودة أعلى مقدِّمة سفن المهاجرين.

يمكن للمرء أن يلمح بالكاد عبر الظلام أجسادًا مستلقية في أوضاعٍ غريبة وغير عادية؛ أكتافًا منحنية، وركبًا مثنية، ورءوسًا ملقاة إلى الوراء، وذقونًا متجهة إلى الأعلى. وهنا وهناك، عيون داكنة قد انطفأ بريقها تلتفت نحو الوافد الجديد. ومن بين الظلال السوداء، لمعت دوائر صغيرة من الضوء الأحمر، الذي يسطع ثم يخفت، بينما كان السُّمُّ المشتعل يتمدَّد وينكمش داخل تجاويف الغلايين المعدنية. كان أغلبهم مستلقين صامتين، ولكن البعض كانوا يتمتمون مخاطبين أنفسهم، بينما تحدَّث آخرون بعضهم مع بعض بصوت غريب منخفض ورتيب، وكان حديثهم يأتي متدفِّقًا، ثم يخفت فجأة حتى يعُمَّ الصمت، ويصير كل واحد منهم مغمغمًا بأفكاره ولا يكترث كثيرًا بكلام مَن يجاوره. في أقصى نهاية الغرفة، كان هناك موقد صغير يحوي فحمًا محترقًا، وبجانبه، على مقعد خشبي ذي ثلاث أَرْجُل، كان يجلس رجل عجوز طويل رفيع يسند فكَّيه على كفَّيه ومرفقَيه على ركبتَيه، محدِّقًا في النار.

لدى دخولي، هُرِع نحوي خادم شاحب من الملايو، وهو يحمل لي غليونًا وكمية من المُخدِّر، مشيرًا نحو سرير فارغ.

فقلت: «شكرًا لك، لم آتِ بهدف البقاء؛ فأحد أصدقائي موجودٌ هنا، إنه السيد عيسى ويتني، وأرغب في التحدث إليه.»

كان ثمة حركة وصوت هتاف عن يميني، ونظرتُ عبر الظلام، فرأيتُ ويتني شاحبًا هزيلًا أشعثَ يُحدِّق بي.

قال: «يا إلهي! إنه واطسون!» كان في حالة يُرثَى لها؛ فقد كانت كل أعصابه ترتعش، وأضاف: «كم الساعة يا واطسون؟»

«الحادية عشرة تقريبًا.»

«من أيِّ يوم؟»

«الجمعة، التاسع عشر من يونيو.»

«يا إلهي! كنت أظن أنه الأربعاء! إنه الأربعاء. لِمَ تريد تخويفي؟» دفن وجهه في ذراعيه وبدأ ينشج بصوتٍ حادٍّ مرتفع.

«قلتُ لك إنه يوم الجمعة يا رجل. إن زوجتك تنتظرك طوال هذَين اليومَين، ينبغي أن تخجل من نفسك!»

«أنا خجلان بالفعل. ولكن الأمر قد اختلط عليك يا واطسون؛ فأنا لم أقضِ هنا سوى بضع ساعات، ولم أدخِّن سوى ثلاثة أو أربعة غلايين — نسيت كم بالضبط. ولكنني سأعود معك إلى المنزل. لن أُخيف كيت، كيت الصغيرة المسكينة. أعطني يدك! هل لديك عربة أجرة؟»

«أجل، لديَّ واحدة تنتظرني.»

«إذن سأذهب فيها، ولكن لا بد أنني أدين ببعض المال للحانة. اسألهم بكم أدين لهم يا واطسون، فأنا متوعِّك ولا يمكنني أن أفعل شيئًا بنفسي.»

مشيتُ عبر الممر الضيِّق بين الصف المزدوج من النائمين، وأنا أحبس أنفاسي حتى لا أستنشق الأبخرة الكريهة المُخدِّرة للأفيون، وأنظر حولي باحثًا عن المدير. وبينما كنت أمرُّ بالرجل الطويل الذي كان يجلس بالقرب من الموقد، شعرت بشدٍّ مفاجئ في ذيل سترتي، وصوت خفيض يهمس: «مُرَّ من أمامي، ثم استدِرْ وانظر لي مرة أخرى.» وقعت الكلمات على مسامعي بوضوح تام، فنظرت إلى أسفل سريعًا. لا يمكن أن تكون هذه الكلمات قد أتت سوى من العجوز الذي إلى جانبي، والذي جلس الآن في شدة الاستغراق، شديد النحول، مليئًا بالتجاعيد منحنيًا بفعل تقدُّم العمر، يتدلَّى من بين ركبتَيه غليون أفيون وكأنه وقع من بين أصابعه في محض تكاسل. تقدَّمت خطوتَين إلى الأمام ونظرت إلى الخلف. احتجتُ إلى استجماع كل ما أملكه من مهارات ضبط النفس؛ لأمنع نفسي من إطلاق صيحة ذهول. كان العجوز قد أدار ظهره حتى لا يتمكن أي شخص سواي من

رؤيته، وقد امتلأت هيئته واختفت تجاعيده، واستعادت عيناه الذابلتان توهجهما. لم يكن ذلك الرجل الذي كان جالسًا هناك بجوار نار الموقد ويبتسم ابتسامة عريضة لِما بدا عليَّ من دهشة — سوى شيرلوك هولمز. أومأ لي بحركة خفيفة لأقترب منه، وعلى الفور، عندما أدار وجهه نصف استدارة نحو الجمع مرة أخرى، انغمس في الارتعاش والثرثرة بلا لجام كمَن أعيته الشيخوخة.

همست له قائلًا: «هولمز! بحق الرب، ما الذي تفعله في هذا الوكر؟»

فأجاب قائلًا: «اخفض صوتك بقدر ما تستطيع، فلديَّ حاسة سمع ممتازة. إن تفضَّلت بالتخلص من صديقك المدمن هذا، فسيسعدني غاية السعادة أن أتحدث معك قليلًا.»

«لديَّ عربة أجرة تنتظرني بالخارج.»

«إذن أرجوك أن ترسله إلى المنزل فيها. يمكنك أن تثق به دون خوف؛ فهو يبدو أضعف من أن ينخرط في أي متاعب. كما أقترح أيضًا أن ترسل إلى زوجتك رسالة موجزة مع سائق عربة الأجرة تخبرها فيها بأنك قد انضممت إليَّ. إن انتظرتني بالخارج؛ فسأقابلك في غضون خمس دقائق.»

كان من الصعب أن أرفض أيَّ طلب من طلبات شيرلوك هولمز؛ لأنها دائمًا ما تكون بالغة التحديد وقاطعة ويطرحها مغلَّفة بتلك اللهجة الآمرة بعض الشيء. شعرت، مع ذلك، أنني سأُتمُّ مهمتي بمجرد وضع ويتني في عربة الأجرة، أما فيما يتعلق بالباقي، فلم أكن لأتمنى شيئًا أفضل من أن أكون مع صديقي شيرلوك في واحدة من تلك المغامرات الفريدة التي كانت الوضع الطبيعي لحياته. في غضون دقائق كنت قد كتبت رسالتي ودفعت فاتورة ويتني وقُدْتُه خارجًا إلى عربة الأجرة، ورأيته وهو يرحل في العربة في جُنح الظلام. وبعد وقتٍ قصير، ظهر رجل توحي هيئته بالهرم خارجًا من وكر الأفيون، وكان هذا الرجل هو شيرلوك هولمز. سار متثاقلًا بظهرٍ منحنٍ وخطوات مترددة شارعًين. ثم، وهو يُلقي نظرة سريعة على ما حوله، عَدَّلَ هيئته وانفجر في نوبة ضحك شديدة.

قال: «أظنك يا واطسون تتخيَّل أنني قد أضفت تدخين الأفيون إلى حقن الكوكايين التي أستخدمها، وجميع مواطن الضعف الصغيرة الأخرى التي قد تفضَّلت بإعطائي رأيك الطبي فيها.»

«لقد فوجئت بوجودك هناك بلا شك.»

«لكن ليس أكثر مما فوجئت أنا بوجودك هناك.»

«جئتُ للعثور على صديق.»

«وأنا جئتُ للعثور على عدوٍّ.»

«عدو؟!»

«أجل؛ أحد أعدائي الطبيعيين، أو، يجدر بي أن أقول، فريستي الطبيعية. باختصار يا واطسون، أنا في خِضَمِّ تحقيق استثنائي بحق، وكنت آملُ أن أجد دليلًا وسط الثرثرة غير المترابطة لهؤلاء المدمنين، كما فعلتُ من قبل. لو كان أحدهم قد تعرَّف عليَّ في ذلك الوكر، لكان سرعان ما سيُقضى عليَّ؛ فقد كنتُ أستخدمه من قبل لأغراضي الخاصة، ولقد أقسم البحَّار الهندي الوغد الذي يديره على الانتقام مني. يوجد في مؤخرة ذلك المبنى، بالقرب من كنيسة بول وارف، بابٌ مسحورٌ يمكن أن يحكي قصصًا غريبة عمَّن مروا عبره في الليالي الحالكة.»

«ماذا! أتقصد جثثًا؟»

«أجل، جثث يا واطسون. كنا سنصير أغنياء لو كنا قد تقاضينا ألف جنيه إسترليني مقابل كل ملعون بائس قُتِلَ في ذلك الوكر. إنه أشنع فخ لجرائم القتل على ضفة النهر بأكملها، وأخشى أن يكون نيفيل سانت كلير قد دخله ولم يخرج منه حيًّا أبدًا. أعتقد أن عربتنا لا بد أن تكون هنا.» وضع سبابتَيه بين أسنانه وأطلق صفيرًا حادًّا؛ وهي إشارة أُجيبت بصافرةٍ مشابهةٍ من بعيد، وتبعها بعد وقت قصير صوت قعقعة عجلات وصليل حوافر حصان.

قال هولمز، بينما كانت عربة يجرُّها حصان تندفع مخترقةً الظلام، طارحةً شعاعَين ذهبيَّين من الضوء الأصفر من فوانيسها الجانبية: «والآن يا واطسون، ستأتي معي، أليس كذلك؟»

«إن كان لي نفعٌ.»

«أوه، دائمًا ما يكون الصاحب الموثوق ذا نفع؛ والأهم من ذلك أنه يؤرِّخ الأحداث. غرفتي في «ذا سيدارز» بها سرير مزدوج.»

««ذا سيدارز»؟»

«أجل؛ إنه منزل السيد سانت كلير. إنني أقيم هناك أثناء إجراء التحقيق.»

«أين هو إذن؟»

«بالقرب من «لي» في مقاطعة كينت. أمامنا سبعة أميال سنقطعها بالعربة.»

«ولكنني لا أعلم أي شيء عن الأمر.»

«صحيح. ستعرف كل شيء حالًا. اصعد إلى هنا. حسنًا يا جون، لن نحتاجك. إليك نصف كراون. انتظرني غدًا في حوالي الحادية عشرة. انزل من العربة. إلى اللقاء إذن!»

نكز الحصان بسوطه، فانطلقنا عبر سلسلة لا تنتهي من الشوارع الكئيبة والمهجورة، التي اتسعت شيئًا فشيئًا حتى صرنا ننطلق بسرعة شديدة عبر جسر واسع مُسَوَّر ويتدفَّق تحتنا بتؤدة النهرُ القاتم. بعد ذلك، مررنا بمنطقة كئيبة أخرى من المباني، لم يكسر سكونها سوى وقع الأقدام الثقيلة المنتظمة لأحد رجال الشرطة، أو صوت أغانٍ وصيحات يأتي من بعض مَن يحتفلون في وقتٍ متأخر من العرابيد. وكانت مجموعة من السُّحُب الثقيلة تنجرف ببطء عبر السماء، وتلألأت نجمة أو اثنتان بخفوتٍ هنا وهناك في الفراغات الموجودة بين السُّحُب. قاد هولمز العربة في صمت، ورأسه منخفض على صدره، وكان يبدو في هيئة رجل غارق في خِضَمِّ الأفكار، بينما جلستُ بجانبه، لديَّ فضول لمعرفة طبيعة مغامرته الجديدة التي بدا أنها تستنزف قواه بشدة، ولكنني كنت أخشى أن أقطع حبل أفكاره. كنَّا قد قطعنا عدَّة أميال، وبدأنا نقترب من حدود حزام من منازل الضواحي، عندما انتفض هولمز، وهزَّ كتفيه، وأشعل غليونه بطريقة رجل قد أقنع نفسه أنه يفعل ما فيه الصالح.

كسر الصمت قائلًا: «إنك تنعم بهِبَة الصمت يا واطسون، وهو ما يجعلك رفيقًا لا يُقدَّر بثمن. في واقع الأمر، إنه يمثِّل لي أمرًا عظيمًا أن يكون لديَّ مَن أتحدث إليه، فأفكاري لا تبعث على كثير من السرور. كنت أسأل نفسي عمَّا يتعيَّن قوله لهذه المرأة العزيزة المسكينة الليلة عندما تستقبلني لدى الباب.»

«لقد نسيتَ أنني لا أعرف شيئًا عن الأمر.»

«سيكون لديَّ وقتٌ لأُطلعَك على الحقائق الخاصة بالقضية قبل أن نصل إلى منطقة «لي». يبدو الأمر بسيطًا بنحو سخيف، ومع ذلك، بطريقة ما، لا يمكنني أن أضع يدي على شيء لأبدأ منه. يوجد الكثير من الخيوط بلا شك، ولكن لا يمكنني وضع يدي على نهايتها. والآن سأوضِّح لك القضية بوضوح ودِقَّة يا واطسون، وربما يكون باستطاعتك أن ترى بارقة أمل فيما أراه مَحْض ظلام.»

«تفضَّل إذن.»

«منذ بضع سنوات، ولأكون أكثر تحديدًا، في شهر مايو من عام ١٨٨٤، أتى إلى «لي» سيد نبيل يُدعَى نيفيل سانت كلير، والذي كان يبدو أن لديه الكثير من المال. اشترى منزلًا ضخمًا، وجهزه على نحو رائع، وكان يعيش حياة رغدة عمومًا. تدريجيًّا، كوَّن صداقات

في الحي الذي يعيش فيه، وفي عام ١٨٨٧ تزوَّج من ابنة صانع خمور محلي، ولديه منها الآن طفلان. لم يكن لديه مهنة، ولكنه كان مساهمًا بالعديد من الشركات، وكان يذهب دائمًا في كل صباح إلى المدينة، ويعود بحلول الساعة الخامسة وأربع عشرة دقيقة من شارع كانون كل ليلة. يبلغ السيد سانت كلير من العمر الآن سبعة وثلاثين عامًا، وهو رجل ذو عادات معتدلة، وزوج صالح، وأب حنون للغاية، ويتمتع بسمعة طيبة بين كل مَن يعرفونه. يمكنني أن أضيف أن ديونه في الوقت الحالي، بقدر ما استطعنا التأكُّد، تصل إلى ٨٨ جنيهًا إسترلينيًّا وعشرة بنسات، بينما يمتلك ٢٢٠ جنيهًا إسترلينيًّا رصيدًا قائمًا في حسابه ببنك كابيتال آند كاونتيز؛ لذا لا يوجد ما يدعو للاعتقاد بوجود مشاكل مالية تُثقِل كاهله.

يوم الإثنين الماضي ذهب السيد نيفيل سانت كلير إلى المدينة في وقت أبكر إلى حدٍّ ما من المعتاد، منوِّهًا قبل ذهابه إلى أن لديه مهمتَين هامتَين عليه القيام بهما، وأنه سيُحضر لابنه الصغير صندوق مكعبات عند عودته. وعلى الفور، وبمحض الصدفة، تلقَّت زوجته برقية في نفس هذا اليوم، الإثنين، بعد وقتٍ قصير جدًّا من مغادرته، تفيد بأن الطرد الصغير القَيِّم الذي كانت تنتظره موجودٌ في مكتب شركة أبردين للشحن. في الواقع، إن كنت تعرف لندن جيِّدًا، فستعلم أن مكتب الشركة يقع في شارع فريسنو الذي يتفرَّع من زقاق أبَر سواندَم لين الذي وجدتني فيه الليلة. تناولت السيدة سانت كلير غداءها وتوجَّهت إلى المدينة وتسوَّقت قليلًا، ثم اتجهت إلى مكتب الشركة، واستلمت الطرد، ووجدت نفسها تسير عبر زقاق أبَر سواندَم لين في تمام الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة في طريقها للعودة إلى المحطة. هل تتابعني حتى الآن؟»

«أجل، الأمر شديد الوضوح.»

«قد كان يوم الإثنين شديد الحرارة، لو كنت تذكر، وكانت السيدة سانت كلير تمشي ببطء وهي تنظر حولها على أمل أن تجد عربة أجرة؛ إذ إنها لم تحبَّ الحي الذي وجدت نفسها فيه. وبينما كانت تمشي في هذا الطريق عبر زقاق أبر سواندَم لين، سمعت فجأةً صيحةً أو صراخًا، وصُعقَت عندما رأت زوجها ينظر نحوها ويشير إليها، كما بدا لها، من نافذة بالطابق الثاني. كانت النافذة مفتوحة، ورأت وجهه بوضوح، والذي وصفته بأنه كان مضطربًا اضطرابًا رهيبًا. لوَّح لها بيدَيه بنحو محموم، ثم اختفى من النافذة فجأةً حتى بدا لها وكأن قوًى خفية لا تُقاوَم قد ابتلعته من الخلف. استرعت نقطةٌ فريدةٌ انتباه عينَيها الأنثوية اللمَّاحة؛ وهي أنه على الرغم من أنه كان يرتدي معطفًا داكنًا كالذي كان يرتديه وهو في طريقه إلى المدينة، فلم يكن يرتدي ياقةً ولا ربطة عُنق.

مقتنعة تمام الاقتناع أنه كان ثمة خطب أَلَمَّ به، هُرِعَت زوجته نزولًا على درجات السُّلَّم، نحو المنزل الذي لم يكن سوى وكر الأفيون الذي وَجَدْتَني فيه الليلة، ورَكَضَت عبر الغرفة الأمامية محاولةً صعود السُّلَّم الذي يقود إلى الدور الأول. إلا أنها قابلت أسفل الدَّرَج البحَّار الهندي الوغد الذي حدَّثْتُك عنه، الذي دفعها إلى الخلف، وبمعاونة دنماركي يعمل مساعدًا هناك، دفعها خارجًا إلى الشارع. هُرِعَت في الطريق، تملؤها الشكوك والمخاوف الجنونية، وبحَظٍّ جيد نادر، التقت في شارع فريسنو بعدد من أفراد الشرطة بصحبة مفتش، في طريقهم إلى مكان دَوْرِيَّتِهم. رافقها المفتش ورجلان راجِعِين إلى الحانة، وعلى الرغم من مقاومة المالك الشديدة، فقد شقُّوا طريقهم نحو الغرفة التي شوهد فيها السيد سانت كلير آخر مرة. لم يكن ثمة أثر له. في الواقع، لم يكن هناك أي شخص في ذلك الطابق بأكمله إلا صعلوك كسيح ذو مظهر قبيح بدا وكأنه قد اتخذ ذلك المكان بيتًا. أقسم كلٌّ من البحَّار الهندي والصعلوك بإصرار شديد أنه لم يكن هناك أي شخص آخر موجود في الغرفة الأمامية خلال فترة ما بعد الظهر. كان إصرارهما على الإنكار شديدًا حتى إن المفتش كان مذهولًا، وكان قد أوشك على تصديق أن السيدة سانت كلير كانت واهمة، وعندئذٍ صرخت مهرولةً نحو صندوق صغير مصنوع من الخشب موضوع على الطاولة وأزاحت عنه الغطاء؛ فسقطت منه مجموعة متتابعة من المكعبات، والتي كانت اللعبة التي كان سانت كلير قد وعد أن يحضرها للبيت.

هذا الكشف، بالإضافة إلى الارتباك الواضح الذي بدا على الصعلوك الكسيح، جعلا المفتش يدرك أن الأمر خطير. فُتِّشَت الغُرَف بحرص، وأشارت جميع النتائج إلى جريمة نكراء. كانت الغرفة الأمامية مفروشة بأثاثٍ بسيط كغرفة جلوس وتقود إلى غرفة نوم صغيرة تُطلُّ على الجزء الخلفي لأحد أرصفة الميناء. وبين رصيف الميناء ونافذة غرفة النوم يوجد لسان ضيِّق يصبح جافًّا في وقت الجَزْر ومغطًّى بالماء وقت المَدِّ بارتفاع أربعة أقدام ونصف القدم على الأقل، وكانت نافذة غرفة النوم واسعة ومفتوحة من الأسفل. بالفحص، شوهِدت آثار دماء على حافة النافذة، وعدَّة قطرات متفرقة كانت واضحة على الأرضية الخشبية لغرفة النوم. كانت جميع ملابس السيد نيفيل سانت كلير، عدا معطفه، مُلقاة خلف ستارة في الغرفة الأمامية. فحذاؤه وجواربه وقُبَّعته وساعته؛ كانت جميعها موجودةً هناك. لم يكن ثمة أي علامات عنف على أيٍّ من هذه الملابس، ولم يوجد أي أثر آخر للسيد نيفيل سانت كلير. لا بد أنه قد خرج من النافذة كما هو واضح؛ إذ لم يكن هناك أي مخرج آخر يمكن اكتشافه، ولم تُعطِ بقعُ الدماء المشئومة الموجودة على حافة النافذة سوى القليل

من الأمل في أن يكون قد تمكَّن من إنقاذ حياته بالسباحة؛ لأن المَدَّ كان في أعلى مستوياته لحظة وقوع تلك المأساة.

لنتحدث الآن عن الشريريْنِ اللذين بدا أنهما متورِّطان تورُّطًا مباشرًا في الأمر؛ فقد كان البحَّار الهندي معروفًا بأنه رجلٌ ذو سوابق شنيعة، ولكن كَوْنه، طبقًا لرواية السيدة سانت كلير، كان موجودًا أسفل السُّلَّم في غضونِ ثوانٍ قليلة من ظهور زوجها عند النافذة، فقد كان من الصعب أن يكون أكثر من شريك في الجريمة. كان دفاعه قائمًا على الجهل التام، واعترض مؤكِّدًا أنه لم يكن لديه أي علم بأفعال نزيله هيو بون، وأنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال تفسير وجود ملابس السيد سانت كلير المفقود.

تحدَّثنا بما فيه الكفاية عن البحار الهندي الذي يُدير الحانة. والآن دعنا نتحدَّث عن الكسيح المشئوم الذي يعيش في الطابق الثاني من وكر الأفيون، والذي كان بالتأكيد آخر إنسان وقعت عيناه على نيفيل سانت كلير. اسمه هيو بون، ووجهه البشع مألوف لكل مَن يذهب إلى المدينة كثيرًا. إنه متسولٌ محترف، وإن كان يتظاهر بأنه يدير تجارة صغيرة ببيع عُلَب أعواد الثقاب الشمعية؛ ليتجنب قوانين الشرطة. بعد أن تقطع مسافة قصيرة في شارع ثريدنيديل، ستجد زاوية صغيرة في الجدار على الجانب الأيسر، إن كنتَ قد لاحظتَ. وفي هذا المكان يجلس هذا المخلوق القرفصاء كل يوم واضعًا مخزونه الصغير من علب أعواد الثقاب على حِجرِه، فيستدرُّ مظهرُهُ المثيرُ للشفقة العطفَ، وتتجمع حفنة قليلة من الصدقات كمطر خفيف داخل قبعته الجلدية المُشحَّمة التي يضعها على الرصيف بجانبه. لقد راقبتُ هذا الرجل أكثر من مرة قبل أن أفكر في التعرُّف عليه بنحو مِهني، وقد فوجئتُ بالمال الذي حصده في وقت قصير. فمظهره، كما ترى، مميزٌ للغاية بحيث لا يمكن أن يمر به أحد دون ملاحظته. كُتلة من الشعر البرتقالي الفاقع؛ ووجه شاحب تُشوِّهه نَدَبة مروعة، والتي نتج عن انكماشها رَفْعُ الحافة الخارجية لشَفَتِه العلوية، وذقن متدلٍّ كذقن كلب البُلدوج، وزَوْج من العيون الداكنة الثاقبة اللتَين تتناقضان تناقضًا فريدًا مع لون شعره، كل ذلك يميِّزه وسط الحشد العادي للمتسولين، كما تميِّزه فطنته عنهم؛ فهو جاهزٌ دائمًا بردٍّ على أيِّ مزحة ساخرة قد يلقيها على مسامعه أيٌّ من المارة. هذا الرجل هو الذي نعلم الآن أنه كان النزيل في وكر الأفيون، وأنه كان آخر مَن رأى السيد سانت كلير الذي نبحث عنه.»

تساءلتُ قائلًا: «ولكنه كسيح! فما الذي كان بمقدوره فعله بمفرده في مواجهة رجل في مقتبل العمر؟»

«إنه كسيحٌ بمعنى أنه يعرج في مشيته؛ ولكنه من النواحي الأخرى يبدو رجلًا قويًّا يتمتع بصحة جيدة. بالتأكيد ستخبرك خبرتك الطبية يا واطسون أن ضَعْف أحد الأطراف غالبًا ما تعوِّضه قوة استثنائية في الأطراف الأخرى.»

«واصِلْ سرد قصتك أرجوك.»

«فقدت السيدة سانت كلير وَعْيها عند رؤية الدماء على النافذة، ورافقتها الشرطة إلى منزلها في عربة أجرة؛ نظرًا لأن وجودها لم يكن ليساعدهم في تحقيقاتهم. فحص المفتش بارتون، الذي كان مسئولًا عن القضية، المبنى فحصًا دقيقًا، ولكن دون أن يجد أي شيء يمكن أن يساعد في حل اللغز. لقد وقعوا في خطأ واحد، ألا وهو أنهم لم يلقوا القبض فورًا على بون؛ إذ أُتيح له بضع دقائق قد يكون خلالها قد تواصل مع صديقه البحَّار الهندي، ولكن سرعان ما تلافوا هذا الخطأ، فضبطوه وفتَّشوه دون العثور على أي شيء يمكن أن يُجَرِّمه. صحيح أنه كان يوجد بعض بقع الدماء على كُمِّ قميصه الأيمن، إلا أنه أشار إلى بِنصَرِهِ الذي كان مجروحًا بالقرب من الظُّفر، وأوضح أن النزيف يأتي من هذا الجرح، مضيفًا إلى أنه قد توجَّه إلى النافذة قبل وقتٍ قصير، وأن بقع الدماء التي لوحظت هناك قد كانت بلا شك من نفس المصدر. كما نفى بشدة أنه رأى السيد نيفيل سانت كلير، وأقسم أن وجود ملابس سانت كلير في غرفته كان لغزًا له تمامًا كما هو الحال للشرطة. أما فيما يتعلق بتأكيد السيدة سانت كلير بأنها حقًّا قد رأت زوجها في النافذة، فقد قال: إنها إمَّا فقدت عقلها وإما كانت تحلم. نُقِلَ إلى قسم الشرطة وهو يصرخ محتجًّا، بينما ظل المفتش في المبنى على أمل أن تُقدِّم موجة الجَزْر دليلًا جديدًا.

وهو ما قد حدث فعلًا؛ فقد وجدوا بعد صعوبة على الضفة الطينية ما كانوا يخشون العثور عليه؛ إذ عثروا على معطف نيفيل سانت كلير، الذي كشف عنه تراجُع المد، ولكنهم لم يجدوا سانت كلير نفسه. ما الذي تعتقد أنهم قد وجدوه في جيوب المعطف؟»

«لا يمكنني التخمين.»

«أنا لا أعتقد أيضًا أنك ستخمن ذلك. كان كل جيب مُتخمًا بعملات البنس ونصف البنس — ٤٢١ بنسًا، و٢٧٠ نصف بنس — لذا لم يكن مستغربًا أن المد لم يَجْرِفْه. أمَّا الجسم البشري فهو مسألة مختلفة؛ توجد دوَّامة شرسة بين رصيف الميناء والمنزل. يبدو، من المحتمل، أن المعطف المُثقَل بالعُملات بقي في مكانه، بينما ابتلعت المياه الجثة العارية نحو النهر.»

«لكنني أفهم أنه قد عُثِرَ على جميع الملابس الأخرى في الغرفة، فهل كانت الجثة ترتدي المعطف فقط؟»

«لا يا سيدي، ولكن قد تُقَابَل الحقائق بخداعٍ كافٍ. لنفترض أن هذا الرجل بون قد دفع نيفيل سانت كلير من النافذة، وليس ثمة أي عين بشرية لترى الفعلة. ما الذي سيفعله عندئذٍ؟ سيفكر في الحال بكل تأكيد أنه لا بُدَّ أن يتخلَّص من الملابس التي ستفضح أمره. فسيأخذ المعطف، وسيشرع في إلقائه من النافذة، وحينها سيفكِّر في أنه سيطفو ولن يغرق. ليس لديه الكثير من الوقت؛ إذ إنه قد سمع الشِّجار بالأسفل عندما كانت الزوجة تحاول أن تصعد عَنوةً، وربما يكون قد عرف من شريكه البحَّار الهندي أن الشرطة قادمة في الشارع على عجل. لا يمكن إهدار أي لحظة. فيُهرَع نحو مخزن سري لديه، جَمَع فيه الغَلَّة التي جناها من أعمال التسوُّل، ويُكَدِّس أكبر قَدْر من العُملات التي يمكنه أن يصل إليها في جيوب المعطف؛ ليتأكَّد من أنه سيغوص. ويلقي به خارجًا، وكان ليفعل الأمر نفسه مع باقي الملابس الأخرى لو لم يسمع وقع خطوات متسارعة بالأسفل، ولكنه لم يكن لديه من الوقت سوى ما يكفي لغلق النافذة عندما ظهرت الشرطة.»

«يبدو كلامك معقولًا بالتأكيد.»

«حسنًا، سنعتبره افتراضًا عمليًّا؛ لعدم وجود افتراضٍ أفضل. كما أخبرتك، قُبِضَ على بون وأُخِذَ إلى قسم الشرطة، ولكن لم يكن من الممكن إثبات أن ثَمَّة أي شيء ضده. كان معروفًا لسنوات طويلة بأنه مُتسوِّل محترف، إلا أن حياته بدت هادئة ومسالمة للغاية. هذه هي تطوُّرات الأمر حتى الآن، والأسئلة التي لا بد من حلِّها هي: ما الذي كان يفعله نيفيل سانت كلير في وكر الأفيون؟ وماذا حدث له وهو هناك؟ وأين هو الآن؟ وما علاقة هيو بون باختفائه؟ كلها أسئلة لا أجد لها حلًّا على الإطلاق. أُقِرُّ بأنه ليس بوسعي تذكُّر أي قضية في نطاق خبرتي بدت للوهلة الأولى شديدة البساطة، ولكنها انطوت على هذا القَدْر من الصعوبات.»

بينما كان شيرلوك هولمز يُفَصِّل سلسلة الأحداث الفريدة هذه، كُنَّا نمر سريعًا عبر ضواحي المدينة الضخمة، إلى أن تركنا وراءنا آخر مجموعة من المنازل المنتشرة هنا وهناك، وانطلقنا بحذاء سياج ريفي كان يحيط بنا من الجانبَين. ولكن ما إن انتهى من كلامه، حتى مررْنا عبر قريتَين متباعدتَين، حيث كان لا يزال هناك بعض الأضواء التي تلمع في النوافذ.

قال رفيقي: «نحن على مشارف «لي». لقد مررنا بثلاث مقاطعات إنجليزية خلال رحلتنا القصيرة؛ إذ بدأنا في ميدلسكس، ومررنا بـ «سَري» من زاوية لها، وانتهينا في كينت. أترى ذلك الضوء بين الأشجار؟ إنه منزل «ذا سيدارز»، وإلى جانب ذلك المصباح تجلس امرأة ليس لديَّ أدنى شك أن أذنَيها المتلهفتَين قد التقطتا بالفعل وَقْع حوافر حصاننا.»

سألت هولمز قائلًا: «ولكن لِمَ لا تدير القضية من بيكر ستريت؟»

«لأن هناك العديد من الاستقصاءات التي يجب إجراؤها ها هُنا. لقد تفضَّلت السيدة سانت كلير بوضع غرفتَين تحت تصرُّفي، وكُنْ على ثقة من أنها لن تستقبل صديقي وزميلي سوى بالترحاب. أكره لقاءها، يا واطسون، وليس لديَّ أخبار عن زوجها. ها نحن ذا. قِفْ، هناك، قِفْ!»

كُنَّا قد توقَّفنا أمام منزل ضخم مُشيَّد على أرض تابعة له. ركض فتى إسطبل نحو رأس الحصان، وإذ قفزتُ إلى الأرض، تبعتُ هولمز على الممر الصغير المُمهَّد بالحصى الذي كان يؤدي إلى المنزل. وفيما كُنَّا نقترب، فُتِحَ الباب على مصراعَيه، ووقفت امرأة شقراء صغيرة الحجم في المدخل مرتدية نوعًا من الملابس الحريرية الخفيفة مع بعض الشيفون الوردي الناعم المنفوش حول رقبتها ورسغَيها. حدَّد الضوء الوافر الآتي من خلفها هيئتها بوضوح، وهي تقف واضعة إحدى يديها على الباب، والأخرى شبه مرفوعة في تلهُّف، وجسدها منحنٍ قليلًا ورأسها ووجهها بارزان، بعيون متلهفة وشفتين مفتوحتين قليلًا؛ كانت هيئتها توحي بما لديها من تساؤلات.

صاحت قائلةً: «حسنًا، ما الأخبار؟» ثم عندما رأت أن هولمز لم يكن وحده، أطلقت صيحة أمل تحوَّلت إلى همهمة خِذلان عندما وجدت رفيقي يهز رأسه وكتفَيه نَفْيًا.

«ألا يوجد أيُّ أخبار جيدة؟»

«لا.»

«ولا سيئة؟»

«لا.»

«حمدًا للرب على ذلك. فلتدخل. لا بد أنك مرهقٌ، فقد كان يومك طويلًا.»

«هذا صديقي، الدكتور واطسون. لقد كانت مساعدته ذات أهمية بالغة لي في العديد من قضاياي، وقد أتاحت لي فرصة سعيدة أن أُحضره وأجعله يشارك في هذا التحقيق.»

قالت وهي تضغط على يدي بحرارة: «تسُرُّني رؤيتك، أنا متأكدة أنك ستغفر لنا أي نقصانٍ في تجهيزات ضيافتنا عندما تأخذ بعين الاعتبار الطامَّة التي حلَّت بنا بغتةً.»

أجبت قائلًا: «سيدتي العزيزة، أنا محارب قديم، وحتى لو لم أكن كذلك، فبوسعي أن أرى جيدًا أنه لا حاجة للاعتذار. سأكون في غاية السعادة إن أمكنني تقديم أي مساعدة، سواء لكِ أو لصديقي.»

قالت السيدة، ونحن ندخل غرفة طعام مضاءة جيدًا، وُضِع على طاولتها عشاءٌ بارد: «إذا سمحت لي يا سيد هولمز، أتوق لأن أوجِّه لك سؤالًا أو سؤالَين بسيطَين، وأرجو أن تجيبني إجابة واضحة.»

«بالطبع يا سيدتي.»

«لا تقلق بشأن مشاعري، أنا لست هستيرية، وليس من عادتي أن أفقد الوعي، إنني ببساطة أرغب في معرفة رأيك الحقيقي بكل صراحة ووضوح.»

«بشأن ماذا؟»

«هل تعتقد في قرارة نفسك أن نيفيل على قيد الحياة؟»

بدا أن السؤال قد أحرج شيرلوك هولمز. فأضافت قائلة، وهي تقف على السجادة وتنظر إليه متفحصة وهو يجلس متكئًا على كرسي مصنوع من الخيزران: «بصراحة، أرجوك!»

«بصراحة إذن يا سيدتي، لا أعتقد ذلك.»

«هل تعتقد أنه قد مات؟»

«أجل.»

«قُتِلَ؟»

«لا أقول ذلك. ربما.»

«وفي أي يوم لقيَ حتفه؟»

«يوم الإثنين.»

«إذن ربما ستتكرَّم يا سيد هولمز وتُوضِّح لي كيف استلمت منه رسالة اليوم.»

وثب شيرلوك هولمز من كرسيِّه واقفًا كما لو كان قد صُعِق بتيارٍ كهربي.

صاح قائلًا: «ماذا!»

قالت وهي تقف مبتسمة وتمسك بقصاصة من الورق رافعةً إيَّاها في الهواء: «أجل، اليوم.»

«أيمكنني أن أراها؟»

«بالتأكيد.»

اختطفها منها بلهفةٍ، وجذب المصباح وهو يبسطها على الطاولة، ثم فحصها باهتمام شديد. كنت قد نهضتُ من مقعدي وكنت أحدق بالورقة من خلفه. كان الظرف شديد الخشونة ومختومًا بختم بريد جريفسيند وبتاريخ ذلك اليوم نفسه، أو بالأحرى، بتاريخ اليوم السابق؛ إذ كان الوقت قد جاوز منتصف الليل بكثير.

غمغم هولمز: «خط رديء. بالتأكيد هذا ليس خط زوجكِ يا سيدتي.»

«بلى، ولكن الرسالة المرفقة بخطِّه.»

«أرى أيضًا أن أيًّا كان مَن عنوَن الخطاب فقد احتاج إلى الذهاب والاستفسار عن العنوان.»

«كيف بإمكانك أن تفطن إلى ذلك؟»

«الاسم، كما ترين، مكتوب بحبر أسود داكن جفَّ وحده. أما الباقي فبلون رمادي، مما يدل على أن الورق النشاف قد استخدم، إن كان قد كُتِبَ على الفور ثم نُشِّفَ بالورق الماصِّ، فلن يكون ذا لون أسود داكن. لقد كتب هذا الرجل الاسم، ثم كان ثمة توقُّف قبل أن يكتب العنوان، وهذا لا يعني سوى أنه لم يكن يعرفه. إنه شيء تافه بالطبع، ولكن ليس ثمة شيء أهم من الأشياء التافهة. والآن لنرى الرسالة، ها! لقد كان الظرف يحتوي على شيء ما هنا!»

«أجل، كان يحتوي على خاتم. خاتم توقيعه.»

«وهل أنتِ متأكدة من أن هذا هو خط يد زوجك؟»

«أحد خطيه.»

«أحد خطيه؟»

«خط يده عندما يكتب بسرعة، إنه يختلف تمامًا عن خطه المعتاد، ولكنني أعرفه جيدًا.»

قرأ هولمز الرسالة: ««عزيزتي، لا تخافي. كل شيء سيكون على ما يرام. ثمة خطأ كبير قد يستغرق تصحيحه بعض الوقت. انتظري بصبر. نيفيل.» إنه مكتوب بقلم رصاص على صفحة فارغة من كتاب بحجمٍ ثُمانيِّ القَطْع، بدون علامة مائية. هممم! مُرسَلٌ اليوم من مكتب بريد جريفسيند، على يد رجل ذي إصبعٍ متسخةٍ. ها! كما أن مَن لصق لسان الظرف كان يمضغ التَّبغ إن لم أكن مخطئًا كثيرًا. ولا شك لديكِ يا سيدتي في أن هذا هو خط زوجك، أليس كذلك؟»

«بلى. نيفيل هو مَن كتب هذه الكلمات.»

«وقد أُرسِلَت اليوم من جريفسيند. حسنًا، يا سيدة سانت كلير، إن الأمر يتَّضح تدريجيًّا، ومع ذلك لن أجازف بالقول إن الخطر قد زال.»

«ولكن لا بد وأنه على قيد الحياة يا سيد هولمز.»

«أجل، ما لم يكن هذا تزويرًا ماهرًا يهدفُ لتضليلنا؛ فخاتم التوقيع، على أية حال، لا يُثبت شيئًا. يمكن أن يكون قد أُخِذَ منه.»

«لا لا، إنه خط يده بكل تأكيد.»

«رائع، ومع ذلك، ربما يكون قد كُتِبَ يوم الإثنين، ولم يُرسَل سوى اليوم فحسب.»

«ذلك محتملٌ.»

«إن كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن أمورًا كثيرة ربما تكون قد حدثت فيما بينهما.»

«أوه، لا تُحبطني يا سيد هولمز. أعلم أن كل شيء على ما يرام فيما يخصه. تربط بيننا صلة عاطفية وثيقة بحيث يمكنني أن أعلم إن حلَّ به مكروه. في نفس اليوم الذي رأيته فيه آخر مرة كان قد جرح نفسه في غرفة النوم، ومع أنني كنت في غرفة الطعام، إلا إنني هُرعْت إلى الأعلى على الفور، وأنا على أتم اليقين بأن شيئًا قد حدث. هل تعتقد أنني سأشعر بأمر بسيط كهذا، ولن أشعر بشيء في حال وفاته؟»

«لقد رأيتُ الكثير والكثير حتى صرت أعلم أن انطباع المرأة قد يكون أقيَم من استنتاجِ محلِّل منطقي. ولديكِ بكل تأكيد في هذه الرسالة دليل قوي للغاية يؤكد وجهة نظرك. ولكن إذا كان زوجك على قيد الحياة وقادرًا على كتابة الرسائل، فلماذا يظل بعيدًا عنكِ؟»

«لا يمكنني تخيُّل السبب، إنه أمر لا يمكن تصوُّره.»

«هل أبدى أي ملاحظة قبل أن يغادركِ يوم الإثنين؟»

«لا.»

«وهل فوجئتِ برؤيته في أبر سواندَم لين؟»

«أجل، للغاية.»

«هل كانت النافذة مفتوحة؟»

«أجل.»

«إذن كان بإمكانه أن يناديَ عليكِ؟»

«كان بإمكانه ذلك.»

«ولكن جُلَّ ما فعله، حسبما أفهم، أنه صرخ صرخة غير مفهومة. أليس كذلك؟»

«بلى.»

«هل اعتقدتِ أنها كانت صرخة طلبًا للعون؟»

«أجل، لقد لوَّح بيدَيه.»

«ولكن ربما كانت صرخة مفاجأة. لعل دهشته لرؤيتك غير المتوقَّعة جعلته يلوِّح بيدَيه!»

«هذا مُحتَمَل.»

«وظننتِ أنه سُحِب إلى الوراء؟»

«لقد اختفى فجأةً.»

«ربما يكون قد قفز إلى الخلف. هل رأيتِ أي شخص آخر في الغرفة؟»

«لا، ولكن هذا الرجل البشع اعترف أنه كان موجودًا هناك، والبحَّار الهندي كان موجودًا أسفل السُّلَّم.»

«صحيح. كان زوجك، بقدر ما أمكنك التبيُّن، يرتدي ملابسه المعتادة؟»

«ولكن دون ياقته وربطة عنقه. لقد رأيتُ عنقه العاري بكل وضوح.»

«هل سبق أن تحدَّث إليكِ عن أبر سواندَم لين؟»

«مطلقًا.»

«هل بدا عليه من قبلُ أيُّ علامات تدل على تعاطيه الأفيون؟»

«مطلقًا.»

«شكرًا لكِ، سيدة سانت كلير. تلك هي النقاط الرئيسية التي رغبتُ في استيضاحها تمامًا. سنتناول الآن عشاءً خفيفًا ثم نذهب للنوم، فقد يكون لدينا يوم حافل للغاية غدًا.»

وُضِعَت غرفة كبيرة مريحة ذات سرير مزدوَج تحت تصرُّفنا. ودَخَلتُ تحت الأغطية بسرعة؛ إذ كنتُ مرهقًا بعد مغامرتي الليلية. أمَّا شيرلوك هولمز فقد كان رجلًا من شأنه أن يقضي أيامًا، بل أسبوعًا، دون أن يذوق طعم الراحة عندما كانت تواجهه مشكلة مستعصية على الحل تشغل تفكيره، فيقلبها في رأسه، معيدًا ترتيب الوقائع التي بين يديه، ومدقِّقًا فيها من جميع الوجوه إلى أن يفهمها تمامًا أو يقتنع بأن معلوماته كانت غير كافية. سرعان ما صار واضحًا لي أنه كان ساعتئذٍ يستعد لجِلسةٍ طوال الليل؛ فقد خلع معطفه وصدريته، وارتدى رداء نوم فضفاضًا أزرق، ثم راح يتجول في الغرفة وهو يجمع الوسائد من سريره والمساند من الأريكة والمقاعد. ورتبها على شكل جلسة ديوان شرقي، وجلس عليها متربعًا، وأمامه أوقية من التبغ المفروم وعلبة ثقاب. رأيته جالسًا هناك في الضوء الخافت للمصباح وبين شفتَيه غليون قديم مصنوع من خشب الورد البري، وعيناه مثبتتان بنظرة خالية من التعبير على ركن السقف، والدخان الأزرق يتصاعد منه في موجات، وهو صامت بلا حِراك، والضوء يسطع على ملامحه القوية الحادة بأنفه المعقوف كالنسر. وهكذا جلس بينما غالبني النعاس، وهكذا كان جالسًا عندما أيقظني صوت هتاف مفاجئ، ووجدت شمس الصيف قد بدأت تملأ الغرفة. كان الغليون لا يزال بين شفتيه، والدخان ما زال

يتصاعد في موجات إلى أعلى، والغرفة مليئة بدخان التَّبغ الكثيف، ولكن لم يبقَ شيء من كومة التبغ التي رأيتها أمامه الليلة السابقة.

سألني قائلًا: «أمستيقظٌ يا واطسون؟»

«أجل.»

«أمستعدٌّ لنزهةٍ صباحيةٍ؟»

«بالتأكيد.»

«إذن ارتدِ ملابسك، لم ينهض أحدٌ من فراشه بعد، ولكنني أعرف أين ينام فتى الإسطبل، وبعد قليل سيُعِد لنا العربة.» كان يبتسم وهو يتحدث، والتمعت عيناه، وبدا رجلًا مختلفًا عن المفكِّر المتجهِّم الذي كان عليه بالأمس.

بينما كنت أرتدي ملابسي، ألقيتُ نظرةً على ساعتي. لا عجب أنَّ أحدًا لم يكن قد نهض من فراشه بعد. فقد كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة وخمس وعشرين دقيقة. بالكاد قد انتهيت عندما عاد هولمز يخبرني أن فتى الإسطبل أسرج الحصان.

قال وهو يرتدي حذاءه الطويل الرقبة: «أريد أن أختبر نظرية صغيرة لديَّ. أعتقد يا واطسون أنك تقف الآن في حضرة واحدٍ من أكثر الناس حمقًا في أوروبا كلها. إنني أستحقُّ أن أُركَل من هنا إلى تشارينج كروس. ولكنني أعتقد أن بحوزتي الآن مفتاح القضية.»

سألته مبتسمًا: «وأين هو؟»

فأجاب قائلًا: «في الحمام،» وأردف قائلًا عندما رأى نظرة الشك التي ترتسم على وجهي: «أوه، أجل، أنا لا أمزح. لقد كنت هناك لتوِّي، وقد أخذته وهو لديَّ الآن في الحقيبة الجلادستون هذه. هيا يا رفيقي، وسنرى ما إن كان يناسب القفل أم لا.»

اتجهنا إلى الطابق السفلي بأقصى هدوء ممكن، وخرجنا إلى أشعة شمس الصباح الساطعة. حيث الحصان والعربة ينتظران في الطريق، بينما فتى الإسطبل يقف نصف عارٍ عند مقدمة العربة. قفز كِلانا في العربة، وانطلقنا عبر طريق لندن. كانت بعض العربات الريفية تتحرك حاملةً الخضراوات إلى المدينة، أما صَفَّا المنازل الكائنان على جانبَي الطريق فكانا هادئين وهامدين وكأنهما مدينة في حلم.

قال هولمز وهو ينكز الحصان ليَحُثَّه على العَدْو: «لقد كانت هذه قضية فريدة من نوعها فيما يتعلَّق ببعض النقاط. أعترف أنني كنت أعمى كحيوان الخُلْد، ولكن تَعَلُّم الحكمة متأخرًا أفضل من عدم تَعَلُّمها أبدًا.»

مَن بكَّروا بالاستيقاظ في البلدة قد بدءوا لتوِّهم النظر من نوافذهم والنعاس يغالبهم، ونحن ننطلق عبر شوارع ناحية «سَري». ونحن نمر بطريق جسر ووترلو عبرنا النهر وانطلقنا في شارع ولنجتون وانعطفنا بشدة إلى اليمين فوجدنا أنفسنا في شارع بو. كان شيرلوك هولمز مشهورًا لدى قوة الشرطة، فحيَّاه الشرطيَّان الواقفان عند الباب، وأمسك أحدهما برأس الحصان، بينما قادنا الآخر إلى الداخل.

سألهما هولمز: «مَن بالخدمة؟»

«المفتش برادستريت يا سيدي.»

«أوه، برادستريت، كيف حالك؟» نزل على الممر المبَلَّط بالحجر ضابطٌ طويلٌ ممتلئٌ يرتدي قبعةً مدبَّبةً وسترة رسمية تُزيِّنها سُيُور أمامية.

قال هولمز: «أرغب في الحديث معك على انفراد، يا برادستريت.»

«بالتأكيد يا سيد هولمز، تفضَّل إلى غرفتي هنا.»

كانت غرفة صغيرة تُشبه حجرة المكتب، بها طاولة موضوع عليها دفتر ضخم، وهاتف مثبت في الحائط. جلس المفتش على مكتبه وقال: «كيف يمكنني مساعدتك يا سيد هولمز؟»

«لقد أتيتُ في زيارة قصيرة بشأن ذلك المتسوِّل بون، الذي اتُّهِمَ بتورُّطه في اختفاء السيد نيفيل سانت كلير من «لي».»

«أجل، لقد جاءوا به إلى هنا ووُضِعَ في الحبس لمزيد من الاستجواب.»

«هذا ما سمعته. هل هو لديك هنا؟»

«أجل إنه في الزنزانة.»

«هل هو هادئ؟»

«أوه، إنه لا يثير المتاعب، ولكنه وغد قذر.»

«قذر؟»

«أجل، لقد فعلنا كل ما نستطيع لنجعله يغسل يديه، أما وجهه فأسود كوجه سمكري. حسنًا، بمجرد إتمام إجراءات قضيته، سيحصل على حمام السجن المعتاد؛ وأعتقد أنك إذا رأيته ستتفق معي في الرأي أنه بحاجة لذلك.»

«أرغب بشدة في رؤيته.»

«حقًّا؟ هذا أمر يَسهُل القيام به. تعالَ معي من هنا. يمكنك ترك حقيبتك.»

«لا، أعتقد أنني سآخذها معي.»

«لا بأس. تعالَيا معي من هنا بعد إذنكما.» قادنا عبر أحد الممرات، وفتح بابًا بقضبان وهبط درجًا متعرِّجًا، وقادنا إلى ممر مطلي باللون الأبيض، وعلى كلا جانبيه صَفٌّ من الأبواب.

قال المفتش: «زنزانته هي الثالثة على اليمين. ها هي!» بهدوء دفع بلوحة في الجزء العلوي من الباب إلى الخلف ونظر من خلالها وقال: «إنه نائم، يمكنكما رؤيته جيدًا.»

نظر كلانا عبر القضبان. كان السجين مستلقيًا ووجهه نحونا يَغِطُّ في نوم عميق، ويتنفَّس تنفسًا بطيئًا وثقيلًا. كان رجلًا متوسطَ الحجم يرتدي ملابس رديئة، كما تقتضي مهنته، وقميصًا ملوَّنًا يبرز من فتقٍ في معطفه الممزَّق. كان، مثلما قال المفتش، شديد القذارة، إلا أن الوَسَخ الذي كان يغطِّي وجهه لم يُخفِ قُبْحَه المقيت. امتدَّ تورُّم بارز كبير من نَدَبة قديمة بطول وجهه من عينه إلى ذَقْنه، ونتج عن تقلُّصِه رَفْع أحد جوانب شَفَتِه العلوية، حتى إن ثلاثًا من أسنانه ظهرت راسمةً على وجهه تعبير زمجرة دائمًا. وكانت كتلة من الشعر الأحمر الفاقع القصير تكسو مقدَّم رأسه وحاجبَيه.

قال المفتش: «إنه جميلٌ، أليس كذلك؟»

فقال هولمز: «إنه يحتاج إلى الاغتسال بكل تأكيد، لقد خطرت لي هذه الفكرة بالفعل، فسمحت لنفسي وأحضرت معي الأدوات اللازمة.» فتح الحقيبة الجلادستون وهو يتحدَّث، وأخرج منها إسفنجة حمام ضخمة، ممَّا أثار اندهاشي.

ضحك المفتش قائلًا: «ها ها! كم أنت مضحك!»

«والآن، هلَّا تكرَّمت وفتحت هذا الباب بهدوء شديد؟ في غضون وقت قليل سنجعله يبدو بهيئة أكثر احترامًا.»

«حسنًا، لِمَ لا، فهيئته القذرة لا تناسب زنازين شارع بو، أليس كذلك؟» دفع مفتاحه في القفل، وبهدوء شديد دخلنا جميعًا الزنزانة. استدار السجين النائم نصف استدارة نحو مصدر الصوت، ثم قَرَّ مرة أخرى في سُبَات عميق. انحنى هولمز نحو وعاء الماء، وبلَّل الإسفنجة وحكَّها مرتَين بقوة على وجهه من أعلى إلى أسفل.

وصاح: «دعوني أقدِّم لكم السيد نيفيل سانت كلير من «لي» في مقاطعة كينت.»

لم أرَ في حياتي مشهدًا كهذا قطُّ؛ إذ تقشَّر وجه الرجل تحت الإسفنجة كما يتقشَّر اللِّحاء من الشجرة. اختفى اللون البني الفَجُّ! واختفت أيضًا الندبة البشعة التي غضَّنَت وجهه، والشَّفَة الملتوية التي كانت قد أَضْفَت تعبيرًا هازئًا مقيتًا على وجهه! انتُزِعَ الشعر الأحمر المتشابك من على رأسه بحركة سريعة، فظهر رجل شاحب، حزين الملامح، أسود

الشعر، ناعم الجلد يفرك عينيه ويُحدِّق فيما حوله بحَيْرة ناعسة، وهو ينهض جالسًا على سريره. ثم، عندما أدرك فجأةً أن سَتره قد انكشف، صرخ وألقى نفسه على السرير دافنًا وجهه في الوسادة.

صرخ المفتش قائلًا: «يا إلهي! إنه الرجل المفقود بالفعل، أعرفه من الصورة.»

استدار السجين بتهوُّر رجل قرَّر أن يستسلم لمصيره المحتوم، وقال: «وليكن، وما هي تهمتي أرجوك؟»

قال المفتش بابتسامة: «التخلُّص من السيد نيفيل سانت ... أوه، بربِّك! لا يمكن توجيه تلك التهمة إليك إلا إذا حوَّلوا القضية إلى محاولة انتحار. حسنًا، لقد قضَيْتُ سبعًا وعشرين سنةً في الخدمة، ولكن هذه القضية هي الأغرب على الإطلاق.»

«إذا كنتُ أنا السيد نيفيل سانت كلير نفسه، فإذن لم تُرتَكَب أيُّ جريمة كما هو واضح؛ ومن ثَمَّ، فأنا محتجز على نحو غير قانوني.»

قال هولمز: «لم تُرتَكَب جريمة، ولكن ارتُكِبَ خطأٌ فادحٌ. كنت ستُبلي بلاءً أفضل لو أنك وثقتَ بزوجتك.»

قال السجين ممتعضًا: «لا يتعلَّق الأمر بزوجتي، بل بأطفالي. ليساعدني الرَّبُّ، لن أجعلهم يخجلون من أبيهم. يا إلهي! يا لَلفضيحة! ماذا الذي يمكنني فعله؟»

جلس شيرلوك هولمز إلى جواره على السرير وربَّت على كتفه بلطف.

وقال: «إن تركت الأمر للمحكمة لتوضيح المسألة، فبالطبع لن يمكنك تجنُّب العَلَنِيَّة. من ناحية أخرى، إذا أقنعت سلطات الشرطة بعدم وجود أي دعوى مُحتَمَلة ضدك، فلا أجد أي سبب يدعو إلى جعل التفاصيل تجد طريقها إلى صفحات الجرائد. أنا متأكد من أن المفتش برادستريت سيُدوِّن أي شيء قد تخبرنا به وسيقدِّمه إلى السلطات المختصة، وبذلك لن تصل القضية إلى المحكمة أبدًا.»

صاح السجين بحماس: «ليباركك الرب! لقد كنتُ على استعداد لتحمُّل عقوبة السجن، أجل، وحتى الإعدام، ولا يتسبَّب سِرِّي التعيس في وصمة عار عائلية لأطفالي.

ستكونون أنتم أول مَن يسمع قصتي. كان أبي يعمل ناظر مدرسة في تشيسترفيلد، حيث تلقَّيْت تعليمًا ممتازًا. سافرت في شبابي واتَّجهت إلى التمثيل بالمسرح، وأخيرًا أصبحت مراسلًا في صحيفة مسائية في لندن. في يوم من الأيام، كان المحرِّر الذي يرأسني يرغب في الحصول على سلسلة من المقالات عن التسوُّل في العاصمة، فتطوَّعتُ بتقديمها. وكانت تلك هي النقطة التي بدأت منها كل مغامراتي. كان السبيل الوحيد الذي سيُمكِّنُني من

الحصول على الحقائق التي سأضع عليها أساسًا لمقالاتي هو أن أجرِّب التسوُّل كهاوٍ. بلا شك، وبالطبع، عندما كنتُ ممثلًا، تعلَّمت كل أسرار المكياج، وكنتُ مشهورًا في غرفة التجهيز بالمسرح بمهاراتي في هذا الشأن؛ لذا استفدت من مهاراتي، فدهنت وجهي، ولكي أجعل نفسي أبدو مثيرًا للشفقة قَدْر الإمكان، رسمتُ ندبةً متقنةً وثَبَّتُّ أحد جوانب شفتي لتصبح ملتوية باستخدام قطعة صغيرة من اللَّصق لها نفس لون البشرة. وبعد تثبيت شعر مستعار أحمر اللون، وارتداء الملبس المناسب، اتَّخذت موقعي في الجزء التجاري من المدينة، متظاهرًا بأنني بائع عُلب أعواد ثقاب، ولكني في الواقع متسوِّل. مارست عملي لسبع ساعات متواصلة، وعندما كنت أعود إلى المنزل في المساء، كنت أجد، لدهشتي، أنني قد حصلت على ما لا يقل عن ٢٦ شلنًا و٤ بنسات.

كتبت مقالاتي وفكَّرت قليلًا في الأمر. بعد مدةٍ، ضَمِنْتُ أحد أصدقائي في دفع فواتيره، وصدر ضدي حكم قضائي بتسديد ٢٥ جنيهًا إسترلينيًّا. أَعْيَتْني الحيلة في محاولة الحصول على المال اللازم، ولكن جاءتني فكرة فجأة. توسَّلت إلى الدائن طالبًا منه مهلة أسبوعَين، وطلبت إجازة من أصحاب العمل، وأمضيتُ الوقت في التسوُّل في المدينة مُتخفيًا. وبعد عشرة أيام كنتُ قد حصلتُ على المال وسدَّدت الدَّين.

حسنًا، يمكنك تخيُّل مدى صعوبة الاستقرار في عمل شاقٍّ لقاء جنيهَين إسترلينيَّين في الأسبوع، بينما كنت أعلم أن بوسعي اكتساب المبلغ نفسه تقريبًا في يوم واحد بتلطيخ وجهي بالقليل من المساحيق، ووضع قبعتي على الأرض والجلوس بلا حراك. خُضْتُ صراعًا داخليًّا طويلًا بين كبريائي والرغبة في الحصول على المال، ولكن رغبتي في المال انتصرت في النهاية، فتخلَّيْتُ عن مهنة المراسل، وقضيت يومًا تلو الآخر في الزاوية التي كنت قد اخترتها في البداية، مستدرًّا عطف المارَّة بوجهي المُروِّع ومالئًا جيوبي بالعملات المعدنية. لم يعرف سِرِّي سوى رجل واحد؛ لقد كان صاحب وَكْر حقير اعتدتُ أن أُقيم فيه في أبر سواندَم لين؛ حيث كان بإمكاني أن أخرج منه كل صباح على هيئة متسوِّل قذر، وفي المساء أتحوَّل إلى رجلٍ حسن الهندام وأجوب أنحاء المدينة. لقد كنتُ أدفع لهذا البحَّار الهندي مبلغًا جيدًا من المال لقاء استخدام إحدى غُرَفِه، حتى ضَمِنْت أن سِرِّي كان في أمان معه.

حسنًا، سرعان ما وجدتُ نفسي أدَّخر مبالغ كبيرة من المال. لا أعني بذلك أن أي متسوِّل يجوب شوارع لندن يمكنه كسب ٧٠٠ جنيه إسترليني في العام — وهو أقل ممَّا أحصل عليه في المتوسط — ولكنني كنت أتمتع بمزايا استثنائية تتمثَّل في قدرتي على استخدام المكياج، وأيضًا في مهارة سرعة البديهة، التي تحسَّنت بالممارسة، وجعلتني

شخصية معروفة جدًّا في المدينة. طوال اليوم كانت تتدفَّق عليَّ البنسات الفضية بمختلف فئاتها، واليوم الذي كنت أفشل فيه في الحصول على جنيهَين إسترلينيَّين يعتبر يومًا بالغ السوء.

كلما ازددت ثراءً، ازداد طموحي، فاقتنيتُ منزلًا في الريف، وأخيرًا تزوَّجت، دون أن تساور الشكوك أي شخص بشأن مهنتي الحقيقية. كانت زوجتي العزيزة تعلم أنَّ لديَّ عملًا في المدينة، ولكن لم تكن تعلم عنه سوى القليل.

كنت قد انتهيت يوم الإثنين الماضي من جمع المال في هذا اليوم، وكنت أُبَدِّلُ ملابسي في غرفتي التي تقع فوق وكر الأفيون عندما نظرتُ من نافذتي ورأيتُ، لرعبي ودهشتي، أن زوجتي كانت تقف في الشارع وعيناها مثبتتان بالكامل عليَّ. فصرخت من المفاجأة ورفعتُ ذراعيَّ لأغطيَ وجهي، وهُرِعْت إلى كاتم سِرِّي، البحَّار الهندي، وتوسَّلت إليه أن يمنع أي شخص من الصعود إليَّ. سمعت صوتها بالأسفل، ولكنني كنت أعلم أنه لا يمكنها الصعود. ألقيتُ ملابسي بسرعة، وارتديتُ ملابس التسوُّل، ودهنتُ وجهي بالمساحيق ووضعتُ الشعر المستعار. حتى عينا الزوجة لا تستطيعان تمييز ما يكمن خلف تنكُّر بارع. إلا أنني بعد ذلك فكَّرت في أن الغرفة قد تتعرَّض للتفتيش، وأن الملابس قد تفضح سري. ففتحت النافذة على مصراعيها، وتسبَّب عنفي في إعادة فتح جُرح صغير أحدثتُه لنفسي في غرفة النوم في ذلك الصباح. بعد ذلك أمسكتُ بمعطفي، الذي أثقلتْه قطع النقود النحاسية التي نقلتُها إليه لتوِّي من الحقيبة الجلدية التي أحمل فيها إيراداتي من التسوُّل. قذفت به من النافذة، فاختفى في نهر التيمز. كنت سأُتبِعه بالملابس الأخرى، ولكن في تلك اللحظة هُرِعَت مجموعة من رجال الشرطة تصعد الدَّرَج، وبعد دقائق قليلة، وجدتُ أنهم، بدلًا من التعرُّف عليَّ بصفتي السيد نيفيل سانت كلير، يُلقون القبض عليَّ باعتباري قاتله، وهو ما أعترف أنه قد بعث الراحة في نفسي.

لا أدري إن كان هناك أي شيء آخر يمكنني توضيحه. لقد كنتُ مصمِّمًا على الاحتفاظ بتنكُّري لأطول فترة ممكنة؛ لذا كنت أفضِّل أن يظل وجهي قذرًا. ولعلمي بأن زوجتي سيعتريها القلق الشديد، فقد خلعتُ خاتمي وأعطيتُه للبحَّار الهندي، في لحظة لم يكن يراقبني فيها أي شرطي، مع رسالة كُتِبَت على عَجَل أُخبِرُها فيها أنه لا داعِيَ للخوف.»

قال هولمز: «لم تصلها هذه الرسالة إلا أمس.»

«يا إلهي! لا بد أنها قد قضت أسبوعًا بالغ السوء!»

قال المفتش برادستربيت: «لقد راقبَتِ الشرطة هذا البحَّار الهندي، ويمكنني أن أفهم بوضوح أنه قد يجد صعوبة في إرسال خطاب دون أن يلاحظه أحد. الأرجح أنه سلَّمه لأحد زبائنه من البحَّارة، الذي نسيَه تمامًا لعِدَّة أيام.»

قال هولمز وهو يهز رأسه موافقًا: «هكذا كان الأمر فعلًا، ليس لديَّ أدنى شك في هذا. ولكن هل سبق أن حوكمْتَ بتهمة التسوُّل؟»

«العديد من المرَّات، ولكن ما قيمة الغرامة مقارنةً بما كنتُ أجنيه؟»

قال برادستربيت: «ومع ذلك، فلا بد أن يتوقَّف الأمر عند هذا الحد. إن كانت الشرطة ستتكتَّم على الأمر، فلا بد أن يختفيَ هيو بون من الوجود تمامًا.»

«لقد أقسمتُ على هذا بأغلظ الأيمان التي يمكن لإنسان أن يقسم بها.»

«في هذه الحالة، أعتقد أنه من المحتمل عدم اتخاذ أي خطوات أخرى في القضية، ولكن إن أُلقِيَ القبض عليك مرة أخرى، فحينئذٍ لن يكون ثَمَّة مفرٌّ من كشف الأمر كله. أنا متأكد يا سيد هولمز أننا ندين لك بالكثير لتوضيح المسألة. ليتني أعرف كيف تتوصَّل إلى نتائجك.»

ردَّ صديقي قائلًا: «توصَّلتُ لنتيجة هذه القضية بالجلوس على خمس وسائد وتدخين أوقية من التَّبغ. أعتقد يا واطسون أننا إذا توجَّهنا إلى شارع بيكر ستريت، فسنصل في الوقت المناسب لتناول الإفطار.»

مغامرة الجوهرة الزرقاء

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد



مغامرة الجوهرة الزرقاء

زرتُ صديقي شيرلوك هولمز في صباح اليوم الثاني بعد عيد الميلاد لأُهنِّئه بهذه المناسبة. كان مُسترخيًا على الأريكة وهو يرتدي رداء نومٍ أُرجوانيَّ اللون، وفي مُتناوَل يده إلى اليمين حامل الغُليون، وبالقُرب منه كومةٌ من الجرائد الصباحية المجعَّدة، التي من الواضح أنه كان يُطالعها حديثًا. وبجانب الأريكة كان ثَمَّةَ كرسيٌّ خشبي عُلِّقَت على طَرَف ظهره قبَّعةٌ مصنوعة من اللباد القاسي، والتي كانت رثَّةً وبالية من كثرة الاستخدام ومُشقَّقةً في مواضعَ كثيرة. كان وجود عدسةٍ مكبِّرة ومِلقط على مقعد الكرسي يُوحي بأن القبَّعة قد عُلِّقَت بهذه الطريقة بغرض أن تُفحص.

حدَّثتُ هولمز قائلًا: «أرى أنك مشغول؛ ربما أكون قد قاطعتُك.»

قال هولمز: «لا، أبدًا، يُسعدني أن يكون لديَّ صديقٌ يمكنني مناقشة النتائج التي أتوصل إليها معه. الأمر تافه تمامًا.» وأشار بإبهامه نحو القبَّعة القديمة، ثم أردف قائلًا: «ولكن فيه بعض النقاط التي لا تخلو من الإثارة، بل والتي قد تكون مَدعاةً للتعلُّم أيضًا.»

جلستُ على كُرسيه ذي الذِّراعَين ودفَّأتُ يديَّ أمام نيران مَوقِده المتأجِّجة؛ إذ إن صقيعًا حادًّا كان قد بدأ، وكانت النوافذ مُغطَّاةً بطبقةٍ سميكة من بِلَّوْرات الثلج. عَلَّقتُ قائلًا: «أعتقد أنه بالرغم من أن هذا يبدو أمرًا عاديًّا، فإنه يرتبط بقصةٍ خطيرة. إنه الخيط الذي سيقودك لحلِّ لُغزٍ ما ولإنزال العقاب على مرتكب جريمةٍ ما.»

ردَّ شيرلوك ضاحكًا: «لا، لا، لا تُوجَد أي جرائم. إنها فقط واحدةٌ من تلك الحوادث الصغيرة الغريبة التي تحدُث عندما يكون لديك أربعة ملايين شخصٍ يتزاحمون في مساحة لا تتجاوز بضعة أميالٍ مُربَّعة؛ ففي خِضَم أفعالِ وردودِ أفعالِ هذا الحشد الكثيف من

البشر، من المتوقَّع أن يحدُث أيُّ مزيجٍ مُحتمَل من الأحداث، وستظهر العديد من القضايا التافهة التي قد تُصبِح غريبةً ومُثيرة دون أن ترقى إلى مستوى الإجرام. ولقد صادَفنا بالفعل هذا النوع من القضايا.»

علَّقتُ قائلًا: «يُوجَد الكثير منها بالفعل حتى إنَّ ثلاثًا من القضايا الستِّ الأخيرة التي دَوَّنتُ أحداثها، كانت تخلو تمامًا من أيِّ جريمةٍ قانونية.»

«بالضبط. إنك تُلمِح إلى مُحاولتي استعادةَ أوراقِ إيرين آدلر، وإلى القضية الفريدة الخاصة بالآنسة ماري ساذرلاند، وإلى مغامرة الرجل ذي الشفَة المُلتوية. حسنًا، ليس لديَّ شكٌّ في أنَّ هذه المسألة الصغيرة ستندرج تحت نفس التصنيف البريء للقضايا. هل تعرف بيترسون؛ الحاجب بالفندق؟»

«أجل.»

«هذه الغنيمة تخصُّه.»

«إنها قبَّعته.»

«لا، لا، لقد وجدَها، وصاحبها غير معروف. أرجو أن تنظُر إليها باعتبارها مشكلةً تحتاج إلى تفكير، وليست مجرد قُبَّعةٍ مُمزَّقة. بدايةً، فيما يتعلق بكيفية وصولها إلى هنا، فقد وصلَتْ صباح عيد الميلاد بصحبة إوزَّةٍ سمينة لذيذة، لا أشكُّ أنها تُشوى الآن أمام نيران بيترسون. أمَّا عن الحقائق، فهي كالآتي: في حوالي الساعة الرابعة صباحَ يومِ عيد الميلاد، كان بيترسون، وهو رجل أمين جدًّا كما تعلم، عائدًا من احتفالٍ صغير، وكان يسير في طريق توتنهام كورت متجهًا إلى منزله. رأى أمامه في ضوء المصباح الغازي رجلًا طويلًا بعض الشيء يمشي وهو يترنَّح قليلًا وتتدلَّى من على كتِفه إوزَّةٌ بيضاء. وعندما وصل إلى زاويةِ شارعِ جودج، اندلعَتْ مشاجرة بين هذا الغريب وعُصبة من الأشقياء. أطاح أحدهم بقُبَّعة الرجل، فرفع عصاه للدفاع عن نفسه وأَرجحَها فوق رأسه، فحَطَّم نافذة المحل التي كانت خلفه. هُرِع بيترسون ليحمي الغريب من المُعتدِين عليه، ولكن الرجل كان مصدومًا من أنه قد كَسَر نافذة المحل. وعندما رأى شخصًا يرتدي زيًّا رسميًّا ويندفع نحوه، ألقى إوزَّته وركض مُسرعًا واختفى وسط متاهة الشوارع الصغيرة التي تقع في نهايةِ طريقِ توتنهام كورت. هرب الأشقياء أيضًا عندما رأَوا بيترسون، الذي وجد نفسه وحدَه في ميدان المعركة مُسيطرًا على غنائم النصر، التي تتمثل في هذه القبَّعة المُمزَّقة وإوزَّة عيدِ الميلاد بشَحمِها ولحمها.»

«ومن المؤكد أنه أعادها إلى مالكها، أليس كذلك؟»

«هنا تكمن المشكلة يا صديقي العزيز. صحيحٌ أنه كان مكتوبًا على بطاقةٍ صغيرة مربوطة بساق الإوزَّة اليسرى عبارة «إلى السيدة هنري بيكر»، وصحيحٌ أيضًا أنَّ الحرفَين الأوَّلَين من الاسم «هـ. ب.» كانا مكتوبَين على بِطانةِ هذه القُبَّعة، لكن بما أنه يُوجَد الآلاف ممن يُدعَون بيكر، والمئات ممن يُدعَون هنري بيكر في مدينتنا هذه، فليس من السهل إعادة هذا الشيء المفقود لأيٍّ منهم.»

«ما الذي فعله بيترسون إذن؟»

«أحضَرَ لي القُبَّعة والإوزَّة في صباح عيد الميلاد لأنه يعلم أنني أهتمُّ حتى بأبسط القضايا. لقد احتفظْنا بالإوزَّة حتى هذا الصباح عندما ظَهرَت علاماتٌ تقول إنه، رغم أن الصقيع طفيف، سيكون من الأفضل أن تُذبَح دون أيِّ تأجيلٍ لا داعي له؛ وبالتالي، أخذَها بيترسون ليذبَحها، بينما احتفظتُ أنا بقُبَّعة الرجل المجهول الذي فقَدَ عَشاءَ يومِ عيد الميلاد.»

«أولم يُعلن عما فقَدَه؟»

«لا.»

«إذن، ما الدليل الذي يمكن أن يكون لديكَ عن هُويته؟»

«فقط القَدْر الذي يمكننا استنتاجُه.»

«مِن قُبَّعته؟»

«بالضبط.»

«ولكنك تمزح! ما الدلائل التي يمكنكَ جمعُها من هذا الشيء القديم المُمزَّق المصنوع من اللباد؟»

«إليكَ عدستي. أنت تعرف أساليبي. ما الذي يمكنك أن تستنتجه، أنت شخصيًّا، عن شخصية الرجل الذي كان يرتدي هذا النوع من القُبَّعات؟»

حملتُ القُبَّعة الرثَّة في يديَّ وأخذتُ أتفحَّصها وأنا أشعر بالأسف. كانت قُبَّعةً سوداء عادية جدًّا لها الشكل الدائري المعتاد، وكانت خشِنةً وبالية. كانت البطانة مصنوعةً من الحرير الأحمر الذي تغيَّرَ لونه تغيُّرًا كبيرًا. لم يكن عليها اسمُ صانعها، ولكن كما قال هولمز، كان الحرفان الأوَّلان «هـ. ب.» مكتوبَين بنحوٍ سيِّئٍ على أحد الجوانب. كانت حافتُها مثقوبة، ولكن الشريط المطاطي الذي يُستخدَم لتثبيت القُبَّعة على الرأس كان مفقودًا. أمَّا باقي الأجزاء فقد كانت مُشقَّقةً ومُترَّبة بشدَّة ومُبقَّعةً في أماكنَ عديدة، على الرغم من أنه كان هناك على ما يبدو بعض المحاولات لإخفاء البُقَع التي تغيَّرَ لونها من خلال تلطيخها بالحِبر.

قلتُ وأنا أُعيدُها لصديقي: «لا يُمكنني أن أرى أيَّ شيء.»

«على العكس يا واطسون، يمكنك أن ترى كلَّ شيء، ولكنك تعجز عن فَهم ما تراه. إنك شديد التردُّد في التوصُّل إلى استدلالاتك الخاصة.»

«إذن أخبِرْني، أرجوك، بما يمكنك الاستدلال عليه من هذه القُبَّعة؟»

التقط هولمز القُبَّعة وحدَّق بها بأسلوبه الاستنباطي الغريب الذي كان يُميِّزه، وقال: «لعلها أقلُّ إيحاءً مما كان يمكن أن تكون عليه، ومع ذلك، هناك بعض الاستدلالات التي يسهُل جدًّا التوصُّل إليها، وهناك استدلالاتٌ أخرى يمكن وصفُها بأنها ذاتُ احتماليةٍ كبيرة على أدنى تقدير. يدلُّ مظهرها بالطبع على أنه رجلٌ شديد الثقافة، وأنه كان ميسور الحال إلى حدٍّ ما خلال السنوات الثلاث الماضية، ولكنه يمرُّ حاليًّا بأيامٍ صعبة. كان يتمتع بالحكمة والبصيرة، ولكنه لم يعُد كما كان، مما يُشير إلى تراجُعٍ أخلاقي، عندما نضعُه في اعتبارنا في ضوء تراجُع ثروته، يبدو أنه يُشير إلى وقوعه تحت تأثير بعض الأشياء المُفسِدة؛ مُعاقَرة الخمر على الأرجح. وهذا قد يُفسِّر أيضًا حقيقةً واضحة تَتمثَّل في أنَّ زوجتَه لم تعُد تُحبُّه.»

«عزيزي هولمز!»

استمرَّ في كلامه مُتجاهلًا اعتراضي قائلًا: «وعلى الرغم من ذلك، فهو يحتفظ بقدْرٍ من احترام الذات. إنه رجل يعيش حياة الدَّعَة ولا يخرج كثيرًا ولِياقتُه البدنية ضعيفةٌ تمامًا. إنه في منتصف العمر وذو شعْرٍ أشيَبَ كان قد قصَّهُ خلال الأيام القليلة الماضية، وكان يَدهُنه بكريم الليمون. هذه هي الحقائق الأوضح التي يمكن استنتاجُها من قُبَّعته. وبالمناسبة، أيضًا، من المُستبعَد تمامًا أن يكون منزله مزوَّدًا بالغاز.»

«إنك تمزح بالتأكيد يا هولمز!»

«إطلاقًا. هل من الممكن، حتى هذه اللحظة التي أخبرتُك فيها بهذه الاستنتاجات، أن تكون غير قادرٍ على استيعابِ كيفيةِ وصولي إليها؟»

«ليس لديَّ شكٌّ في أنني شديد الغباء، ولكن لا بُدَّ أن أعترف أنني لا يمكنني مُتابعتك. على سبيل المثال؛ كيف استنتجتَ أن هذا الرجل مُثقَّف؟»

للإجابة على سؤالي، وضع هولمز القُبَّعة على رأسه بسرعة، فغطَّتْ جبهتَه واستقرَّتْ على الجزء العلوي من أنفه، وقال: «إنها مسألة السَّعة الحجمية؛ فرجل له دماغٌ ضخم كهذا لا يمكن أن يكون غبيًّا.»

«وبالنسبة لتراجُع ثروته؟»

«عمر هذه القُبَّعة ثلاث سنوات، ولقد كانت تلك الحوافُ المُسطَّحة الملتوية عند الأحرُف دارِجةً في ذلك الوقت. إنها من أفضل أنواع القُبَّعات، انظر إلى الشريط المصنوع من الحرير المضلَّع والبطانة الممتازة. إذا كان هذا الرجل قادرًا على شراء قُبَّعةٍ باهظة الثمن قبل ثلاثِ سنوات، ولم يتمكَّن من شراء أُخرى منذ ذلك الحين، فهذا يعني أن وضعَه المادي قد تراجَع بشدَّة.»

«حسنًا، هذا واضحٌ بما يكفي بالتأكيد، ولكن ماذا عن الحِكمة والتراجُع الأخلاقي؟»

ضحِك هولمز وقال وهو يضع إصبعه على القُرص الصغير وعلى حلقة الشريط المطاطي: «ها هو دليل الحكمة والبصيرة. لا تُباع القُبَّعات به أبدًا. فإذا كان هذا الرجل قد طلب واحدًا، فهذا يُشير إلى قدْرٍ من الحكمة، لأنه بذَل كلَّ جُهده ليحتاط من الرياح. ولكن بما أنَّنا رأينا أنه قد قطع الشريط المطاطي ولم يهتمَّ باستبدالِ آخَر به، فهذا يدلُّ على أنه لم يعُد على نفس القدْر من الحكمة والبصيرة كما كان من قبل، وهذا دليلٌ واضح على الاستهتار. من ناحيةٍ أخرى، لقد سعى لإخفاء بعض هذه البُقَع الموجودة على اللَّباد عن طريق تلطيخها بالحِبر، مما يدلُّ على أنه لم يفقِد احترامه لِذاته بالكامل.»

«منطقُكَ معقول بلا شك.»

«أمَّا بالنسبة للنقاط الأخرى، وهي أنه في منتصف العمر وشعره أشيَب وأنه قد جرى قصُّهُ مؤخَّرًا وأنه يَستخدِم كريم الليمون، فيمكن معرفتها كلها من خلال الفحص الدقيق للجزء السُّفلي من البطانة. تكشف العدسة عن وجودِ عددٍ كبير من نهايات الشَّعر التي قُصَّت بمقصِّ حلَّاق؛ إذ تبدو جميعها مُلتصقة، وتُوجَد رائحةٌ مميزة لكريم الليمون. هذا الغُبار، كما تلاحظ، ليس الغُبار الرمادي الرملي الموجود في الشارع، بل الغُبار المنزلي البُنِّي الرقيق، مما يدلُّ على أن القُبَّعة كانت مُعلَّقة داخل المنزل مُعظم الوقت، في حين أن علامات الرطوبة الموجودة في القُبَّعة من الداخل تُثبِت أن مُرتديها كان يتعرَّق كثيرًا، وبالتالي، لا يمكن أن تكون لياقته البدنية في أفضلِ حالاتها.»

«ولكن زوجته ... قلتَ إنها لم تعُد تُحبُّه.»

«هذه القُبَّعة لم تُنظَّف منذ أسابيع. عندما أرى أن قُبَّعتك، يا عزيزي واطسون، قد تراكَم عليها غُبارُ أسبوعٍ كامل، وعندما تسمح لك زوجتُك بالخروج هكذا، فسيؤسفني أن أُخبركَ حينها بأنكَ أصبحتَ سيِّئَ الحظِّ بما فيه الكفايةُ لأن زوجتك قد فقدَتِ اهتمامَها بك.»

«ولكنه قد يكون عازبًا.»

«لا، لقد كان يُحضِر الإوزَّة إلى المنزل كشكلٍ من أشكال الصُّلح لزوجته. هل تذكُر البطاقة التي كانت مربوطةً حول ساق الإوزَّة؟»

«لديك إجابةٌ لكلِّ شيء. ولكن بحقِّ الربِّ كيف استنتجتَ أنَّ منزله غير مُزوَّد بالغاز؟»

«قد تحدُث بُقعة شحم أو اثنتان بالصُّدفة، ولكن عندما أجِد ما لا يقلُّ عن خمس بُقَع، فأعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك أيُّ شكٍّ بأن مُرتدي القُبَّعة يتعرَّض بنحوٍ مُتكرِّر للشَّحم المحترِق؛ إذ ربما يصعد الدَّرَج ليلًا وهو يحمل قُبَّعته في يدٍ، وشمعةً في الأخرى. على أي حال، شُعلة الغاز لا تتسبَّب في بُقَع الشحم. هل اقتنعت؟»

قلتُ وأنا أضحك: «حسنًا، هذه براعةٌ شديدة من جانبك، ولكن بما أنه لم تُرتكَب أيُّ جريمة، كما قلتَ للتو، ولم يقع أيُّ ضررٍ سوى فقدان الإوزَّة، فيبدو هذا كله مجرَّد مَضْيَعة للجُهد.»

بينما كان هولمز يفتح فمه ليرد، فُتِحَ الباب على مِصراعَيه وهُرِع حاجب الفندق بيترسون داخلَ المنزلِ بوجنتَين مُتورِّدتَين وعلى وجهه تعبيرُ دهشةٍ وذهول.

قال لاهثًا: «الإوزَّة يا سيد هولمز! الإوزَّة يا سيدي!»

«هاه! ماذا عنها؟ هل عادت إلى الحياة وطارت من نافذة المطبخ؟» استدار هولمز على الأريكة ليرى وجه بيترسون المُندهِش بصورةٍ أوضح.

«انظر إلى هذا يا سيدي! انظر لما وجدَتْه زوجتي في حوصلتها!» مدَّ بيترسون يدَه وكان يستقرُّ في وسط راحته حجَرٌ أزرقُ لامع مُتألق، أصغر حجمًا من حبَّة الفول، ولكنه شديد الصفاء واللَّمعان وكأنه شرارةٌ كهربية تتلألأ في تجويفِ راحةِ يده.

انتصَب هولمز وأطلق صافرة اندهاشٍ قائلًا: «يا إلهي يا بيترسون! إنه كَنزٌ ثمين بلا شك! أعتقد أنك تعلم ماهيَّته، أليس كذلك؟»

«هل هو ماسةٌ يا سيدي؟ حجَرٌ كريم. إنه يقطع الزُّجاج وكأنه سكِّينُ معجون.»

«إنه أكثر من مجرَّد حجَرٍ كريم عادي. إنه حجرٌ كريمٌ فريد من نوعه.»

صِحتُ قائلًا: «لا تقُل إنها جوهرة الكونتيسة موركار الزرقاء!»

«إنها هي فعلًا. أعرف حجمها وشكلها؛ إذ إنني كنتُ أقرأ الإعلان بشأنها في جريدة «ذا تايمز» كلَّ يومٍ مؤخَّرًا. إنها جوهرةٌ فريدة من نوعها، ولا يمكن تقدير قيمتها، ولكن قيمة المكافأة المُقدَّمة التي تبلغ ألف جنيهٍ إسترليني لا ترقى بلا شكٍّ إلى جزء من العشرين من سعر الجوهرة في السوق.»

قال الحاجب وهو يسقط بقوةٍ جالسًا على المقعد وقد أخذ يُحدِّق فينا واحدًا تلوَ الآخر: «ألف جنيهٍ إسترليني! يا إلهي الرحيم!»

«هذه هي المكافأة، وأستطيع أن أؤكِّد أن هناك اعتباراتٍ عاطفيةً تكمُن خلف هذا الأمر، تلك التي من شأنها أن تدفع الكونتيسة إلى التخلِّي عن نصف ثروتها، إن استدعى الأمر، لاستعادة الجوهرة.»

عَلَّقتُ قائلًا: «لقد ضاعت، إن كانت تُسعفني الذاكرة، في فندق كوزموبوليتن.»

«حدَث هذا في الثاني والعشرين من ديسمبر، على وجه التحديد؛ أي قبل خمسةِ أيامٍ فقط. اتُّهِمَ سبَّاكٌ يُدعى جون هورنر بأنه قد سَرقَها من عُلبة حُلي الكونتيسة. كانت الأدلة ضدَّه قوية للغاية لدرجة أن القضية أُحيلت إلى المحكمة الجنائية. لديَّ خبرٌ عن هذا الأمر هنا كما أظن.» فتَّش هولمز وسط صُحُفه وهو يُلقي نظرةً سريعة على التواريخ، حتى أخرج إحدى الصُّحف المجعَّدة وفرَدَها، ثم طبَّقها وقرأ الفقرة التالية:

> سرقة جوهرة في فندق كوزموبوليتن. اتُّهِمَ سبَّاكٌ يُدعى جون هورنر، يبلغ من العمر ٢٦ عامًا، بسرقة الجوهرة الثمينة التي تُعرَف باسم الجوهرة الزرقاء، من عُلبة حُلي الكونتيسة موركار، في الثاني والعشرين من الشهر الحالي. قدَّم جيمس رايدر، كبير خادمي الغُرَف بالفندق، شهادةً مَفادُها أنه قد أخذ هورنر لغُرفة الملابس الخاصة بالكونتسية موركار في اليوم الذي وقعَتْ فيه السرقة، ليلحم القضيب الثاني للمَوقِد، والذي كان مفكوكًا. لقد بقي مع هورنر لبعض الوقت، ولكن جرى استدعاؤه، وعند عَوْدته، وجد أن هورنر قد اختفى، وأن مجموعة الأدراج قد فُتِحَت عنوة، وأن عُلبة الحلي الصغيرة المصنوعة من جِلد السختيان التي اعتادت الكونتيسة أن تحتفظ بحُليها بداخلها، كما اتضح فيما بعدُ، كانت على طاولة التزيُّن خالية. أبلغ رايدر عن هورنر على الفور، وأُلقيَ القبض عليه في المساء نفسه، ولكنهم لم يعثروا على الجوهرة، لا بحوزته ولا في غُرفته. شهِدَتْ كاثرين كيوساك، خادمة الكونتيسة، تحت القَسم بأنها سمعَتْ صرخة رايدر المُرتعبة عندما اكتشف السرقة، وبأنها هُرِعت إلى الغرفة، فوجدَتِ الوضع كما وصَفه الشاهد السابق. قدَّم المفتش برادستريت من المنطقة بي الأدلة السابقة مما أدَّى إلى اعتقال هورنر الذي قاوَمَ بنحوٍ محموم واحتجَّ مؤكدًا بأقوى العبارات على براءته. قُدِّم دليل آخر ضدَّ السجين يُفيدُ بإدانتهِ بتهمةِ

سطوٍ سابقة، لكن رفض القاضي أن يتَّخِذ حُكمًا سريعًا في القضية، وأحال الجريمة إلى المحكمة الجنائية. أمَّا بالنسبة لهورنر، الذي أبدى انفعالًا شديدًا أثناء وقائع المحاكمة، فقدْ فَقَدَ الوعي عندما سمع الحُكم وحُمِلَ إلى خارجِ قاعة المحكمة.

أَردَف هولمز بتأمُّلٍ عميق وهو يرمي الجريدة جانبًا: «هممم! يكفينا هذا بشأن المحكمة. الأمر الذي علينا تحديده الآن هو تسلسُل الأحداث التي وَقعَت بدايةً من اكتشاف عُلبة الحُلي المسروقة، وانتهاءً بحوصلة الإوزَّة في طريقِ توتنهام كورت. كما ترى يا واطسون، لقد كشفَتِ استنتاجاتُنا الصغيرة جانبًا أكثرَ أهمية وأقلَّ براءة. ها هي الجوهرة؛ لقد وُجِدت في حوصلة الإوزَّة، وقد أتت الإوزَّة من السيد هنري بيكر، الرجل ذي القُبَّعة الرثَّة والصفات الأخرى التي أضجرتُكَ باستنتاجها؛ لذا، يتوجَّب علينا الآن أن نشرع في البحث بجديةٍ عن هذا الرجل ونتأكَّد من الدَّور الذي لَعِبه في هذا اللُّغز الصغير. وحتى يَتأتَّى لنا ذلك، لا بُدَّ أن نلجأ لأبسطِ الوسائل أولًا، التي ستتمثَّل بلا شك في الإعلان الذي سأَنشُره في جميع الصحف المسائية. وإذا فشِلَت هذه الطريقة، فسألجأ إلى أساليبَ أخرى.»

«ما الذي ستقوله في الإعلان؟»

«أعطني قلمَ رصاصٍ وقُصاصةَ الورق هذه. والآن: «عُثِر في زاوية شارع جودج على إوزَّة وقُبَّعةٍ سوداءَ مصنوعة من اللباد. يمكن للسيد هنري بيكر استعادتهما من خلال الحضور في تمام السادسة والنصف مساءً إلى ٢٢١بي، شارع بيكر.» حسنًا هذا واضحٌ وموجز.»

«واضحٌ جدًّا. ولكن هل سيرى الإعلان؟»

«حسنًا، من المؤكد أنه سيُتابع الصحف؛ فتلك الخسارة بالنسبة لرجلٍ فقير تُعتبَر خسارةً فادحة. من الواضح أنه كان خائفًا جدًّا من سوء حظِّه الذي يتمثَّل في كسر النافذة، ومن قدوم بيترسون بحيث إنه لم يفكر سوى في الهرَب، ولكن لا بُدَّ أنه يندَم أشدَّ الندَم منذ ذلك الحين على اندفاعه الذي جعله يترُك إوزَّته. ظهورُ اسمه سيجعله يرى الإعلان؛ لأن كلَّ من يعرفه سيُخبره عنه. تفضَّل يا بيترسون، خُذ الإعلان وسارِع إلى وكالة الإعلانات وتأكَّد من أنه سيُنشَر في الصحف المسائية.»

«أيُّ صُحفٍ يا سيدي؟»

«أوه، في «ذا جلوب»، و«ستار»، و«بول مول»، و«سانت جيمسز»، و«إيفينينج نيوز»، و«ستاندرد»، و«إيكو»، وأيِّ صحيفةٍ أخرى تخطُر ببالك.»

«حسنًا يا سيدي، ولكن ماذا عن الجوهرة؟»

«أوه، أجل، سأحتفظ بالجوهرة، شكرًا لك. وبالمناسبة يا بيترسون، اشترِ إوزَّة في طريق عودتك واترُكها لي هنا؛ إذ لا بُدَّ أن يكون لدَينا واحدةٌ لنُعطيها لهذا الرجل بدلًا من التي تلتهِمُها أسرتُكَ الآن.»

عندما ذهب الحاجب، التقط هولمز الجوهرة وأخذ يتفحَّصها في الضوء، وقال: «إنها رائعة! انظر كيف تلمع وتتلألأ! إنها بالطبع نواة تدور في فلكها الجريمة، مِثل كلِّ الأحجار الكريمة؛ إنها طعومٌ لأتباع الشيطان. وقد يكمن خلف كل جانبٍ من جوانب الجواهر الأكبر والأقدم، جريمةٌ دموية. إنَّ عُمر هذه الجوهرة لم يراوِح العشرين عامًا بعد، ولقد عُثِر عليها على ضِفاف نهر آموي في جنوب الصين، وتمتاز بأنها تتمتع بكلِّ خصائص العقيق، فيما عدا أنَّ لونَها أزرقُ بدلًا من الأحمر الياقوتي الذي يُميِّزه. وعلى الرغم من حداثتها، فإنَّ لها بالفعل تاريخًا أسود؛ فقد وَقعَتْ جريمتا قتْل، وعمليةُ حرْق باستخدام حامض الزاج الكبريتي، وانتحار، والعديد من عمليات السطو من أجل هذه القطعة من الفحْم المُتبلوِر الذي يُساوي وَزْنه أربع حبَّات. من يظنُّ أن شيئًا شديد الصِّغَر كهذا سيكون بابًا يؤدي إلى المشانق والسجون؟! سأضعها في خِزانتي وأُوصِدها الآن، وسأتواصَل مع الكونتيسة لأُخبرها أنها بحوزتِنا.»

«هل تعتقد أن هذا الرجل الذي يُدعى هورنر بريء؟»

«لا يمكنني القطْع.»

«حسنًا، هل تعتقد إذن أنَّ الآخَر هذا، هنري بيكر، له أي علاقةٍ بالأمر؟»

«حسنًا، أعتقد أن الأكثر احتمالًا أنه بريء تمامًا، وأنه لم يكن لدَيه أدنى فكرة أنَّ الطائر الذي يحمِله كان ذا قيمةٍ أثمنَ كثيرًا مما لو كان مصنوعًا من الذهب الخالص. ومع ذلك، سأُحدِّد هذا الأمر باختبارٍ بسيط جدًّا إذا حصلْنا على ردٍّ على إعلاننا.»

«وبطبيعة الحال لا يُمكنكَ أن تفعل شيئًا حتى ذلك الحين، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«في هذه الحالة سأستكمل جولتي المهنية، ولكنَّني سأعود مساءً في الوقت الذي ذكرتُه؛ لأنني أرغب في أن أعرف حلَّ هذه القضية المعقَّدة.»

«سأكون سعيدًا لرؤيتك. سأتناول العَشاء في السابعة، يُوجَد دجاجة، على ما أظن. بالمناسبة، في ضوء الأحداث الأخيرة، ربما ينبغي عليَّ أن أطلُب من السيدة هادسُن أن تَفحَص حَوصلتَها!»

أخَّرتْني إحدى الحالات وكان الوقت قد جاوَز السادسة والنصف بقليلٍ عندما وجدتُ نفسي في شارع بيكر مرةً أخرى. وعندما اقتربتُ من المنزل، رأيتُ رجلًا طويل القامة يرتدي قَلنسوةً اسكتلندية ومِعطفًا مُزرَّرًا حتى ذَقنه ينتظر بالخارج في الضوء نصف الدائري القادم من شرَّاعة الباب. وبمجرد وصولي، فُتِحَ الباب ودخلْنا معًا غرفة هولمز.

قال هولمز وهو ينهض من مقعده ذي الذِّراعَين ويُرحِّب بزائره بالطريقة اللطيفة السَّلِسة التي يمكنه أن يتظاهر بها بكلِّ سهولة: «السيد هنري بيكر على ما أظن. تفضَّل على هذا المقعد بجانب المدفأة يا سيد بيكر. إنها ليلةٌ باردة، ولقد لاحظتُ أنَّ دورتك الدموية أكثر تكيُّفًا مع الصيف منها مع الشتاء. أوه، واطسون، لقد أتيتَ في الوقت المناسب! هل هذه هي قُبَّعتك يا سيد بيكر؟»

«أجل يا سيدي، إنها قُبَّعتي بلا شك.»

كان رجُلًا ضخمًا ذا أكتافٍ مُستديرة ورأسٍ ضخمٍ ووجهٍ عريضٍ ذكيٍّ ينحدِر لِلحيةٍ مُدبَّبة ذات لونٍ بُني أَشيَب. كان أنفه مُتورِّدًا قليلًا وكذلك وَجْنتاه، وكانت يداه الممدوتان ترتعشان رعشةً خفيفة، وهو ما جعلني أتذكر استنتاجات هولمز عن عاداته. كان معطفه الأسود الطويل القديم مُزَرَّرًا حتى رقبته، وياقَتُه مرفوعة، وكان مِعصماه الضعيفان يبرُزان من كُمَّيه دون أي علامةٍ لارتدائه قميصًا أو وجودِ أطرافِ أكمام. كان يتحدَّث بإيقاعٍ بطيءٍ مُتقطِّع، ويختار كلماته بعناية، وكان يُعطي انطباعًا عامًّا أنه رجلٌ مُتعلم ومُثقَّف، ولكنه تعرَّض لِصَفعاتِ القدَر.

قال هولمز: «لقد احتفَظنا بهذَين الشيئَين لِعدةِ أيامٍ لأننا توقَّعنا أن تنشُر إعلانًا عنهما تضع فيه عنوانك. أشعر بالحيرة الشديدة وأريد أن أعرف السبب وراء عدم نشرك إعلانًا.»

ضحك زائرُنا بخجَلٍ قائلًا: «لم أعُد أمتلك الكثير من المال كما كان الحال من قبلُ. لم يكن لديَّ أدنى شكٍّ أن عصابة الأشقياء التي هاجمتْني قد سرقَتْ قُبَّعتي وإوزَّتي، فلم أهتمَّ بإنفاق المزيد من المال في مُحاوَلةٍ يائسة لاستعادتهما.»

«هذا أمرٌ طبيعي. بالمناسبة، فيما يخصُّ الإوزَّة، لقد اضطُرِرْنا لأكلها.»

نهض زائرنا على نحوٍ غيرِ مكتمل من مَقعده وهو منفعلٌ ليقول: «أكلها!»

«أجل؛ فإن لم نفعل ذلك فقد كانت ستُصبح عديمة الفائدة. ولكنني أعتقد أن هذه الإوزَّة الأخرى الرائعة الموضوعة على الطاوِلة الجانبية، والتي لها نفس الوزن تقريبًا، ستفي بغرَضِك تمامًا، أليس كذلك؟»

أطلق السيد بيكر زفرةَ ارتياحٍ وقال: «أوه، بالتأكيد، بالتأكيد.»

«بالطبع لا يزال لدَينا ريشٌ وساقانِ وحوصلةُ طائرك وما إلى ذلك؛ لذا إذا كنتَ ترغب في …»

انفجر الرجل ضاحكًا من أعماقه وقال: «يمكن أن تكون هذه الأشياء مُفيدةً كمجرَّد آثارٍ تبقَّت من مُغامرتي، ولكن فيما دُون ذلك، فلا أرى أيَّ فائدةٍ لما تبقَّى من أعضاء إوزَّتي الراحلة! لا يا سيدي، أعتقد، بعد إذنك، أنني لا أريد سوى هذه الإوزَّة الممتازة التي أراها على الطاولة الجانبية.»

نظر شيرلوك هولمز نحوي نظرةً سريعة وهزَّ كتِفَيه قليلًا.

وقال: «ها هي قُبَّعتك إذن، وها هي إوزَّتك. بالمناسبة، هل يمكنك أن تُخبرني من أين حصلتَ على الإوزَّة الأخرى؟ فأنا أهوى تربية الطيور، ونادرًا ما رأيتُ إوزَّةً جيدة كتلك.»

قال بيكر الذي نهض ووضع إوزَّته الجديدة تحت إبطه بإحكام: «بالطبع يا سيدي، يتردَّد عددٌ قليل منَّا على نُزُل ألفا، بالقُرب من المتحف. ستجدنا في المتحف نفسه نهارًا. هل تفهمني؟ أنشأ مُضيفنا الكريم وينديجيت هذا العام نادِيًا لُمحبي الإوز، يحصُل كلُّ واحدٍ منَّا من خلاله على إوزَّة في عيد الميلاد لقاء دفع بنساتٍ قليلة كلَّ أسبوع. لقد سدَّدتُ المبلغ بالكامل، وأنت تعلم الباقي. أدينُ لك بالكثير يا سيدي؛ إذ لا يليق بسنِّي ولا بمكانتي أن أرتدي تلك القَلنسوة الاسكتلندية.» انحنى بيكر بتفاخُرٍ مُضحك وبطريقةٍ مُبالغ فيها لكلَيْنا وانطلق في طريقه.

قال هولمز بعد أن أغلق الباب خلفه: «يكفي هذا بالنسبة للسيد بيكر. من المؤكد أنه لا يعرف شيئًا عن الأمر. هل أنت جائع يا واطسون؟»

«ليس بدرجةٍ كبيرة.»

«إذن أقترح أن نُحوِّل الغَداء إلى عَشاء ونتناوله لاحقًا وأن نطرُق على الحديد وهو ساخن ونتتبَّع مِفتاح حلِّ اللُّغز هذا.»

«بكلِّ تأكيد.»

كانت ليلةً قارصة البرودة، فارتدَينا معطفَينا وغَطَّينا رقبتَينا جيدًا برابطتَي عنق. بالخارج، كانت النجوم تتلألأ في سماءٍ صافية وأجواءٍ باردة، وكانت أنفاس المارة تنبعث على شكلِ دُخان وكأنها طلقاتٌ نارية كثيرة العدد. كان وقْع أقدامنا عاليًا وحادًّا بينما كنَّا نجُول في حيِّ الأطباء وشارع ويمبول وشارع هارلي، وكذا شارع ويجمور وصولًا إلى شارع أكسفورد. وصلْنا في ربع ساعة إلى بلومزبيري عند نُزُل ألفا، وهو فندقٌ صغير في زاوية أحد الشوارع التي تمتدُّ إلى هولبورن. دفع هولمز باب الحانة الخاصَّة وطلَبَ كوبَين من الجِعة من صاحب المكان ذي الوجه المتورِّد والذي كان يرتدي مِئزرًا أبيض اللون.

قال هولمز: «لا بُدَّ أن تكون جِعتك ممتازةً إذا كانت على نفس القدْر من جودة إوزِّك.»

بدا الرجل مُندهشًا وقال: «إوَزِّي!»

«أجل، لقد كنتُ أتحدَّث منذ نصفِ ساعة مع السيد هنري بيكر، العُضو في نادي الإوزِّ الخاص بك.»

«أوه! أجل فهمتُك، ولكن كما ترى يا سيدي، فإوزَّته لم تكن من عندي.»

«فعلًا! فمنْ كان مصدرها إذن؟»

«حسنًا، لقد حصلتُ على درزينتَين من الإوزِّ من بائعٍ في كوفينت جاردن.»

«حقًّا؟ أعرف بعضهم. من كان البائع؟»

«اسمه بريكينريدج.»

«أوه! لا أعرفه، حسنًا في نخب صحتك الجيدة وازدهارِ نُزُلك أيها المدير، تُصبح على خير.»

قال هولمز: «والآن لنذهب إلى السيد بريكينريدج.» وأردف وهو يُزرِّر معطفه بمجرَّد خروجنا في الأجواء شديدة البرودة: «تذكَّر يا واطسون أنه على الرغم من أنَّ لدَينا شيئًا بريئًا كالإوزَّة من ناحية، فإن لدينا من ناحيةٍ أخرى رجلًا سيُحكم عليه بالتأكيد بالحبس لمدة سبعِ سنواتٍ مع الأشغال الشاقَّة ما لم ننجَحْ في إثبات براءته. من الممكن أن تؤكِّد تحقيقاتُنا أنه مُذنب، ولكن، على أيِّ حال، لدَينا خيطٌ مفقود أغفلَتْه تحقيقاتُ الشرطة، ولقد وقع في أيدينا من قبيل الصدفة. دعنا نتتبَّعه حتى نهايته المريرة. لنتوجَّه جنوبًا إذن بخطوة سريعة!»

مَررْنا عبر هولبورن إلى شارع إيندِل وعبرَ سلسلةٍ من الأحياء الفقيرة إلى سوق كوفينت جاردن. حَملَ واحدٌ من أكشاك البيع الكبيرة اسم بريكينريدج، وكان مالِكُه رجلًا ضخمًا ذا وجهٍ حادٍّ وسوالفَ مُشذَّبةٍ ويُساعد صبيًّا في إغلاق مِصراع المتجر.

قال هولمز: «مساء الخير، إنها ليلةٌ باردة.»

أومأ البائع وألقى نظرةً خاطفة مُتشكِّكة على رفيقي.

أردف هولمز قائلًا: «لقد بيعَتِ الإوزَّات كلها كما أرى.» وأشار إلى الألواح الرخامية الخالية.

«يمكنني أن أبيع لك خمسمائة صباح الغد.»

«هذا لا يُفيد.»

«حسنًا، يُوجَد البعض في هذا الكشك الذي لدَيه شُعلة غاز.»

«أوه، ولكنهم نصحوني بالتوجُّه إليك.»

«من الذي رشَّحني لكَ؟»

«مالكُ نُزُلِ ألفا.»

«أوه، أجل، لقد بِعْتُهُ بضع عشراتٍ منها.»

«لقد كانت طيورًا جيدة أيضًا. من أين حصلتَ عليها؟»

لدهشتي، أثار هذا السؤال موجةً من الغضب في نفس البائع.

قال ورأسه مائلٌ لأحد الجانبَين وذِراعاه موضوعتان على خصره: «حسنًا إذن، ما الذي تقصده يا رجل؟ لنتحدَّث بوضوحٍ الآن.»

«إنني واضح بما يكفي. أودُّ معرفة من الذي باعك الإوزَّ الذي بعتَهُ لنُزُل ألفا.»

«حسنًا، لن أُخبرك. ماذا الآن؟!»

«أوه، إنها مسألةٌ غير مهمة، ولكنني لا أعلم لِمَ يُغضبك أمرٌ تافِه كهذا!»

«لِمَ أنا غاضِب؟! قد تُصبح غاضبًا إذا تعرَّضتَ للإزعاج مِثلي. عندما تدفع مبلغًا جيدًا من المال لتحصُل على سلعةٍ جيدة، فلا بُدَّ أن يتوقَّف الأمر عند هذا الحد، ولكن بدلًا من ذلك، تجد نفسك مُحاصرًا بالأسئلة، «أين الإوز؟» و«لمن بعتَ الإوز؟» و«ما المبلغ الذي تُريده لقاء الإوز؟» عندما يسمع المرء كلَّ هذه الجلَبَة المُثارة حول الإوز، يظنُّ أنه الإوزُّ الوحيد في العالم!»

قال هولمز بلا مُبالاة: «حسنًا، ليست لديَّ أي صِلةٍ بأيِّ أشخاص آخَرين كانوا يستفسرون عن الأمر. إذا لم تُخبرنا، فلن يعود الرهان قائمًا. هذا هو كلُّ ما في الأمر. ولكن فيما يخصُّ الطيور، أنا على استعدادٍ دائم لأن أدعم رأيي، وأراهن بورقة خمسةِ جنيهاتٍ على أنَّ الإوزَّة التي أكلتُها قد تَرَبَّت في الريف.»

سارع البائع قائلًا: «حسنًا، إذن فقد فقدْتَ مَالَك؛ لأنها تَرَبَّت في المدينة.»

«هذا غيرُ صحيحٍ على الإطلاق.»

«بل صحيح.»

«لا أُصدِّق ذلك.»

«هل تعتقد أنك تعرِف عن الطيور أكثر منِّي، أنا من أُربِّيها منذ أن كنتُ طفلًا؟ أقول لك إنَّ كلَّ الطيور التي بيعتْ لنُزُل ألفا قد تربَّت في المدينة.»

«لن تُقنعني أبدًا لأُصدِّق ذلك.»

«هل تُراهن إذن؟»

«ستخسَر مالك فحسْب، لأني أعلم أنني على صواب. ولكني سأُراهنك على جنيهٍ ذهبي فقط لأُلقِّنك درسًا ألا تكون عنيدًا.»

ضحِك البائع بشراسةٍ وقال: «أحضِر ليَ الدفاتر يا بيل.»

أحضَرَ الفتى الصغير دفترًا صغيرًا رفيعًا وآخَرَ ضخمًا ذا ظهرٍ مُشحَّم ووضعهما أسفلَ المِصباح المعلَّق.

قال البائع: «والآن أيها السيد المغرور، كنتُ أظنُّ أنني قد بعتُ الإوزَّ كلَّه، ولكن قبل أن أُغلِق ستجِد أنه لا تزال هناك واحدةٌ فقط. هل ترى هذا الدفتر الصغير؟»

«حسنًا!»

«هذه هي قائمة الأشخاص الذين أشتري منهم. هل ترى؟ حسنًا، هنا في هذه الصفحة القائمة الخاصة بمُورِّدي الريف، والأرقام التي تلي أسماءهم تُشير إلى أماكن سجلَّاتهم في دفتر الحسابات الكبير. والآن! هل ترى هذه الصفحة المكتوبة بالحبر الأحمر؟ حسنًا، هذه قائمة بمورِّدي المدينة الذين أتعامَل معهم. والآن انظر إلى ذلك الاسم الثالث، واقرأه لي فحسْب.»

قرأ هولمز: «السيدة أوكشوت، ١١٧ طريق بريكستون، ٢٤٩.»

«بالضبط. والآن ابحث عن هذا الرقم في دفتر الحسابات الكبير.»

فَتَحَ هولمز الدفتر على الصفحة المُشار إليها وقال: «ها هو المكتوب. السيدة أوكشوت، ١١٧ طريق بريكستون، مُورِّدة بَيض ودواجن.»

«والآن، ما آخِر بندٍ مُسجَّل؟»

«٢٢ ديسمبر، ٢٤ إوزَّة بسعر سبعة شلنات وستة بنسات.»

«بالضبط، ها أنت ذا. وأسفله؟»

«بيعت إلى السيد وينديجيت من نُزُل ألفا مُقابل اثنَي عشر شلنًا.»

«ما الذي ستقوله الآن؟»

بدا هولمز مُحبطًا بشدَّة، وسحب جُنيهًا ذهبيًّا من جَيبه وألقاه على اللَّوح الرُّخامي واستدار وعلى وجهه تعبيرٌ بالامتعاض الشديد الذي لا يمكن أن يصِفه الكلام. وعلى بُعد ياردات قليلة، توقَّف هولمز أسفلَ أحدِ أعمدة الإنارة وضحِك من أعماقه ضحكته الصامِتة التي كانت تُميِّزه.

وقال: «عندما ترى رجلًا سوالِفُه مقصوصة بهذا الشكل وجريدة بينك أون تبرُز من جيبه، فيمكنك دائمًا أن تطرح رهانًا لاستدراجه. أعتقد أنني لو كنتُ قد وضعتُ

مائة جُنيهٍ إسترليني أمام هذا الرجل، لم يكن ليُعطيني معلوماتٍ كاملةً كالتي حَصلتُ عليها منه فقط من خلال إقناعه بأنه يهزمني في رهان. حسنًا يا واطسون، أظنُّ أننا نقترِب من نهاية رحلتنا، والأمر الوحيد الذي علينا تقريره هو ما إذا كان يتعيَّن علينا الذهاب إلى السيدة أوكشوت الليلة أم أن نُرجئ ذلك إلى الغد. واضحٌ مما قاله هذا الرجل الفظُّ أنه يُوجَد آخرون غيرنا يهتمُّون بالأمر، وعليَّ أن …»

قطع كلامه فجأةً صوتُ هرَج ومرَج صاخِب آتٍ من كشك البيع الذي كنَّا قد غادَرْناه لتوِّنا. وعندما استدَرْنا، رأينا رجلًا ثملًا صغير الحجم يقِف في منتصف دائرة الضوء الأصفر الآتي من المِصباح المُتأرجِح، بينما كان بريكينريدج يقِف في باب كُشكِهِ وهو يهزُّ قبضتَيه بقوة في اتجاه الرجل المُنكمِش.

صاح بريكينريدج قائلًا: «لقد ضِقتُ ذرعًا بك وبإوزِّك، أتمنى أن تذهبوا جميعًا إلى الجحيم. إذا أتيتَ لتُضايقني مرَّةً أخرى بكلامك السَّخيف، فسأُطلِقُ كلبي عليك. أحضر السيدة أوكشوت إلى هنا وسأُجيب عليها، ولكن ما علاقتك أنت بالأمر؟ هل اشتريتُ الإوزَّ منك؟»

تأفَّف الرجل الصغير قائلًا: «لا، ولكن إحداها كانت مِلكًا لي.»

«حسنًا، اطلُبها من السيدة أوكشوت إذن.»

«قالت لي أن أطلُبها منك.»

«حسنًا، يمكنك إذن أن تَطلُبها من ملك بروسيا، لا يُهمُّني. لقد نِلتُ كفايتي. أخرج أنفك من هذا الأمر!» ثم هُرِع بقوة إلى الأمام، فرحل السائل بسرعة واختفى في الظلام.

همس هولمز قائلًا: «أوه! قد يوفِّر هذا علينا زيارةً لطريق بريكستون. تعالَ معي وسنرى ما الذي يُمكننا معرفته من هذا الرجل.» ذرَع رفيقي الشارع عبر التجمُّعات المُبعثرة من الناس الذين كانوا يتسكَّعون حول الأكشاك المُضاءة، وسرعان ما لحِقَ بالرجل الصغير ولمَس كتِفَه. وثَبَ الرجل وهو يستدير، وفي ضوء المصباح الغازي، تمكنتُ من رؤية وجهه الذي هربتْ منه الحيوية وصار شاحبًا.

سأل بصوتٍ مُرتعش: «من أنت إذن؟ ما الذي تُريده؟»

قال هولمز بلطف: «مَعذرة، لقد سمعتُ دون قصدٍ الحديث الذي دار بينك وبين البائع الآن، وأعتقِد أنني يمكنني مُساعدتُك.»

«أنت؟ من أنت؟ كيف يمكن أن تعرف أيَّ شيءٍ عن الأمر؟»

«اسمي شيرلوك هولمز، ومهنتي هي أن أعرف ما لا يعرفه الآخرون.»

«ولكن كيف يمكن أن تعرف شيئًا عن هذا الأمر؟!»

«معذرةً ولكني أعرِف كلَّ شيء عنه. إنك تُحاول تتبُّع أَثَر بعض الإوزِّ الذي باعتْه السيدة أوكشوت، من طريق بريكستون، إلى بائعٍ يدعى بريكينريدج، الذي باعه بدَوره إلى السيد ويندجيت من نُزُل ألفا، الذي عَرَضَهم للبيع في ناديه الذي يحمل السيد هنري بيكر عضويته.»

صاح الرجل الصغير بيدَين ممدودتَين وأصابع مُرتعشة: «أوه، إنك مَن كنتُ أتوق للقائه يا سيدي. لا يمكنني أن أصِف لك كم أنا مُهتمٌّ بهذا الأمر.»

نادى هولمز على عربةِ أُجرة كانت تمرُّ وقال: «في هذه الحالة، من الأفضل أن نُناقِش الأمر في غرفةٍ مريحة، وليس في هذه السوق العاصفة، ولكن قبلَ أيِّ شيء، أخبِرْني أرجوك من الذي سأحظى بشرَفِ مُساعدته؟»

تردَّد الرجل للحظةٍ وقال ناظرًا إليه بِطرْفِ عينه: «اسمي جون روبينسون.»

فقال هولمز بلُطف: «لا، لا، اسمك الحقيقي. من الغريب دائمًا العمل مع صاحِب اسمٍ مُستعار.»

تورَّدتْ وجنات الغريب الشاحبة وقال: «حسنًا، اسمي الحقيقي هو جيمس رايدر.»

«بالطبع، كبير خادمي الغُرَف بفندق كوزموبوليتن. استقِلَّ العربة أرجوك، وقريبًا سأُخبرك بكلِّ ما تَودُّ معرفته.»

وَقفَ الرجل الضئيل الحجم وهو يتنقَّل ببصره سريعًا بيني وبين هولمز بمزيجٍ من الخوف والأمل كشخصٍ حائر لا يعرِف ما إن كان على مشارفِ كارثةٍ أم فَرَج، ثمَّ استقل العربة. وفي غضون نصف ساعة كنَّا قد عُدنا إلى غُرفة الجلوس في شارع بيكر. لم يتحدَّث أيٌّ مِنَّا أثناء رحلتنا، إلا أنَّ صوت الأنفاس المرتفع لرفيقنا الجديد، وعقْدَه لِيدَيه ثُمَّ حلَّها مرةً أخرى، كانا يعكسان التوتُّر العصبي الداخلي الذي كان يُعانيه.

قال هولمز بمرح ونحن ندخل الغرفة: «ها نحن ذا! تبدو النار مُناسبةً تمامًا في هذا الجو. يبدو أنك تشعُر بالبرد يا سيد رايدر. تفضَّل بالجلوس على الكرسي الخيزران. سأرتدي شبشبي قبل أن نُسوِّي هذه المسألة الصغيرة التي تخصُّك. والآن إذن! هل تُريد أن تعرف ماذا حلَّ بذلك الإوز؟»

«أجل يا سيدي.»

«أو بالأحرى، كما أعتقد، ما حلَّ بتلك الإوزَّة؟ إنك مُهتمٌّ كما أعتقد بإوزَّةٍ واحدة بعينها؛ إوزَّةٍ بيضاء اللون لها خطٌّ أسود على ذَيلها.»

ارتجفَ رايدر بالحماس وصاح قائلًا: «أوه يا سيدي، هل يمكنك أن تُخبرني أين ذَهبَت؟»

«لقد أتتْ هنا.»

«هنا؟»

«أجل، ولقد اتَّضح كم كانت إوزَّةً غير عادية. لا أتعجَّب لاهتمامك بها فلقد وضعَتْ بيضةً زرقاء بعد مَوتها؛ أجمل وألمع بيضةٍ زرقاءَ صغيرة رأيتُها على الإطلاق. إنها لديَّ هنا في مُتحفي.»

ترنَّح زائرنا واقفًا وأمسك برفِّ المَوقِد بيده اليمنى. فتح هولمز خزانته وأمسك بالجوهرة الزرقاء، التي تَلألأَت كالنجمة وخَرجتْ منها العديد من الأشعَّة المُستدقَّة الباردة البرَّاقة. وقفَ رايدر يُحملق بوجهٍ مُتوتِّر، وكان مُتردِّدًا هل يُطالب بها أم يتبرَّأ منها.

قال هولمز بهدوء: «لقد انتهتِ اللعبة يا رايدر. تماسَكْ يا رجل وإلا ستقع في النار! ساعِدْه ليعود إلى كرسيه مرةً أخرى يا واطسون. إنه لا يمتلك الشجاعة الكافية ليرتكِب جنايةً دون أن يُعاقَبَ عليها. أعطِهِ القليل من البراندي. حسنًا، يبدو أنَّ القليل من الدماء قد سرتْ في عروقه الآن. يا لكَ من شخصٍ ضعيف!»

ترنَّح رايدر للحظة وكاد أن يسقُط، ولكن أعاد البراندي القليل من الحيوية إلى وَجنتَيه، وجلس يُحدِّق بعينَين خائفتَين في الشخص الذي يُوجِّه له الاتهام.

«لديَّ جميع الخيوط في يدي تقريبًا، وجميع الأدلَّة التي قد أحتاجها؛ لذا ليس هناك سوى القليل من الأشياء التي تحتاج إلى أن تخبرني بها. وعلى الرغم من ذلك، نحتاج لاستيضاح هذا القليل لنستكمل القضية. لقد سمعتَ يا رايدر، عن جوهرة الكونتيسة موركار الزرقاء، أليس كذلك؟»

أجاب بصوتٍ مُتحشرِج: «لقد كانت كاثرين كيوساك هي من أَخبرتْني عنها.»

«أجل، خادمة الكونتيسة. حسنًا، لقد كان يصعُب عليك مقاومةُ إغراءِ تحقيقِ ثراءٍ سريع بكلِّ سهولة، كما كان الحال من قبلُ مع رجالٍ آخرينَ أفضلَ منك، ولكنك لم تكن دقيقًا في استغلال الوسائل التي استخدمتَها. يبدو لي يا سيد رايدر أنه ينمو بداخلك جانبٌ شِرِّير بحق؛ فقد كنتَ تعرف أن هذا الرجل، السبَّاك هورنر، قد تورَّط في أمرٍ مُماثل من قبل، وأن أصابع الاتهام ستُوجَّه إليه بلا شك. ما الذي فعلتَه إذن؟ لقد افتعلتَ مشكلةً

صغيرة في غرفة الكونتيسة أنت وشريكتك كيوساك، ونجحتَ في أن يكون هورنر هو من يُرسَل لإصلاح هذه المشكلة. وعندما غادر، سرقتَ عُلبة الحُلي وأعلنتَ عن السرقة وتسبَّبتَ في القبض على هذا الرجل المسكين. وبعد ذلك ...»

ألقى رايدر نفسه فجأةً على السجادة وأمسك بركبتَي هولمز وصرخ قائلًا: «ارحمْني، أرجوك! فكِّر في أبي وفي أمي! سيَفطُر هذا قلبهما. لم أحِدْ عن الطريق الصواب من قبل! ولن أحيدَ عنه بعد ذلك أبدًا، أُقسم على ذلك! أحلِف بالكتاب المقدَّس أنني لن أفعل ذلك. أوه، لا تُحِلِ الأمر إلى القضاء! بحقِّ الربِّ لا تفعل!»

قال هولمز بصرامة: «عُد إلى كرسيك! إنه الوقت المناسب لتتذلَّل وتركع، ولكنك لم تُفكِّر كثيرًا في هورنر المسكين الذي يقبَعُ خلف قفصِ الاتهام لجريمةٍ لا يعرف شيئًا عنها.»

«سأهرُب يا سيد هولمز. سأُغادر البلد يا سيدي. عندئذٍ، ستسقُط التهمة الموجَّهة ضدَّه.»

«هممم! سنتحدَّث عن ذلك، والآن لتُخبرنا بالقصَّة الحقيقية لما حدَث بعد ذلك. كيف وصلتِ الجوهرة إلى داخلِ حوصلة الإوزَّة؟ وكيف وصلتِ الإوزَّة إلى السوق؟ أخبِرْنا بالحقيقة؛ إذ إنها أمَلُكَ الوحيدُ في النجاة.»

مرَّر رايدر لِسانه على شفتَيه الجافَّتَين وقال: «سأحكي الأمر تمامًا كما حدث يا سيدي: عندما اعتُقِلَ هورنر، بدا لي أنه من الأفضل لي أن أهرُب بالجوهرة على الفور؛ لأنني لم أكن أعرِف في أي لحظةٍ ستُقرِّر الشرطة أن تُفتِّشني وتفتِّش غرفتي. لم يكن هناك أي مكانٍ آمِنٍ في الفندق؛ لذا خرجتُ، كما لو كنتُ في مُهمَّةٍ ما، وتوجهتُ لمنزل أختي. كانت قد تزوَّجَت من رجلٍ يُدعى أوكشوت وكانت تعيش في طريق بريكستون حيث كانت تقوم بتسمين الطيور لبيعها في السوق. وطَوالَ طريقي إلى منزلها، بدا لي وكأن كلَّ رجلٍ قابلتُه كان شرطيًّا أو مُحققًا، وبالرغم من أنها كانت ليلةً باردة، فقد كُنت أتصبَّب عرقًا قبل أن أصِل إلى طريق بريكستون. سألَتني أختي ما الخطبُ وأَرادَت أن تعرف سبب شحوبي، ولكنَّني أخبرتها أنني كنتُ أشعُر بالضِّيق من واقعةِ سرقةِ الجوهرة بالفندق. بعد ذلك، ذهبتُ إلى الفِناء الخلفي ودخَّنتُ غليونًا وفكرتُ فيما يمكن أن يُعد التصرُّف الأفضل.

فيما مضى كان لي صديق يُدعى مودزلي، وهو الذي سلك طريق السوء، وحُكم عليه وقضى مدة عقوبته في سجن بينتونفيل. قابلني في أحد الأيام بعد أن خرج من السجن، وتحدَّث عن حِيل اللصوص وكيف ينجحون في التخلُّص مما سرقوه. كنتُ أعلم أنه سيكون صادِقًا معي؛ لأنني كنتُ أعرف عنه بعض المعلومات؛ لذا قررتُ أن أتوجَّه مباشرةً إلى

كيلبيرن حيث يسكن، وأن أُطلِعه على أمري. كان سيُعلِّمني كيف يمكنني تحويلُ الحجَر الكريم إلى مال، ولكن كيف يمكنني أن أصل إليه بأمان؟ فكرتُ في المعاناة التي مررتُ بها منذ خروجي من الفندق وفي أنهم قد يُوقفونَني في أي لحظة ويفتِّشونني ويجدون الجوهرة في جيب صدريتي. كنتُ أَستنِد على الحائط في ذلك الوقت وأنظُر إلى الإوزِّ الذي كان يتجوَّل حول قدَمي، وفجأة، واتتْني فكرةٌ ظننتُ أنني من خلالها يمكنني التغلُّب على أفضلِ المحقِّقين على الإطلاق.

أخبرتْني أختي قبل بضعةِ أسابيع أنني يُمكنني اختيار إوزَّة من إوزِّها كهدية عيد الميلاد، وكنتُ أعرف أنها تُوَفِّي بوعودها دائمًا. كنتُ سآخُذ إوزَّتي الآن وأضع فيها الجوهرة واتَّجه إلى كيلبيرن. كانت تُوجَد حظيرةٌ صغيرة في الفناء، ومن الجزء الخلفي منها، سُقْتُ إحدى الإوز، وكانت إوزَّةً كبيرة بيضاء ذات ذيلٍ مُخطَّط. أمسكتُ بها وفتحتُ مِنقارها ودسَسْتُ الجوهرة أسفل حلقِها إلى أبعد نقطة تَمكَّن إصبعي من الوصول إليها. ابتلَعتِ الإوزَّة الجوهرة وشعرتُ بها وهي تهبط بطولِ حلقِها وتستقرُّ في حوصلتها، ولكنها ظلَّت تُرفرف وتُقاوم، فخرجَتْ أختي لترى ما الخطب. وبينما كنتُ أستدير لأتحدَّث إليها، أفلتتِ الإوزَّة من يدي ورفرفَتْ وانضمَّتْ إلى باقي الإوز.

سألتْني أختي قائلة: «ما الذي كنتَ تفعله بهذه الإوزَّة يا جيم؟»

قلت: «حسنًا، لقد قلتِ إنكِ ستُعطينني واحدةً كهديةِ عيد الميلاد، وكنتُ أنظُر أيُّها أسمن.»

قالت: «أوه، لقد خصَّصنا إوزة لك؛ إوزة جيم، هكذا نُسمِّيها. إنها البيضاء الكبيرة هناك. يُوجَد ستةٌ وعشرون منها؛ واحدةٌ لك، وواحدةٌ لنا، ودرزينتان للسُّوق.»

قلت: «شكرًا لكِ يا ماجي، ولكن بما أن الأمر سيانِ بالنسبة إليكِ، فأنا أُفضِّل الحصول على الإوزَّة التي كنتُ أُمسِكها للتو.»

قالت: «الأخرى أثقَلُ ثلاثة أرطال، لقد سَمَّنَّاها أكثر من أجلك.»

قلت: «لا يهم، سآخُذ الأخرى، وسآخُذها الآن.»

قالت بشيءٍ من الحنَق: «أوه، كما تحب. أي إوزَّة تُريد إذن؟»

«البيضاء هذه ذات الذيل المُخطَّط، التي تُوجَد في وسط السِّرب تمامًا.»

«أوه، حسنًا. اذبحْها وخُذها معك.»

حسنًا، لقد فعلتُ كما قالت يا سيد هولمز، وحملتُ الإوزَّة معي إلى كيلبيرن. أخبرتُ رفيقي بما فعلتُه؛ فقد كان من السهل أن أُخبر رجلًا مثله بشيءٍ كهذا، فضحِك حتى كاد أن يختنِق، وأحضرْنا سكينًا وشققْنا الإوزَّة. ولكني فَزِعتُ عندما لم أجد أيَّ أثرٍ للجوهرة، وأدركتُ أن خطأً فادحًا قد وقع. فتركتُ الإوزَّة وعُدتُ إلى أختي وهُرِعْتُ إلى الفناء الخلفي، ولكنني لم أجد إوزةً واحدة هناك.

صحتُ قائلًا: «أين الإوزُّ يا ماجي؟»

«لقد بعناه إلى التاجر يا جيم.»

«أيُّ تاجر؟»

«بريكينريدج، في كوفينت جاردن.»

سألتُها: «ولكن هل كانت تُوجَد إوزَّةٌ أخرى لها ذيلٌ مُخطَّط تمامًا كالإوزَّة التي اخترتُها؟»

«أجل يا جيم، كانت تُوجَد إوزَّتانِ ذواتا ذَيلَين مُخطَّطين، ولم أتمكَّن قَطُّ من التفرقة بينهما.»

حسنًا، بالطبع فهمتُ ما حدَث، وركضتُ بأسرعِ ما يمكن لقدَمي تَحمُّله إلى هذا الرجل الذي يُدعى بريكينريدج، ولكنه كان قد باع الإوزَّ كله جملةً واحدة، ورفض أن يُخبرني ولو كلمةً واحدة عمَّن اشتراه. لقد سَمِعتُماه بأنفُسِكما الليلة، لقد كان دائمًا ما يُجيبني على هذا النحو. تعتقد أختي أنني سأُصاب بالجنون، وأحيانًا أعتقد أنا نفسي ذلك. والآن، والآن فقد أصبحتُ مَوصومًا بالسرقة دون أن تمسَّ يداي حتى الثروةَ التي بِعتُ مُقابلَها سُمعَتي. ليُساعدني الرَّب! ليُساعدني الرَّب!» وانفجر في نوبةِ بكاءٍ مُتشنِّج ووجهُه مدفون بين يدَيه.

عمَّ الصمتُ طويلًا، ولم يكسِره سوى صوتِ تنفُّسه الثقيل والنقْر المنتظِم لأطراف أصابع هولمز على حافةِ الطاوِلة، ثم نهض هولمز وفتح الباب وقال: «اخرج!»

«ماذا! يا سيدي! أوه، فليُباركك الرَّب!»

«كفاك كلامًا. اخرج!»

وبالفعل لم يكن هناك حاجةٌ للمزيد من الكلام. هُرع رايدر مُندفعًا، وسُمِع صوت جلَبة على السُلَّم وصفقة بابٍ وصوتُ وقْعِ أقدامٍ تجري في الشارع.

قال هولمز وهو يمدُّ يدَه ليُحضر غليونه المصنوع من الفخَّار: «على أيِّ حالٍ يا واطسون، لم تُوكِّلني الشرطة لأسُدَّ أوجُهَ القصور لدَيها. لو كان هورنر في خطر،

لأصبح الوضع مختلفًا، ولكن هذا الرجل لن يشهد ضدَّه، وستنهار القضية. أعتقِد أنني أُخفِّف العقوبة في إحدى الجنايات، ولكني بذلك قد أُنقذ رُوحًا من الهلاك. لن يرتكب هذا الرجل أيَّ خطأٍ آخر؛ فهو مُرتعبٌ للغاية. إذا دخل السجن الآن، فسيُصبح مجرمًا مدى الحياة. وإلى جانبِ ذلك، فهذا الموسم هو موسم المغفرة. لقد وضعَتِ الصدفة في طريقنا قضيةً غريبة وفريدة من نوعها، وحلُّها هو جائزتها. لو تفضَّلتَ بقرْع الجرس يا واطسون، فسنبدأ تحقيقًا آخرَ سيلعب فيه طائرٌ أيضًا دورًا أساسيًّا.»

مغامرة العصابة الرقطاء

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
زينب عاطف

مراجعة
محمد فتحي خضر



مغامرة العصابة الرقطاء

حين ألقيتُ نظرةً خاطفةً على القضايا السبعين الغريبة التي درستُ من خلالها، على مدار السنوات الثماني الماضية، أساليب صديقي شيرلوك هولمز، وجدتُ أن كثيرًا منها مأساوي، وبعضها كوميدي، وعددًا كبيرًا منها غريبٌ فحسب، لكن لم يكن أيٌّ منها عاديًّا؛ لأنه نظرًا لاضطلاعه بهذا العمل حُبًّا في فنه أكثر من تحصيل الثروة، كان يرفض الانضمام إلى أيِّ تحقيق لا يتسم بطابع الغرابة، بل والعجب. ومع ذلك، من بين كل هذه القضايا المتنوعة، لا يمكنني تذكُّر أيِّ قضية بها من السِّمات الفريدة أكثر من قضية عائلة رويلوت الشهيرة من ستوك موران في مقاطعة سَري. وقعت أحداث هذه القضية في بداية معرفتي بهولمز، حين كنا نعيش كعازبَين في شقة مشتركة في شارع بيكر. كان بإمكاني تدوينها في سجلاتي قبل هذا، ولكني أقسمتُ على السِّرية في حينها، ولم أتحرر من هذا القَسم إلا الشهر الماضي مع الوفاة المفاجئة للسيدة التي تعهدتُ لها به. ولعل من الأفضل أيضًا خروج هذه الحقائق للنور؛ إذ تبادر إلى علمي انتشار شائعات بشأن وفاة الدكتور جريمسبي ويلوت، وهي تجعل المسألة تبدو أسوأ من حقيقتها.

كنا في بداية شهر أبريل من عام ١٨٨٣، واستيقظتُ من نومي لأجد شيرلوك هولمز واقفًا بجوار سريري مرتديًا ملابسه بالكامل. كان من عادته الاستيقاظ متأخرًا، إذ كان هذا إحدى قواعده، وظهر لي من الساعة الموجودة على رفِّ الموقد أنها لم تتعدَّ السابعة والربع، فنظرتُ إلى الأعلى إليه ورمشتُ له بعينيَّ في نوع من الدهشة، وربما قليل من الاستياء؛ لأني كنتُ منتظمًا في عاداتي أيضًا.

قال لي: «آسف للغاية لأني أيقظتُك يا واطسون، لكنه قدرُنا المشترك هذا الصباح. فقد استيقظت السيدة هادسون وهرعت إليَّ، وهرعتُ أنا إليك.»

«ماذا حدث إذن، حريق؟»

«لا، عميل. فيبدو أن سيدة شابة وصلت في حالة من الإثارة البالغة، وتُصر على مقابلتي، وهي تنتظر الآن في غرفة الجلوس. وعندما تتجول سيدات شابات في العاصمة في هذه الساعة من الصباح، ويوقظن أشخاصًا نائمين من نومهم، أفترض أن ثمة أمرًا مُلحًّا للغاية عليهن الإبلاغ عنه. وإن اتضح أنها قضية مثيرة للاهتمام، فأنا متأكد من أنك سترغب في متابعتِها من البداية. ظننت أن عليَّ إيقاظك، على أيِّ حال، وإعطاءك هذه الفرصة.»

«يا صديقي العزيز، ما كنتُ لأُفوِّت هذه الفرصة بأيِّ ثمن.»

كنتُ أجد أقصى سعادتي في اتباع هولمز في تحقيقاته المهنية، والإعجاب باستنتاجاته السريعة، التي تتبادر إليه في سرعة الأفكار البديهية، لكنها دومًا ما كانت ترتكز على أساس منطقي يستخدمه في حلِّ المشكلات التي تُوكَل إليه. ارتديتُ ملابسي سريعًا وأصبحتُ جاهزًا في غضون دقائق قليلة لمرافقة صديقي إلى غرفة الجلوس في الأسفل. وعند دخولنا الغرفة، قامت سيدة مُتَّشحة بالسواد، وتُغطي وجهها بالكامل، من مجلسها بجوار النافذة.

قال هولمز بمرح: «صباح الخير يا سيدتي. أنا اسمي شيرلوك هولمز، وهذا صديقي العزيز وزميلي الدكتور واطسون، ويمكنكِ الحديث أمامه بحُرية تمامًا مثلما تتحدثين إليَّ. هاه! يُسعدني أن أرى أن السيدة هادسون قد تصرفت بحكمة وأشعلت النار. أرجوكِ، عليكِ الاقتراب منها، وأنا سأطلب لكِ كوبًا من القهوة الساخنة، إذ أرى أنكِ ترتجفين.»

قالت المرأة بصوتٍ منخفض، وهي تغير مقعدها كما طلب منها هولمز: «ليس البرد هو ما أرتجف منه.»

«مِمَّ إذن؟»

«من الخوف يا سيد هولمز، من الرعب.» هنا رفعت الخِمار عن وجهها وهي تتحدث، فاستطعنا رؤية أنها بالفعل في حالة يُرثى لها من الانفعال؛ فكان وجهها شاحب اللون وبدا عليه الإعياء، وترى في عينيها جزعًا وخوفًا، كالذي تراه في عينَي حيوان مُطارَد. كانت ملامحها وهيئتها تنُمَّان عن سيدة في الثلاثينيات من عمرها، لكن غزا شعرَها لونٌ رمادي سابق لأوانه، ودلت تعبيرات وجهها على التعب والإرهاق. تفحَّصَها شيرلوك هولمز بإحدى نظراته السريعة والشاملة.

قال مهدئًا لها، وهو ينحني إلى الأمام ويُربِّت على ساعدها: «لا تخافي، فأنا متأكد أننا سنُعيد الأمور إلى نِصابها في أسرع وقت. أرى أنكِ حضرتِ بالقطار إلى هنا.»

«أنتَ تعرفني إذن؟»

«لا، ولكني لاحظتُ النصف الثاني من تذكرة العودة في راحة قفازك الأيسر. لا بدَّ أنكِ بدأتِ رحلتك مبكرًا، ومع ذلك قطعتِ مسافة طويلة في عربة تجُرها الكلاب، في طرق وعرة، قبل الوصول إلى محطة القطار.»

انتفضت السيدة بقوة وحدَّقت في صديقي في ذهول.

قال صديقي مبتسمًا: «هذا واضح تمامًا، يا سيدتي العزيزة؛ فقد تناثر الطمي على الذراع اليُسرى لسُترتِك في سبعة مواضع على الأقل. وهذه الآثار ما زالت حديثة تمامًا. ولا توجد مركبة تبعثر الطمي على هذا النحو إلا العربة التي تجرها الكلاب، وهذا لا يحدث إلَّا إن جلس المرء على يسار السائق.»

قالت السيدة: «أيًّا كانت حُجَجك فأنت محقٌّ تمامًا؛ فقد بدأتُ رحلتي من المنزل قبل السادسة، ووصلتُ إلى ليذرهيد في السادسة والثُّلث، ووصلتُ إلى هنا بأول قطار مُتَّجه إلى ووترلو. سيدي، أنا لم أَعُد أُطيق الاحتمال أكثر من هذا؛ فسأجنُّ إن استمر هذا الوضع. ولا أحد ألجأ إليه، لا أحد، فيما عدا شخصًا واحدًا يهتم لأمري، وليس في وسع هذا المسكين مساعدتي بشيء. وسمعتُ عنك يا سيد هولمز، سمعتُ عنك من السيدة فارينتوش التي ساعدتها عندما كانت في أمسِّ حاجة للمساعدة. فحصلتُ منها على عنوانك. آه يا سيدي، أترى أن بإمكانك مساعدتي أنا أيضًا، وعلى الأقل أن تشع بعض الضوء في الظلام الحالك الذي يحيط بي؟ ليس باستطاعتي في الوقت الحالي مكافأتك نظير خدماتك، لكنني في غضون شهر أو ستة أسابيع سأتزوج، وسأكون مُتحكِّمة في دخلي الخاص، وعلى الأقل عندها لن تجدني ناكرة لمعروفك.»

استدار هولمز واتجه نحو مكتبه، وفتحه وأخرج منه دفترًا صغيرًا للقضايا، وبحث فيه.

قال: «فارينتوش، آه نعم، أذكر هذه القضية، كانت تتعلق بتاج من العقيق. أعتقد أنها كانت قبل معرفتي بك يا واطسون. لا يسعني إلا أن أقول لكِ يا سيدتي إنني سأعطي لقضيتكِ الاهتمام نفسه الذي أعطيته لقضية صديقتكِ. وأما عن المكافأة، فمهنتي هي مكافأتي الحقيقية، لكن لكِ الحرية في تعويضي عما أُضطر إلى دفعه من نفقات في الوقت الملائم لكِ. والآن رجاءً أخبرينا بكلِّ شيءٍ من شأنه أن يساعدنا في تكوين رأيٍ عن القضية.»

ردت زائرتنا قائلة: «وا أسفاه! إن المُفزع في وضعي هو حقيقة أن مخاوفي مبهمةٌ للغاية، وتعتمد شكوكي بالكامل على أشياء صغيرة للغاية، ربما تبدو تافهة لأيِّ شخص آخر، حتى إن الشخص الوحيد الذي لديَّ الحق في اللجوء إليه، بحثًا عن العون والنصيحة، اعتبر كل ما أُخبره به أوهام امرأة متوترة. وبينما لم يخبرني بهذا صراحةً، فإني استطعتُ

استنباطه من إجاباته المهدئة وعينيه اللتين أشاح بهما عني. لكني سمعتُ يا سيد هولمز أنك تستطيع سبر غور الشر المُتشعب في النفس البشرية. فربما يمكنك نصحي وإرشادي لطريقة أستطيع بها السير وسط الأخطار المحيطة بي.»

«كلي آذان صاغية يا سيدتي.»

«اسمي هيلين ستونر، وأنا أعيش مع زوج والدتي، وهو آخر المنتمين لواحدة من أقدم الأُسر السكسونية في إنجلترا، وهي أسرة رويلوت من ستوك موران، التي تقع على الحدود الغربية لمقاطعة سَري.»

أومأ هولمز برأسه، وقال: «هذا الاسم مألوف لي.»

واصلتْ حديثها قائلة: «كانت هذه الأسرة من أغنى الأُسر في وقتٍ من الأوقات في إنجلترا، وامتدت ضيعاتُها عبر الحدود وصولًا إلى باركشير في الشمال، وهامبشير في الغرب. إلا أنه عبر القرن الماضي، تعاقب في الأسرة أربعة ورثة لديهم نزعة ماجنة ومُبذرة، واكتمل دمارُ الأسرة في النهاية على يد مُقامر في عصر الوصاية على العرش. لم يبقَ شيءٌ إلا بضعة أفدنة من الأراضي، ومنزل عمره مائتا عام مرهون بمبلغ كبير. قضى آخر سكواير حياته في هذا المنزل، حيث عاش حياة الأرستقراطي الفقير المريرة، لكن ولده الوحيد — زوج والدتي — من منطلق إدراكه لضرورة التكيف مع الظروف الجديدة، حصل على قرض من أحد أقاربه، مكَّنه من الحصول على درجة جامعية في الطب والذهاب إلى كلكتا، حيث استطاع بمهارته العملية وقوة شخصيته إنشاء عيادة كبيرة. إلا أنه في نوبة من الغضب نتجت عن بعض السرقات التي حدثت في المنزل، ضَرَب كبير الخدم الهندي حتى الموت، وأفلت بأعجوبة من عقوبة الإعدام. والواقع أنه عانى من السجن لفترة طويلة وبعدها عاد إلى إنجلترا وهو إنسانٌ مكتئبٌ ومحبط.

حين كان الدكتور رويلوت في الهند تزوَّج من والدتي، السيدة ستونر، الأرملة الشابة للواء ستونر في سلاح المدفعية البنغالي. أنا وأختي جوليا توءمان وكنا في الثانية من عمرنا عندما تزوجت والدتنا لمرة أخرى. كانت أمنا تمتلك مبلغًا كبيرًا من المال — لم يكن دَخْلُها يقل عن ألف جنيه إسترليني في السنة — ووضعتْه بالكامل تحت تصرف الدكتور رويلوت حين أقمنا معه، شريطة حصول كلٍّ واحدة منا على مبلغٍ سنويٍّ محدَّد في حال زواجنا. ولم يمضِ وقتٌ طويل على عودتنا إلى إنجلترا حتى تُوفِّيت والدتي؛ إذ قُتلت منذ ثمانية أعوام في حادث قطار بالقرب من مدينة كرو. عندئذٍ تخلَّى الدكتور رويلوت عن محاولاته لإثبات نفسه في مزاولة الطب في لندن وأخذَنا لنعيش معه في منزل أجداده القديم في

ستوك موران. كان المال الذي تركتْه والدتنا كافيًا لتلبية كافة احتياجاتنا، ولم يبدُ أن ثمة عائقًا أمام سعادتنا.

إلا أن تغيرًا رهيبًا اعترى زوج والدتنا في هذه الفترة؛ فبدلًا من إقامة صداقات مع جيراننا وتبادل الزيارات معهم، وهم الذين سعدوا للغاية في البداية بعودة أحد أفراد عائلة رويلوت إلى منزل العائلة القديم في ستوك موران، انغلق على نفسه في منزله ولم يكن يخرج إلا نادرًا لينخرط في مشاجراتٍ عنيفةٍ مع أيِّ شخصٍ يعترض طريقه. إن الطبع العنيف الذي يقترب من حدِّ الجنون وراثيٌّ في رجال عائلته، وأعتقد أنه في حالة زوج والدتي زاد بفعل إقامته لفترة طويلة في المناطق الاستوائية. حدثت سلسلة من المشاجرات المخزية، انتهت اثنتان منها أمام الشرطة، حتى أصبح في النهاية مصدرًا للرعب في القرية، ويهرب الناس عند رؤيته، فهو رجل ذو قوة هائلة، وغضب لا يُسيطر عليه على الإطلاق.

في الأسبوع الماضي دفع حَدَّاد القرية من فوق حاجز الجسر فسقط في المجرى المائي، ولم أستطع تجنُّب فضيحة علنية أخرى إلا بدفعي له كل ما تمكنتُ من جمعه من مال. لم يكن لديه أصدقاء على الإطلاق فيما عدا مجموعة من الغجر الرَّحَّالة، وقد سمح لهؤلاء المتشردين بالتخييم في الأفدنة القليلة المغطاة بالعُليق التي تُمثل ضيعة الأسرة، ونظير هذا كانوا يستضيفونه في خيامهم، وكان يتجوَّل بعيدًا معهم أحيانًا لأسابيع متتالية. كما أن لديه شغفًا بالحيوانات الهندية، التي يرسلها إليه شخص يراسله، ويملك في الوقت الحالي فهدًا وقرد بابون، يتجوَّلان بحُرية في الأرض ويخاف منهما أهالي القرية تمامًا كخوفهم من مالكِهما.

يمكنك أن تتخيل مما قلته أنني وأختي جوليا المسكينة لم يكن لدينا أيُّ متعة كبرى في حياتنا؛ فلم يكن أي خادم يبقى عندنا، ولوقت طويل ظللنا نقوم بكافة أعمال المنزل بأنفسنا. ولم تكن أختي قد جاوزت الثلاثين من عمرها عند وفاتها، ومع ذلك فكان شعرها قد بدأ بالفعل يتحوَّل إلى اللون الأبيض، تمامًا كحال شعري.»

«إذن فقد تُوفِّيت أختك؟»

«تُوفِّيت منذ عامين فقط، وأريد الحديث عن واقعة وفاتها. يمكنك أن تتفهم أن في نمط الحياة التي شرحتها لتوِّي كان من غير المرجح بشدة أن نتعرف على أيِّ شخصٍ في نفس عمرنا ومكانتنا. ومع ذلك فقد كان لدينا خالة، وهي أخت غير متزوجة لوالدتنا، تُدعَى الآنسة أونوريا ويستفيل، تعيش بالقرب من مدينة هارو، وكان مسموحًا لنا بزيارتها بين الحين والآخر زيارات قصيرة في منزلها. ذهبت جوليا إلى هناك في الكريسماس منذ عامين،

والتقت برائد في البحرية يتقاضى نصف أجر، وخُطبت له. عَلِم زوج والدتي بالخطبة عند عودة أختي ولم يُعارض الزيجة بأيٍّ شكل، لكن قبل أسبوعين من اليوم المحدد للزفاف، وقع الحادث المريع الذي حرمني من رفيقتي الوحيدة في الحياة.»

كان شيرلوك هولمز مستلقيًا إلى الخلف في مقعده وعيناه مغلقتان ورأسه يغوص في الوسادة، لكنه فتح فمه نصف فتحة وأمعن النظر في زائرته.

قال لها: «أرجو إخبارنا بالتفاصيل بدقة.»

فردَّت قائلة: «من السهل عليَّ فعل هذا، فكل حدثٍ من أحداث هذا الوقت العصيب محفور في ذاكرتي. إن بيت المزرعة، كما أخبرتكما، قديم للغاية، ولم يَعُد إلا جناح واحد منه صالحًا للسكن الآن. تقع غرف النوم في هذا الجناح في الطابق الأرضي، بينما تقع غرف الجلوس في وسط المبنى. وغرف النوم هي كالآتي: أولًا غرفة الدكتور رويلوت، ثم غرفة أختي، والغرفة الثالثة هي غرفتي. لا وجود لاتصال بينها لكنها كلها تفتح على الممر نفسه، هل كلامي واضح؟»

رد عليها: «تمامًا.»

«تطل نوافذ الغرف الثلاث على الحديقة. وفي هذه الليلة المشئومة ذهب الدكتور إلى غرفته مبكرًا، مع أننا عرفنا أنه لم يذهب إليها للنوم؛ إذ كانت أختي منزعجة من الرائحة القوية لسيجاره الهندي الذي اعتاد تدخينه؛ ولذلك تَركَت غرفتها وجاءت إلى غرفتي حيث جلست لبعض الوقت تتحدث معي حول زفافها الذي اقترب موعده. وفي تمام الحادية عشرة نهضت لتغادر، لكنها وقفت عند الباب ونظرت إلى الخلف وقالت:

«أخبريني يا هيلين، ألم تسمعي قطُّ أحدًا يُصفِّر عند منتصف الليل؟»

فرددت عليها: «مطلقًا.»

فقالت: «أعتقد أنكِ لا تستطيعين التصفير في أثناء نومك.»

«بالطبع نعم، لكن لماذا؟»

«لأنني كنت أسمع دومًا في الليالي القليلة الماضية، عند الثالثة صباحًا تقريبًا، صوتَ صفيرٍ واضح. وأنا نومي خفيف، فكان هذا الصوت يوقظني. لا يمكنني تحديد من أين يأتي بالضبط، ربما من الغرفة المجاورة، وربما من الحديقة. ففكرتُ أن أسألكِ إن كنتِ قد سمعتِه.»

«لا، لم أسمعه، لا بد أنه صادر من هؤلاء الغجر البائسين في الحقول.»

«احتمال كبير، لكن إن كان قادمًا من الحديقة، فلماذا لم تسمعيه أنتِ أيضًا؟»

«آه، لكني لا أستيقظ بسهولة مثلك.»

«حسنًا، على أيِّ حال ليس للأمر عواقب وخيمة.» وابتسمت لي وأغلقت الباب، وبعدها ببضع دقائق سمعتها تغلق الباب بالمفتاح.»

قال هولمز: «صحيح، هل كان من عادتكما إغلاق الباب بالمفتاح على أنفسكما في الليل؟»

«دومًا.»

«لماذا؟»

«أعتقد أني ذكرت لكما أن الدكتور يحتفظ بفهدٍ وقرد بابون في المنزل، ولم نكن نشعر بالأمان إلا إذا أغلقنا الأبواب على أنفسنا بالمفتاح.»

«الأمر كذلك إذن، أرجوكِ أكملي حديثك.»

«لم أستطع النوم في تلك الليلة، وانتابني شعور غامض باقتراب وقوع حدث مشئوم. كما تذكر فأنا وأختي توءمان، وكما تعلم ثمة روابط خفية بين رُوحَين تجمعهما مثل هذه الرابطة الوثيقة. كانت هذه الليلة موحشة؛ فكانت الريح تعصف بالخارج، والأمطار تتساقط وتضرب بقوة على النوافذ. وفجأة، وسط كلِّ صخب الرياح العاتية، انطلقت صرخة مروعة لامرأة مذعورة، وعلِمتُ أنه صوتُ أختي. انتفضتُ من سريري، وتلفحتُ بشال، وهرعتُ إلى الممر. وعندما فتحتُ باب غرفتي سمعتُ صوتَ صفيرٍ منخفض، مثل ذلك الذي وصفتْه لي أختي، وأعقبه بعد بضع لحظات صوتُ جَلْجَلة، كما لو أن كتلة من المعدن سقطت. وحينما ركضت إلى آخر الممر، وجدتُ باب غرفة أختي مفتوحًا، ويتأرجح ببطء حول مفصلاته. نظرتُ إليه والخوف يعتريني؛ إذ لم أكن أدري ما الذي على وشك الخروج منه. وفي ضوء مصباح الممر رأيتُ أختي وهي تخرج من فتحة الباب، ووجهها شاحب من الهلع، ويداها تتحسَّسان الأشياء بحثًا عن مساعدة، وجسمها كله يترنَّح إلى الأمام والخلف مثل السِّكِّير. هرعتُ إليها وأحطتها بذراعيَّ، لكن في هذه اللحظة يبدو أنَّ ركبتَيها لم تستطيعا احتمال الأمر أكثر من هذا فسقطتْ على الأرض. صارت تتلوَّى كالذي يُعاني مِن ألمٍ بالغ، وتشنَّجت أطرافها تشنجًا مُروعًا. في البداية اعتقدتُ أنها لم تتعرف عليَّ، لكن عندما انحنيت فوقها صرخت فجأة بصوت لا يمكنني نسيانه أبدًا وقالت: «يا إلهي! هيلين! إنها العصابة! العصابة الرقطاء!» ثمة شيءٌ آخر أرادت قوله، ومدت إصبعها في الهواء مشيرةً باتجاه غرفة الدكتور، لكنها أُصيبت بتشنج آخر خنق الكلمات في فمها. انطلقتُ أنادي بصوت مرتفع على زوج والدتنا، وقابلته وهو يخرج مسرعًا من غرفته في

رداء النوم. حين وصل إلى أختي كانت قد غابت عن الوعي، وعلى الرغم من أنه سكب الخمر في حلقِها وأرسل طلبًا للمساعدة الطبية من القرية، ذهبت كل الجهود سُدًى؛ إذ تدهورت حالها ببطءٍ وتُوفِّيت دون أن تستعيد وعيها. وهكذا كانت النهاية المُروعة لأختي الحبيبة.»

قال هولمز: «لحظة واحدة، هل أنتِ متأكدة من صوت الصفير والجلجلة هذا؟ أيمكنك القَسَم على ذلك؟»

«هذا ما سألني عنه محقق الوفيات في المقاطعة عند التحقيق في القضية، وأنا لديَّ شعورٌ قويٌّ بأني سمعته بالفعل، ومع ذلك ربما تعرضتُ وسط صوت هبوب الرياح وصرير المنزل القديم للخداع.»

«هل كانت أختك ترتدي ملابس الخروج؟»

«لا، كانت ترتدي ملابس النوم، وعُثر في يدها اليمنى على عقب ثقاب محروق، وفي يدها اليسرى على عُلبة ثقاب.»

«يُشير هذا إلى إشعالها للضوء ونظرها حولها عندما حدث ما أفزعها. هذا أمر مهم، وماذا كانت استنتاجات المحقق في القضية؟»

«لقد حقَّق في القضية بعناية بالغة؛ نظرًا لذيوع سوء سلوك الدكتور رويلوت منذ وقتٍ طويلٍ في المقاطعة، لكنه لم يتمكن من العثور على أيِّ سببٍ مقنع للوفاة. وأظهرت إفادتي أن الباب كان موصدًا من الداخل، وأن النوافذ مُزوَّدة بمصاريع قديمة الطراز وقضبان حديدية عريضة وتُغلَق كل ليلة. خضعت الجدران للفحص الدقيق، واتضح أنها سليمة تمامًا في كل أجزائها، وتعرضت الأرضيات أيضًا للفحص، ونتج عن الفحص النتيجة نفسها؛ ومِن ثَمَّ تأكد أن أختي كانت بمفردها تمامًا عندما لقيتْ حتفها. وبالإضافة إلى هذا، لم تظهر أيُّ آثار للعنف على جسدها.»

«وماذا عن السُّم؟»

«فحصها الأطباء بحثًا عنه، لكن دون جدوى.»

«ماذا في اعتقادك إذن أدَّى إلى وفاة هذه المرأة البائسة؟»

«أعتقد أنها ماتت من الخوف المحض والصدمة العصبية، على الرغم من عدم قدرتي على تخيل الشيء الذي أخافها إلى هذا الحد.»

«وهل كان الغجر في المَزارع في هذا الوقت؟»

«أجل، فيوجد بعضٌ منهم هناك طوال الوقت تقريبًا.»

«حسنًا، وماذا فهمتِ من هذه الإشارة إلى العصابة، العصابة الرقطاء؟»

«أحيانًا أفكر في الأمر أنه حديث غريب لشخص يهذي، وأحيانًا أفكر في أنها تُشير إلى عصابة من الناس، وربما إلى هؤلاء الغجر الموجودين في الحقول. فأنا لا أعلم ما إذا كانت المحارم المرقطة التي يرتديها كثير منهم على رءوسهم هي السبب في هذه الصفة الغريبة التي استخدمتها.»

هزَّ هولمز رأسه كشخصٍ لم يقنعه هذا التفسير.

ثم قال: «هذا أمر شائك، أرجوكِ أكملي حديثك.»

«مرَّ عامان على هذه الحادثة، وعشتُ في وحدة لا نظير لها حتى وقت قريب. لكن منذ شهر مضى شَرَّفني صديقٌ عزيزٌ عليَّ، امتدت معرفتي به لسنوات طويلة، بتقدمه لطلب يدي. اسمه أرميتاج — بيرسي أرميتاج — الابن الثاني للسيد أرميتاج من منطقة كرين ووتر بالقرب من ريدينج. لم يعارض زوج والدتي الزواج على الإطلاق، ومن المقرر عقد الزواج في الربيع. منذ يومين بدأت أعمال ترميم في الجناح الغربي للمبنى، وحدث ثقب في جدار غرفتي؛ لذا اضطُررتُ إلى الانتقال إلى الغرفة التي تُوفيت فيها أختي، والنوم في السرير نفسه الذي كانت تنام فيه. ولك أن تتخيل إذن مدى الرعب الذي شعرت به في الليلة الماضية حينما سمعتُ فجأة، وأنا مستلقية مستيقظة أفكر في المصير الرهيب الذي لحق بها، في صمت الليل صوتَ الصفير المنخفض الذي كان نذير وفاتها. انتفضتُ من السرير وأشعلت المصباح، لكنني لم أرَ شيئًا في الغرفة. ومع ذلك، كنتُ أشعر برعب بالغ منعني من الخلود إلى النوم مرةً أخرى؛ لذا ارتديتُ ملابسي وبمجرد بزوغ ضوء الصباح تسللتُ إلى خارج المنزل، وركبتُ عربة تجرها الكلاب من نُزل كراون، المقابل لمنزلنا، وذهبتُ إلى ليذرهيد، ومن هناك جئتُ إليك في هذا الصباح وهدفي الوحيد أن أقابلك وأطلب النصيحة منك.»

قال صديقي: «خيرًا فعلتِ. لكن هل أخبرتِني هكذا بكلِّ شيء؟»

«نعم، كل شيء.»

«لا يا آنسة رويلوت، ليس كل شيء. فأنتِ تتسترين على زوج والدتك.»

«ماذا؟ ما الذي تعنيه؟»

كي يجيب هولمز عليها أزاح الحافة المزخرفة من الدانتيل الأسود الذي يحيط بيد زائرتنا التي تضعها على ركبتها. فظهرت خمسة آثار صغيرة زرقاء اللون، علامات لأربع أصابع وإبهام، مطبوعة على رسغ السيدة الأبيض.

وقال هولمز: «لقد تعرضتِ لعنفٍ بالغ.»

احمرَّ وجه السيدة خجلًا وغطت مكان الإصابة في رسغِها، وقالت: «إنه رجل قاسٍ، لا يكاد يدرك مدى قوته.»

سادت فترة طويلة من الصمت، أسند فيها هولمز ذقنه على يديه، وحدق في النار المشتعلة. وأخيرًا قال: «هذا أمر في غاية الخطورة. وثمة آلاف التفاصيل الأخرى التي أرغب في معرفتها قبل تحديد التصرف المناسب. لكن لا وقت لدينا لنُضيعه. إذا تمكنا من الوصول إلى ستوك موران اليوم، فهل يمكننا تفقُّد هذه الغرف دون معرفة زوج والدتك؟»

«تصادف أنه تحدث عن مجيئه إلى المدينة اليوم من أجل بعض الأعمال البالغة الأهمية، ومن المحتمل أن يظل غائبًا عن المنزل طوال اليوم، ولن يزعجكما أحد. توجد لدينا حاليًّا مُدبِّرة منزل، لكنها كبيرة السن وحمقاء، ويمكنني بسهولة إبعادها عن طريقكما.»

«ممتاز، أتمانع الذهاب في هذه الرحلة يا واطسون؟»

«على الإطلاق.»

«إذن سنأتي نحن الاثنان، وماذا ستفعلين أنتِ؟»

«ثمة أمر أو أمران أريد فعلهما بما أني جئتُ الآن إلى المدينة، لكني سأعود في قطار الثانية عشرة، حتى أكون هناك في وقت حضوركما.»

«إذن عليكِ ترقُّب حضورنا في وقت مبكر من بعد الظهيرة، فلديَّ أنا أيضًا بعض الأمور الصغيرة التي يجب القيام بها، هل ستمكثين لتناول الإفطار؟»

«لا، عليَّ الذهاب، فقد زال الهم من قلبي بالفعل بعدما أسررتُ إليكَ بمشكلتي. أتطلع للقائكما مرةً أخرى بعد الظهيرة.» أعادت تغطية وجهها بخمارها الأسود السميك وخرجت بهدوء من الغرفة.

سألني شيرلوك هولمز وهو متكئٌ إلى الخلف في كرسيه: «ماذا تستنتج من هذا كله يا واطسون؟»

«تبدو لي قضية غامضة ومشئومة لأقصى حد.»

«غامضة ومشئومة للغاية بالفعل.»

«ومع ذلك، إن كانت السيدة محقة فيما تقوله بشأن سلامة الأرضيات والجدران، وأن الباب والنافذة والمدفأة لا يمكن اختراقها، فلا شكَّ أن أختها كانت بالتأكيد وحدها حين لقيت نهايتها الغامضة.»

«ماذا إذن عن الصافرات الليلية، وعن الكلمات الفريدة للغاية للمرأة المحتضَرة؟»

«لا فكرة لديَّ.»

«عندما تربط بين أفكار الصفير في الليل، ووجود عصابة من الغجر على علاقة طيبة بالدكتور السابق، وحقيقة أن لدينا سببًا وجيهًا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الطبيب من مصلحته منع زواج ابنة زوجته، والإشارة عند الوفاة لعصابة، وأخيرًا حقيقة أن الآنسة هيلين ستونر سمعتْ صوت جلجلة معادن، وهي التي من الممكن أن تكون صوت إعادة وضع أحد القضبان الحديدية التي تغلق المصاريع في مكانه، أعتقد أنه ثمَّة ما يقودنا بشدة إلى التفكير في أن حلَّ هذه القضية يأتي من هذا الاتجاه.»

«لكن ما الذي فعله الغجر إذن؟»

«لا يمكنني التصور.»

«لديَّ كثير من الاعتراضات على مثل هذه النظرية.»

«وأنا أيضًا، ولهذا السبب تحديدًا نحن ذاهبان إلى ستوك موران اليوم. فأريد أنْ أرى ما إن كان لهذه الاعتراضات أساسٌ من الصحة أم يمكن استبعادها، لكن ما هذا بحق الشيطان!»

صدر هذا التعبير عن صديقي لأن باب غرفتنا انفتح فجأةً بعنفٍ وظهر أمامنا رجل ضخم الهيئة. كانت ملابسه مزيجًا فريدًا بين زي المهنيين والمُزارعين، فكان يرتدي قبعةً عاليةً سوداء، ومعطفًا طويلًا مشقوق الذيل، وجرموقين طويلين، ويتدلى من يده سوطُ صيد. كان طويلًا للغاية لدرجة أن قبعته ارتطمت بالفعل بعارضة مدخل الغرفة، وبدا كأنما عَرْض جسمه يملأ المدخل بالكامل. كما أن وجهه كان كبيرًا، يمتلئ بالتجاعيد، وكان يتنقل بيني وبين صديقي، بينما عيناه الغائرتان الغالب عليهما اللون الأصفر، وذقنه المرتفع وأنفه النحيل، جعلته جميعها يبدو إلى حدٍّ ما أشبه بطائرٍ جارحٍ عجوز.

سأل هذا الشبح: «أيكما هولمز؟»

ردَّ رفيقي بهدوء: «هذا اسمي يا سيدي، لكن هكذا أصبح لديك أفضلية عليَّ.»

«أنا الدكتور جريمسبي رويلوت من ستوك موران.»

قال هولمز بلطف: «حقًّا، دكتور، إذن تفضل بالجلوس.»

«لا لن أفعل، لقد كانت ابنة زوجتي هنا، لقد تعقبتها، ماذا كانت تقول لك؟»

قال هولمز: «إن الطقس بارد قليلًا عن المعتاد في هذا الوقت من السنة.»

صاح الرجلُ العجوزُ بانفعال: «ما الذي كانت تقوله لك؟»

واصل صديقي حديثه بهدوء أعصاب قائلًا: «لكني سمعتُ أن الزعفران مفيد.»

قال زائرنا الجديد، وهو يتقدَّم خطوةً للأمام ويهز السوط الذي يمسكه في يده: «حسنًا! أنت تراوغني، أليس كذلك؟ أنا أعرفك، فأنت وغد! لقد سمعتُ عنك من قبل. فأنت هولمز المتطفل.»

ابتسم صديقي، فاستمر قائلًا: «هولمز الفضولي!»

اتسعت ابتسامة صديقي أكثر، فقال: «هولمز، مخبر سكوتلاند يارد.»

انفجر هولمز في الضحك وقال له: «إن حديثك ممتع للغاية، رجاءً عندما تذهب أغلق الباب وراءك، فثمة تيار هواء قادم.»

«سأذهب عندما أقول ما عندي، إياك أن تجرؤ على التدخل في شئوني. أنا أعرف أن الآنسة ستونر كانت هنا، فقد تعقبتها! أنا رجل خطير للغاية عندما أغضب! انظر هنا.» ثم تقدم بسرعة إلى الأمام، وأمسك بقضيب إذكاء نار المدفأة المعدني وثناه بيديه البُنِّيتَين الكبيرتَين حتى أصبح مقوَّسًا.

تحدَّث بعنف وقال: «احرص على أن تبعد نفسك عن قبضتي.» ورمى القضيب المعدني في المدفأة ثم أسرع بالخروج من الغرفة.

قال هولمز وهو يضحك: «يبدو شخصًا لطيفًا للغاية. أنا لستُ في ضخامته، ولكنه إن بقي في الغرفة ربما كنتُ أريته أن قبضتي ليست أضعف كثيرًا من قبضته.» وفي أثناء حديثه هذا أمسك بالقضيب المعدني وبقوة فاجأتَني فرده مرةً أخرى.

«تخيل مدى وقاحته بأن يُشبِّهني بإدارة المباحث الرسمية! إلا أن هذه الواقعة تُضفي حماسًا على تحقيقنا، وآمل ألا تعاني صديقتنا الصغيرة بسبب رعونتها وسماحها لهذا الهمجي بتعقُّبها. والآن يا واطسون سنطلب الإفطار، ثم سَأذهب سيرًا إلى كلية الحقوق على أمل الحصول على بعض البيانات التي ربما تساعدنا في هذه القضية.»

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة عندما عاد شيرلوك هولمز من جولتِه، وكان يُمْسك في يده ورقة زرقاء مليئة بالملحوظات والأرقام.

قال لي: «لقد اطلعتُ على وصية الزوجة المتوفاة، ومن أجل تحديد معنى محتواها بالضبط اضطُررتُ إلى حساب الأسعار الحالية للاستثمارات المرتبطة بها. إن إجمالي الدخل، الذي لم يكن يتعدَّى عند وفاة الزوجة ١١٠٠ جنيه إسترليني، أصبح الآن، نتيجة انخفاض أسعار المحاصيل الزراعية، لا يزيد عن ٧٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا. ويحق لكلِّ ابنة المطالبة بالحصول على ٢٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا في حال زواجها. ومِن ثَمَّ، من الواضح أنه إن تزوجت كلتا الابنتين، فإن هذا الوسيم لن يحصل إلا على مقدار ضئيل للغاية، في حين أن

زواج حتى واحدة منهما سيسبب له خسارة فادحة. لم يذهب عملي الصباحي سُدًى؛ إذ اتضح أن هذا الرجل لديه أقوى الدوافع على الإطلاق لإعاقة أيٍّ تصرف من هذا النوع. الآن يا واطسون، هذا أمر خطير للغاية ولا يصح التباطؤ فيه، خاصةً بعدما عَلِم هذا العجوز باهتمامنا بشئونه؛ لذا إن كنتَ مستعدًّا فعلينا أن نطلب سيارة أجرة ونذهب إلى ووترلو. وسأكون ممتنًّا لك للغاية إن وضعت مسدسك في جيبك. فمسدس أيلي رقم ٢ هو أفضل طريقة للتحدث مع رجل بإمكانه ثني قضيب المدفأة الصُّلب ويجعل منه عقدًا. أعتقد أننا لن نحتاج إلى أكثر من هذا المسدس وفرشاة أسنان.»

في ووترلو حالفَنا الحظ باللحاق بقطار متجه إلى ليذرهيد، حيث استأجرنا عربة صغيرة في نُزل المحطة وقطعنا بها نحو أربعة أو خمسة أميال عبر الممرات الضيقة لسَري الجميلة. كان يومًا رائعًا، إذ كانت الشمس مشرقة والسماء صافية إلا من بعض السُّحُب الهشة. كانت الأشجار وأسوجة الشجيرات على جانبي الطريق تطلق براعمها الخضراء الأولى، وكان الهواء يعبق بالرائحة العطرة للأرض الرطبة. وأحسستُ، أنا على الأقل، بتناقض غريب بين الأمل الجميل الذي يبثه جو الربيع وهذه القضية المشئومة التي نسعى إلى حلها. أما رفيقي فقد جلس في الجزء الأمامي من العربة وهو يعقد ذراعيه أمام صدره، وتَدَلَّت قبعته لتُغطِّي عينيه، وغاص ذقنه داخل صدره، واستغرق في تفكير عميق. إلا أنه تنبه فجأةً ونقر على كتفي وأشار إلى المروج.

قال لي: «انظر هناك!»

نظرتُ فرأيتُ حديقة من الأشجار تمتد على منحدرٍ خفيفٍ وتحتشد في شكل بستانٍ في أعلى نقطة من المنحدر. ومن بين أفرع الشجر برز سقفٌ محدَّبٌ رمادي لقصرٍ قديمٍ ودعامة سقفه.

قال هولمز: «أهذا ستوك موران؟»

رد السائق: «أجل يا سيدي، هذا هو منزل الدكتور جريمسبي رويلوت.»

قال هولمز: «ثمة أعمال بناء تجري فيه، هذا مقصدنا.»

قال السائق وهو يُشير إلى مجموعة من الأسقف على مسافة بعيدة جهة اليسار: «هذه هي القرية، لكن إن أردتما الذهاب إلى هذا المنزل، فأقصرُ طريقٍ للوصول إليه أن تصعدا هذا السُّلم لعبور الجدار، ثم تسيران في ممر المشاة عبر الحقول. هذا هو، حيث تسير السيدة.»

قال هولمز، وهو يحجب الشمس عن عينيه: «وهذه السيدة، على ما أعتقد، هي الآنسة ستونر. أجل، أعتقد أن من الأفضل أن ننفذ ما اقترحت.»

نزلنا من العربة ودفعنا الأجرة، وعادت العربة مُحدِثةً جلبة في الطريق المؤدي إلى ليذرهيد.

قال هولمز بينما نصعد السلم على الجدار: «لقد فكرتُ في الأمر مليًّا، إن هذا السائق على الأرجح اعتقد أننا جئنا هنا بصفتنا مهندسين، أو لتأدية عملٍ معين، وهذا من شأنه أن يمنعه من الثرثرة عنا. مساء الخير يا آنسة ستونر، لقد التزمنا كما ترين بكلمتنا.»

أسرعت عميلتنا التي التقيناها صباحًا إلى الأمام لتحيينا بوجه تملؤه السعادة. وقالت وهي تصافحنا بحرارة: «لقد انتظرتكما بفارغ الصبر. لقد سار كلُّ شيءٍ على نحو رائع؛ إذ ذهب الدكتور رويلوت إلى المدينة، وعلى الأرجح لن يعود قبل الليل.»

قال هولمز لها: «لقد حظينا بشرف التعرف إلى الدكتور.» وبكلماتٍ قليلةٍ شرح لها ما حدث. شحب وجه الآنسة ستونر، بل وشفتاها، وهي تستمع إلى حديث هولمز.

قالت: «يا إلهي! لقد تبعني إذن.»

«يبدو كذلك.»

«إنه ماكرٌ للغاية ولا أعرف متى سأكون في مأمنٍ منه. تُرى ماذا سيقول لي عند عودته؟»

«عليه أن يحترس لنفسه، فربما يجد من هو أمكر منه يتعقب تحركاته. عليكِ أن توصدي الباب على نفسك الليلة، وإن صدر منه تصرُّف عنيف فسنأخذك بعيدًا لتمكثي عند خالتك في هارو. والآن علينا تحقيق أقصى استفادة من وقتنا؛ لذا أرشدينا من فضلك إلى الغُرف التي سنفحصها.»

كان المبنى من الحجارة الرمادية التي تلطخها الأشنات الخضراء، وكان ينقسم إلى جزءٍ مركزيٍّ مرتفع وجناحَين مقوَّسَين، كمخلبَي سرطان بحر، على جانبَي المنزل. وفي أحد هذين الجناحين كانت النوافذ مكسورة ومغلقة بألواح خشبية، بينما انهار السقف جزئيًّا، فكانت الصورة كلها تنم عن الدمار. أما الجزء المركزي فكان في حالة أفضل، إلَّا أن الجزء الأيمن كان أحدث نسبيًّا، وأشارت مصاريع النوافذ، مع الدخان الأزرق المتصاعد من المداخن، إلى أن هذا هو المكان الذي تعيش فيه العائلة. شُيدت بعض السقالات عند نهاية الجدار، وأُحدث ثقب في الجدار الحجري، لكن لم يظهر أي عامل في أثناء زيارتنا. سار هولمز ببطء ذهابًا وإيابًا على طول المرج غير المشذب، وفحص باهتمام بالغ الجوانب الخارجية للنوافذ.

قال: «أعتقد أن هذه هي نافذة غرفتك التي كنتِ تنامين فيها، والتي في المنتصف هي لغرفة أختك، والتي تقع بجوار المبنى الرئيسي هي لغرفة الدكتور رويلوت؟»

«بالضبط، لكنني الآن أنام في الغرفة الوسطى.»

«في انتظار انتهاء التعديلات، كما فهمتُ. بالمناسبة، لا تبدو ثمة حاجة مُلِحَّة للإصلاحات في هذا الجدار الأخير.»

«لا، لا توجد حاجة إليها، أعتقد أنه كان مجرد عذر لنقلي من غرفتي.»

«آه! هذا مثير للاهتمام. والآن، على الجهة الأخرى من هذا الجناح الضيق يمتد الممر الذي تطل عليه هذه الغرف الثلاث، ثمة نوافذ فيه بالطبع، أليس كذلك؟»

«بلى، لكنها صغيرة للغاية، ضيقة بحيث لا تتسع لأنْ يمُرَّ عبرها أيُّ شخص.»

«وبما أنكما كنتما توصدان الأبواب في الليل، كان يستحيل الدخول إلى الغرف من هذه الجهة. والآن، أتسمحين بالدخول إلى غرفتك وإغلاق المصاريع بالقضيب الحديدي؟»

فعلت الآنسة ستونر كما طُلب منها، وحاول هولمز بكلِّ الطرق، بعد فحص النافذة المفتوحة بعناية، فتح المصاريع بالقوة، لكن دون جدوى. لم يكن ثمة أي شق يمكن وضع سكين فيه لتمريره ورفع القضيب الحديدي. بعد ذلك، فحص المفصلات بعدسته المكبرة، لكنها كانت مصنوعة من الحديد الصُّلب، ومثبتة بقوة في المبنى الضخم. قال وهو يحك ذقنه في حيرة: «حسنًا! تواجه نظريتي حتمًا بعض الصعوبات، فلا يمكن لأحد أنْ يمُرَّ عبر هذه المصاريع إذا أُوصدت. حسنًا، سنرى إن كانت الغُرف من الداخل يمكنها إلقاء الضوء أكثر على هذه القضية.»

قادنا باب جانبي صغير إلى الممر المطلي باللون الأبيض، والذي تطل عليه الغرف الثلاث. رفض هولمز فحص الغرفة الثالثة؛ ولذلك انتقلنا على الفور إلى الغرفة الثانية، التي تنام فيها الآنسة ستونر حاليًّا، والتي لقيت فيها أختها حتفها. كانت غرفة صغيرة وبسيطة، سقفها منخفض وبها مدفأة متسعة، على غرار طراز المنازل الريفية القديمة. كان بأحد أركان الغرفة صندوق بُنِّي به أدراج، وسرير ضيق بغطاء أبيض في الزاوية الأخرى، وطاولة زينة على يسار النافذة. كانت هذه القطع، بالإضافة إلى كرسيَّين من الخيزران، هي كل الأثاث الموجود في الغرفة، بالإضافة إلى سجادة ويلتون في المنتصف. كانت الألواح المحيطة بالجدران، وتلك التي تكسوها، مصنوعة من خشب البلوط البُنِّي الذي نخر فيه السوس، وكانت بالغة القِدَم وفقدت لونَها بحيث ربما ترجع إلى وقتِ بناء المنزل لأول مرة. سحب هولمز كرسيًّا إلى أحد الأركان وجلس عليه صامتًا، وقد أخذ يُقلِّب عينيه في جميع جوانب الغرفة وأعلاها وأسفلها، لاستيعاب كل تفاصيلها.

سأل أخيرًا وهو يُشير إلى حبل جرس سميك يتدلَّى بجوار السرير، بحيث تلامس شُرَّاباته الوسادة بالفعل: «أين يرن هذا الجرس؟»

ردت الآنسة ستونر: «إنه يصل إلى غرفة مُدبِّرة المنزل.»

«إنه يبدو أحدث من الأشياء الأخرى في الغرفة.»

«أجل، فلم يُوضع هنا إلا منذ عامين.»

«أعتقد أن أختك هي التي طلبت وضعه.»

«لا، أنا لم أسمعها تستخدمه قط، فقد اعتدنا على إحضار ما نريده بأنفسنا.»

«هكذا إذن، يبدو من غير الضروري وضع حبل جرس جميل الشكل مثل هذا هنا. أستأذنك لحظات؛ فأنا أريد فحص هذه الأرضية.» ثم انبطح على الأرض على وجهه وهو يمسك بالعدسة المكبرة في يده، وزحف بسرعة إلى الأمام والخلف، وفحص بدقةٍ الشقوق الموجودة بين ألواحها. بعد ذلك فعل الأمر نفسه مع الألواح الخشبية التي كانت جدران الغرفة كلها مكسوة بها. وفي النهاية ذهب إلى السرير وقضى بعض الوقت في التحديق فيه وفي فحص الجدار من أعلى إلى أسفل. وأخيرًا، أمسك بحبل الجرس وشده بحدة، وقال: «حسنًا، إنه مزيف.»

«أَلَا يرن؟»

«نعم، إنه حتى ليس مربوطًا بسلك. إنه أمرٌ مثيرٌ للاهتمام للغاية، فيمكنك الآن رؤية أنه مربوط بخطاف فوق فتحة التهوية الصغيرة مباشرةً.»

«يا له من أمر سخيف! كيف لم ألاحظ هذا من قبلُ قط.»

قال هولمز وهو يشد الحبل: «أمر غريب للغاية! ثمة شيء أو اثنان غريبان في هذه الغرفة. على سبيل المثال، أي عامل بناء أحمق يفتح فتحة للتهوية على غرفة أخرى، بينما كان بإمكانه بذل الجهد نفسه لتوصيلها بالهواء الخارجي؟!»

قالت السيدة: «هذه الفتحة حديثة أيضًا إلى حدٍّ ما.»

قال هولمز: «أُدخلت في الوقت نفسه الذي وُضع فيه حبل الجرس، أليس كذلك؟»

«بلى، في هذا الوقت أُجرِي كثير من التعديلات الصغيرة.»

«تبدو ذات طابعٍ خاصٍّ للغاية؛ فلدينا حبلُ جرسٍ مزيف وفتحة تهوية لا تصلح للتهوية. بعد إذنك يا آنسة ستونر، سنواصل الآن بحثنا في الغرفة الداخلية.»

كانت غرفة الدكتور جريمسبي رويلوت أكبر من غرفة ابنة زوجته، لكن فرشها كان بسيطًا على النحو ذاته. كان بها سريرٌ يُطوَى، ورفٌّ خشبي صغير مليء بالكتب، أغلبها ذو طابعٍ تقني، وكرسي له ذراعان بجوار السرير، وكرسي خشبي عادي أمام الحائط، وطاولة

مستديرة، والشيء الأساسي الذي لفت انتباهنا كان خزانة معدنية ضخمة. سار هولمز ببطءٍ في الغرفة وفحص كلَّ هذه الأشياء باهتمامٍ بالغ.

سأل وهو ينقر على الخزانة: «ماذا بالداخل؟»

«أوراق عمل زوج والدتي.»

«آه! إذن أنتِ رأيتِ محتوى الخزانة؟»

«مرة واحدة، منذ عدة سنوات. أذكر أنها كانت مليئة بالأوراق.»

«لا توجد بداخلها قطة مثلًا؟»

«لا، يا لها من فكرة غريبة!»

قال هولمز: «حسنًا، انظري لهذا!» وحمل في يده صحنًا صغيرًا به لبن كان يوجد فوقها.

«لا، نحن ليس لدينا قطة، بل لدينا الفهد والبابون فقط.»

«حسنًا، بالطبع! فالفهد هو في الواقع قطة كبيرة، ومع ذلك فإن صحنًا من اللبن لن يُلبِّي احتياجاته الغذائية، على ما أظن. ثمة شيءٌ واحدٌ أريد التأكد منه.» ونزل على ركبتيه أمام الكرسي الخشبي وفحص مقعده باهتمام بالغ.

بعد ذلك قال وهو يُعاود الوقوف ويضع عدسته في جيبه: «شكرًا جزيلًا، عرفتُ ما أردته. عجبًا! ثمة شيءٌ مثيرٌ للاهتمام.»

كان الشيءُ الذي لفت نظره سوطًا صغيرًا لتدريب الكلاب مُعلَّقًا على أحدِ جوانب السرير. إلَّا أن السوط كان ملفوفًا حول نفسِه ومربوطًا ليُشكِّل عقدة من الحبل المجدول.

«ماذا تستنتج من هذا يا واطسون؟»

«إنه سوط عادي، لكني لا أعلم لماذا رُبط.»

«هذا ليس عاديًّا، أليس كذلك؟ يا إلهي! إنه عالم خطير، وعندما يُحَوِّل رجلٌ ذكيٌّ تفكيره إلى ارتكاب الجرائم يصبح الأسوأ على الإطلاق. أعتقد أنني رأيتُ ما يكفي يا آنسة ستونر، وبعد إذنك سنخرج الآن إلى المرج مرةً أخرى.»

لم أرَ وجه صديقي قط متجهمًا على هذا النحو، أو جبهته مُكْفهرَّة كما رأيته عندما ابتعدنا عن موقعِ التحقيق. سرنا بضع مرات ذهابًا وإيابًا على المرج، ولم نَشَأْ أنا أو الآنسة ستونر قطع حبل أفكارِه حتى تَنَبَّه هو نفسه من استغراقه وقال:

«من الضروري يا آنسة ستونر أن تتبعي نصيحتي بالضبط في كلِّ ما أقوله لكِ.»

«بالطبع سأفعل.»

«المسألة في غاية الخطورة ولا تحتمل أي تردُّد؛ فقد تتوقف حياتك على مدى التزامك.»

«أؤكد لك أني منصاعة تمامًا لك.»

«أولًا، لا بدَّ أن أقضي أنا وصديقي هذه الليلة في غرفتك.»

نظرتُ أنا والآنسة ستونر له بذهول.

«أجل، لا بدَّ من هذا، دعوني أشرح لكما، أعتقد أن هذا هو نُزل القرية الموجود هنا، أليس كذلك؟»

«بلى، هذا نُزل كراون.»

«رائع، يمكن رؤية نوافذك من هناك، أليس كذلك؟»

«بالطبع.»

«عليكِ التزام غرفتك مدعيةً إصابتك بصداع، عند عودة زوج والدتك. ثم، عندما تسمعين دخول زوج والدتك إلى غرفتِهِ في الليل، يجب عليكِ فتح مصاريع نافذتك، وفتح مشبك النافذة، ثم تضعين مصباحك كإشارة لنا، ثم تذهبين بهدوءٍ مع كلِّ شيءٍ قد تحتاجين إليه إلى الغرفة التي كنتِ تنامين فيها. فأنا متأكد أنه على الرغم من الإصلاحات يمكنك النوم فيها لليلة واحدة.»

«آه، أجل، بالتأكيد.»

«أما الباقي فعليكِ تركه في أيدينا.»

«لكن ماذا ستفعلان؟»

«سنقضي الليلة في غرفتك، وسنحقق في سببِ الضوضاء التي تزعجك.»

قالت السيدة ستونر، وهي تضع يدها على كُمِّ صديقي: «أعتقد أنك يا سيد هولمز توصلت إلى نظرية بالفعل.»

«لعلِّي بالفعل.»

«إذن، أستحلفك أن تخبرني بسبب وفاة أختي.»

«أُفضل الحصول على أدلةٍ واضحةٍ قبل أن أتحدث.»

«على الأقل يمكنك أن تخبرني عما إذا كانت فكرتي صحيحة أم لا، وعما إذا كانت قد تُوفِّيت إثر نوع من الذعر المفاجئ.»

«لا، أنا لا أعتقد هذا. أعتقد أنه على الأرجح كان ثمة سببٌ آخر ملموس أكثر. والآن يا آنسة ستونر، عليكِ أن تتركينا نذهب لأنه إن عاد الدكتور رويلوت ورآنا فإن رحلتنا كلها ستصبح عديمة الجدوى. إلى اللقاء، كوني شجاعة؛ لأنكِ إن فعلتِ ما قلته لكِ، يمكنك الاطمئنان إلى أننا سنعمل سريعًا على التخلص من الأخطار التي تهددك.»

لم نجد أنا وشيرلوك هولمز صعوبة في العثور على غرفة نوم وغرفة جلوس في نُزل كراون. كانتا في الطابق العلوي، وكان باستطاعتنا أن نرى من نافذتنا البوابة المطلة على الطريق، والجناح المأهول في منزل عزبة ستوك موران. عند الغسق رأينا الدكتور جريمسبي رويلوت مارًّا بجوار النُّزل، وبرزت هيئته الضخمة بجوار الجسم الصغير للفتى الذي كان يقود السيارة. واجه الفتى قدرًا من الصعوبة في فتح البوابة الحديدية الضخمة، وسمعنا صوت الدكتور الصاخب الأجش، ورأينا كَمَّ الغضب الذي حرَّك به قبضته تجاه الفتى. استمرت المركبة في التحرك، وبعد بضع دقائق رأينا ضوءًا مفاجئًا ينبعث من بين الأشجار، مع إشعال المصباح في غرفة الجلوس.

قال هولمز ونحن جالسان معًا في الظلام الدامس: «أتدري يا واطسون، أنا فعلًا متردد بعض الشيء في أخذك معي الليلة، فثمة عنصر خطر كبير.»

«أيمكنني مساعدتك؟»

«إن وجودك معي لا يُقدَّر بثمن.»

«إذن لا بدَّ أن أذهب بالتأكيد.»

«إنه لطف كبير منك.»

«أنت تتحدَّث عن خطر، فمن الواضح أنك رأيت في هذه الغرف أكثر مما كان واضحًا لي.»

«لا، لكن ربما استنتجتُ أكثر بقليل. فأنا أتصور أنك رأيت كلَّ ما رأيته أنا.»

«أنا لم أرَ شيئًا مميزًا إلا حبل الجرس، ولا يمكنني أبدًا تخيل الهدف منه.»

«ورأيتَ فتحة التهوية أيضًا، أليس كذلك؟»

«بلى، لكني لا أعتقد أنه من الغريب وجود فتحة صغيرة بين غرفتين. إنها صغيرة للغاية بحيث يصعُب مرور فأر عبرها.»

«لقد علمتُ أننا سنجد فتحة تهوية قبل أن نصل حتى إلى ستوك موران.»

«أحقًّا يا عزيزي هولمز!»

«أجل، لقد علمتُ، فأنت تذكر أنها قالت في قصتها إن أختها كانت تستطيع شمَّ رائحة سيجار الدكتور رويلوت، وبالطبع أشار هذا على الفور إلى حتمية وجود نوع من الاتصال بين الغرفتين. ولا بد أن يكون هذا التواصل صغيرًا للغاية، وإلا لورد في تحقيقِ مسئول التحقيقات؛ ولذلك افترضتُ وجود فتحة تهوية.»

«لكن ما الضرر الذي قد تُحدثه هذه؟»

«حسنًا، على الأقل ثمة تزامن في التواريخ مثير للاهتمام؛ فتُصنَع فتحة تهوية، ويُعلَّق حبل، ثم تموت السيدة التي تنام في السرير. ألا تجد هذا مريبًا؟»

«لا يمكنني حتى الآن رؤية العلاقة.»

«ألم تلاحظ أيَّ شيءٍ غريبٍ في السرير؟»

«نعم.»

«لقد كان مُثبَّتًا في الأرض. هل رأيت من قَبلُ سريرًا مثل هذا؟»

«لا يمكنني قول ذلك.»

«لم يكن باستطاعة السيدة تحريك سريرها، فلا بد من وجوده في المكان ذاته بالنسبة لموقع فتحة التهوية والحبل، أو هكذا سنُطلق عليه إذ لم يكن يُقصد به أن يكون حبلًا للجرس قط.»

قلتُ عندها: «هولمز، يبدو أنني بدأت أرى بصعوبةٍ ما تُشير إليه، فلقد وصلنا في الوقت المناسب لنمنع وقوع جريمة ماكرة وبشعة.»

«نعم، ماكرة وبشعة للغاية. فحينما ينحرف طبيبٌ عن طريق الصواب يصبح أسوأ المجرمين؛ فهو يتمتع بالجرأة والمعرفة. لقد كان كلٌّ من بالمر وبيتشارد من أشهر الأطباء. أما هذا الرجل فهو أدهى، لكني أعتقد يا واطسون أنني سأكون أدهى منه. غير أننا سنواجه من الأهوال كمًّا هائلًا في هذه الليلة؛ لذا دعنا رجاءً نُدخِّن الغليون في هدوء ونُحوِّل أذهاننا لبضع ساعات إلى التفكير في أشياء أكثر مرحًا.»

عند التاسعة تقريبًا انطفأ الضوء القادم من بين الأشجار، وعمَّ الظلام من جهة منزل العزبة. بعدها مرت ساعتان ببطء شديد، ثم فجأة، عند دقات الحادية عشرة، ظهر ضوء ساطع واحد أمامنا مباشرةً.

قال هولمز وهو ينتفض واقفًا: «هذه إشارتنا، إن الضوء قادم من النافذة الوسطى.»

عند خروجنا أوضح لصاحب النُّزل في كلمات مقتضبة أننا ذاهبان في زيارة متأخرة إلى أحد معارفنا، وأننا ربما نقضي الليلة هناك. لم تمضِ لحظات حتى كنا في الطريق المعتم، وهبَّت رياح باردة على وجهَينا، وضوء أصفر وحيد يلمع أمامنا ليُرشدنا في الظلام الموحش إلى وجهتِنا في هذه المهمة القاتمة.

لم نواجه صعوبة كبيرة في الدخول إلى المكان؛ إذ مررنا عبر فتحات لم تُصلح في جدار الحديقة القديم. تحسَّسنا طريقنا عبر الأشجار، ووصلنا إلى المرج وعبرناه وكنا على وشك الدخول عبر النافذة عندما اندفع من بين مجموعة من شجيرات الغار ما بدا كأنه طفلٌ

بشعٌ ومُشوَّه، وألقى بنفسه على العُشْب على أطراف ملتوية ثم ركض بسرعة عبر المرج إلى داخل الظلام.

همستُ قائلًا: «يا إلهي! هل رأيت هذا؟»

أصيب هولمز بالدهشة مثلي تمامًا لبرهة، وأطبق على معصمي بيده مثل الكلَّابات في انفعال. ثم انفجر في الضحك بصوتٍ منخفض وتحدَّث إليَّ في أذني، وهمس قائلًا:

«إنه منزل لطيف، هذا هو البابون.»

كنتُ قد نسيت الحيوانات الأليفة الغريبة التي يقتنيها الطبيب. كان ثمة فهد أيضًا، ربما نجده فوق أكتافنا في أيِّ لحظة. أعترف أنني ذهنيًّا شعرت براحة أكبر، بعدما حذوت حذو هولمز وخلعتُ حذائي، ثم وجدتُ نفسي داخل غرفة النوم. أغلق رفيقي المصاريع دون إحداث صوت، ووضع المصباح على الطاولة، ونظر في جميع أرجاء الغرفة. كان كلُّ شيءٍ كما رأيناه في ضوء النهار. اقترب مني ببطءٍ ثم لفَّ يده حول فمه وهمس في أذني مرةً أخرى بصوت خافت للغاية لدرجة أنه كان عليَّ الانتباه للغاية حتى أستطيعَ تمييز الكلمات:

«أقل صوت يصدر سيُدمر خطتنا.»

أومأت له برأسي لإظهار أني سمعتُ كلماته.

«علينا الجلوس دون إنارة الضوء، فيمكنه رؤية الضوء عبر فتحة التهوية.»

أومأتُ مرةً أخرى.

«إيَّاك أن تنام؛ فقد تتوقف حياتك على هذا. كذلك كن مستعدًّا بمسدسك في حال احتجنا إليه. أنا سأجلس على جانب السرير وأنت اجلس على الكرسي.»

أخرجتُ مسدسي ووضعته على جانب الطاولة.

أما هولمز فقد أخرج عصًا طويلةً ورفيعة، ووضعها على السرير بجواره، ووضع بجوارها علبة أعواد الثقاب وشمعة. بعدها أطفأ المصباح وجلسنا في الظلام.

كيف يمكنني نسيان هذه المراقبة المروِّعة؟ لم يكن بإمكاني سماع أي صوت، ولا حتى صوت التنفس، ومع ذلك كنت أعلم أن رفيقي يجلس مفتوح العينين، على بُعد بضع أقدام مني، في الحالة نفسها من التوتر العصبي التي كنتُ عليها. حجبت المصاريع الضوء الخافت القادم من الخارج، وجلسنا ننتظر في ظلام مطبق.

ومن الخارج كانت تأتي من حين لآخر صيحة أحد الطيور الليلية، وفي إحدى المرات صدر بجانب نافذة غرفتنا صوت أنين يُشبه أنين القطط، مما أوحى إلينا أن الفهد بالفعل

طليق. ومن بعيدٍ كان بإمكاننا سماع الدقات العميقة لساعة الأبرشية، التي كانت تنطلق كل ربع ساعة. وكم بدت هذه الأرباع طويلة! دقت الثانية عشرة، ثم الواحدة ثم الثانية ثم الثالثة، وما زلنا جالسين وننتظر في صمت ما سيحدث أيًّا كان.

وفجأةً، ظهر ضوءٌ خافت خاطف من جهة فتحة التهوية، واختفى على الفور، لكن تبعته رائحةٌ قويةٌ لزيتٍ مشتعل ومعدنٍ ساخن؛ فقد أشعل أحدٌ مصباحًا في الغرفة المجاورة. سمعتُ صوتًا خفيفًا للحظة، ثم ساد الصمت مرةً أخرى، على الرغم من زيادة حدة الرائحة. جلستُ لنصف ساعة مصغيًا متوترًا، ثم فجأةً سمعنا صوتًا آخر؛ صوتًا خافتًا للغاية ومريحًا، مثل صوت البخار القليل الصادر باستمرار من الغلاية. وبمجرد سماعنا للصوت، قفز هولمز من على السرير، وأشعل عود ثقاب وأخذ يضرب بانفعال بعصاه حبل الجرس، وصاح:

«أنت تراها يا واطسون، أليس كذلك؟ ألا تراها؟»

لكني لم أرَ شيئًا. وعندما أشعل هولمز الضوء سمعتُ صوت صفير منخفض وواضح، لكن سرعان ما جعل الضوء المتوهج المفاجئ في عيني المتعبة من المستحيل تمييز ماهية هذا الشيء الذي كان صديقي يضربه بوحشية. إلا أنني استطعتُ رؤية أن وجهه كان شاحبًا للغاية ويعلوه الرعب والاشمئزاز. توقف عن الضرب وظل ينظر إلى الأعلى باتجاه فتحة التهوية، وحينها سمعنا فجأةً في صمت الليل أكثر صرخة مرعبة سمعتها في حياتي. زادت الصرخة علوًّا وعلوًّا، فكانت صرخة بصوتٍ أجش اجتمع فيها الألم والرعب والغضب في صيحة واحدة مروِّعة. يُقال إن هذه الصرخة أيقظت النائمين من أَسِرَّتِهم، في القرية وصولًا إلى بيت القس. لقد بثَّت الرعب في قلبَينا، ووقفتُ وأنا أنظر إلى هولمز وهو ينظر إليَّ، حتى تلاشت آخر أصدائها في الصمت نفسه الذي اندلعت منه.

سألتُ وأنا ألهث: «ما يمكن أن يعني هذا؟»

أجاب هولمز: «يعني أنَّ كلَّ شيءٍ انتهى. وربما، في النهاية، إلى الأفضل. خذ مسدسك، فسندخل إلى غرفة الدكتور رويلوت.»

أشعل المصباح بوجهٍ جادٍّ وسار أمامي في الممر. دقَّ مرتين على باب الغرفة دون أن تصدُر أيُّ إجابة من الداخل. ثم أدار مقبض الباب ودخل، وأنا في أعقابه، مُشهرًا مسدسي.

كان المشهد الذي رأيناه فريدًا من نوعه. كان على الطاولة مصباحٌ أُغلق بابه جزئيًّا، يشع ضوءًا ساطعًا على الخزانة المعدنية، التي كان بابها مفتوحًا جزئيًّا. وبجوار الطاولة جلس الدكتور جريمسبي رويلوت، على الكرسي الخشبي، مرتديًا رداءَ نومٍ طويلًا

رمادي اللون، يظهر من أسفله كاحلاه العاريان، ويرتدي في قدمَيه خُفَّين تُركيَّين مسطحَين لونهما أحمر. وعلى ركبتَيه كان يوجد المقبض القصير المربوط فيه السوط الطويل الذي رأيناه في أثناء النهار. كان ذقنه مرتفعًا إلى أعلى وعيناه ثابتتين في نظرة مروعة وصارمة على زاوية السقف. ورأينا حول جبهته عصابة صفراء اللون غريبة الشكل مرقطة بنقاط بُنيَّة اللون، بدت ملفوفة بإحكامٍ حول رأسِه. ومع دخولنا لم يُصدِر أيَّ صوت أو حركة.

همس هولمز: «العصابة! العصابة الرقطاء!»

أخذت خطوة للأمام، وعلى الفور بدأ غطاء رأسه في التحرك، وخرج من بين شعر رأسه رأس صغير مُعيَّن الشكل وعنق منتفخ لحيَّة بغيضة.

صاح هولمز قائلًا: «إنها أفعى المستنقع! أشد الثعابين فتكًا في الهند. لقد مات في غضون ثوانٍ من عضِّها له. فالعنف، في الحقيقة، يرتد على صاحبه، ومَن حَفَر حفرةً لأخيه وقع فيها. دعنا نُعِدْ هذا المخلوق إلى وكره، وعندها يمكننا نقل الآنسة ستونر إلى مكانٍ آمن ونُخبر شرطة المقاطعة بما حدث للتوِّ.»

سحب في أثناء حديثه سوط الكلب بسرعة من على ركبتَي الرجل المُتوفى، ووضع العقدة حول رقبة هذا الحيوان الزاحف وسحبها من مَجثمها الشنيع وحملها على طولِ ذراعِه، وألقاها داخل الخزانة المعدنية، ثم أغلقها عليها.

تلك كانت الحقائق المتعلقة بوفاة الدكتور جريمسبي رويلوت من ستوك موران. وليس ضروريًّا أن أطيل قصة، طالت بالفعل، بذكر تفاصيل توصيل هذه الأخبار الحزينة إلى الشابة المذعورة، وكيف نقلناها في قطارِ الصباح إلى رعاية خالتِها الطيبة في هارو، وكيف توصَّل التحقيق الرسمي ببطءٍ شديدٍ لاستنتاج أن الطبيب لقي مصرعه بينما كان يلعب بحمقٍ بحيوان أليف خطير. أما التفاصيل الصغيرة التي لم أكن أعرفها عن القضية فقد أخبرني بها شيرلوك هولمز في أثناء رحلة عودتنا في اليوم التالي.

قال: «لقد توصلتُ يا عزيزي واطسون إلى استنتاجٍ خاطئ تمامًا؛ مما يظهر كم هو خطير دومًا الاستنباط من معلومات غير كافية. فكان وجود الغجر، واستخدام كلمة «عصابة»، التي استخدمتها الفتاة المسكينة، دون شكٍّ، لوصف الشكل الذي رأته رؤية خاطفة في عود الثقاب الذي أشعلته، كافيين لوضعي على طريقٍ خاطئٍ بالكامل. ومع ذلك، فإن دفاعي الوحيد أنني أعدت النظر في موقفي عندما أصبح واضحًا لي أنه أيًّا كان الخطر الذي هدد قاطنة هذه الغرفة، فلا يمكن أن يكون قد جاء عبر النافذة أو الباب. وتوجَّه اهتمامي على الفور، كما أشرتُ بالفعل إليك، إلى فتحة التهوية هذه، وحبل الجرس الذي

يتدلَّى فوق السرير. وأدى اكتشافي أنه حبل زائف، وأن السرير مثبت في الأرض، إلى إثارة شكوكي بأن الحبل قد وُضِع في هذا المكان ليكونَ جسرًا لعبور شيءٍ عليه يأتي عبر الفتحة ويقصد السرير. فخطرت لي على الفور فكرة وجود ثعبان، وحينما قرنت هذا بمعرفتي بأن الدكتور جاء بعددٍ من الكائنات من الهند، شعرتُ بأنني على الأرجح أسير في الاتجاه الصحيح. كما أن فكرة استخدام سم لا يمكن اكتشافه بأيِّ اختبار كيميائي لا ترد إلَّا على ذهن رجلٍ ذكيٍّ وقاسي القلب حصل على تدريبٍ شرقي. كما أن السرعة التي يُحدث بها السم تأثيره كانت ميزة من وجهة نظره. فالأمر يحتاج في الواقع إلى مُحقق حاد البصر حتى يستطيع تمييز الثقبَين الداكنَين الصغيرَين اللذين يُمثلان مكان سريان السم عبر الأنياب السامة. بعد ذلك فكرتُ في الصافرة. فيجب عليه بالطبع استدعاء الثعبان قبلما ينكشف في ضوء النهار لضحيته؛ لذلك درَّب الثعبان، على الأرجح باستخدام الحليب الذي رأيناه، على العودة إليه وقتما يستدعيه. فكان يضعه في فتحة التهوية هذه في الساعة التي اعتقد أنها مناسبة، وهو على يقين بأنه سيزحف إلى الأسفل على الحبل ويصل إلى السرير. ربما يلدغ قاطنة الغرفة وربما لا، فيمكنها على الأرجح النجاة من لدغته كل ليلة لمدة أسبوع، لكنها آجلًا أو عاجلًا لا بد أن تسقط ضحية للدغتِه.

لقد توصلتُ إلى هذه الاستنتاجات قبل حتى أن أدخل إلى غرفته. كان فحص الكرسي قد أظهر لي أنه اعتاد الوقوف عليه، وهو الأمر الضروري بالطبع حتى يتمكن من الوصول إلى فتحة التهوية. وكانت رؤيتي للخزانة وصحن الحليب والسوط المعقود كافية لتزيل في النهاية أي شكوك لا تزال موجودة عندي. أما الرنين المعدني الذي سمعته الآنسة ستونر فمن الواضح أنه كان صوت إغلاق زوج والدتها باب الخزانة بسرعة على قاطنها المرعب. وبمجرد توصُّلي إلى هذه الحقائق، اتخذت الخطوات التي تعرفها من أجل إثبات الأمر. سمعتُ صوتَ حفيفِ هذا المخلوق، ولا أشك في أنك سمعته أيضًا، فأشعلتُ الضوء على الفور وهاجمته.»

«فدفعته نتيجةً لهذا إلى العودة مرةً أخرى عبر فتحة التهوية.»

«ودفعته أيضًا نتيجة لهذا إلى الانقلاب على سيده على الجهة الأخرى؛ فقد أصابته بعض الضربات من عصاي وحفَّزت فيه نزعة الثعابين، ومِن ثَمَّ انقضَّ على أولِ إنسان يراه. هكذا لا شكَّ في أنني مسئول مسئولية غير مباشرة عن وفاة الدكتور جريمسبي رويلوت، ولا يمكنني القول إن هذا سيُعذِّب ضميري كثيرًا.»

مغامرة إبهام المهندس

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
نيرة محمد صبري



مغامرة إبهام المهندس

من بين كلِّ القضايا التي قُدِّمَتْ لصديقي السيد شيرلوك هولمز خلال سنوات صداقتنا بحثًا عن حلول، ثَمَّةَ قضيَّتان فقط كنتُ أنا من لفتَ انتباهه إليهما: قضية إبهام السيد هاذرلي، وقضية جنون الكولونيل ووربرتن. من هاتَين القضيتَين، ربما تكون الثانية قد أتاحت لأي مُراقِبٍ مُبدع دقيق الملاحظة مجالًا أفضل لتوظيف مهاراته. أما القضية الأولى فقد كانت بدايتها شديدة الغرابة، وتفاصيلها شديدة الإثارة لدرجةٍ قد تجعلها الأجدَرَ بالتسجيل، حتى إن قَدَّمَتْ لصديقي هولمز فُرصًا أقل لتطبيق أساليب التفكير المنطقي الاستدلالي التي حقَّق بها مثل هذه النتائج الرائعة. لقد رُوِيَت القصة، حسبما أعتقِد، أكثر من مرَّة في الصحف، ولكن، مثلها مثل كل القصص الأخرى، كان وقْعُها عندما قُدِّمَت دَفْعةً واحدة في نصف عمود مطبوع أقلَّ بكثيرٍ من وقعِها حينما تتكشَّف الحقائق تدريجيًّا أمام عينيك ويزول الغموض شيئًا فشيئًا؛ حيث يُمهِّد كل اكتشافٍ جديد خطوة على الطريق نحو الحقيقة الكاملة. في ذلك الوقت كان للظروف وقْع شديد على نفسي، ولم يُسهِم كثيرًا انقضاء عامين في إضعاف تأثيرها عليَّ.

وقعَتِ الأحداث التي أنا بصدَدِ سردِها الآن بإيجازٍ في صيف عام ١٨٨٩، ليس بعد فترة طويلة من زواجي. كنتُ قد عدتُ للعمل المدَني بعد أن فارقتُ هولمز أخيرًا وهجرتُ الحياة معه في مسكنه في شارع بيكر، ولكنني كنتُ أزوره باستمرار، بل أُقنِعه أحيانًا بأن يتخلَّى عن عاداته البوهيمية إلى حدٍّ قدومه لزيارتنا. زاد عملي باطِّراد، وبما أنَّني كنتُ أعيش على مسافةٍ ليست ببعيدة عن محطة بادينجتون، فقد كان يأتيني عدد قليل من المرضى من الموظفين. لم يَكِلَّ أحد هؤلاء المرضى، والذي كُنْتُ قد عالجتُه من مرضٍ طويلٍ ومؤلم، من نشر مناقِبي، ولا من السَّعي في إرسالي إلى كلِّ مريض قد يكون لذلك الشخص شيء من التأثير عليه.

في صباح أحد الأيام، قبل الساعة السابعة بقليل، استيقظتُ على صوت طرْقِ الخادمة على الباب لتُعلن قدوم رجُلَين قد أتَيا من بادينجتون وينتظران في غرفة الفحص. ارتديتُ ملابسي بسرعة وهُرِعت إلى الطابق السُّفلي، إذ كنتُ أعلم من واقِع التجربة أن الحالات التي تأتي من تلك المحطة نادرًا ما تكون بسيطة. عندما نزلت، خرج صديقي القديم، حارس القطارات، من الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام.

همس وهو يُشير بإبهامه فوق كتفِه قائلًا: «لقد أتيتُ به إلى هنا؛ إنه على ما يُرام.»

«ما الأمر إذن؟» هكذا سألته؛ إذ كانت طريقته تُوحي بأنه يحتجِز مخلوقًا غريبًا في غرفتي.

همس قائلًا: «إنه مريض جديد، فكرت في أن أُحضِره إلى هنا بنفسي؛ وبذلك لن يتمكَّن من الهرَب. وها هو سليمٌ ومعافًى تمامًا. لا بدَّ أن أذهب الآن أيُّها الطبيب، فلديَّ عمل لأقوم به، مثلك تمامًا.» وذهب في الحال هذا المُرَوِّج الموثوق فيه دون حتى أن يمنحني الوقت لأشكُره.

دخلت غرفة الفحص ووجدتُ رجلًا يجلس بجانب الطاولة. كان يرتدي بذلةً بسيطة من صوف التويد ذي الألوان المُختلطة، وقُبَّعة من القماش الناعم كان قد وضعها فوق كُتبي، وكان ملفوفًا حول إحدى يدَيه منديلٌ ملطَّخٌ ببُقَعٍ من الدم. كان شابًّا، أكاد أجزِم أن عُمره لا يزيد على خمسٍ وعشرين سنة، ذا وجهٍ ذكوري قوي؛ ولكنه كان شديد الشحوب، وأعطاني إيحاءً بأنه يُعاني من اضطرابٍ شديد استنزف الشابُّ كلَّ قُواه الذهنية ليُسيطر عليه.

قال: «أنا آسف لإيقاظك في وقتٍ مُبكِّر كهذا أيها الطبيب، ولكنني تعرضتُ لحادثٍ خطير للغاية ليلًا. لقد جئتُ بالقطار هذا الصباح، وبعدما سألتُ في بادينجتون عن مكانٍ قد أجد فيه طبيبًا، تكرَّم أحد الرجال المُحترمين باصطحابي إلى هنا. لقد أعطيتُ الخادمة بطاقة، ولكنني أرى أنها قد تركتْها على الطاولة الجانبية.»

أخذتُ البطاقة وألقَيتُ عليها نظرة. كان مكتوبًا عليها: «السيد فيكتور هاذرلي، مهندس هيدروليكي، ١٦أ شارع فيكتوريا ستريت، الطابق الثالث.» كان هذا هو اسم زائري الصباحي ومِهنته وعنوانه. حدَّثتُه قائلًا وأنا أجلس على مقعد مكتبي: «أعتذِر إليك عن الوقت الذي انتظرتَني فيه. يبدو أنك قد عُدتَ لتوِّك من رحلة ليلية. أتفهَّم هذا. وهو في حدِّ ذاته أمر رتيب.»

ردَّ قائلًا: «أوه، لا يُمكنني وصفُ ليلتي، التي قضيتُها، بالرَّتابة.» ثم ضحك. ضحك ضحكًا شديدًا بنغمةٍ عالية رنَّانة وهو يُرجِع ظهره إلى الخلف ويهزُّ جانبَيه. أثارت هذه الضحكة حفيظةَ كلِّ غرائزي الطبية، فصحتُ قائلًا: «توقف! تمالك أعصابك!» ثم صبَبْتُ له بعض الماء من الإبريق.

ولكن مُحاولتي لتهدئتِه باءت بالفشل، فقد انفجر في واحدة من النوبات الهستيرية التي تصيب الأشخاص أصحاب الطبيعة النفسية القوية بعد مرورهم بأزمةٍ كبيرة وانتهائها. سرعان ما عاد لطبيعتِهِ مرة أخرى، وبدا كما كان؛ مُنهَكًا وشاحبًا للغاية.

شهق قائلًا: «لقد جعلتُ من نفسي أضحوكة.»

«على الإطلاق، اشرب هذا.» صببتُ بعض البراندي في الماء، فبدأتْ حُمرة الدماء تعود لوجنتَيه الشاحبتَين.

قال: «هذا أفضل! والآن أيها الطبيب، أتمنَّى أن تتكرَّم بالعناية بإبهامي، أو على الأرجح بالموضع الذي طالما كان فيه إبهامي.»

فكَّ المنديل من فوق الجُرْح ومدَّ يده. وعلى الرغم من قوَّةِ أعصابي، فقد أصابَني منظره بالقُشَعْريرة. كانت تُوجَد أربع أصابع بارزة وسطح أحمر إسفنجي بَشِع المنظر بدلًا من الإبهام، الذي يبدو أنه قد بُتِرَ أو اقتُطِعَ من جُذوره.

صحتُ قائلًا: «يا إلهي! هذا جُرح فظيع! لا بدَّ أنه نزَفَ الكثير من الدماء!»

«أجل، هذا صحيح. لقد فقدْتُ الوعي عندما قُطِعَ، وأعتقِد أنَّني ظللتُ فاقدًا الوعي لوقتٍ طويل. عندما أفقتُ وجدتُه لا يزال ينزف؛ لذا ربطتُ أطراف منديلي حول معصمي بإحكامٍ ثُمَّ استخدمتُ غُصَيْنًا كدعامة.»

«ممتاز! كان يجِب أن تصير جرَّاحًا.»

«إنها مسألة هيدروليكية كما ترى، وهو تخصُّصي.»

قلتُ وأنا أفحص الجُرح: «لقد أحدثتْ آلةٌ حادَّة وثقيلة للغاية هذا الجُرح.»

ردَّ قائلًا: «إنه شيء يُشبِهُ الساطور.»

«حادثٌ حسبما أعتقِد. أليس كذلك؟»

«لا، مُطلقًا.»

«ماذا! هجومٌ دامٍ إذن؟»

«شديد الدموية بالفعل.»

«إنك تُرعِبني.»

أزلتُ الدماء من فوق الجرح ونظَّفتُه ووضعتُ عليه شاشًا ثم غطَّيته أخيرًا بقِطعة من القُطن وضمَّادةٍ مُطهِّرة بالفينول. كان مُستلقيًا دون أن يَرمُش له جفن، ولكنه كان يَعَضُّ على شفتَيه ألَمًا بين وقتٍ وآخَر.

سألته عندما انتهيت: «كيف تشعُر؟»

«ممتاز! بعد البراندي والضمادَّات أشعُر كأنني إنسان جديد! لقد كنتُ واهنًا للغاية، ولكنني تعرَّضتُ للكثير من الصعاب.»

«ربما من الأفضل ألا تتحدَّث عن الأمر؛ فمن الواضح أنه يُتعِب أعصابك.»

«أوه لا! ليس الآن. يجِب أن أُبلغ الشرطة بحكايتي، ولكن لا أخفيك سرًّا، لولا هذا الجرح الذي يُمثِّل دليلًا مُقنعًا كنت سأندهش إن صدَّقوا روايتي؛ فهي شديدة الغرابة وليس لديَّ الكثير من الأدلَّة لتدعمها. وحتى إن صدقوني، فالقرائن التي يُمكنني أن أقدِّمها لهم غامضة للغاية، حتى إنَّ تطبيق العدالة سيصير أمرًا محلَّ شك.»

صحت قائلًا: «ها! إن كان الأمر له طابع المشكلة وترغب في حلِّها، فأنصحك بشدَّة بأن تأتي لزيارة صديقي السيد شيرلوك هولمز قبل أن تتوجَّه إلى الشرطة.»

ردَّ زائري قائلًا: «أوه، لقد سمعتُ عن هذا الرجل، وسأكون سعيدًا للغاية إن قبل تولِّي الأمر، رغم أنه يجِب أيضًا أن ألجأ إلى الشرطة الرسمية. هل يُمكنك أن تُخبرني نُبْذة عنه؟»

«سأفعل ما هو أفضل، سأصطحبك إليه بنفسي.»

«سأكون في غاية الامتنان لك.»

«سنطلب عربة أجرة ونذهب سويًّا؛ سنصل في الوقت المناسب تمامًا لتناول وجبة إفطار خفيفة معه. هل أنت قادر على ذلك؟»

«أجل؛ لن أشعُر بالراحة حتى أقُصَّ حكايتي.»

«سيطلُب خادمي عربة أجرة إذن، وسأكون معك بعد لحظة.» هُرِعت إلى الطابق العلويِّ وشرحت الأمر بإيجاز لزوجتي، وفي غضون خمس دقائق كنتُ داخل عربة أجرة يجرُّها حصان مع رفيقي الجديد في طريقنا إلى شارع بيكر.

كما توقعت، كان شيرلوك هولمز يجلس مُسترخيًا في غرفة جلوسه يقرأ عمود مشكلات القرَّاء بجريدة ذا تايمز وهو يرتدي روبه ويُدخِّن غليونه الروتيني قبل الإفطار، وهو غليون يتكوَّن من بواقي تبغ اليوم السابق الذي يُجفِّفه ويجمعه بحرصٍ ويضعه في ركنٍ على رفِّ الموقد. استقبَلَنا بأسلوبه الهادئ اللطيف، وطلب إعداد شرائح من لحم الخنزير والبيض،

وشاركنا تناول تلك الوجبة الدسمة. بعد انتهائنا من الإفطار، هيَّأ لرفيقنا الجديد جِلْسةً مُريحة على الأريكة، واضعًا وسادة تحت رأسه وكأسًا من البراندي والماء في مُتناول يدِه.

قال شيرلوك: «من السهل رؤية أن التَّجْرِبة التي مررْتَ بها لم تكن عاديَّة يا سيد هاذرلي. أرجوك استلقِ هناك واعتبِر نفسك في بيتك تمامًا. أخبرنا بقدْر ما تستطيع، ولكن توقَّف عندما تشعُر بالتعب، وحافظ على قوتك باحتساء القليل من هذا المُنَبِّه.»

ردَّ مريضي قائلًا: «أشكرك، ولكنني أشعُر كأنَّني إنسان جديد منذ أن ضمَّد الطبيب جُرحي، وأعتقد أن إفطارك قد أتمَّ شفائي. سآخُذ من وقتك الثمين أقلَّ قسطٍ ممكن؛ لذا سأبدأ على الفور بسرْد تَجْرِبتي الغريبة.»

جلس هولمز في مقعده الكبير وقد ارتسم على وجهه ذلك التعبير المُرهَق الناعِس الذي يُخفي طبيعته المُتحمِّسة المُتَّقِدة، بينما جلستُ أمامه، واستمعنا بإنصاتٍ إلى القصة الغريبة التي سرد لنا زائرنا تفاصيلها.

استهل قصته قائلًا: «لا بدَّ أن تعرفوا أنَّني يتيم وعَزَب أعيش وحدي في مسكنٍ مُستأجَر في لندن. أعمل مهندسًا هيدروليكيًّا، وقد اكتسبتُ خبرةً كبيرة في هذا المجال خلال السنوات السبع التي كنتُ أعمل فيها تحت التدريب في شركة فينر آند ماثيسُن المعروفة في جرينيتش. بعد أن أتممتُ فترة عملي تحت التدريب منذ عامين. وبعدما ورثتُ قدرًا لا بأس به من المال بعد وفاة أبي المسكين، قررتُ أن أبدأ عملي الخاصَّ واستأجرتُ شقةً مكتبية في شارع فيكتوريا ستريت.

أعتقد أن الجميع يجدون انطلاقتهم الأولى المُستقلَّة في عالم الأعمال تجربة بائسة. بالنسبة إليَّ كانت بائسة بصورةٍ غير عادية؛ فخلال عامين لم أستقبل إلا ثلاث استشارات ومشروعًا واحدًا صغيرًا، وهذا هو كلُّ ما جلبتْهُ لي مِهنتي. بلَغَ إجمالي إيراداتي ٢٧ جنيهًا إسترلينيًّا و١٠ شلنات. كنتُ أظلُّ مُنتظرًا في مقرِّي الصغير يوميًّا من التاسعة صباحًا إلى الرابعة مساءً، وأخيرًا بدأ القُنُوط يستولي على قلبي، وصرتُ أعتقد أنه لم يكن يجدُر بي أن أبدأ عملي الخاص من الأساس.

لكن أمس بينما كنتُ أفكِّر في مُغادَرة المكتب، دخل مُساعدي ليُخبرني أن ثَمَّ رجلًا ينتظرني ويرغب في رؤيتي ليُناقِش مسألة عمل، وقدَّم لي بطاقةً منقوشًا عليها اسم «الكولونيل ليساندر ستارك». دخل في عِقب مساعدي مباشرة الكولونيل نفسه؛ كان رجلًا طوله فوق المتوسط، ولكنه شديد النحافة. لا أعتقد أنني قد رأيتُ رجلًا بمِثل هذه النحافة مُطلقًا من قبل. بدا وجهه وكأنه اختُزِل في أنفٍ وذقن، وكان جلد وجنتَيه مشدودًا للغاية

على عظامه البارزة. وعلى الرغم من ذلك، فقد بدا أن هذا النُّحول هو طبيعته الأصلية، وليس بسبب مرضٍ ما، إذ كان لامع العينَين، رشيقَ الخُطى، واثِق السَّمت. كان يرتدي ملابس بسيطة، ولكنه حسَن الهندام، وكان عمره — في تقديري — أقرب إلى الأربعين من الثلاثين.

بادَرَني بشيءٍ من اللهجة الألمانية قائلًا: «هل أنت السيد هاذرلي؟ لقد رُشِّحتَ لي يا سيد هاذرلي، ليس فقط لكونك بارعًا في مِهنتك، بل كتومًا وحافظًا للسِّرِّ أيضًا.»

كأيِّ شابٍّ في موقفٍ مُشابِهٍ انحنيتُ شاكرًا وأنا أشعُر بالإطراء لِما قاله. وسألته: «هل لي أن أسأل مَن الذي وصفَني بهذه الصِّفات الحميدة؟»

فردَّ قائلًا: «حسنًا، ربما من الأفضل ألَّا أُخبرك بذلك حاليًّا. لقد عرفتُ من المصدر نفسه أنك يتيم وعَزَب، وأنك تُقيم وحدَك في لندن.»

أجبتُه قائلًا: «هذا صحيح تمامًا، ولكن عذرًا، أنا لا أعلم ما هي صِلة كلِّ هذا بمُؤهِّلاتي المِهنيَّة. كنتَ ترغبُ في التحدُّث معي بخصوص مسألةٍ تتعلَّق بالعمل كما أفهم. صحيح؟»

«بلا شك، ولكنك ستجِد أن كلَّ ما أقوله وثيق الصِّلة بصُلب الموضوع. لديَّ عمل لأوكله إليك، ولكنَّ السِّرِّيَّة التَّامَّة ضروريَّة جدًّا؛ السِّرِّيَّة التَّامَّة، كما تفهم. وبالطبع نحن نتوقَّع توافُر ذلك في رجلٍ يعيش وحده مُقارنة بمن يعيش في كنَفِ عائلته.»

أجبتُه قائلًا: «إذا قطعتُ وعدًا بأن أحفظ سرًّا، فاطمئنَّ تمامًا أنَّني سأحفظه.»

كان ينظر إليَّ بحدَّة شديدة وأنا أتحدَّث، وبدا لي أنَّني لم أُشاهِد هذا القدْر من التشكُّك والتساؤل في عَين أيِّ شخصٍ من قبل.

ردَّ أخيرًا: «هل تعِدُني إذن؟»

«أجل، أعِدُك.»

«تعِدُني بالسِّرِّيَّة التَّامَّة والمُطلَقة قبل المهمَّة وأثناءها وبعد الانتهاء منها، وبألا تذكُر الأمر لا من قريب ولا من بعيد لا كتابة ولا شفاهة؟»

«لقد قطعتُ عهدًا لك بذلك بالفعل.»

ردَّ قائلًا: «جيد جدًّا.» ثم نهض فجأة وانطلق كالبرْق عبر الغُرفة وفتح الباب على مصراعيه. كان الممرُّ بالخارج خاليًا.

قال وهو يَدْلُف داخلًا مرة أخرى: «كل شيء على ما يُرام. أعلم أن المُوظَّفين يتملَّكهم الفضول أحيانًا لمعرفة شئون رؤسائهم، ولكن الآن يُمكننا التحدُّث بأمان.» سحب مقعده بالقُرب منِّي جدًّا وبدأ يُحدِّق فيَّ مجدَّدًا بالنظرة الفاحِصة المُتسائلة نفسها.

بدأ شعور بالنفور وشيء من الخوف يتنامى داخلي بسبب السلوكيَّات الغريبة لهذا الرجل النحيل، وحتى خَوفي من خسارة عميل لم يمنَعْني من التعبير عن نفادِ صبري.

فقلت: «أخبِرْني بما تُريد يا سيدي من فضلك؛ إن وقتي ثمين.» ليُسامحني الرَّبُّ على هذه العبارة الأخيرة، ولكنَّني قلتُها دون تفكير.

سألني قائلًا: «هل يُناسِبك خمسون جنيهًا للعمل في الليلة؟»

«يُناسِبني جدًّا.»

«أقول إن المبلغ هو لقاء العمل في ليلةٍ واحدة، ولكنه، بتعبيرٍ أدقَّ، سيكون لقاء العمل في ساعةٍ واحدة. أحتاج ببساطةٍ إلى مشورتك بشأن ماكينة دمغ هيدروليكيَّة قد أصابها عطل. إذا وضعْتَ يدك على المُشكلة، فسيُمكننا أن نُصلِحها بأنفسنا، فما رأيك في مثل هذه المهمَّة؟»

«يبدو أنه عمل سهل والأجر لقاءه سخيٌّ.»

«بالضبط. نرغب في أن تأتي الليلة مُستقلًّا آخر قطار.»

«إلى أين؟»

«إلى آيفورد في بيركشير. إنه مكان صغير بالقُرب من حدود أكسفوردشير، وعلى بُعد سبعة أميال من ريدينج. ينطلِق قطار من بادينجتون سيوصلك إلى هناك في حوالي الحادية عشرة والربع.»

«جيد جدًّا.»

«سآتي في عربة لاستقبالك.»

«إذن، هل يعني هذا أنَّنا سنقطع مسافةً كبيرة لنصِل؟»

«أجل، يقع مكاننا الصغير في منطقة ريفية بعيدة إلى حدٍّ ما. إنه على بُعد سبعة أميال من محطة آيفورد.»

«إذن لن نصِل هناك قبل مُنتصف الليل. أعتقِد أنه لن تكون هناك فرصة للعودة بالقطار. سأكون مُجبرًا على قضاء الليلة هناك.»

«أجل، يُمكِننا أن نُدبِّر لك فراشًا للنوم بكلِّ سهولة.»

«هذا غريب جدًّا. ألا يُمكنني أن آتي في وقتٍ أكثر مُلاءمة؟»

«لقد رأيْنا أنه من الأفضل أن تأتي في ساعةٍ مُتأخِّرة. ولكي نُعوِّضك عن أيِّ مصاعِب، سندفع لشابٍّ غير معروف مثلك هذا الأجر الذي يُمكننا دفعه لاستشارة كبار الخُبراء في مِهنتك. ولكن بالطبع إذا كنتَ ترغبُ في الانسحاب من هذه المهمَّة، فهناك مُتَّسع من الوقت لذلك.»

فكرتُ في الخمسين جنيهًا وكم ستكون مُفيدة جدًّا لي، فقلت له: «لا، إطلاقًا، سأكون في غاية السعادة أن أُوفِّق أموري طبقًا لرغباتك. ولكنني أودُّ أن أفهم بصورةٍ أوضح، ما الذي تُريدُني أن أفعله.»

«بالتأكيد. من الطبيعيِّ تمامًا أن يُثير فضولَك طلبُنا بالتعهُّد بالسِّرِّيَّة. لا رغبة لديَّ في أن أفرض عليك أيَّ شيءٍ دون أن تكون كلُّ الأمور واضحةً أمامك. أعتقد أننا في أمانٍ تامٍّ من مُسترِقي السمع. صحيح؟»

«أجل، في أمانٍ تام.»

«حسنًا، الموضوع كما يلي؛ أنت تدري على الأرجح أن مادة تُراب القصَّار مُنتَجٌ قيِّم، وأنه غير موجود إلَّا في مكانٍ واحدٍ أو اثنين فقط في إنجلترا. أليس كذلك؟»

«لقد سمعتُ بالأمر.»

«اشتريتُ مكانًا صغيرًا منذ وقتٍ قصير؛ مكانًا صغيرًا جدًّا، على بُعد عشرة أميال من ريدينج. كنتُ محظوظًا بما يكفي لأكتشف وجود مخزونٍ من تُراب القصَّار في أحد حقولي. ولكن بعدما فحصته، وجدتُ أنَّ كمية هذا المخزون كانت قليلةً نسبيًّا، وأنها قد اتَّصلتْ بكمِّيَّتَين أُخريَين كبيرتين جدًّا إلى اليمين واليسار، لكن كلتيهما كانتا تقعان في أرض جيراني. هؤلاء الجيران الطيبون جاهلون تمامًا بأن أرضهم تحتوي على مثل هذا المخزون الذي يُضاهي في قيمته منجمًا للذهب. كنتُ بطبيعة الحال مُهتمًّا بأن أشتري أرضهم قبل أن يكتشفوا قيمتها الحقيقية، ولكن للأسف لم يكن لديَّ ما يكفي من رأس المال لشرائها. عندما أطلعتُ القليل من أصدقائي على السِّرِّ، اقترحوا أن نستخرج مخزوننا الضئيل في هدوءٍ وسرِّيَّة ونبيعه لنحصُل على المال الذي سيُمكِّننا من شراء الحقول المُجاوِرة. وهذا هو ما ظللْنا نفعله لبعض الوقت، وأقمْنا مكبسًا هيدروليكيًّا ليُساعدنا في هذه العملية. هذا المكبس، كما سبق أن شرحتُ لك، قد تعطَّل عن العمل، ونرغب في استشارتك بشأن هذا، ولكننا نُحافظ على سرِّنا بحرصٍ شديد، ومن ثَمَّ، لو علِم أحد بقدوم مهندسين هيدروليكيِّين إلى منزلنا الصغير، فسيُثير الأمر الشكوك على الفور، ولو خرجتِ الحقيقة إلى النور، فستكون تلك هي نهاية أيِّ أملٍ لنا في الحصول على هذه الحقول وتنفيذ ما قد خططنا له. لذلك جعلتك تقطع وعدًا لي بأنك لن تُخبر أي شخصٍ بذهابك إلى آيفورد الليلة. هل كلُّ شيءٍ واضح الآن؟»

فأجبته قائلًا: «أفهمك تمامًا. النقطة الوحيدة التي لم أتمكَّن من فهمها بالكامل هي جدوى استخدام مكبس هيدروليكي في استخراج تُراب القصَّار الذي، كما أفهم، يُمكِن استخراجه كما يُستخرَج الحصى من حفرة.»

ردَّ بلا مُبالاة قائلًا: «أوه! لنا طريقتُنا الخاصة؛ إذ إننا نضغط التربة حتى تتشكَّل على هيئة قوالب من الطوب بحيث يُمكننا نقلُها دون أن تنكشِف حقيقتُها. ولكن هذه مجرَّد تفاصيل لا تهمُّ. إنني ائتمنتُك على سرِّي الآن يا سيد هاذرلي، ولقد أثبتُّ لك مدى ثِقتي فيك.» نهض وهو يستكمِل حديثه قائلًا: «سأنتظرك إذن في آيفورد في الحادية عشرة والربع.»

«سأكون هناك بالتأكيد.»

«أذكِّرك ألا تنبس ببنت شفةٍ عن الأمر أمام أي مخلوق.» رمَقَني بنظرةٍ مُتشكِّكة طويلة وأخيرة، ثم صافَحَني ضاغطًا على يدي بقبضةٍ باردة رطبة، وخرج مُسرعًا من الغرفة.

حسنًا، عندما أعدتُ التفكير في الأمر بهدوء، ذُهِلتُ كثيرًا، كما قد تعتقدان، لهذه المهمة المفاجئة التي ائتُمِنتُ عليها. فمن ناحيةٍ كنت مسرورًا بالطبع لأن الأجر كان يفوق، عشر مرَّات على الأقل، ما كنتُ سأطلبه لو كان لي أن أُحدِّد سعرًا لخدماتي، وكان من المُحتمَل أن تجلُب لي هذه المهمَّة مهامَّ أخرى. ولكن من ناحيةٍ أخرى، ترك وجه عميلي وسلوكه انطباعًا سيِّئًا في نفسي، ولم أقتنِع أنَّ شرحه لمسألة تُراب القصَّار كان كافيًا لتفسير ضرورة قدومي في مُنتصف الليل، إلى جانب قلقه الشديد من أن أُخبِر أي شخصٍ عن مهمَّتي. ومع ذلك، فقد طرحتُ كلَّ مخاوفي جانبًا، وتناولتُ عشاءً دسمًا، وذهبتُ إلى بادينجتون، وبدأتُ رحلتي ملتزمًا تمامًا بتحذيره من أن أُخبر أحدًا عن الأمر.

في ريدينج، كان عليَّ أن أُغيِّر ليس فقط عربتي، بل المحطة أيضًا. وعلى الرغم من ذلك، وصلتُ في الوقت المناسب واستقللتُ آخِر قطارٍ مُتَّجِهٍ إلى آيفورد، ووصلتُ المحطة الصغيرة ذات الإضاءة الخافتة بعد الحادية عشرة. كنتُ أنا الراكب الوحيد الذي نزل في تلك المحطة، وخلا رصيف المحطة إلا من حَمَّالٍ واحدٍ ناعسٍ يُمسك بفانوس. ولكن بينما كنتُ أعبر البوابة الصغيرة وجدتُ رفيقي الذي تعرَّفتُ عليه صباحًا ينتظرني في الظلام في الجهة المُقابِلة. أمسكَ بذراعي دون أن ينطق كلمةً واحدة وأسرع بي نحو العربة التي كان بابها مفتوحًا بالفعل. أغلق النوافذ الموجودة على الجانبَين، ودقَّ على الجُزء الخشبي من العربة، فانطلقْنا بأقصى سُرعة مُمكنة للفرَس.»

قاطَعَه هولمز قائلًا: «فرس واحد؟»

«أجل، واحد فقط.»

«هل لاحظتَ لونَه؟»

«أجل، لقد رأيتُه من خلال الأضواء الجانبية بينما كنتُ أستقلُّ العربة؛ كان كستنائيًّا.»

«هل كان يبدو مُتعبًا أم نشيطًا؟»

«أوه، لقد كان نشيطًا ولامعًا.»

«أشكرك، أعتذِر عن مُقاطعتك. استكملْ روايةَ قصتك المُثيرة أرجوك.»

«انطلقْنا في رحلتنا التي استغرقتْ ما لا يقلُّ عن ساعة. كان الكولونيل ليساندر ستارك قد قال إنَّ وِجهتنا على بُعد سبعة أميالٍ فقط، ولكن نظرًا إلى المُعدَّل الذي كنَّا نسير به والوقت الذي استغرقْناه أعتقد أنها كانت تبعُد — بالتأكيد — حوالي اثني عشر ميلًا. كان يجلس بجانبي في صمتٍ تامٍّ طوال الوقت، وقد لاحظتُ أكثر من مرةٍ عندما كنتُ أسترِق النَّظر ناحيته أنه كان ينظُر إليَّ بتركيزٍ وحِدَّة شديدَين. بدا أن الطُّرق الريفية ليست بحالةٍ جيدة في ذلك الجزء من العالم؛ إذ إنَّنا كنَّا نتمايل ونهتزُّ بشدة. حاولتُ أن أنظر من النوافذ لأرى شيئًا يُميِّز موقعنا، ولكنها كانت مصنوعة من الزجاج المُسنفر، فلم أستطع تمييز أيِّ شيءٍ عدا الومضات الساطعة لأضواءٍ عابرة. كنتُ أغامر بين حينٍ وآخر بإطلاق بعض التعليقات لكسْر رتابة الرحلة، ولكن ردود الكولونيل كانت شديدة الاقتضاب، وسرعان ما ذَوِيَ الحديث تمامًا. ولكن أخيرًا، تبدَّلت الاهتزازات الحادَّة للطريق بالتمايُل السَّلِس لمَجَاز زَلَطِي، إلى أن توقَّفَتِ العربة. نهض الكولونيل ليساندر ستارك خارجًا من العربة، وبينما كنتُ أتبعُه، جذَبَني بسرعةٍ نحو رُوَاق كان أمامنا مُباشرة، وكأنَّنا قد خرجْنا من العربة وخطَوْنا داخل الرُّوَاق مُباشرة، حتى إنني فشِلتُ في أن ألتقط نظرةً خاطفة على الجزء الأمامي من المنزل. وبمجرَّد أن تجاوزتُ عتبة الباب، أُغلِقَ الباب خلفي بعُنف، وبالكاد سمعتُ قعقعةَ العجلات بينما كانت العربة تنطلِق بعيدًا.

كان الظلام حالكًا داخل المنزل، وراح الكولونيل يتحسَّس خطواته بحثًا عن أعواد الثقاب وهو يغمغم بكلمات. فجأة، انفتح باب في نهاية الجهة الأخرى من الممرِّ وانبثقت منه حزمة طويلة من الضوء الذهبي في اتِّجاهنا. اتَّسعت حزمة الضوء أكثر، ثم ظهرت امرأة تحمِل مصباحًا في يدها، كانت تُمسك به فوق رأسها، وكانت تمدُّ وجهها للأمام وتُمعِن النظر فينا. كان بإمكاني ملاحظة أنها كانت جميلة، وعرفتُ من لَمَعان ردائها الداكن الذي

انعكس الضوء عليه أنه كان مصنوعًا من خامة فاخرة. قالت بضعَ كلماتٍ بلغةٍ أجنبية ونبرة تُوحي بأنها تطرح سؤالًا، وعندما أجاب رفيقي في فظاظةٍ بكلمة واحدة جفلت بشدَّة حتى كاد المصباح يسقط من يدها. مشى الكولونيل ستارك نحوَها، وهمس بشيءٍ في أُذنها، ثم دفعها نحو الغرفة التي كانت قد خرجتْ منها، وسار نحوي مرةً أخرى وهو يحمِل المصباح في يده.

قال لي وهو يفتح بابًا آخَر على مصراعيه: «هلَّا تكرَّمتَ بالانتظار في هذه الغرفة لبضع دقائق؟» كانت غرفةً صغيرة هادئة ذات أثاثٍ بسيط، وطاولة مُستديرة في منتصفها مُبعثَر عليها العديد من الكتب الألمانية. وضع كولونيل ستارك المصباح فوق آلة هارمونيوم بجانب الباب، وقال: «لن أُبقيك مُنتظرًا طويلًا.» ثم اختفى في الظلام.

ألقيتُ نظرةً سريعة على الكتب المُلقاة على الطاولة. وعلى الرغم من جهلي باللغة الألمانية، استطعتُ أن أُميِّز أنَّ اثنين منها كانا دراساتٍ حول العلم، أما الكتب الأخرى فقد كانت مُجلَّدات شِعريَّة. سرتُ بعد ذلك نحو النافذة آمِلًا أن ألمح شيئًا من الريف، ولكنَّني وجدتُ عليها شُبَّاكًا من البلُّوط مُغلقًا بإحكام شديد. كان منزلًا مُدهِش الهدوء؛ كان كلُّ شيءٍ غارقًا في سكون تامٍّ لا يقطعُه إلا دقَّاتٌ عالية صادِرة من ساعةٍ قديمة في مكانٍ ما في المَمر. بدأ شعور غامض بعدَم الارتياح يتملَّكني؛ مَن هؤلاء الألمان؟ وماذا يفعلون وهم يعيشون في هذا المكان الغريب النائي؟ أين يقع هذا المكان أصلًا؟ لقد كنتُ على بُعد عشرة أميال تقريبًا من آيفورد. هذا هو كل ما كنتُ أعرفه، ولكنني لم أكن أعلم ما إن كان يقَع شمالًا أم جنوبًا؛ شرقًا أم غربًا. لكن مدينة ريدينج، وربما مُدن كبيرة أخرى، كانت تقع ضِمن ذلك النطاق؛ لذا فقد لا يكون المكان نائيًا تمامًا على أيِّ حال. ومع ذلك، فقد كان الهدوء المُطبِق يؤكِّد بما لا يدع مجالًا للشكِّ أننا كنَّا في الريف. ذرَعتُ الغرفة ذَهابًا وإيابًا وأنا أُدندِن لحنًا بصوتٍ خفيض حتى أُحافظ على معنوياتي وأفكر في أنني بصدَد الحصول على الخمسين جنيهًا كاملة.

فجأة، وبدون أي صوتٍ مُسبق وسط هذا الصمت المُطبِق، انفتح باب غرفتي ببطء. أطلَّت المرأة من الجزء المفتوح من الباب غارقةً في ظلام الردهة خلفها، والضوء الأصفر المُنبعِث من مصباحي يُضيء وجهها الجميل المُتلهِّف. أدركتُ في نظرةٍ خاطفة أنها كانت خائفة بشدَّة، وسَرَتْ رعدةٌ في جسدي عند رؤيتها على تلك الحال. رَفَعَت إصبعًا واحدةً مُرتعِشة لتُحذِّرني بأن أبقى صامتًا، وهمستْ إليَّ ببعض الكلمات الإنجليزية الركيكة وعيناها تنظُران سريعًا إلى الظلام خلفها كعينَي فرسٍ وجِلة.

قالت وهي تحاول جاهدة، كما بدا لي، أن تتحدَّث بهدوء: «سأذهب، سأذهب. يجِب ألَّا أبقى هنا. لا فائدة من وجودك هنا.»

فأجبتُ قائلًا: «ولكنني لم أُنجز بعدُ ما جئتُ من أجله يا سيِّدتي. لا يُمكنني أن أذهب بأيِّ حالٍ من الأحوال قبل أن أرى الماكينة.»

أردفتْ قائلة: «لا يستحقُّ الأمر أن تُضيِّع وقتك في الانتظار. يُمكنك أن تمرَّ عبر الباب؛ لن يعترِضك أحد.» وعندما وجدَتْني أبتسِم وأهزُّ رأسي، تخلَّت عن هدوئها وتقدَّمت خطوةً إلى الأمام وهي تفرك يديها، وهمستْ قائلة: «بحقِّ الرب! اذهبْ من هنا قبل أن يفوت الأوان!»

لكنني عنيد نسبيًّا بطبيعتي، وأُصبِح أكثرَ استعدادًا للانخِراط في أمرٍ ما حين تبرُز لي الصعاب دونه. فكرتُ في الخمسين جُنيهًا وفي رحلتي المُرهِقة وفي الليلة المُزعِجة التي ما زالتْ أمامي كما يبدو. هل سيضيع كلُّ هذا هباءً؟ لِمَ يتوجَّب عليَّ أن أنسلَّ خلسةً قبل إتمام مهمَّتي وقبل أن أحصل على أجري المُستحَق؟ لربَّما تكون هذه المرأة مهووسة. على الرغم من أن أسلوبها قد أفزَعني أكثر مِمَّا أُحِبُّ أن أعترِف، فقد هززتُ رأسي في إصرارٍ وثبات، وأعلنتُ عن نِيَّتي في البقاء. كانت على وشْكِ أن تُجدِّد توسُّلاتها، عندما سمِعْنا صوتَ صَفْق أحد الأبواب في الأعلى، تلاه صوتُ عدَّةِ خطواتٍ على السُّلَّم. أنصَتَت المرأة للحظة، ثم استسلمتْ بإيماءةٍ يائسة واختفتْ فجأةً وبهدوءٍ كما أتت.

كان القادمان الجديدان هما الكولونيل ليساندر ستارك ورجلًا قصيرًا سمينًا ذا لحيةٍ تُشبِه فراء حيوان الشنشيلة، وتنبُت من تجاعيد لُغْده، وقد قدَّمه لي على أنه السيد فيرجسون.

قال الكولونيل: «هذا هو سكرتيري ومدير أعمالي. بالمُناسبة، أظنُّ أنني قد أبقيتُ هذا الباب مُغلقًا للتَّو. أخشى أن تكون قد شعرتَ بتيَّار هواءٍ ضايقك.»

فأجبتُ قائلًا: «على العكس؛ أنا من فتحتُ الباب، إذ إنَّني شعرتُ بأن الغرفة خانِقة قليلًا.»

رمقَني بإحدى نظراته المُتشكِّكة وقال: «ربما من الأفضل أن نشرع في العمل إذن. سأصحبُك أنا والسيد فيرجسون إلى الأعلى لترى الماكينة.»

«أعتقد أنه من الأفضل ارتداء قُبَّعَتي.»

«أوه لا، إنها في المنزل.»

«ماذا؟ هل تحفُر بحثًا عن تُراب القصَّار في المنزل؟»

«لا لا، إننا نضغطه هنا فقط، ولكن لا عليك بذلك. كل ما نُريده منك هو أن تفحص الماكينة وتُخبِرنا بما أصابها.»

صعدنا السلم سويًّا، يتقدَّمُنا الكولونيل وهو يحمِل المصباح ويتبعُه مدير أعماله السمين، ثم أنا في المؤخرة. كان ذلك المنزل القديم كالمتاهة يمتلئ بالممرَّات والأروقة والسلالم الضيقة الملتوية والأبواب الصغيرة المُنخفضة التي كانت عتباتها مُجوَّفة بفعل الأجيال التي وَطِئَتها. لم يكن هناك سجَّاد ولا أي إشارات تدلُّ على وجود أثاث فوق الطابق الأرضي، بينما كان الجصُّ مُقشَّرًا من الجُدران التي كانت تخترِقها الرطوبة، مُخلِّفةً بُقعًا خضراء غير صحية. حاولتُ بقدر الإمكان أن أتظاهر بعدم القلق، لكنني لم أنسَ تحذيرات السيدة على الرغم من أنَّني قد تجاهلتُها، وأبقيتُ عينَيَّ يَقظتَين مُتابعًا رفيقَي. كان يبدو أن فيرجسون رجل كئيب صَموت، ولكنني تبيَّنتُ من الكلام القليل الذي قاله أنه كان على الأقلِّ إنجليزيًّا مِثلي.

توقَّف الكولونيل ليساندر ستارك أخيرًا أمام بابٍ مُنخفِضٍ وفتَحَه. خلْفَ الباب كانت غرفة صغيرة مُربعة، بالكاد يتمكَّن ثلاثتُنا من دخولها في وقتٍ واحد. ظلَّ فيرجسون بالخارج، بينما قادَني الكولونيل إلى داخل الغرفة.

بادَرَني قائلًا: «إنَّنا الآن داخل المكبس الهيدروليكي في الواقع، وسيكون أمرًا غير سارٍّ لنا تمامًا لو أقدم أيُّ شخصٍ على تشغيله. إنَّ سقف هذه الغرفة الصغيرة هو في الحقيقة نهاية المكبس الهابط الذي يهوي على هذه الأرضية المعدنية بقوَّة أطنانٍ كثيرة. تُوجَد أعمدة جانبية صغيرة من الماء بالخارج تستقبِل القوة وتَنْقُلُها وتُضاعِفها بالطريقة المألوفة بالنسبة إليك. تعمل الماكينة بسرعة كافية، ولكن حركتها مُتصلِّبة بعض الشيء، كما أنها فقدَتْ قليلًا من قُوَّتها. تَفَضَّل بفحصها وأخبِرْنا كيف يُمكِننا إصلاحها.»

أخذتُ منه المصباح وفحصتُ الماكينة بدقَّةٍ شديدة؛ كانت ضخمة بحقٍّ وقادِرة على بذْل ضغطٍ هائل. لكنَّني عندما ألقيتُ نظرةً من الخارج وضغطتُ على الروافع التي تتحكَّم فيها إلى أسفل، علمتُ على الفور، من صوتِ الحفيف، بوجود تسرُّبٍ طفيف، وهو ما تسبَّب في ارتجاع المياه من خلال إحدى الأسطوانات الجانبية. بعد الفحص تبيَّن أن واحدًا من الأربطة المطاطية الموجودة حول رأس عمود التَّوجيه قد تقلَّص حجمه بحيث إنه لم يعُدْ يملأ التجويف الذي يدور حوله. كان هذا هو السبب الواضح لفقدان الطاقة، وهو ما أوضحتُه لرفيقَيَّ اللَّذَين كانا يُتابِعان مُلاحظاتي بحرصٍ شديد ويسألان العديد من الأسئلة

العملية حول كيفية الشروع في إصلاح العُطل. بعدما شرحتُ لهما الأمر بوضوحٍ عدتُ إلى الغرفة الرئيسية للماكينة وألقيتُ عليها نظرةً فاحِصة لأُشبِع فضولي الشخصي. من نظرةٍ واحدة، كان من الجَليِّ أن قصة تُراب القصَّار هذه ما كانت إلا محضَ كذِب؛ إذ إنه من السخيف الافتِراض أن مُحرِّكًا بهذه القوة قد صُمِّمَ لتنفيذ مثل هذا الغرَض التافِه. كانت الجُدران مصنوعة من الخشب، أما الأرضية فكانت مكوَّنة من حوضٍ حديدي كبير، وعندما أقدمتُ على فحصه، رأيتُ سطحه مُغطًّى تمامًا بقِشرةٍ من الرواسب المعدنية. كنتُ قد انحنيتُ وبدأتُ أَكْشِط هذه القشرة لأرى ما هي بالضبط عندما سمعتُ صيحةَ تعجُّبٍ هامسةً بالألمانية ورأيتُ وجه الكولونيل الهزيل ينظر إلى الأسفل نحوي.

سألني قائلًا: «ما الذي تفعله عندك؟»

شعرتُ بالغضب من أنني قد خُدعتُ بمثل هذه القصة المُحكَمة التي أخبرَني بها. رددتُ قائلًا: «كنتُ أبدي إعجابي بتُراب القصَّار الخاص بك؛ أعتقد أنني سأكون أقدْرَ على تقديم النُّصح فيما يخصُّ ماكينتك لو عرفتُ الغرض الذي تُستخدَم فيه بالضبط.»

بمجرَّد التلفُّظ بتلك الكلمات شعرتُ بالندم على تسرُّعي في الحديث. اكتسى وجهه الصرامةَ والجمود، ولمعتْ عيناه الرماديَّتان بنظرة تهديد.

وقال: «حسنًا، ستعرِف كلَّ شيء عن الماكينة.» تراجَعَ خطوةً إلى الوراء وصَفَق الباب الصغير، وأدار المفتاح في القُفل. هُرِعتُ نحو الباب ورحتُ أجذب المِقبض، ولكنه كان مُوصدًا تمامًا ولم يُؤَثِّر فيه لا الرَّكلُ ولا الدفع. صحتُ قائلًا: «النجدة! النجدة! يا كولونيل! أخرجوني!»

وفجأةً سمعتُ صوتًا مَزَّق الصمتَ وألقى الرُّعبَ في قلبي؛ كان صوتَ قعقعة الروافع وحفيف الأسطوانة المُسرِّبة. لقد أدار المُحرِّك. كان المصباح لا يزال موجودًا على الأرض في المكان الذي كنتُ قد وضعتُه فيه عندما كنتُ أفحص الحوض. عرفتُ من ضوئه أن السقف الأسود كان ينحدِر نحوي ببطءٍ وهو يهتز، ولكن بقوة كفيلة بأن تسحقَني وتُحوِّلَني إلى عجينةٍ عديمة الشكل في دقيقةٍ واحدة، وهو ما كنتُ أعلمه جيدًا بحُكم معرفتي التامَّة بهذه الأمور. ألقيتُ بنفسي على الباب وأنا أصرُخ، وحاولتُ سحْبَ القُفْل بأظافري. توسَّلتُ إلى الكولونيل ليُخرجني، ولكن صرخاتي تلاشتْ وسط صوت قعقعة الرافعات التي لا تعرِف الرحمة. كان السقف على ارتفاع قدمٍ أو اثنتين فقط فوق رأسي، وعندما رفعتُ يدي استطعتُ أن أتحسَّس سطحه الصُّلب الخشِن. ثم تبادَرَ إلى ذهني فجأةً أن ألَمَ موتي سيعتمِد اعتمادًا كبيرًا على الوضْع الذي سأواجهه فيه؛ فإذا استلقَيتُ على وجهي، سيهبِط

الثقلُ على عمودي الفقري، وارتعشتُ خوفًا لمُجرَّد التفكير في صوت تكسُّره المُروِّع. ربما سيكون الأمر أسهل لو استلقيتُ على ظهري، ولكن هل كانت لديَّ الجُرأة لأستلقي وأنظر إلى أعلى نحوَ ذلك الظلِّ الأسود القاتل وهو يَهوي عليَّ مُرتجًّا؟ كنتُ بالفعل غير قادرٍ على الوقوف مُنتصبًا حين لمحتُ شيئًا أضاء نُور الأمل مرَّةً أخرى في قلبي.

سبقَ أن قلتُ إنه على الرغم من أنَّ الأرضية والسقف كانا مصنوعين من الحديد، فإن الجُدران كانت مصنوعة من الخشب. ألقيتُ نظرةً سريعة أخيرة حولي، فرأيتُ خطًّا رفيعًا من الضوء الأصفر ينسلُّ من بين لوحَين من الألواح الخشبية، وظلَّ يتَّسع أكثر فأكثر بينما كانت لوحة صغيرة تُدْفَع إلى الخلف. لوهلة، كنتُ بالكاد أُصدِّق أنَّ ثَمَّ بابًا يُنْجِيني من الموت فعلًا. في اللحظة التالية ألقيتُ بنفسي عبر الفتحة، ورقدتُ في حالة شِبه إغماء على الجانب المُقابل. أُغلِقَت اللوحة مرة أخرى خلفي، ولكنني علمتُ من صوت تهشُّم المصباح ثُمَّ اصطكاك اللَّوحين المعدنيين بعد ثوانٍ لاحِقة أنني قد نجوتُ بأعجوبة.

أعادني جذْبٌ شديد حول معصمي إلى الوعي، ووجدتُ نفسي مُلقًى على أرضٍ حجرية في مَمرٍّ ضيِّق بينما انحنتْ فوقي امرأةٌ كانت تُحاول سحْبي بيدِها اليُسرى بينما تحمِل شمعةً في يدِها اليُمنى. كانت السيدة الطيِّبة نفسها التي رفضْتُ تحذيرها بكلِّ حماقة.

صرخَتْ لاهثة: «هيا! هيا! سيكونون هنا في لحظة؛ سيكتشِفون أنك لستَ موجودًا هناك. أوه، لا تُضيِّع الوقت الثمين للغاية، هيا!»

هذه المرة على الأقل، لم أزدرِ نصيحتها. وقفتُ على قدمَيَّ مُترنِّحًا وركضتُ معها عبر الممرِّ وهبوطًا على سُلَّمٍ مُتعرِّج قاد إلى ممرٍّ آخرَ عريض، وبمجرَّد وصولنا هناك، سمِعْنا صوت أقدامٍ تركض وصراخَ صوتَين، أحدهما يردُّ من الطابق الذي كنا فيه على الآخر الموجود بالطابق الذي أسفَلَنا. توقَّفتْ مُرشدتي ونظرَتْ حولها في حيرة وكأنها لم تعُد تدري ما الذي يتوجَّب فعله، ثم دفعت بابًا يقود إلى غُرفة نوم بدا القمر من نافذتها لامعًا.

وقالت: «إنها فرصتك الوحيدة. إنه مُرتفع، ولكنك قد تتمكَّن من القفز.»

بزغ ضوء من نهاية الممر بينما كانت تتحدَّث، ورأيتُ هيئة الكولونيل ليساندر ستارك النحيلة وهو يندفع إلى الأمام بسرعة مُمسكًا بمصباحٍ في يدٍ وبسلاح يُشبِه ساطور الجزَّار في اليد الأخرى. هُرِعتُ عبرَ غرفة النوم وفتحتُ النافذة ونظرتُ إلى الخارج. كم بدتِ الحديقةُ هادئة وجميلة ورائقة للنفس في ضوء القمر، ولا يُمكن أن تكون بعيدةً عن النافذة بأكثر

من ثلاثين قدمًا. تسللتُ إلى الخارج مُتسلِّقًا حافةَ النافذة، ولكنني ترددتُ في القفز حتى أسمع ما سيدور بين مُنقِذتي والهمجيِّ الذي كان يُطاردني، وقد عزمتُ، إذا تعرَّضتِ السيدة للإيذاء، على أن أعود لمساعدتها مهما كانت المخاطر. بمُجرَّد أن مرَّتِ الخاطرة بفكري وصل الكولونيل بالفِعل عند الباب واندفع نحوي؛ لكنها طوَّقتْه بذِراعَيها وحاولتْ أن تمنعه من الوصول إليَّ.

صرختْ بالإنجليزية قائلة: «فريتز! فريتز! تذكَّر الوعد الذي قطعتَهُ بعدَ آخِر مرة؛ لقد قلتَ إن الأمر لن يحدُث مرة أخرى. سيُكتَم الأمر! أوه، سيُكتم الأمر!»

صاح الرجل وهو يُحاول الإفلات منها: «أنتِ مجنونة يا إليز! ستكونين سبب هلاكنا، لقد رأى أكثر من اللازم. قلتُ لكِ دعيني أمُر!» دفعها إلى أحد الجوانب بعُنف، وهُرِع إلى النافذة وجرحَني بسلاحه الثقيل. كنتُ قد ألقيتُ بنفسي من النافذة وتدلَّيتُ مُمسكًا بحافتها بكلتا يدَيَّ حين هوت ضربَتُه. شعرتُ بألمٍ ضعيفٍ وتراختْ قبضتي فسقطتُ في الحديقة بالأسفل.

كنتُ فَزِعًا من هول السقوط، ولكنني لم أُصَب بسوء، فاستجمعتُ قواي وهُرِعتُ راكضًا عبر الشُّجيرات بأسرع ما يُمكنني؛ إذ إنني كنتُ أعلم أنَّني لا زلتُ في دائرة الخطر. ولكن فجأة بينما كنتُ أركض شعرتُ بإعياءٍ ودوارٍ شديدَين. نظرتُ سريعًا إلى يدي التي كانت تنبض ألمًا، ورأيتُ حينئذٍ للمرة الأولى أن إبهامي قد قُطِع، وأن الدماء كانت تنزفُ من الجُرح. حاولتُ أن أربط منديلي حول الجُرح، ولكنني سمعتُ طنينًا مُفاجئًا في أذني، ثم فقدتُ الوعيَ فورًا بين شُجيرات الورود.

لا أعلم كم لبثتُ فاقدًا الوعي. لا بدَّ أنها كانت فترةً طويلةً جدًّا لأن القمر كان قد انحدر وبدأ ضوء الصباح المُشرِق في البزوغ حين أفَقْتُ. كانت ملابسي كلها مُبلَّلة بالندى، وكان كُم معطفي غارقًا بدماء جرح إبهامي المقطوع. استدعى الألم الحادُّ في طرْفةِ عينٍ كلَّ تفاصيل مُغامَرتي تلك الليلة، فانتفضتُ واقفًا وأنا أشعُر بأنني ربما ما زلتُ في غير مأمَنٍ ممَّن يُطاردونني. ولكن ما أثار دهشتي أنه عندما نظرتُ حولي، لم أرَ لا منزلًا ولا حديقة. كنتُ مُستلقيًا في زاوية من سياج الشجيرات القريب من الطريق السريع يليه في موضع مُنخفض قليلًا مبنًى طويل، تأكدتُ عند اقترابي منه أنه محطة القطار نفسها التي وصلتُ إليها في الليلة السابقة. لولا جُرح يدي الفظيع، لقلتُ إن كلَّ ما ألَمَّ بي في تلك الساعات المُروِّعة ما هو إلا حلم مشئوم.

دخلت المحطة وأنا أُعاني دَوارًا جُزئيًّا، وسألتُ عن القطار الصباحي. عرفتُ أن قطارًا سينطلق إلى ريدينج في غضون أقلَّ من ساعة. وجدتُ الحمَّال نفسه الذي رأيتُه عند وصولي أمس يعمل في هذه المناوبة أيضًا. استفسرتُ منه عمَّا إذا كان قد سمع عن كولونيل يدعي ليساندر ستارك؛ كان الاسم غريبًا عليه. فسألتُه إن كان قد لاحظ عربةً تنتظرني ليلة أمس، فكان جوابه نفيًا. ثم سألتُه هل يُوجَد مركز شرطة في أيِّ مكانٍ قريب، وأخبَرَني أنه يُوجَد واحد على بُعد ثلاثة أميال.

كانت المسافة بعيدةً جدًّا لأقطعها وأنا في هذه الحالة من الوَهَن والمرَض. قررتُ أن أنتظِر حتى أعود إلى البلدة لأحكي قصَّتي إلى الشرطة. عندما وصلتُ كانت الساعة بعد السادسة بقليل، فذهبتُ لأُضمِّد جُرحي أولًا، وبعد ذلك تكرَّم الطبيب وصحِبَني إلى هنا. ها أنا أضع القضية بين يدَيك، وسأُنفِّذ ما ستنصح به بحذافيره.»

جلس كِلانا في صمتٍ لبعض الوقت بعد الاستماع لهذه الرواية العجيبة، ثم أنزل شيرلوك هولمز من فوق الرفِّ واحدًا من السجلَّات الثقيلة المُعتادة التي كان يحتفِظ فيها بقصاصاتِه.

ثم قال: «إليك هذا الإعلان الذي سيُثير اهتمامك. لقد نُشِرَ في جميع الصحف منذ حوالي سنةٍ مضت. استمِعْ إلى هذا: «فُقِدَ في اليوم التاسع من الشهر الحالي السيد جيرمايا هيلينج البالغ من العمر ستةً وعشرين عامًا، ويعمل مهندسًا هيدروليكيًّا. غادر مسكنه في الساعة العاشرة مساءً، ولم يُعرَف عنه شيء منذ ذلك الحين. كان يرتدي ... إلخ ... إلخ.» ها! يوضح ذلك آخر مرة احتاج فيها الكولونيل لإصلاح ماكينته، كما أعتقد.»

صاح مريضي: «يا إلهي! إذن ذلك يُفسِّر ما قالته الفتاة.»

«بلا شك. من الواضح تمامًا أن الكولونيل كان رجلًا باردًا يائسًا وعازمًا عزمًا مُطلقًا على ألَّا يقِف أي شيء في طريق لعبته الدنيئة، تمامًا كالقراصنة القُساة الذين لا يتركون أي أحياء على السفينة التي يستولون عليها. حسنًا، كل لحظة الآن ثمينة؛ لذا إذا كنت قادرًا فسنذهب إلى شرطة سكوتلانديارد حالًا كخطوة أولية قبل الذهاب إلى آيفورد.»

بعد حوالي ثلاث ساعات أو نحو ذلك، كان ثلاثتُنا على متن القطار سويًّا مُتوجِّهين من ريدينج إلى قرية بيركشير الصغيرة. كان الموجودون هم شيرلوك هولمز والمهندس الهيدروليكي والمُفتِّش برادستريت من سكوتلانديارد ورجل يرتدي ملابس عادية وأنا. كان برادستريت قد بسط خريطة تفصيلية للمقاطعة على المقعد وجلس منشغلًا برسم دائرة بفرجاره مركزها هو قرية آيفورد.

ثم قال: «ها نحن ذا! لقد رسمتُ هذه الدائرة بحيث يبعُد نصف قطرها مسافة عشرة أميال من القرية. لا بدَّ أن المكان الذي نُريده سيكون في نقطةٍ ما بالقُرب من ذلك الخط. لقد قلتَ عشرة أميال على ما أعتقد يا سيدي؟»

«استغرقتِ المسافة بالعربة ساعة كاملة.»

«وهل تعتقد أنهم قد أعادوك كلَّ هذه المسافة عندما كنتَ غائبًا عن الوعي؟»

«لا بدَّ أنهم قد فعلوا ذلك. لديَّ ذكرى مشوشة أيضًا أنني قد حُمِلتُ ونُقِلتُ إلى مكان ما.»

فتحدَّثتُ قائلًا: «ما لا أفهمه هو لماذا لم يقتلوك عندما وجدوك غائبًا عن الوعي في الحديقة؟ ربما أَلانَتْ توسُّلات المرأة قلب ذلك الرجل الشرير.»

«أعتقد أن هذا أمر مُستبعد، فأنا لم أرَ وجهًا عديم الرحمة كهذا في حياتي.»

قال برادستريت: «أوه، سنكتشف كل ذلك قريبًا. حسنًا، لقد رسمتُ دائرتي، ولا أتمنَّى إلا أن أعرف في أي نقطة يُمكننا العثور على من نبحث عنهم.»

قال هولمز بهدوء: «أعتقد أنني أستطيع أن أضع إصبعي على تلك النقطة.»

صاح المفتش برادستريت قائلًا: «حقًّا، الآن! لقد كوَّنت رأيك بالفعل! هيا، الآن، لنرى من سيتَّفِق معك في الرأي. أقول إنها في الجنوب، إذ يكون الريف هناك مهجورًا أكثر.»

فقال مريضي: «وأنا أقول إنها في الشرق.»

بينما أشار الرجل ذو الملابس العادية قائلًا: «أقول إنها في الغرب؛ يُوجَد هناك العديد من القرى الصغيرة الهادئة.»

وقلت أنا: «وأنا أقول إنها في الشَّمال؛ لأنه لا تُوجَد تلال هناك، وقد قال صديقنا إنه لم يلاحِظ أن العربة قد اعتلَتْ أيَّ تل.»

صاح المفتش ضاحكًا: «بربِّكم، يا له من تنوُّع كبير في الآراء. لقد ذكَرْنا كلَّ نقاط البوصلة. لِمَن سنصوِّت إذن؟»

«كلكم مُخطئون.»

«ولكن لا يُمكن أن يكون جميعنا مُخطئًا.»

«أوه، أجل يُمكن. هذه هي نقطتي.» وضع إصبعه على مركز الدائرة، وقال: «هذا هو المكان الذي سنجدُهم فيه.»

شهق هاذرلي قائلًا: «ولكن ماذا عن الرحلة التي قطعنا فيها اثني عشر ميلًا؟»

«ستة أميال ذهابًا، وستة إيابًا؛ هكذا بمنتهى البساطة. لقد قلتَ بنفسك إن الحصان كان نشيطًا ولامعًا عندما ركبتَ العربة؛ فكيف يُمكن أن يكون على هذه الحال إن كان قد قطع اثني عشر ميلًا على طُرُقٍ وعرة؟»

علَّق برادستريت مُتأمِّلًا: «بالفعل، إنها خدعة مُحتمَلة بما يكفي. بالطبع لا يُمكن أن يكون هناك أدنى شكٍّ في طبيعة هذه العصابة.»

قال هولمز: «لا، إطلاقًا؛ إنهم مزوِّرو عُملات يعملون على نطاقٍ واسع، وقد استخدموا الماكينة لتشكيل مادَّة الملغم التي حلت محل الفضة.»

قال المفتِّش: «كنَّا نعرِف منذ بعض الوقت بوجود عصابة ماكرة تُمارس نشاطها. كانوا يصنعون الآلاف من عُملة نِصف الكراون المُزوَّرة، وقد نجحْنا في تتبُّعِهم حتى ريدينج، ولكنَّنا لم نستطع مُلاحقتَهم إلى أبعد من ذلك؛ إذ أخفَوا آثارهم بطريقةٍ تنمُّ عن حِنكتِهم البالغة. ولكن الآن بفضل هذا الحظِّ السعيد، أعتقد أننا قد تمكنَّا منهم.»

ولكن المفتش كان مُخطئًا، فهؤلاء المجرمون لم يكن من المُقدَّر لهم أن يقعوا في يد العدالة. عند وصولنا إلى محطة آيفورد، رأيْنا عمودًا هائلًا من الدُّخان يتصاعَد من خلف مجموعةٍ صغيرة من الأشجار في الجوار، ويحوم في السماء فوق المشهد كريشة نعامٍ عملاقة.

سأل برادستريت بينما بدأ القطار في التحرُّك مرة أخرى قائلًا: «أهذا منزل يحترِق؟»

رد ناظر المحطة قائلًا: «أجل يا سيدي!»

«متى اندلع الحريق؟»

«اندلع أثناء الليل كما سمعتُ يا سيدي، ولكنه ازداد سُوءًا حتى نشبت النيران في المكان بأكمله.»

«منزل من هذا؟»

«منزل الدكتور بيكر.»

اندفع المهندس قائلًا: «أخبِرْني، هل الدكتور بيكر رجل ألماني شديد النحافة ذو أنفٍ طويل حاد؟»

ضحك ناظر المحطة بحرارة وقال: «لا يا سيدي، الدكتور بيكر رجل إنجليزي، ولا يمتلك أي رجل في الأبرشية كلها صديريًّا أفضل بطانة من الصديري الذي يرتديه. ولكن يُوجَد رجل أجنبي يُقيم معه، وهو مريض كما فهمت، ويبدو هزيلًا حتى إنَّ تناوُلَ القليل من لحم بقَر بيركشير الشهي لن يُضيره.»

قبل أن ينتهي ناظر المحطة من كلامه، هُرِعنا جميعًا نحو النيران. كان الطريق يعلو تلَّةً منخفضة، وكان أمامنا مبنًى ضخمٌ مُمتدٌّ مَطليٌّ بالكلس يلفظ النيران من كل شقوقه ونوافذه، بينما كان في الحديقة أمامه ثلاث سيارات إطفاء تُكافح للسيطرة على ألْسِنة اللهب دون جدوى.

صرخ هاذرلي بانفعال شديد قائلًا: «إنه هو! ها هو المَجَاز الزلطي، وها هي شُجيرات الورود حيث كنتُ مُستلقيًا. تلك النافذة الثانية هي النافذة التي قفزتُ منها.»

قال هولمز: «حسنًا، لقد انتقمتَ منهم على الأقل. مِمَّا لا شكَّ فيه أن مِصباحك الزَّيتيَّ هو الذي أضرم النيران في الجدران الخشبية عندما سُحِقَ في المكبس، ولكنهم بلا شك كانوا مُنشغِلين بمُطاردتك بحيث لم يُلاحظوا الأمر وقتَ حدوثه. والآن أبقِ عينَيك مفتوحتَين ودقِّق النظر في هذا الحشد بحثًا عن أصدقائك من ليلة أمس، وإن كنتُ أخشى كثيرًا أنهم الآن على بُعد مائة ميل كاملةٍ مِنَّا.»

تحقَّقتْ مخاوِف هولمز فعلًا، فمنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا لم يُعرَف أي شيء عن المرأة الجميلة أو الرجل الألماني الشرير أو الرجل الإنجليزي الكئيب. رأى أحد الفلاحين في وقتٍ مُبكِّر من صباح ذلك اليوم عربةً بها العديد من الأشخاص وبعض الصناديق الشديدة الضخامة تنطلِق سريعًا نحو ريدينج، إلا أن آثار الهاربين قد اختفتْ كلها، وحتى براعة هولمز فشِلتْ في اكتشاف أدنى دليلٍ على مكان وجودهم.

كانت الترتيبات الغريبة التي وجدَها رجال الإطفاء داخل المنزل قد أثارت قلقهم الشديد، الذي تصاعد عندما اكتشفوا على حافة نافذةٍ بالطابق الثاني إبهامًا بشريًّا قد مُزِّق حديثًا. أما مجهوداتهم فآتتْ ثمارها أخيرًا قُرب مغيب الشمس ونجحوا في إخماد النيران، ولكن بعد أن انهار السقف وتحوَّل المكان بأكمله إلى حُطام تامٍّ حتى إنه لم يَبقَ أيُّ أثرٍ من المكبس الذي كلَّفَ صديقنا التعيس كثيرًا، اللهم إلا بعض الأسطوانات المُلتوية والأنابيب الحديديَّة. عُثِرَ على كُتلٍ ضخمة من النيكل والقصدير مُخزَّنة في مبنى خارجي، ولكن لم يُعثَر على أيِّ عُملات، وهو ما يُفسِّر وجود الصناديق الضخمة التي أُشِير إليها سلفًا.

كان من المُمكن أن تبقى الطريقة التي نُقِلَ بها المهندس الهيدروليكي من الحديقة إلى المكان الذي استعاد فيه وعيه لغزًا للأبد، لولا آثار الأقدام التي طُبعَت على الطين الرطب وكشفت بوضوح تامٍّ حقيقة ما حدث. من الواضح أن شخصَين قد حمَلاه، كان لأحدهما قدمان بالِغتا الصِّغَر بصورةٍ مُلفتة، وللآخَر قدمان شديدتا الضخامة على نحوٍ غير معهود.

عمومًا، من المُرجَّح أن الرجل الإنجليزي الصامت كان أقلَّ جُرأةً أو إجرامًا من رفيقه، فساعد المرأة على حمْل المهندس فاقد الوعي بعيدًا عن طريق الخطر.

بينما اتَّخذْنا مقاعدنا لنعود أدراجنا إلى لندن، قال المهندس آسفًا: «حسنًا، لقد كانت مهمَّةً مروِّعة بالنسبة إليَّ! لقد فقدتُ إبهامي وأَجْري البالِغ خمسين جنيهًا. وماذا كسبتُ إذن؟»

ردَّ هولمز ضاحكًا: «الخبرة. ربما تكون ذات قيمة غير مُباشِرة، كما تعلم؛ ليس عليك إلا أن تصوغها في كلماتٍ حتى ينال عملك الخاصُّ شُهرةً باعتباره شركة من الطراز الأول لبقِيَّة حياتك.»

مغامرة النبيل الأعزب

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
شيماء طه الريدي

مراجعة
محمد فتحي خضر



مغامرة النبيل الأعزب

لم يَعُد زواج اللورد سانت سايمون، ونهايته الغريبة، محطَّ اهتمام منذ فترة طويلة في تلك الدوائر الراقية التي يتحرَّك فيها العريس التعيس الحظ؛ فقد طفَتْ على السطح فضائح جديدة حجَبَت عنه الأضواء، بتفاصيلها الأكثر إثارة التي جذبَت النمائم والقيل والقال بعيدًا عن تلك الدراما التي وقَعَت قبل أربعة أعوام. لكن نظرًا لامتلاكي سببًا يدفعُني للاعتقاد بأنَّ الحقائق الكاملة لم تتكشَّف للرأي العام، ولَمَّا كان لصديقي شيرلوك هولمز دورٌ كبير في إجلاء الأمر، أرى أنَّ أي شيء يُكتب عنه لن يكتمل دون سرد، ولو بسيطًا، لهذه الواقعة الشديدة الغرابة.

كان ذلك قبل بضعة أسابيع من زفافي، حين كنتُ لا أزال أُشارك هولمز السكن في شارع بيكر، حين عاد إلى المنزل مِن تمشية بعد الظهيرة ليجدَ خطابًا على الطاولة في انتظاره. كنت ماكثًا في المنزل طوال اليوم؛ إذ حدث تقلُّب مفاجئ في الطقس أدَّى إلى هطول الأمطار، صاحَبه رياح خريفية عاتية، وكانت الرصاصة التي استقرَّت في أحد أطرافي، والتي عُدتُ بها من الحملة العسكرية التي شاركتُ بها في أفغانستان، تُؤلِمني ألَمًا مستمرًّا، وإن كان غير حادٍّ. جلستُ مسترخيًا في مقعدٍ وثير واضعًا ساقًا على الأخرى، وأحطتُ نفسي بكمٍّ وافر من الصحف حتى تشبعتُ بأخبار اليوم، فألقيتُها جانبًا واضطجعتُ في كسل، أُشاهد الشارة الضخمة والأحرف المتشابكة التي وسَمت الظرف القابع على الطاولة، متسائلًا في كسل: من يكون ذلك النبيل الذي يُراسل صديقي؟

بادرتُه عند دخوله قائلًا: «لديك رسالةٌ غايةٌ في الأناقة. لم تكن رسائلك الصباحية، حسبما أتذكَّر، إلا من بائعي السمك ورجال الجمارك.»

أجاب مبتسمًا: «أجل، إن رسائلي لها تنوُّعٌ ساحر بالتأكيد، وعادةً ما يكون أكثرها إثارةً هو أكثرها تواضعًا. تبدو هذه الرسالة تحمل واحدة من تلك الدعوات الاجتماعية البغيضة، التي تدفع بالمرء إما للملل أو الكذب والنفاق.»

فتح الظرف واستعرض محتوى الرسالة بنظرةٍ خاطفة.

«آه، قد يكون الأمر مُثيرًا للاهتمام.»

«أليست دعوة اجتماعية إذن؟»

«نعم، من الواضح أنها رسالة عمل.»

«ومن عميل مِن النبلاء؟»

«واحد من أعظم الشخصيات في إنجلترا.»

«تهانيَّ يا صديقي العزيز.»

«أؤكِّد لك يا واطسون بكل صدق أن حيثية عميلي لا تُهمُّني بقدر أهمية قضيَّتِه. وإن كان من الممكن أيضًا ألَّا يخلو هذا التحقيق الجديد من الأهمية. لقد دأبتَ على قراءة الصحف مؤخرًا، أليس كذلك؟»

قلت في أسف مشيرًا إلى كومة كبيرة منها في الركن: «يبدو الأمر كذلك. فلم يكن لديَّ شيء آخر لأفعله.»

«هذا من حُسنِ حظِّي؛ فربما استطعتَ أن تُمدَّني بمعلومات؛ فأنا لا أقرأ إلا أخبار الجريمة وأعمدة المشكلات الشخصية، ودائمًا ما تكون الأخيرة مفيدة. ولكن إذا كنتَ قد تابعتَ الأحداث الأخيرة عن كثب إلى هذا الحد، فلا بد أنك قرأتَ عن اللورد سانت سايمون وزفافه؟»

«آه نعم، تابعتُها بكل اهتمام.»

«هذا جيد. إنَّ الرسالة التي في يدي من اللورد سانت سايمون. سوف أقرؤها عليك، وفي المقابل سيكون عليك أن تُقلِّب بين هذه الصحف وتُطلعني على ما يحمل منها أي شيء عن هذه المسألة. تقول الرسالة:

عزيزي السيد شيرلوك هولمز

أخبرني اللورد باكووتر أن بإمكاني الاعتماد على بصيرتك وحصافتك وكِتمانك؛ لذا عقدتُ العزم على زيارتك لاستشارتك بشأن الواقعة المؤلِمة التي وقعتْ والمتعلِّقة بزفافي. إن السيد ليستراد، من شرطة سكوتلانديارد، عاكفٌ بالفعل على التحقيق في الأمر، ولكنه يُؤكِّد لي أنه لا يَرى أي مانع في التعاون معك،

بل يَعتقِد أن تعاونك سيكون مفيدًا للتحقيق بشكلٍ ما. سوف أمرُّ بك في تمام الرابعة عصرًا، وإذا كان لدَيك أي ارتباطات أخرى في ذلك الوقت، أرجو منك تأجيلها؛ فالمسالة ذات أهمية قصوى.

المخلص

سانت سايمون

ثم أضاف هولمز وهو يطوي الرسالة: «إنها صادِرة من قصر جروزفينور، ومكتوبة بقلم ريشة، وقد لطَّخ النبيل التعيس الحظ الجزء الخارجي من إصبعه اليُمنى الصغيرة بالحبر.»

«إنه يقول إنه سيَصِل في الرابعة، والساعة الآن الثالثة؛ أي سيكون هنا في غضون ساعة.»

«إذن فلديَّ ما يكفي من الوقت لاستجلاء الأمر بمُساعدتك. قلِّبْ هذه الصحف ورتِّب المقتطفات وفقًا لتوقيت كتابتها، بينما أُلقي نظرةً بين كُتُبي للتعرف على عميلنا.» والتقط كتابًا ذا غلاف أحمر من صفٍّ مِن المراجع بجوار رفِّ المدفأة. وقال وهو يجلس ويَفتح الكتاب على ركبتِه: «ها هو، اللورد روبرت والسينجهام دي فير سانت سايمون، الابن الثاني للدوق بالمورال.» اممم! «يرتدي ثلاث قلادات باللون الأزرق السماوي، على وشاحٍ أسود. وُلد في عام ١٨٤٦.» إنه في الحادية والأربعين من عمره، أي في سنٍّ مناسبةٍ للزواج. كان يشغل منصب وكيل وزارة المستعمرات في إحدى الحكومات السابقة. وكان والده الدوق وزيرًا للخارجية في وقتٍ سابق. وقد ورثا الدم البلانتاجنتي بالنَّسَب المباشر من الأب، والدم التيوديوري من جانب الأم. ها! حسنًا، ليس في هذا كله شيء يُمكن أن يُفيدَني كثيرًا. أظن أنني يَجب أن ألجأ إليك يا واطسون للحصول على شيء ذي قيمة.»

قلت: «لا أجد صعوبة في إيجاد ما أريد؛ فالوقائع حديثة إلى حدٍّ كبير، وكانت المسألة غريبة بالنسبة لي. ولكنَّني خشيتُ أن ألفتَ نظرك إليها، لعلمي بأنك عاكف على تحقيقٍ ما، وأنك تكره تداخُل الأمور معًا.»

«آه، تقصد تلك القضية الصغيرة الخاصة بشاحنة نقل الأثاث في ساحة جروزفينور. لقد اتضحَت مُلابساتها تمامًا، وإن كانت واضحة من البداية في الواقع. أخبرني من فضلك بنتائج اختياراتك من مُقتطَفات الصحف.»

«ها هو أول خبر استطعت العثور عليه. إنه منشور في عمود المشكلات الشخصية بجريدة «مورنينج بوست»، منذ بضعة أسابيع كما ترى، وجاء فيه: «تمَّ الاتفاق على زواجٍ قريبٍ للغاية، إن صحَّت الشائعات، بين اللورد روبرت سانت سايمون، الابن الثاني للدوق بالمورال، والآنسة هاتي دوران، الابنة الوحيدة للسيد المبجَّل ألويسيوس دوران، من سان فرانسيسكو، بولاية كاليفورنيا، بالولايات المتحدة الأمريكية» هذا كل شيء.»

قال هولمز ممدِّدًا ساقَيه النحيلتَين الطويلتَين نحو نار المدفأة: «تقرير مختصر وفي صميم الموضوع.»

«ثمَّة فقرة أسهبت في هذا الشأن في إحدى صحف المجتمع الصادرة في الأسبوع ذاته. آه، ها هو: «قريبًا سينطلق نداء استغاثة في سوق الزواج؛ إذ يبدو أن سياسة التجارة الحرة التي نتبعها الآن تُلقي بظلالها بشدة على منتجِنا المحلي. فها هي منازل النبلاء تنتقل إدارتها، واحدًا تلو الآخر، إلى أيدي بنات عمومتنا في الجانب الآخر من الأطلنطي. في الأسبوع الماضي أضيفت إضافة قيِّمة إلى قائمة الغنائم التي اقتنصَتْها تلك المغيرات الجميلات. فها هو اللورد سانت سايمون، الذي أظهر مناعة ضد سهام الحب لما يَزيد على عشرين عامًا، يُعلن قرانه الوشيك بالآنسة هاتي دوران، تلك الابنة الفاتنة لأحد مليونيرات كاليفورنيا. والآنسة دوران، التي جذبت أنظار الكثيرين بقوامها الرشيق ووَجهِها الأخَّاذ في احتفاليات قصر وستبيري، ابنة وحيدة، ويشاع حاليًّا أن من المتوقَّع أن يتجاوز مهرُها مبلغًا من ستة أرقام. ولا يخفى على أحد أن الدوق بالمورال قد اضطُرَّ إلى بيع لوحاته خلال السنوات القليلة الماضية. ولما كان اللورد سانت سايمون لا يَملك شيئًا إلا مزرعة بيرشمور الصغيرة، فمن الواضح أن الوريثة الكاليفورنية ليست الرابح الوحيد من هذا الزواج الذي سيُمَكِّنها من الانتقال على نحو سلس وشائع من سيدة بإحدى الدول الجمهورية إلى نبيلة بريطانية.»

تساءل هولمز وهو يتثاءب: «ألديك شيءٌ آخر؟»

«أجل، لديَّ الكثير. ها هو خبر صغير في صحيفة «مورنينج بوست» يقول إنَّ الزواج سيتمُّ في هدوءٍ شديد، وإنه سيُعقد في كنيسة سانت جورج بساحة هانوفر، وستَقتصر الدعوة على ستة فقط من الأصدقاء المقرَّبين، على أن يعود الجمع إلى المنزل المفروش الذي استأجره السيد ألويسيوس دروان في لانكستر جيت. وبعد يومَين — أي الأربعاء الماضي — نُشر إعلان مقتضَب عن إتمام مراسم الزفاف، وأن العروسَين سيَقضيان شهر العسل في قصر اللورد باكووتر، بالقرب من بيترزفيلد. تلك هي كل الأخبار التي نُشرَت قبل اختفاء العروس.»

انتفض هولمز متسائلًا: «قبل ماذا؟»

«اختفاء السيدة.»

«ومتى اختفت إذن؟»

«في صباح اليوم التالي للزفاف عند الإفطار.»

«إن الأمر أكثر إثارةً مما كنتُ أتوقَّع في الحقيقة، بل في غاية التشويق.»

«أجل، لقد أدهشَني كونه غيرَ مألوف.»

«غالبًا ما تختفي النساء قبل إتمام مراسم الزفاف، وفي بعض الأحيان في أثناء شهر العسل، ولكن لا يُمكنني أن أستحضر أي واقعة في مثل إثارة هذه الواقعة. فلتُطلعْني على التفاصيل من فضلك.»

«أحذِّرك من كونها منقوصة.»

«لعلنا نستطيع أن نجعلها أكثر استيفاءً.»

«إنها منشورة في مقال في إحدى الصحف الصباحية الصادرة أمس، وسأقرؤها عليك كما وردتْ. كان عنوان الخبر: «واقعة غريبة في زفافٍ عصري»:

> حالة من الذعر الشديد تُخيِّم على عائلة اللورد روبرت سانت سايمون جراء الأحداث الغريبة والأليمة التي ارتبطت بزفافه. كانت مراسم الزفاف، التي أعلن عنها باقتضاب في صحُف الأمس، قد تمَّت في صباح اليوم السابق، ولكن صار بالإمكان الآن فقط تأكيد الشائعات الغريبة التي سرَتْ بقوة بشأنه. وعلى الرغم من محاوَلات الأصدقاء تكتُّم الأمر؛ فقد تحوَّل انتباه الرأي العام إليه بشدة الآن حتى لم يَعُد هناك جدوى من التظاهر بتجاهل الموضوع الذي صار مثار حديث الناس.
>
> كانت مراسم الزفاف، التي تمَّت في كنيسة سانت جورج بساحة هانوفر، في غاية الغرابة؛ إذ لم يَحضرها إلا والد العروس، والسيد ألويسيوس دوران، ودوقة بالمورال، واللورد باكووتر، واللورد يوستيس والسيدة كلارا سانت سايمون (الشقيقان الأصغران للعريس)، والسيدة أليسيا ويتينجتون. بعدها توجَّه المدعوُّون إلى منزل السيد ألويسيوس دوران، الكائن في لانكستر جيت لتناول الإفطار. ويبدو أن إحدى السيدات — لم يتمَّ التحقُّق من اسمها بعدُ — قد تسببت في مشكلة صغيرة، إثر محاولتها اقتحام المنزل بعد حفل الزفاف، بزعم أن لها حقًّا عند اللورد سانت سايمون. وبعد مشهدٍ مؤلم امتدَّ طويلًا طُردت

بواسطة البواب والخادم. جلست العروس، التي كانت قد دخلت المنزل قبل تلك المقاطعة المُزعِجة، لحُسن الحظ، لتناول الإفطار مع بقية المدعوِّين، وحينها اشتكت من وعكةٍ مفاجئة، وذهبت إلى غرفتها. وعندما أثار غيابها الطويل تعليقات الحضور، تبعها والدها إلى غرفتها، ولكنه عرف من خادمتها أنها لم تصعَد إلى غرفتها إلا للحظات، وأخذت معطفًا وقلنسوة، وهرعت إلى الممر. وأفاد أحد الخدم أنه قد رأى سيدةً تُغادر المنزل ترتدي هذه الملابس، ولكنه لم يُدرِك أنها سيدته، ظنًّا منه أنها إحدى الحضور. وعندما تأكَّد السيد ألويسيوس دوران أن ابنته قد اختفت، بادر هو والعريس على الفور بالاتصال بالشرطة، وسرعان ما أُجريَت تحقيقات مكثَّفة، من المحتمل أن تُسفر عن استيضاح هذا الأمر الشديد الغرابة سريعًا. ولكن لم يُستدلَّ على أي شيء بخصوص مكان السيدة المفقودة حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. ثمة شائعات تقول إن في الأمر لعبةً قذرةً، ويقال إنَّ الشرطة قد اعتقلَت السيدة التي تسبَّبت بالإزعاج الأصلي، اعتقادًا منهم بأن لها يدًا في الاختفاء الغريب للعروس، بدافع الغيرة أو لدوافع أخرى.»

«أهذا كل شيء؟»

«ثمة موضوعٌ آخر صغير نُشر في صحيفةٍ أخرى من صحف الصباح، ولكنَّه لا يحمل معلوماتٍ قاطعة.»

«وماذا جاء به؟»

«إنه يقول إنَّ الآنسة فلورا ميلر، السيدة التي تسبَّبت في ذلك الاضطراب، قد أُلقيَ القبض عليها بالفعل. يبدو أنها كانت راقصة باليه سابقة في الأليجرو، وأنها كانت على معرفة بالعريس لبضع سنوات. لا تُوجد أيُّ تفاصيل أخرى، والقضية برمَّتها الآن بين يدَيك مثلما نشرتْها الصحف العامة.»

«تبدو قضية في قمة الإثارة، ولن أضيعها من يدي بأي ثمن. ولكن جرس الباب يدقُّ يا واطسون، وبما أنَّ الساعة قد تجاوزت الرابعة ببضع دقائق، فما من شك لديَّ في أن الطارق هو عميلنا النبيل. لا تفكر في الذهاب يا واطسون؛ فأنا أحبِّذ بقوةٍ أن يكون معي شاهد، ولو من أجل التذكير حال خانتني ذاكرتي.»

قال الخادم وهو يفتح الباب: «اللورد روبرت سانت سايمون.» ودخل رجل شامخ الأنف، ذو وجهٍ بشوشٍ شاحب، له ملامح تدلُّ على الرقيِّ، ويبدو عليه بعض الغضب، وعينٍ واثقة ثابتة لرجلٍ قدرُه أن يَأمر فيُطاع. كانت حركته رشيقة، ولكن مظهره العام أعطى

انطباعًا ليس في محلِّه بالهرم وتقدُّم السن؛ فكان مُحدَوْدبًا قليلًا، وكانت ركبتاه تنثنيان حين يمشي. وكان شعره أيضًا، حين خلع عنه قبعته ذات الحافة المحبوكة بشدة، خفيفًا عند المقدمة ويُكلِّله الشيب على الجانبَين. أما ثيابه، فكانت أنيقة إلى حدِّ الغلو، بمعطفه الأسود الطويل ذي الياقة العالية، وصدريته البيضاء، والقفاز الأصفر، والحذاء المصنوع من الجلد الفاخر وغطائه الواقي ذي اللون الفاتح. دخل الغرفة ببطء، مديرًا رأسه من اليسار إلى اليمين، وهو يُؤرجِح الرباط الذهبي الذي يحمل نظارته في يده.

قال هولمز وهو يَنهض وينحني له: «طاب يومك أيها اللورد سانت سايمون. أرجو أن تجلس على الكرسي الخيزران. هذا صديقي وزميلي د. واطسون. لتَقترب قليلًا من النار حتى نُناقش الأمر.»

«إنه أمر مؤلم لي للغاية، كما يُمكنك أن تتخيَّل بسهولة يا سيد هولمز. لقد أصابني في مقتل. لقد فهمتُ أنك توليتَ التحقيق في العديد من القضايا الشائكة من هذا النوع يا سيدي، وإن كنتُ أعتقد أنها لم تكن خاصة بنفس الطبقة الاجتماعية.»

«نعم؛ فأنا أنحدر الآن إلى مستويات أدنى.»

«عذرًا.»

«آخر عميل لهذا النوع من القضايا كان ملكًا.»

«حقًّا! لم أكن أعلم. أي ملك؟»

«ملك إسكندنافيا.»

«ماذا! هل فقد زوجته؟»

قال هولمز بلباقة: «يُمكنك أن تتفهَّم أنني أُحيط قضايا عملائي بقدرِ السرِّية نفسِه الذي أتعهد بأن أحيط به قضيتك.»

«بالطبع! معك كل الحق! معك كل الحق! التمِس لي العذر أرجوك. بالنسبة إلى قضيتي، أنا على استعداد لتزويدك بأي معلومات قد تُعينك في تكوين رأي بشأنها.»

«أشكرك. لديَّ علمٌ بكل ما نُشر في الصحف، لا أكثر من ذلك. أظن أن بوسعي أن أعتبر هذا المقال، على سبيل المثال، عن اختفاء العروس صحيحًا.»

ألقى اللورد سانت سايمون نظرة خاطفة عليه وقال: «أجل، إنه صحيح بقدرِ ما ورَدَ فيه.»

«ولكنه يحتاج إلى قدرٍ كبير من التفاصيل حتى يستطيع أي شخص أن يُعطي رأيًا. أظن أن بإمكاني التوصُّل إلى ما أبغي مِن حقائق مباشرةً باستجوابك.»

«أرجوك أن تفعل.»

«متى كان أول لقاء لك بالآنسة هاتي دوران؟»

«في سان فرانسيسكو قبل عام.»

«هل كنتَ في رحلة إلى الولايات المتَّحدة الأمريكية؟»

«أجل.»

«هل تمَّتْ خطبتكما آنذاك؟»

«كلا.»

«ولكن العلاقة بينكما كانت ودية؟»

«كنت آنَس برفقتها، وكانت ترى استِمتاعي بذلك.»

«هل والدها واسع الثراء؟»

«يقال إنه أغنى أغنياء غرب أمريكا.»

«وكيف صنَع ثروته؟»

«من التعدين. قبل بضع سنوات لم يكن يَملك شيئًا، ثم عثر على ذهب، واستثمر فيه، وتحسَّنت أحواله بسرعةٍ بالغة.»

«الآن، ما انطباعك بشأن شخصية السيدة الشابة، زوجتك؟»

أخذ النبيل يُؤرجِح نظَّارته على نحوٍ أسرع قليلًا وحدَّق بالأسفل في النار، ثم قال: «حسنًا يا سيد هولمز، كانت زوجتي في العشرين من عمرها قبل هطول الثروة على أبيها. خلال تلك الفترة كانت تَنطلِق بحرية في معسكر للتعدين وكانت تجول داخل الغابات أو الجبال، ومِن ثمَّ كانت الطبيعة هي مصدر ما حصَّلَتْه من تعليم وليس المدرسة. إنها فتاة مُسترجِلة كما نطلق على من هُنَّ مثلها في إنجلترا، ذات طبيعة قوية، جامحة مُتحرِّرة، لا تتقيَّد بأي نوع من التقاليد. إنها مُندفعة؛ أعني ثائرة. وهي متسرِّعة في اتخاذ قراراتها ولا تخشى تنفيذها. ولكني لم أكن لأمنحها اسمي الذي أتشرَّف بحمله» — ثم توقف وسعل بوقار — «لولا ظني بأنها تَحمل بداخلها سمات سيدةٍ نبيلة. فأنا أعتقد أنها قادرة على التضحية بنفسها على نحوٍ بطولي، وأن أي شيء غير مُشرِّف سيُقابَل لديها بنفورٍ واشمئزاز.»

«هل معك صورة لها؟»

«لقد أحضرتُ هذه معي.» وفتَح قلادة كانت معه ليرينا الوجه الكامل لامرأة غاية في الجمال. لم تكن صورةً فوتوغرافية، بل كانت رسمًا مصغَّرًا على العاج، استطاع الفنان

الذي نحَتَها أن يجسِّد التأثير الكامل للشعر الأسود اللامع، والعينين الداكنتين الكبيرتَين، والفم الدقيق الساحر. أخذ هولمز يحدِّق في الرسم طويلًا بتركيز، ثم أغلق القلادة وأعادها إلى اللورد سانت سايمون.

«ثم حضرت السيدة الشابة إلى لندن، وجدَّدتُما الصلة؟»

«أجل، أحضرها والدها لحضور موسم لندن الأخير، وقابلتُها عدة مرات، وتمَّت خطبتنا، وصارت زوجةً لي الآن؟»

«أظنُّها قد قدمتْ لك مهرًا كبيرًا حسبما فهمت؟»

«إنه مهر معقول. ليس أكبر من المتعارَف عليه في عائلتي.»

«وبالطبع سيظل بحوزتك، بما أن الزواج قد صار واقعًا لا رجعة فيه؟»

«لم أتحرَّ عن هذا الأمر في الواقع.»

«بالتأكيد. هل رأيتَ الآنسة دوران في يوم الزفاف؟»

«نعم.»

«هل كانت في حالة معنوية جيدة؟»

«كانت على أفضل ما يُرام. فقد ظلَّت تتحدَّث عما يجب أن نفعله في حياتنا المستقبلية.»

«حقًّا! هذا أمر مُثير للغاية. وماذا عن صباح يوم الزفاف؟»

«كانت في قمة التألُّق، على الأقل حتى انتهَت المراسم.»

«وهل لاحظت عليها أي تغيُّر حينذاك؟»

«حسنًا، أَصدقك القول، لقد رأيتُ حينها أولى الدلائل التي رأيتها على الإطلاق على أن مزاجها حادٌّ قليلًا. ولكن ما حدث كان أتفه من أن يُروى ولا يُمكن أن يكون له أي صلة محتملة بالقضية.»

«أرجو أن تسرد لي ما حدَث بكل تفاصيله.»

«إنه شيء سخيف. لقد أسقطت باقة أزهارها ونحن في طريقنا إلى حجرة مجلس الكنيسة. وكانت في ذلك الوقت تمرُّ بالمقعد الأول، ووقعَت الباقة داخل المقعد. حدَث تأخير بسيط، ولكن السيد الذي كان جالسًا على المقعد أعادها إليها، ولم يحدث أي ضرر يُذكر لباقة الأزهار. ولكني عندما تحدثتُ إليها في هذا الأمر، كان ردُّها مقتضبًا وجافًّا، وحين كنا في العربة في طريقنا إلى المنزل، بدت مُنفعلة على نحوٍ سخيف بالنسبة لأمرٍ تافه كهذا.»

«حقًّا! تقول إنه كان ثمة سيدٌ جالس في المقعد. فهل كان من بين الحضور أشخاص من عامة الناس؟»

«آه، نعم. فمن المستحيل منعهم حين تكون الكنيسة مفتوحة.»

«هل كان هذا السيد من أصدقاء زوجتك؟»

«لا، لا؛ إنني أدعوه السيد فقط من باب اللياقة، ولكنه كان شخصًا عاديَّ المظهر، حتى إنني لاحظتُ وجوده بالكاد. ولكن أعتقد حقًّا أننا نَبتعد عن الموضوع الأساسي.»

«إذن عادت السيدة سانت سايمون من الزفاف في حالة نفسية أقلَّ بهجة مما كانت عليه عند ذهابها. ماذا فعلتْ عندما عادَت إلى منزل والدها؟»

«رأيتها تتحدَّث مع خادمتها؟»

«ومن تكون خادمتها؟»

«إنها تُدعى أليس، أمريكية وجاءت معها من كاليفورنيا.»

«هل هي محلُّ ثقة زوجتك؟»

«على نحو مبالَغ فيه بعض الشيء. كان يبدو لي أن مَخدومتها قد منحَتْها مساحة حريةٍ كبيرة. ولكن نظرتهم في أمريكا مختلفة بالطبع.»

«كم استغرقَ حديثها مع أليس هذه؟»

«بضع دقائق. لقد كنتُ منشغلًا بالتفكير في أمورٍ أخرى.»

«ألم تَستَرِق السمع إلى حديثهما؟»

«لقد قالت السيدة سانت سايمون شيئًا عن «القفز على امتياز». لقد كانت معتادة على استخدام مثل هذه الألفاظ العامية، ولا أعرف ماذا كانت تعني.»

«أحيانًا ما تكون العامية الأمريكية معبِّرة للغاية. وماذا فعلت زوجتك حين انتهت من الحديث مع خادمتها؟»

«دخلت إلى غرفة الإفطار.»

«وهي متأبطة ذراعك؟»

«لا، بمفردها. لقد كانت مُستقلة جدًّا في مثل هذه الأمور البسيطة. وبعد أن جلسنا لعشر دقائق أو نحو ذلك، نهضت فجأة، وغمغمت ببعض كلمات الاعتذار، وغادرَت الغرفة بلا عودة.»

«ولكن هذه الخادمة أليس، كما فهمتُ، شهدَتْ بأنها ذهبت إلى غرفتها، وارتدت معطفًا واسعًا طويلًا غطَّى ثوب الزفاف، ووضعت قلنسوة على رأسها، وذهبت.»

«هذا ما حدث بالضبط، وشوهدتْ بعد ذلك تسير في هايد بارك برُفقة فلورا ميلر، وهي السيدة المُحتجَزة في الوقت الحالي، وهي نفسها السيدة التي أثارت جلبة في منزل السيد دوران في ذلك الصباح.»

«آه، نعم. أودُّ أن أعرف بعض التفاصيل بخصوص هذه السيدة الشابة، وعلاقتك بها.»

هز اللورد سانت سايمون كتفَيه ورفع حاجبيه وقال: «لقد كانت تربطنا علاقةٌ ودية لبضع سنوات؛ أستطيع القول إنها كانت علاقة ودية للغاية. كانت تعمل في الأليجرو. كنتُ سخيًّا معها، ولم يكن لديها سبب يستحق أن تشكوني، ولكنك تعرف طبيعة النساء يا سيد هولمز. كانت فلورا شخصية رقيقة، ولكنها سريعة الغضب وشديدة التعلُّق بي. لقد كتبت لي خطاباتٍ مخيفةً حين سمعتْ بأنني على وشك الزواج؛ والحقيقة أن السبب وراء احتفالي بالزواج في هذا الهدوء الشديد أنني خشيتُ وقوع فضيحة في الكنيسة. ولكنها جاءت إلى منزل السيد دوران بعد عودتنا مباشرة، وحاولت اقتحامه بالقوة، وأخذت تتلفَّظ بعبارات في غاية البذاءة تمسُّ زوجتي، بل وصل الأمر إلى تهديدها، ولكنَّني توقَّعتُ احتمال حدوث شيء كهذا، واستعنت باثنين من أفراد الشرطة بملابس ملكية، سرعان ما قاما بطردها. وقد هدأت عندما لم تجد جدوى من الشجار.»

«هل سمعتْ زوجتك كل هذا؟»

«لا، حمدًا لله لم تسمعه.»

«وهل شُوهدت بعد ذلك تسير مع هذه السيدة؟»

«نعم. هذا ما يراه السيد ليستراد، من سكوتلاند يارد، أمرًا في غاية الخطورة. ويعتقد أن فلورا قد استدرجتْ زوجتي ونصبَت لها شَركًا.»

«حسنًا، افتراض معقول.»

«أتعتقد ذلك أيضًا؟»

«لم أقل إنه افتراض مُحتمَل. ولكن ألا ترى أنت نفسك أن هذا قد يكون محتملًا؟»

«لا أظن أن فلورا تستطيع إيذاء ذبابة.»

«ولكن الغيرة قادرة على تغيير الشخصيات بشكلٍ غريب. أرجوك أن تُخبرني بنظريتك بشأن ما حدث.»

«حسنًا، في الحقيقة لقد جئتُ ساعيًا لإيجاد نظرية، لا عرض واحدة. لقد قدمتُ لك الحقائق كافة. ولكن بما أنك سألتَني، فيُمكنني أن أقول إنه قد خطر لي أن من المحتمل أن تكون الأحداث المثيرة التي صاحبت الزفاف، ووعيُ زوجتي بحجم القفزة الاجتماعية الهائلة التي قامت بها، قد تسبَّب في حدوث بعض الاضطراب العصبي لديها.»

«أي إنك، باختصار، تعتقد أنها قد أصيبت بخلل عقلي مفاجئ؟»

«حسنًا، في الواقع، حين أفكر أنها تخلَّت — لن أقول عني، وإنما عن أشياء كثيرة تطلعت إليها الكثيرات وفشلنَ في بلوغها — لا أستطيع تفسير الأمر بأي شكل آخر.»

قال هولمز مبتسمًا: «حسنًا، لا شك أنها فرضية مُمكِنة أيضًا. أظن أنني الآن قد حصلتُ على كل المعلومات تقريبًا أيها اللورد سانت سايمون. هل لي أن أسأل إن كان موقعكم على مائدة الإفطار كان يُمَكِّنكم من النظر إلى الطريق خارج النافذة؟»

«كان بإمكاننا رُؤية الجانب الآخر من الطريق والمتنزه.»

«حسنًا. إذن لا أظن أنني بحاجة لتعطيلك أكثر من ذلك. سوف أتصل بك.»

نهض عميلنا قائلًا: «أرجو أن يكون الحظ حليفك بما يكفي لحل هذا اللغز.»

«لقد حلَلته بالفعل.»

«ها؟ ماذا قلت؟»

«أقول إنني قد حللتُه.»

«إذن أين زوجتي؟»

«سأُمدُّك بهذه المعلومة في أسرع وقت.»

هز اللورد سانت سايمون رأسه، وقال: «أخشى أن يتطلَّب الأمر عقولًا أكثر حكمة مني ومنك.» ثم انحنى بأسلوب الوقور المحافظ وانصرف.

قال شيرلوك هولمز وهو يضحك: «إنه لكرمٌ كبير من اللورد سانت سايمون أن يُعطيَ عقلي شرف وضعه في مستوًى واحد مع عقله. أظن أنني يجب أن أتناول بعض الويسكي والصودا مع سيجار بعد هذا الاستجواب. لقد توصلتُ إلى رأي قاطع بشأن القضية قبل دخول عميلنا.»

«ماذا تقول يا عزيزي هولمز!»

«إن لديَّ مذكرات لقضايا عديدة سابقة، وإن لم تكن عاجلة بهذا الشكل، كما أشرتُ من قبل. وقد أعانني التحقيق الذي أجريتُه على تحويل تخميني إلى يَقين. أحيانًا ما تكون الأدلَّة الظرفية مُقنعة للغاية، مثلما يحدث حين تجد سمكة سلمون في الحليب، حسبما قال ثورو.»

«ولكنني سمعتُ كل ما سمعتَه.»

«ولكن دون أن يكون لديك دراية بقضايا سابقة، وهو ما يُفيدُني كثيرًا. كان ثمة حادثة مماثلة في أبردين منذ بضع سنوات، وقضية أخرى سارت على نفس الخط إلى حدٍّ كبير في ميونيخ ووقعت بعد عام من انقضاء الحرب الفرنسية البروسية. وهذه القضية

واحدة من تلك القضايا ... ولكن، آه، هذا ليستراد! عمتَ مساءً يا ليستراد! ستجد كأسًا إضافية على نضد المائدة، وثمة سيجارات في هذا الصندوق.»

كان المفتش يَرتدي سترة صوفية قصيرة ورابطة عنق، مما أضفى عليه مظهر البحَّارة، وكان يَحمل في يده حقيبة سوداء من الكنفا. وبعد إلقاء تحية مقتضبة جلس وأشعل السيجار الذي قُدِّم إليه.

قال هولمز وعيناه تلمعان: «ما الأمر؟ يبدو عليك الاستياء.»

«إنني أشعر بالاستياء بالفعل. إنها هذه القضية اللعينة الخاصة بزواج اللورد سانت سايمون. فأنا عاجز عن فهم أي شيء فيها.»

«حقًّا! لقد فاجأتني.»

«هل سمع أحد من قبل بقضية بهذا التعقيد؟ يبدو لي أن جميع الدلائل تتسلَّل من بين أصابعي. إنني أعمل ليل نهار من أجل حلِّها.»

قال هولمز واضعًا يده على كُمِّ السترة الصوفية: «ويبدو أنها قد بلَّلَتْك تمامًا.»

«نعم، لقد كنتُ أبحث في بحيرة سربنتين.»

«لماذا بحق السماء؟»

«بحثًا عن جثة السيدة سانت سايمون.»

اضطجع شيرلوك هولمز في كرسيِّه وضحك بشدة.

ثم تساءل: «وهل بحثت في حوض نافورة ساحة ترافالجار؟»

«لماذا؟ ماذا تعني؟»

«لأن احتمال العثور على هذه السيدة في أحد هذَين المكانين يعادل احتمال إيجادها في الآخر.»

رمق ليستراد رفيقي بنظرة تشعُّ غضبًا وقال غاضبًا: «أعتقد أنك تعرف كل شيء عن هذا الأمر.»

«حسنًا، لقد استمعتُ إلى الحقائق للتو، ولكني كوَّنت رأيًا.»

«آه، حقًّا! إذن تظنُّ أن بحيرة سربنتين ليس لها دور في المسألة؟»

«أعتقد أنه شيءٌ مُستبعَد تمامًا.»

«إذن هلا تكرَّمت بأن تُفسِّر لي كيف وجدنا هذه فيها؟» وبينما كان يتحدَّث، فتح حقيبتَه وألقى على الأرض ثوب زفاف من الحرير المموَّج، وحذاءً من الساتان الأبيض،

وإكليل عروس وطرحة، كلها باهتة ومُبلَّلة بشدة. قال وهو يضع خاتم زواج حديث على قمة هذه الكومة: «إليك هذا. ها هي معضلة صغيرة عليك حلُّها يا سيد هولمز.»

قال صديقي وهو ينفث حلقات من الدخان الأزرق في الهواء: «آه، حقًّا! هل استخرجتَها من بحيرة سربنتين؟»

«كلا. لقد وجدها أحد حراس المُتنزه طافية بالقرب من شاطئ البحيرة. وتمَّ التعرُّف على الملابس بوصفها تخص السيدة، وبدا لي أنه إذا كانت الملابس هناك، فلن تكون الجثة بعيدة.»

«بنفس هذا المنطق العبقري، فإن جثَّة كل شخص سوف ستكون إلى جوار دولاب ملابسه. رجاءً، ما الذي أردتَ الوصول إليه من كل هذا؟»

«أردتُ الوصول إلى دليل يورط فلورا ميلر في اختفاء السيدة.»

«أخشى أنك ستجد صعوبة في ذلك.»

صاح ليستراد وفي صوته بعض المرارة قائلًا: «أهذا ظنك حقًّا؟ أخشى يا هولمز أنك لست عمليًّا تمامًا في استنتاجاتك واستدلالاتك. لقد اقترفت خطأين فادحَين في دقائق. إن هذا الثوب بالفعل يُورِّط الآنسة فلورا ميلر.»

«وكيف هذا؟»

«إن للثوب جيبًا، يُوجد فيه علبة بطاقات، وفي علبة البطاقات رسالة صغيرة. وها هي الرسالة.» ووضعها بعنف على الطاولة أمامه وأضاف: «أنصت إلى هذا: «سوف تَرينَني حين يكون كل شيء جاهزًا. تعالَي فورًا. إف إتش إم.» إنَّ نظريتي تتلخَّص في أن فلورا ميلر قد استدرجت السيدة سانت سايمون، وأنها مسئولة بلا شك عن اختفائها بمعاونة شركاء. وهذه الرسالة الموقَّعة بالأحرف الأولى من اسمها هي ذاتها الرسالة التي دُست في يدها عند الباب واستدرجتها حتى وقعت في أيديهم.»

قال هولمز ضاحكًا: «رائع يا ليستراد. أنت بارع حقًّا. دعني أَرَها.» وأخذ الرسالة في كسل، إلا أن شيئًا بها أَسَرَ انتباهه في الحال، وأطلق صيحة رضًا، وقال: «هذا مهم حقًّا.»

«ها! أتراها كذلك؟»

«بالتأكيد. أُهنئك بحرارة.»

وقف ليستراد مزهوًّا بانتصاره وخفض رأسه ليرى، ثم صاح قائلًا: «يا إلهي! إنك تنظر في الجانب الخطأ!»

«بالعكس، هذا هو الجانب الصحيح.»

«الجانب الصحيح؟ أنت مجنون! إن الرسالة مكتوبة بالقلم الرصاص هنا.»

«وهنا على الجانب الآخر ما يبدو أنه قطعة من فاتورة أحد الفنادق، وهو ما يُثير اهتمامي بشدة.»

قال ليستراد: «لا يوجد بها شيء مهم. لقد نظرت إليها من قبل. «الرابع من أكتوبر، إقامة ٨ شلنات، إفطار شلنان و٦ بنسات، كوكتيل شلن واحد، غداء شلنان و٦ بنسات، زجاجة نبيذ ٨ بنسات» لا أرى شيئًا ذا أهمية في ذلك.»

«من غير المرجح أن ترى ذلك مهمًّا، ولكنه في غاية الأهمية. أما بالنسبة للرسالة، فهي مهمة أيضًا، على الأقل الأحرف الموقعة بها؛ لذا أُهنئك مجددًا.»

قال ليستراد وهو يهم بالنهوض: «لقد أضعت ما يكفي من وقتي. أنا أومن بالاجتهاد والعمل الجاد وليس بالجلوس بجوار المدفأة لنَسجِ نظريات. طاب يومك يا سيد هولمز، وسوف نرى مَن مِنا سيحلُّ لغز هذه القضية أولًا.» وجمع الثياب، ودسها في الحقيبة، واتجه صوب الباب.

قال هولمز متشدِّقًا قبل أن ينصرف خصمه: سوف أمنحك تلميحًا يا ليستراد. سوف أُخبرك بالحل الصحيح للقضية. إن السيدة سانت سايمون أكذوبة. لا يوجد، ولم يوجد من قبل، أي شخص بهذا الاسم.»

نظر ليستراد في أسًى إلى رفيقي، ثم التفت إليَّ، وخبط على جبهته ثلاث مرات، وهز رأسه بوقار، ثم هرع منصرفًا.

ولم يكد يُغلق الباب من خلفه حتى نهض هولمز ليرتدي معطفه قائلًا: «ثمة شيء صحيح فيما يقوله الرجل بشأن العمل خارج الأبواب المُغلَقة؛ لذا أعتقد أنني يجب أن أتركك قليلًا لصحُفِكَ يا واطسون.»

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين تركني شيرلوك هولمز، ولكن لم أبقَ وحيدًا كثيرًا؛ ففي غضون ساعة وصل صاحب أحد المطاعم ومعه صندوقٌ مسطَّح ضخم، أفرغ ما فيه بمعاونة شاب كان قد أحضره معه، وغمرَتْني دهشة كبيرة حين وجدت عشاءً لذيذًا باردًا قليلًا يُوضع على مائدة منزلنا المُتواضِع الخشبية. كان هناك صحنان كبيران من لحم الدواجن البارد، وفطيرة معجون كبد الإوز مع مجموعة من زجاجات الشراب المعتق. وبعد أن انتهيا من وضع كل هذه الأطعمة الفاخرة، انصرف الزائران واختفيا مثل جنِّي المصباح، دون أي توضيح سوى أن هذه الأشياء دُفع ثمنها وطُلب إرسالها إلى هذا العنوان.

قبل التاسعة بلحظات دخل شيرلوك هولمز بخطوات سريعة إلى الغرفة. كانت ملامحه جادة، إلا أن عينَيه كان لهما وميض جعلني أفكر أن استنتاجاته لم تخيِّب ظنه.

قال وهو يفرك يديه: «لقد أعدوا العشاء إذن.»

«يبدو أنك في انتظار صُحبة، فقد أعدوا المائدة لخمسة أشخاص.»

قال: «أجل، أعتقد أننا قد نحظى ببعض الرفاق. أنا مندهش من عدم وصول اللورد سانت سايمون حتى الآن. ها! أعتقد أنني أسمع خطواته على السلَّم الآن.»

وبالفعل كان زائرنا بعد الظهر هو بالفعل من دخل يُهرول وهو يؤرجِح نظارته بقوة أكبر من المرة السابقة، وقد علا قسماتِه الأرستقراطية قلقٌ واضطرابٌ شديدان.

سأله هولمز: «هل وصلتك رسالتي؟»

«أجل، وأعترف أن محتواها قد أفزعني إلى أبعد مدًى، هل أنت واثق مما تقول؟»

«إلى أبعد حدٍّ ممكن.»

هوى اللورد سانت سايمون على أحد المقاعد، وأخذ يُمرِّر يده على جبهته.

وتمتم قائلًا: «ماذا سيقول الدوق حين يسمع أن واحدًا من أفراد عائلته قد تعرَّض لمثل هذا القدر من المهانة والإذلال؟»

«إنها الصدفة البَحتة. لا أعتقد أن هناك أي إذلال.»

«إنك تنظر إلى هذه الأمور بمنظورٍ آخر.»

«لا أستطيع لوم أي شخص. لا أستطيع أن أرى تصرفًا آخر سوى ما أتت به السيدة، وإن كان أسلوبُها الفظُّ في تنفيذ ما فعلت هو ما يَدعو إلى الأسف. ولكنها لم تجد من ينصحها في أزمة كهذه بالنظر إلى كونها يتيمة الأم.»

قال اللورد سانت سايمون وهو ينقر بأصابعه على الطاولة: «لقد كانت إهانة يا سيدي، وإهانة علنية.»

«لا بد أن تَلتمس العذر لهذه الفتاة المسكينة، التي وجدت نفسها في موقف غير مسبوق.»

«لن ألتمس أي أعذار. أنا غاضبٌ جدًّا، وتعرَّضتُ للاستغلال على نحوٍ مُخزٍ.»

قال هولمز: «أظن أنني سمعتُ جرس الباب. نعم، هناك صوت خطوات على منبسط الدَّرَج. إذا كنت لم أستطع إقناعك بالنظر إلى الأمر بنظرة رفقٍ أيها اللورد سانت سايمون، فقد أحضرتُ من قد يُفلح في ذلك أكثر مني.» ثم فتح الباب وأشار بالدخول لامرأة ورجل، وقال: «اسمح لي أيها اللورد سانت سايمون أن أقدِّم لك السيد فرانسيس هاي مولتون وزوجته. أظن أنك قد قابلت السيدة من قبلُ.»

وما إن وقعت عيناه على الزائرَيْن الجديدَيْن حتى انتفض من مقعده ووقف منتصبًا بشدة، وقد خفض عينيه في الأرض ودسَّ يده في صدرية معطفه، في صورة جسَّدت الكرامة

الجريحة. تقدمت السيدة نحوه بخطوةٍ سريعة ومدَّت يدها إليه، ولكنه ظل رافضًا أن يرفع عينيه. ولعل إصراره هذا كان للحفاظ على موقفه أمام وجهِها المُتوسِّل الذي كان من الصعب مقاومته.

قالت السيدة: «أعلم أنك غاضب يا روبرت. ولديك كل الحق في ذلك.»

قال اللورد سانت سايمون بمرارة: «أرجو ألا تُقدِّمي لي أي اعتذار.»

«آه، نعم، أعلم أنني قد أسأتُ التعامل معك تمامًا وكان ينبغي أن أتحدث إليك قبل أن أرحل؛ ولكنني كنت مُشوَّشة وفاقدةً للاتزان، ومنذ رأيتُ فرانك مرةً أخرى لم أعرف ماذا أفعل أو أقول. بل إنني أتساءل كيف لم أَفقِد وعيي هناك أمام مذبح الكنيسة.»

«ربما تودِّين مني مغادرة الغرفة أنا وصديقي بينما تشرَحين الأمر يا سيدة مولتون؟»

قال السيد الغريب: «إن كان لي أن أُبديَ رأيي، لقد أحَطْنا هذه المسألة بقدرٍ من السرية مبالَغ فيه قليلًا. وأنا أودُّ من جانبي أن تسمع أوروبا وأمريكا كل تفاصيلها.» كان رجلًا ضئيل الحجم نحيلًا، حليق اللحية، لفَحَتْه سمرة الشمس، ذا وجه حادِّ الملامح وأسلوبٍ رشيق.

قالت السيدة: «إذن سأروي لك القصة في الحال. لقد التقيتُ فرانك في عام ١٨٨٤، في معسكر كاكواير، بالقرب من جبال روكي، حيث كان أبي ينقِّب عن الذهب. تمَّت خطبتنا أنا وفرانك، ولكن في أحد الأيام عثر أبي على موقعٍ غنيٍّ بالذهب، وأصبح من الأثرياء، بينما لم يُسفر بحث فرانك المسكين عن أي شيء. وكلما ازداد أبي ثراءً، ازداد فرانك فقرًا؛ ولم يَعُد أبي راغبًا في استمرار خطبتنا، وأخذني إلى سان فرانسيسكو. ولكن لم يكن فرانك ليَستسلِم، وتبعني إلى هناك، وكان يراني دون علم أبي. فلو علم بذلك لجُنَّ جنونه؛ ومن ثم رتَّبنا كل شيء بأنفسنا. قال فرانك إنه سيذهب ليُكوِّن ثروته هو الآخر، ولن يعود إلى المُطالبة بي قبل أن يُصبح له من الثروة ما لأبي منها. ووعدتُه أن أنتظره حتى آخر العمر، وعاهدتُ نفسي بألا أتزوج من أحد غيره ما دام على قيد الحياة. فوجدتُه يقول: «إذن لماذا لا نتزوَّج الآن؟ حينها سأتأكَّد أنكِ لي، ولن أطالبكِ بحقوقي كزوج لكِ حتى أعود.» درسنا الأمر معًا، وقام بترتيب كل شيء على نحوٍ جيد تمامًا، وكان الكاهن في انتظارنا، وأتمَمْنا مراسم الزواج هناك، ثم ذهب فرانك للبحث عن الثروة، وعدتُ أنا إلى أبي.

بعدها سمعت أن فرانك في مونتانا، وأنه ذهب بعد ذلك إلى أريزونا للتنقيب عن الذهب، ثم جاءتني منه أخبار من نيومكسيكو. بعد ذلك قرأت خبرًا مطولًا في إحدى الصحف عن مهاجمة هنود الأباتشي لأحد معسكرات التنقيب، وكان اسم حبيبي فرانك بين الضحايا.

سقطتُ فاقدةً للوعي، وظللتُ لشهور بعدها في حالةٍ مَرَضية يُرثى لها. اعتقد أبي أن بي مرضًا عضالًا، وطاف بي على نصف أطباء سان فرانسيسكو. لم تَصِلني أيُّ أخبار جديدة لعام وأكثر؛ ومن ثمَّ لم يَعُد لديَّ أي شك في أن فرانك قد مات بالفعل. ثم جاء اللورد سانت سايمون إلى سان فرانسيسكو، وجئنا نحن إلى لندن، وتم الإعداد للزواج، وكان أبي سعيدًا للغاية، ولكنني كنت أشعر طوال الوقت أنه لا يوجد رجل على ظهر هذه الأرض سوف يأخذ في قلبي مكان فرانك العزيز المسكين.

ومع ذلك، لو كنتُ قد تزوجتُ من اللورد سانت سايمون، كنت سأؤدي واجباتي نحوه كزوج بالطبع. قد لا يُمكننا السيطرة على مشاعر الحب، ولكن بمقدورنا أن نسيطر على أفعالنا. ذهبتُ معه إلى المذبح وأنا عازمة على أن أكون له نِعمَ الزوجة. ولكن لكم أن تتخيَّلوا كيف كان شعوري حين وصلت إلى حواجز المذبح، ونظرت إلى الخلف لأرى فرانك واقفًا وينظر لي من المقعد الأول. ظننتُ في البداية أنه شبحه، ولكن حين عاودتُ النظر وجدته لا يزال في مكانه، وفي عينَيه تعبير أشبه بتساؤل، وكأنه يسألني إن كنتُ سعيدة لرؤيته أم حزينة. إنني مُندهشة أنني لم أفقد الوعي حين رأيته. كان كل شيء يدور من حولي، وكانت كلمات الكاهن تبدو كطنينِ نَحلة في أذني. ولم أدرِ ماذا أفعل. هل أُوقف المراسم وأُثير فضيحة في الكنيسة؟ نظرتُ إليه مرةً أخرى، وبدا كأنه يعرف ما أفكر فيه؛ إذ وجدته يرفع إصبعه إلى شفتَيه كأنما يُخبرني بأن أهدأ. بعد ذلك رأيته يكتب شيئًا على قطعة من الورق، وعرفت أنه يكتب لي رسالة. وعندما مررتُ بمقعده في طريقي للخروج، أوقعت باقة زهوري فوقه، ودس الرسالة في يدي بينما كان يُعيد إليَّ الزهور. كانت الرسالة عبارة عن سطر واحد يطلب مني فيه أن ألحق به حين يصدر لي إشارة بذلك. بالطبع لم أشكَّ للحظة أن واجبي الأول الآن قد أصبح تجاهه، وقررتُ أن أفعل ما يأمُرُني به أيًّا كان.

حين عدتُ أخبرتُ خادمتي، التي كانت تَعرفه في كاليفورنيا، وطالما كانت صديقة له. فأمرتُها بألَّا تنبس بشيء مما عرفَتْ، وأن تُجهِّز لي بعض الأغراض ومعطفي. أعلم أنه كان عليَّ أن أتحدث إلى اللورد سانت سايمون، ولكن كان في ذلك صعوبة بالغة في وجود والدته وكل تلك الشخصيات العظيمة؛ فعقدتُ العزم على الهرب وتوضيح الأمور بعد ذلك. لم أكن قد جلستُ على مائدة الإفطار أكثر من عشر دقائق حين رأيتُ فرانك من النافذة على الجانب الآخر من الطريق. فأشار إليَّ ثم بدأ يتوجَّه إلى داخل المتنزَّه؛ فتسللتُ، وارتديت ثيابي، وتبعتُه. في هذه الأثناء جاءت امرأة تريد التحدث إليَّ في أمرٍ ما، بشأن اللورد سانت سايمون، وبدا لي مما سمعتُه منها أنه هو الآخر كان لديه سرٌّ صغير قبل الزواج، ولكنَّني

تمكنتُ من الإفلات منها وسرعان ما لحقتُ بفرانك. ركبنا معًا سيارة أجرة، وتوجهنا إلى مسكنٍ استأجَرَه في ساحة جوردون، وكان ذلك هو زفافي الحقيقي بعد كل سنوات الانتظار. لقد كان فرانك أسيرًا لدى الأباتشي، ولكنه هرَب وتوجَّه إلى سان فرانسيسكو ووجد أنني قد سلمتُ بموته، فتبعني إلى إنجلترا، وجاءني أخيرًا في صباح يوم زواجي الثاني.»

قال الأمريكي موضحًا: «رأيتُ الخبر في إحدى الصحف. ولم يَرِد به إلا الاسم والكنيسة المُقام بها الزفاف، دون إشارة إلى المكان الذي تعيش فيه السيدة.»

«بعدها تحدثنا معًا بشأن ما يجب أن نفعله، وكان فرانك يؤيد المصارحة، ولكنَّني كنت أشعر بخزي شديد، حتى إنني شعرتُ بأنني يجب أن أختفي تمامًا ولا أرى أيًّا منهم مرة أخرى؛ ربما كنتُ سأرسل رسالةً مختصرة إلى أبي لأُعرِّفه أنني على قيد الحياة. كان التفكير في كل هؤلاء اللوردات والسيدات الجالسين حول مائدة الإفطار في انتظار عودتي أمرًا مُريعًا؛ لذا أخذ فرانك ثياب زفافي وبقيَّة أشيائي الأخرى وحزمها، حتى لا يتتبع أحد أثري، ووضعها في مكان بحيث لا يستطيع أحد العثور عليها. كان من المرجح أن نُغادِر إلى باريس غدًا، لولا أن جاءنا هذا السيد الطيب، السيد هولمز، هذا المساء، وإن كنتُ لا أعلم كيف عثر علينا، وأوضح لنا بصراحة ولطف شديدَين أنَّني كنتُ مخطئة وأن فرانك كان على صواب، وأننا بتكتُّمنا هذا نضع أنفسنا موضع اللوم. ثم عرض علينا أن يَمنحنا فرصة الحديث مع اللورد سانت سايمون منفردًا، وفي الحال جئنا إلى مسكنه دون تردُّد. والآن يا روبرت، لقد عرفت القصة بأكملها، وأنا في شدة الأسف إن كنتُ قد تسببتُ لك في أي ألم، وأتمنى ألا يكون رأيك بي سيئًا.»

لم يُبد اللورد سانت سايمون أي لين في موقفه الصارم بأيِّ حال، ولكنه استمع إلى تلك الرواية المطوَّلة بعبوس وشفتين مزمومتين.

قال: «عذرًا، ولكن ليس من عادتي أن أناقش أدقَّ شئوني الخاصة على الملأ هكذا.»

«إذن ألن تُسامحني؟ ألن تصافحني قبل أن أذهب؟»

«بالتأكيد، إذا كان ذلك سيَسرُّك.» ومدَّ يده، في برود، مصافحًا يدها التي امتدت إليه.

قال هولمز مُقترحًا: «لكم تمنيتُ أن تنضمَّ إلينا في عشاء ودِّي.»

فأجابه اللورد: «أعتقد أنك تطلب أكثر مما ينبغي. قد أكون مضطرًّا للرضوخ في ظل هذه التطورات الجديدة، ولكن لا يُمكن أن تتوقع مني أن أكون سعيدًا بها. أعتقد أنني — بعد إذنك — سأتمنَّى لكم ليلة سعيدة.» وانحنى لنا جميعًا وغادر الغرفة في شموخ.

قال شيرلوك هولمز: «آمُلُ إذن أن تُشرِّفاني بصحبتكما على الأقل. إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي مواطنًا أمريكيًّا يا سيد مولتون؛ كوني واحدًا من أولئك المؤمنين بأن

حماقة ملك وخطأ قس في الماضي لن يمنعا أبناءنا من أن يكونوا، يومًا ما، مواطنين لنفس الدولة العالَمية تحت راية تحمل عَلَم المملكة جنبًا إلى جنب مع العَلَم الأمريكي.»

قال هولمز بعد انصراف الضيوف: «لقد كانت قضية مثيرة؛ لأنها تُبيِّن بجلاء شديد كيف يمكن أن يكون تفسير قضية ما في غاية البساطة، رغم ما تبدو عليه من تعقيد للوهلة الأولى. لا شيء يمكن أن يكون أكثر طبيعية من تسلسل الأحداث التي روَتْها هذه السيدة، ولا شيء يُمكن أن يكون أكثر غرابة من النتيجة التي توصل إليها السيد ليستراد مفتش سكوتلانديارد على سبيل المثال.»

«إذن لم تُخطئ في تفسيرها قط؟»

«منذ البداية اتَّضحت لي حقيقتان، الأولى أن السيدة قد أتمَّت مراسم الزفاف برضاها، والأخرى أنها ندمت على ذلك في غضون دقائق معدودة من عودتها إلى المنزل. من الواضح إذن أن شيئًا ما حدث في الصباح دفَعها إلى تغيير رأيها، ماذا عساه أن يكون هذا الشيء؟ لا يمكن أن تكون قد تحدثت إلى أيِّ شخص حين كانت بالخارج؛ لأنها كانت برفقة العريس. هل رأت شخصًا ما إذن؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أنه شخص من أمريكا؛ لأن الفترة التي أمضَتْها في هذا البلد كانت أقصر من أن تسمح لأحد بأن يحظى بهذا التأثير العميق عليها بما يدفعها إلى تغيير خططها بالكامل لمجرد رؤيته. وهكذا ترى أننا قد توصلنا، من خلال الاستبعاد، إلى فكرة أنها ربما رأت شخصًا أمريكيًّا. فمن يكون هذا الأمريكي؟ ولماذا يُملِك كل هذا التأثير عليها؟ ربما كان حبيبًا، أو لعله زوج. فحسب علمي أنها قد قضت أنوثتها المبكرة في أجواء عصيبة وتحت ظروف غريبة. كان هذا هو ما توصَّلتُ إليه قبل أن أسمع رواية اللورد سانت سايمون. وحين أخبرنا عن رجل جالس في مقعد، وعن التغيير الذي طرأ على سلوك العروس، وعن سقوط باقة الزهور، التي تُعدُّ حيلةً واضحة للحصول على رسالة، وعن لجوئها إلى خادمتها الخاصة التي تَثِق بها، وعن إشارتها المهمة للغاية إلى القفز على امتياز — والتي تعني في لغة عمال المناجم الاستحواذَ على امتياز لشيء سبقه إليه غيره — صار الموقف واضحًا وضوح الشمس. لقد فرَّت مع رجل، وهذا الرجل إما حبيبٌ أو زوجٌ سابق، وإن كنت أرجِّح الأخير.»

«وكيف عثرتَ عليهما بحق السماء؟»

«ربما كان الأمر صعبًا، ولكن صديقنا ليستراد كان يَملك بين يدَيه معلومات لم يكن هو نفسه يُدرك قيمتها. لقد كانت الأحرف الأولى الموقَّعة بها الرسالة على قدر هائل من

الأهمية، بالطبع، ولكن ما هو أكثر قيمة هو معرفة أنه في غضون أسبوع سدَّد فاتورته في واحد من أرقى فنادق لندن؟»

«وكيف استنتجت أنه فندق راقٍ؟»

«من أسعار الخدمات. إن تكلفة ثمانية شلنات للإقامة، وثمانية بنسات لزجاجة من النبيذ كانت تُشير إلى أنه واحد من أغلى الفنادق. قليل من فنادق لندن هي التي تضع تلك الأسعار. وفي ثاني فندق زرتُه، وكان في طريق نورثمبرلاند، علمت من خلال فحص سجلات النزلاء أن فرانسيس إتش مولتون، وهو سيد أمريكي، قد غادَرَ الفندق قبل يومٍ واحدٍ فقط، وبفحص بنودِ فواتيره، وجدتُ نفس البنود التي رأيتُها في نسخة الفاتورة التي كانت بحوزة ليستراد. كان العنوان الذي حدَّده لتُرسَل عليه خطاباته هو ٢٢٦ ساحة جوردون؛ وعليه توجهت إلى هناك، وكنتُ محظوظًا بما يكفي؛ إذ وجدت العاشقَيْن في المنزل، أقدمتُ على إسدائهما بعض النصائح الأبوية وتوجيههما إلى أنه من الأفضل كثيرًا أن يوضِّحا موقفهما أكثر قليلًا للناس عامة، وللورد سانت سايمون خاصة. ودعوتهما للقائه هنا، وكما رأيت، جعلته يأتي في الموعد.»

قلت: «ولكن بلا نتيجة مُرضية. لقد كان موقفه فظًّا للغاية بالتأكيد.»

قال هولمز مبتسمًا: «آه يا واطسون، ربما ستكون أنت فظًّا أيضًا لو وجدت نفسك في لحظة، بعد كل ما تكبَّدتَه من عناء في التودُّد والخطبة والزفاف، محرومًا من الزوجة والثروة. أظن أننا يجب أن نترفَّق كثيرًا في حكمنا على اللورد سانت سايمون ونشكر الله على أنَّ مِن غير المُرجَّح أن نجد أنفسنا في الموقف ذاته. اسحب كرسيَّك وناولني كماني؛ فالمشكلة الوحيدة التي لا يزال علينا حلها هي كيف سنَقضي هذه الليالي الخريفية الكئيبة.»

مغامرة تاج الزمرد

قلتُ بينما كنتُ واقفًا ذات صباح أمام نافذتنا الناتئة المُدوَّرة أنظر إلى الشارع: «هولمز، يوجد رجل مجنون في الشارع. إنه لمن المحزنِ حقًّا أن يسمح له أقاربه بالخروج وحده.»

نهض صديقي من كرسيه ذي الذراعين بتكاسُلٍ ووقف واضعًا يديه في جيبَي رداء نومه وأخذ ينظر من فوق كتفي. كان صباح أحد أيام شهر فبراير، وكان مُشرقًا وباردًا، وكانت ثلوج اليوم السابق لا تزال موجودة على الأرض بكثافة وتلمع بإشراقٍ في شمس الشتاء. أما في وسط شارع بيكر، فقد جرف مرور العربات الثلوج حتى صارت شريطًا بُنيًّا مُفكَّكًا، وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلَّت الثلوج الموجودة على جانبَي الطريق والمتراكمة على حوافِّ مسارات المشاة بيضاءَ اللون كما هي. كان الرصيف الرمادي قد نُظِّفَ وكُشِطَت من عليه الثلوج، ولكنه كان لا يزال زلقًا بنحوٍ خطير؛ لذا كان عدد المارَّة أقلَّ من المعتاد. في الواقع، لم يكن هناك أي شخص قادم من ناحية محطة مترو الأنفاق سوى هذا الرجل الذي لفت سلوكه الغريب انتباهي.

كان رجلًا يبلغ من العمر خمسين عامًا تقريبًا، طويل القامة وبدينًا، ذا وجه ضخم واضح المعالم وهيئة مهيبة. وكان يرتدي ملابسَ داكنة ولكنها أنيقة. كان يرتدي معطفًا أسودَ طويلًا، وقبعةً لامعة، وزوجًا بنيًّا أنيقًا من الجراميق، وسروالًا مُفصَّلًا جيدًا لونُه رمادي فاتح. إلا أن تصرفاته كانت غريبةً وتتناقض مع ملابسه الأنيقة الغالية وملامحه المهيبة؛ فقد كان يركض بقوةٍ ويَثِب وثباتٍ صغيرةً بين الحين والآخر مثلما يفعل رجلٌ مُرهَق غير معتادٍ على أن يُرهِق ساقيه. وبينما كان يركض، كان يهُزُّ يديه لأعلى ولأسفل، ويهُزُّ رأسه، ويلوي وجهه بانقباضاتٍ غير عادية.

تساءلت قائلًا: «ماذا به بحق السماء؟ إنه يحملق في أرقام المنازل.»

قال هولمز وهو يفرك يديه: «أعتقد أنه سيأتي إلى هنا.»

«هنا؟»

«أجلْ، أعتقد أنه سيأتي طالبًا مساعدتي المهنية. إنني أعرف الأمارات. هه! ألم أخبرك؟!» بينما كان هولمز يتحدث، اندفع الرجل نحو بابنا، وهو ينفخ ويتأفَّف، ودقَّ الجرس حتى ضج المنزل بأكمله بالرنين.

بعد لحظاتٍ قليلة، كان في غرفتنا وهو ما يزال ينفخ متأفِّفًا ويومِئ بيديه، ولكن استقرت في عينيه نظرةُ حزن ويأس لم تلبث أن حوَّلت ابتساماتنا إلى رعبٍ وشفقة. لم يتمكَّن من الكلام لبعض الوقت، ولكنه كان يتمايل بجسمه ويشُدُّ شَعره وكأنه أُصيب بأقصى درجات الجنون. ثم انتصب واقفًا على قدميه فجأة وضرب رأسه في الحائط بقوة شديدة، فهُرِعْنا نحوه وجذبناه إلى منتصف الغرفة. دفعه شيرلوك بقوةٍ إلى كرسيٍّ مريح، ثم جلس بجانبه وأخذ يُربِّت على يده ويتحدَّث معه بالنبرة الهادئة المريحة التي كان يعرف جيدًا كيف يوظِّفها.

«لقد أتيتَ لتُخبرني بقصَّتك، أليس كذلك؟ لقد أرهقك تعجُّلُك؛ لذا أرجوك أن تنتظر حتى تلتقط أنفاسك، وبعد ذلك سأكون سعيدًا للغاية لأن أساعدك في أي مسألةٍ قد تَعرضها عليَّ.»

جلس الرجل لدقيقة أو أكثر وهو يتنفَّس بقوة ويحاول أن يتمالك نفسه. ثم مسح جبهته بمنديله وزمَّ شفتيه وأدار وجهه نحونا.

وقال: «لا شكَّ في أنك تظن أنني مجنون، أليس كذلك؟»

فردَّ هولمز قائلًا: «أرى أنك تواجه مشكلة كبيرة جدًّا.»

«بكل تأكيد! يعلم الربُّ أنها مشكلة قادرة على أن تُذهِب عقلي بالكامل، ويعلم كم هي مفاجئة ورهيبة. كان من الممكن أن أواجه فضيحةً عامة، على الرغم من أنني رجل لم تَشُبْ سمعتَه شائبةٌ حتى الآن، كما أن المصائب الشخصية هي قدَرُ الجميع. ولكن أن تأتي المصيبتان معًا، وبهذه الصورة المرعبة، فقد كان ذلك كافيًا أن يُزلزل وجداني. وإلى جانب ذلك، فلست أنا وحدي من سيَلحق به الأذى؛ فأنبل رجل في البلد قد يتأثَّر ما لم تكن هناك طريقة للخروج من هذه المصيبة المروِّعة.»

قال هولمز: «أرجو أن تتمالك نفسك يا سيدي، وأعطني نبذة واضحة عن هويتك وعما أصابك.»

أجاب زائرنا قائلًا: «ربما يكون اسمي مألوفًا لك. أنا ألكسندر هولدر، من مؤسسة هولدر وستيفينسون المصرفية التي مقرُّها في شارع ثريدنيدل.»

كان الاسم معروفًا لنا بلا شك؛ فقد كان اسم الشريك الأكبر في ثاني أكبر مصرف خاص في مدينة لندن. فما الذي يمكن أن يكون قد حدث إذن ليجعل واحدًا من أبرز مواطني لندن في هذه الحالة الأكثر إثارة للشفقة على الإطلاق؟ انتظرناه بكل فضول حتى استجمع قواه مرةً أخرى ليبدأ في رواية قصته.

وقال: «أعتقد أن عامل الوقت مهم؛ لذا سارعت بالقدوم إلى هنا عندما اقترح مفتش الشرطة أن أسعى للحصول على مساعدتك. لقد أتيت إلى شارع بيكر عبْر مترو الأنفاق، ومن هناك مشيت مسرعًا إلى هنا لأن عربات الأجرة تسير ببطء عبْر هذه الثلوج. لذلك كنت ألهث؛ فأنا لا أمارس الرياضة كثيرًا. على أية حال، أشعر بتحسُّن الآن، وسأضع الحقائق أمامك بأكثر قدْر ممكن من الاختصار والوضوح.

أنت تعلم جيدًا بالطبع أن العمل المصرفي الناجح يعتمد على قدرتنا على إيجاد استثمارات مجزية لأموالنا بقدْرِ ما يعتمد على توسيع شبكة علاقاتنا وعدد المُودِعين لدينا. وإحدى أكثر وسائلنا تحقيقًا للربح هي القروض التي تكون درجة الأمان فيها عالية. لقد حققنا الكثير في هذه الناحية خلال السنوات القليلة الماضية، وقد أقرضنا مبالغ كبيرة للعديد من العائلات النبيلة بضمان لوحاتها أو مجموعات كُتُبِها أو مقتنياتها الثمينة.

كنت جالسًا في مكتبي بالمصرف صباح أمس عندما أحضر أحد الموظفين إلى مكتبي بطاقة شخص. جفلتُ عندما رأيت الاسم؛ لأنه لم يكن سوى اسم — حسنًا، من الأفضل ألا أقول، حتى لكَ، أكثرَ من أنه اسم معروف في جميع أنحاء العالم — أحد أنبل وأرقى وأرفع الأسماء في إنجلترا. لقد أربكني شرف مقابلته، وحاولت عندما دخل أن أُعبِّر عن ذلك، ولكنه تطرَّق إلى أمور العمل مباشرةً، بأسلوب رجل يرغب في إنهاء مهمة مزعجة بسرعة.

وقال: «سيد هولدر، علمتُ أنكم معتادون على إقراض الأموال.»

فرددت عليه قائلًا: «يقوم المصرف بذلك عندما تكون الضمانة جيدة.»

«من الضروري للغاية بالنسبة إليَّ أن أحصل على خمسين ألف جنيه إسترليني على الفور. يمكنني بالطبع أن أقترض عشرة أضعاف هذا المبلغ الزهيد من أصدقائي، ولكنني أفضِّل أن يكون هذا الأمر رسميًّا، وأن أقوم به بنفسي. يمكنك أن تتفهم بسهولة أنه من غير الحكمة لرجلٍ في مكانتي أن يضع نفسه تحت التزاماتٍ كهذه.»

سألته: «إن كان لي أن أسأل، لِكم من الوقت تريد هذا المبلغ؟»

«سأتسلَّم مبلغًا كبيرًا مستحقًّا لي يوم الإثنين القادم، وعندئذٍ سأسدِّد لك بلا شك كلَّ ما ستُقرضه لي بأي نسبة فائدة تجدها مناسبة. ولكن من الضروري للغاية لي أن تُقرضني المبلغ على الفور.»

«كان سيسعدني أن أقرضك المبلغ من مالي الخاص دون أي حاجة للمزيد من المفاوضات لو لم يكن ذلك سيشكِّل عبئًا شديدًا لا يمكنني تحمُّله. وعلى الجانب الآخر، لو فعلت ذلك تحت اسم المصرف، فإذن من باب إحقاق الحق لشريكي لا بد أن أُصر، حتى في حالتك، أن نتخذ كل الاحتياطات العملية الممكنة.»

ردَّ وهو يرفع حقيبةً سوداء مربعة مصنوعة من جلد السختيان كان قد وضعها بجانب كرسيه: «هذه هي الطريقة التي أفضِّلها تمامًا. لقد سمعتَ بلا شك عن تاج الزمرد، أليس كذلك؟»

«إنه واحد من أثمنِ ممتلكات الإمبراطورية العامة.»

«بالضبط.» ثم فتح الحقيبة وكانت تستقر داخلها في مساحةٍ من المخمل الناعم ذي اللون الوردي قطعةُ المجوهرات النادرة التي حدَّثني عنها. وأردف قائلًا: «يحتوي التاج على تسعٍ وثلاثين زمردة ضخمة، أما النقوش الذهبية فلا تُقدَّر بثَمن. إن أقل تقدير لقيمة التاج يساوي ضِعف المبلغ الذي طلبته منك. وأنا مستعد لترْك التاج بحوزتك كضمانة.»

أخذت الحقيبة الثمينة في يديَّ ونظرت إليها ثم إلى عميلي الشهير ببعض الحيرة.

فسألني قائلًا: «هل تشك في قيمته؟»

«لا إطلاقًا، أنا فقط أتساءل ...»

«تتساءل بشأن مدى مناسبة تركه لديك. يمكنك أن تطمئن حيال هذا الأمر، لم أكن لأفكر في ذلك إن لم أكن على أتم اليقين من أنني سأتمكَّن من استرداده خلال أربعة أيام. إنه مجرد إجراء شكلي. هل الضمانة كافية؟»

«تمامًا.»

«أنت تفهم بالطبع يا سيد هولدر أنني أعطيك دليلًا قويًّا على ثقتي بك المبنية على كلِّ ما سمعتُه عنك. أنا أعتمد عليك ليس فقط في التكتم وفي الامتناع عن أي قيلٍ وقال في هذه المسألة، وإنما أيضًا، وقبل كل شيء، في الحفاظ على هذا التاج بكل الاحتياطات الممكنة؛ إذ إنني لست بحاجةٍ للقول إنه إذا لحق أي ضرر به، فسينتج عن ذلك فضيحة عامة. إن أي ضرر سيصيبه سيكون على نفس القدْر من خطورة فقدانه بالكامل؛ إذ إنه لا توجد أحجار

زمرد في العالم كله تضاهي هذه الأحجار، وسيكون من المستحيل استبدالها. على أية حال، سأتركه معك وأنا كلي ثقة بك، وسآتي لتسلُّمِه شخصيًّا صباح يوم الإثنين.»

عندما رأيت أن عميلي كان يتعجَّل المغادرة، لم أقل أي شيء واستدعيت الصرَّاف وأمرته بصرف خمسين ألف جنيه إسترليني. ومع ذلك، بعدما صرت وحدي مرة أخرى مع هذه الحقيبة الثمينة الموضوعة على الطاولة أمامي، لم يسعني سوى التفكير بشيء من الخوف في المسئولية الهائلة التي ألقتها هذه الحقيبة على عاتقي. فلم يكن هناك أدنى شكٍّ أنه إذا لَحِق أيُّ ضرر بملكية قومية كهذه، فسيتسبب ذلك في فضيحةٍ مروِّعة. لقد ندمت بالفعل على موافقتي على تولي مسئولية هذا الأمر. ولكن كان الأوان قد فات لتغيير أي شيء؛ لذا فقد أغلقت على الحقيبة في خزانتي الخاصة وعُدت إلى العمل مرة أخرى.

عندما حل المساء، شعرت أنه سيكون من التهور أن أترك شيئًا ثمينًا كهذا في مكتبي وأغادر. لقد سُرقت خزانات مصرفيين آخرين من قبل، فلمَ ستكون خزانتي استثناءً؟ وإن حدث ذلك، فلا يمكنني تخيُّل كم سيكون الوضع الذي سأجد نفسي فيه رهيبًا! لذا قررت أنني خلال الأيام القليلة المقبلة سأحمل الحقيبة معي دائمًا ذهابًا وإيابًا حتى لا تغيب عن ناظري أبدًا. وهكذا، استقللتُ عربةَ أجرةٍ وتوجَّهت إلى منزلي في ستريتام وأنا أحمل الكنز الثمين معي. لم أتنفَّس الصُّعداء إلا عندما صعدتُ إلى الطابق العلوي بمنزلي، ووضعته في مكتب غرفة ملابسي وأغلقته عليه.

والآن يا سيد هولمز سأعطيك نبذةً عن الأفراد المقيمين في منزلي لأنني أريدك أن تكون مُلِمًّا بالوضع جيدًا. ينام سائسي وخادمي خارج المنزل، ويمكن استثناؤهما من الشكوك تمامًا. لديَّ ثلاث خادمات يعملن عندي منذ عدة سنوات وأثق بهن ثقةً مطلقة. وهناك خادمة أخرى تُدعى لوسي بار تعمل عندي ولم يمرَّ على وجودها سوى بضعة أشهر، ولكن طباعها ممتازة وأنا راضٍ تمامًا عن عملها. إنها فتاة جميلة للغاية، وقد جذبت الكثير من المعجبين الذين يحومون حول المنزل بين الحين والآخر. هذا هو العيب الوحيد الذي وجدناه فيها، ولكننا نعتقد أنها فتاة جيدة بكل المقاييس.

هذا فيما يخص الخدم. أما عائلتي نفسها فهي عائلة صغيرة للغاية، حتى إنني لن أستغرق الكثير من الوقت لوصفها. أنا أرمل ولدَيَّ ابن وحيد، آرثر. إنه يمثِّل خيبةَ أمل بالنسبة إليَّ، يا سيد هولمز — خيبة أمل كبيرة. وليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنني المسئول عن ذلك. يقول لي الناس إنني أفسدته، وهو ما قد فعلته على الأرجح. فعندما تُوفيت زوجتي العزيزة، شعرت أنني يجب أن أوجِّه كلَّ حبي إليه. فلم أستطع تحمُّل رؤية الابتسامة

تتلاشى ولو للحظة من وجهه. ولم أرفض له طلبًا أبدًا. ربما كان من الأفضل لكلينا لو كنت أكثرَ حزْمًا، ولكنني كنت أقصد خيرًا.

كنت أعتزم بطبيعة الحال أن يخلفني في عملي، ولكنه لم يكن يميل إلى العمل. لقد كان جامحًا وصعب المِراس، ولكي أكون صريحًا، لم أستطع الوثوقَ به في التعامل مع مبالغ كبيرة من المال. عندما كان صغيرًا، صار عضوًا في نادٍ أرستقراطي، ولتمتعه بأسلوب ساحر، سرعان ما أصبح صديقًا مقرَّبًا لعدد من الرجال الأثرياء المبذِّرين. تعلَّم أن يلعب القمار بكثرة وأن يهدر المال على سباقات الخيل، حتى إنه كان يأتيني مرارًا وتكرارًا متوسِّلًا أن أعطيه سلفة من مخصصاته المالية حتى يسدد ديونه التي تعهَّد بشرفه أن يسدِّدها. حاول أكثرَ من مرة الابتعاد عن أصدقاء السوء الذين كان يرافقهم، ولكن في كل مرة كان تأثير صديقه السير جورج بيرنويل كافيًا لأن يعود إلى رفقتهم مرة أخرى.

وقطعًا لم يكن من الغريب بالنسبة إليَّ أن يكون لرجلٍ كالسير جورج بيرنويل تأثيرٌ كهذا على آرثر؛ فقد كان يُحضره إلى منزلي باستمرار، وكنت أجد أنني بالكاد أستطيع مقاومة أسلوبه الساحر. إنه يكبر آرثر، وهو رجل محنَّك بكل معنى الكلمة، سافر إلى أماكن عديدة واكتسب خبرات كبيرة، وهو متحدث بارع، وشخص يتمتع بجمال شخصي هائل. ومع ذلك، عندما أفكر فيه بحيادية بعيدًا عن حضوره الساحر، أقتنع من حديثه الساخر ومن النظرة التي لمحتها في عينيه أنه شخص لا يمكن الوثوق به إطلاقًا. هذا هو رأيي الذي توافقني عليه ماري الصغيرة، والتي تتمتع بالنظرة التحليلية الثاقبة لشخصيات البشر التي تُميز النساء.

والآن إنها هي الوحيدة المتبقية لأتحدث عنها. إنها ابنة أخي، ولكنني توليت رعايتها عندما مات أخي قبل خمس سنوات وتركها وحيدة في العالم، ومنذ ذلك الحين أعتبرها ابنتي. إنها شعاع ضوء يُشرق في منزلي؛ فهي لطيفة ومحبة وجميلة، ومديرة ومدبِّرة منزل رائعة، وفي الوقت نفسه رقيقة وحنونة وهادئة كما يجب أن تكون المرأة. إنها ساعدي الأيمن، لا أعرف ما الذي كنت سأفعله بدونها. لم تعارضني قطُّ سوى في أمر واحد؛ فقد طلب ابني الزواج منها مرتين، فهو يحبها بشدة، ولكنها رفضت طلبه في المرتين. أعتقد أنه إن كان يمكن لأي شخص أن يعيده إلى طريق الصواب، فستكون هي، وأن زواجه منها كان من الممكن أن يُغيِّر حياته بأكملها، ولكن للأسف! لقد فات الأوان، فات الأوان إلى الأبد!

والآن يا سيد هولمز أنت تعرف مَن يعيشون تحت سقف منزلي، وسأواصل سرد قصتي البائسة.

عندما كنا نحتسي القهوة في غرفة الجلوس تلك الليلة بعد العشاء، أخبرت آرثر وماري بما حدث وبالكنز الثمين الموجود في منزلنا، ولكن الشيء الوحيد الذي لم أقله كان هو اسم عميلي. لوسي بار، التي كانت قد أحضرت القهوة، كانت قد غادرت الغرفة بالفعل قبل أن أخبرهما بهذا؛ أنا متأكد من ذلك، ولكن لا يمكنني الجزم أن الباب كان مغلقًا. ماري وآرثر كانا مهتمَّين بالأمر، وكانا يرغبان في رؤية التاج الشهير، ولكنني اعتقدت أنه من الأفضل ألا أعبث به.

سألني آرثر: «أين وضعته؟»

«في مكتبي الخاص.»

فقال: «حسنًا، أدعو الرب ألا يُجرى السطو على المنزل أثناء الليل.»

رددت قائلًا: «إنه محكم الغلق.»

«أوه، يمكن لأي مفتاح قديم أن يفتح قفل هذا المكتب. عندما كنت صغيرًا فتحته بنفسي بمفتاح خزانة غرفة التخزين.»

عادة ما كان يتكلم بأسلوب جامح؛ لذا لم أعِر انتباهًا إلى ما قاله. ومع ذلك، فقد تبعني إلى غرفتي في تلك الليلة ووجهه شديد العبوس.

قال وهو ينظر إلى الأرض: «انظر، يا أبي، هل يمكنك أن تعطيني مائتي جنيه إسترليني؟»

أجبته بحدة: «لا، لا يمكنني! لقد كنت شديد الكرم معك حتى الآن فيما يتعلق بالأمور المالية.»

فقال: «لقد كنت شديد اللطف، ولكني لا بد أن أحصل على هذا المبلغ، وإلا فلن أتمكن من الظهور أبدًا داخل النادي مرة أخرى.»

صحت قائلًا: «وهذا شيء جيد للغاية!»

«أجل، ولكنك لن تجعلني أتركه وأنا مُهان. لا يمكنني تحمُّل العار. لا بد أن أحصل على المبلغ بطريقةٍ ما، وإن لم تسمح لي بالحصول عليه، فلا بد أن أجرِّب طرقًا أخرى.»

كنت أستشيط غضبًا؛ إذ إنها كانت المرة الثالثة خلال الشهر التي يطلب فيها مالًا.

صحت قائلًا: «لن تحصل مني على بنس واحد!» فانحنى وغادر الغرفة دون أن يقول كلمة أخرى.

عندما غادر، فتحت مكتبي وتأكدت أن كنزي كان آمنًا ثم أعدتُه وأغلقت مكتبي مرة أخرى. بعد ذلك بدأت أتجول في المنزل لأتأكد من أن كل شيء كان آمنًا — وهي مهمة عادة

ما أتركها لماري، ولكنني فكَّرت أنه من الجيد أن أؤديها بنفسي في تلك الليلة. وبينما كنت أنزل على الدَّرَج، رأيت ماري تقف عند النافذة الجانبية للردهة، ولكنها أغلقتها وأوصدتها عندما اقتربت منها.

قالت وهي تبدو منزعجة بعض الشيء، حسبما اعتقدت: «أخبِرْني يا أبي، هل أذنت للوسي الخادمة أن تخرج الليلة؟»

«بالطبع لا.»

«لقد دخلت للتو من الباب الخلفي. ليس لدي أدنى شك أنها خرجت فقط إلى البوابة الجانبية لترى شخصًا ما، ولكني أعتقد أنه تصرُّف خَطِر ولا بد من إيقافه.»

«لا بد أن تتحدثي إليها في الصباح، أو سأتحدث أنا معها إن كنتِ تفضلين ذلك. هل أنتِ متأكدة من أن كل شيء موصَد؟»

«متأكدة تمامًا يا أبي.»

«تصبحين على خير إذن.» قبَّلتها وصعدت إلى غرفة نومي مرة أخرى وسرعان ما استغرقت في النوم.

إنني أحاول أن أخبرك بكل شيء قد يكون له أي علاقة بالقضية يا سيد هولمز، ولكني أرجوك أن تستوقفني عند أي نقطة لا أوضحها وتسألني فيها.»

ردَّ هولمز قائلًا: «على العكس، كلامك واضح بنحو فريد.»

«لقد وصلت إلى نقطةٍ في قصتي أود أن أكون واضحًا فيها بهذا النحو على وجه الخصوص. أنا لا أنام بعمق عادة، كما جعل القلق نومي، بلا شك، أقل عمقًا مما هو عليه في المعتاد. لذا، في حوالي الساعة الثانية صباحًا، استيقظت على صوتٍ في المنزل. ولكنه توقَّف قبل أن أستيقظ تمامًا، إلا أنه ترك أثرًا كما لو أن إحدى النوافذ قد أُغلِقَت بخفةٍ في مكانٍ ما. رقدت أنصت بدقة. فجأة، لفزعي، كان هناك صوتٌ واضحٌ لوقْع أقدامٍ تتحرك بهدوء في الغرفة المجاورة. نزلت من السرير وقلبي يدق خوفًا، واختلست النظر عند زاوية باب غرفة ملابسي.

صرخت قائلًا: «آرثر! أيها الشرير! أيها اللص! كيف تجرؤ على لمس التاج؟»

كان مصباح الغاز نصف مضاء، كما تركته، وكان ابني التَّعيس الذي كان يرتدي فقط قميصًا وسروالًا، يقف بجانب الضوء وهو يمسك التاج في يديه. كان يبدو أنه يحاول انتزاع شيء منه، أو أنه كان يَثنيه بكل قوَّته. وعندما سمع صراخي، أسقطه من قبضته واستدار نحوي بوجه شديد الشحوب. التقطته من الأرض وفحصته، ووجدت أن أحد الأركان الذهبية، بزمرداته الثلاث، كان مفقودًا.

صرخت وأنا في قمة الغضب: «أيها الحقير! لقد دمرتَه! لقد شوَّهت سُمعتي إلى الأبد! أين الجواهر التي سرقتها؟»

صاح قائلًا: «سرقتها!»

صرخت وأنا أمسك بكتفيه وأهزهما: «أجل، إنك لص!»

ردَّ قائلًا: «ليس هناك أي أحجار مفقودة. لا يمكن أن يكون هناك أي شيء مفقود.»

«توجد ثلاث زمردات مفقودة، وأنت تعلم أين هي. هل لا بد أن أنعتك بالكاذب إلى جانب كونك لصًّا؟ ألم أرَك وأنت تحاول انتزاع قطعة أخرى؟»

فقال: «لقد أهنتَني بما يكفي، لن أتحمل هذا الوضع بعد الآن. لن أقول أي شيء عن هذا الأمر بما أنك اخترت أن تهينني. سأغادر منزلك في الصباح وسأشق طريقي وحدي.»

صرخت بجنون ممزوج بالحزن والغضب قائلًا: «ستغادره بصحبة الشرطة! سأطلب التحقيق في هذا الأمر حتى أصل إلى منتهاه.»

قال بانفعالٍ لم أكن أظن أنه جزء من طبيعته: «لن تعرف أي شيء مني. إن اخترت أن تتصل بالشرطة، فلْتفعل، ولْتدعهم يكتشفون ما يمكنهم اكتشافه.»

بحلول هذا الوقت كان المنزل كله قد استيقظ؛ إذ إنني كنت قد رفعت صوتي أثناء غضبي. ماري كانت هي أول مَن سارع إلى غرفتي، وعند رؤية التاج ووجه آرثر، فهمت المسألة كلها وصرخت ثم سقطت على الأرض مغشيًّا عليها. أرسلتُ الخادمة لتُحضر الشرطة ووضعت مسألة التحقيق في أيديهم على الفور. عندما دخل المفتش والشرطي المنزل، سألني آرثر الذي كان يقف عابسًا وهو عاقد ذراعيه، عما إن كنت أنوي توجيه الاتهام بالسرقة إليه. أجبت أنه لم يَعُد أمرًا خاصًّا، وأنه أصبح عامًّا لأن التاج المدمَّر ملكية قومية. كنت مصممًا على أن يتخذ القانون مجراه في كل شيء.

قال آرثر: «على الأقل، لن تجعلهم يلقون القبض عليَّ في الحال. سيكون من مصلحتك ومصلحتي أن أغادر المنزل لخمس دقائق.»

فأجبته قائلًا: «تغادر المنزل كي تهرُب، أو ربما كي تخفي ما سرقته.» ولكن عندئذٍ، وبعد أن أدركت الموقف المخيف الذي وُضِعت فيه، توسَّلت إليه أن يتذكر أنْ ليست سمعتي فقط، بل سمعة مَن هو أعظم مني بكثير، كانت معرضة للخطر، وأنه يهدِّد بإثارة فضيحة من شأنها أن تهزَّ الأمة بأكملها. إنه يمكن أن يتجنَّب كل ذلك فقط إن أخبرني بما فعله بالأحجار الثلاثة المفقودة.

وقلت له: «يمكنك أن تواجه الأمر كذلك؛ فقد قُبِضَ عليك متلبسًا، ولا يمكن لأي اعتراف أن يجعل ذنبك أكثر بشاعة. فقط إن أصلحت الوضع بما هو في وُسعك، وهو أن تخبرنا عن مكان الأحجار، فسأنسى الأمر برُمَّته وأغفره لك.»

«احتفظ بمغفرتك لمن يطلبها.» هكذا أجاب وهو يبتعد عني بابتسامة ساخرة. لقد رأيت أنه شديد القسوة بحيث لن يؤثر فيه شيء مما أقول. لم يكن هناك سوى طريقة واحدة للتعامل معه. دعوت المفتش وسلَّمته إليه. فُتِّش على الفور، وليس هو شخصيًّا فقط، بل غرفته وكل جزء من المنزل من الممكن أن يكون قد خبأ الجواهر فيه، ولكن لم يُعثَر على أي أثر لها، ورفض الشاب البائس أن ينبس ببنت شفة على الرغم من كل محاولات إقناعنا وتهديدنا. لقد نُقِلَ هذا الصباح إلى السجن، وبعد أن أتممتُ كافة الإجراءات الرسمية للشرطة، هُرِعْتُ إليك لأتوسل إليك أن تستخدم كل مهاراتك في كشف المسألة. لقد اعترفت الشرطة بوضوحٍ أنهم لا يستطيعون تبيُّنَ أي شيء في القضية في الوقت الحالي. يمكنك أن تطلب ما تشاء من المال وفق ما تراه ضروريًّا. لقد عرضت بالفعل مكافأة قدرها ألف جنيه إسترليني. يا إلهي، ماذا أفعل؟! لقد فقدت سمعتي والأحجار الكريمة وابني في ليلة واحدة. أوه، ماذا أفعل؟!»

وضع يديه على جانبي رأسه وأخذ يَهُزُّ نفسَه إلى الأمام والخلف، مُهَمْهِمًا كطفلٍ جعله حزنُه عاجزًا عن الكلام.

جلس شيرلوك هولمز صامتًا لبضع دقائق وحاجباه معقودان وعيناه مثبتتان على النار.

ثم سأله قائلًا: «هل تستقبل الكثير من الزوار في منزلك؟»

«لا يزورني أحد سوى شريكي وأسرته وأحد أصدقاء آرثر بين الحين والآخر. زارنا السير جورج بيرنويل عدة مرات في الآونة الأخيرة. لم يزُرنا أي أحد آخرَ حسبما أعتقد.»

«هل تخرج وتختلط بالناس كثيرًا؟»

«آرثر هو مَن يفعل ذلك. أما أنا وماري فنبقى في المنزل، ولا يهتم أيٌّ منا بالخروج.»

«هذا أمرٌ غير عادي لشابة صغيرة.»

«إنها ذات طبيعة هادئة. كما أنها ليست صغيرة السن جدًّا، إنها تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا.»

«يبدو مما قلته أن هذه المسألة كانت صادمة لها أيضًا.»

«كانت رهيبة! لقد أثَّرت فيها حتى أكثر مني.»

«لا يشكُّ أيٌّ منكما في أن ابنك هو المذنب، أليس كذلك؟»

«كيف يمكن أن نشك في ذلك وأنا رأيته بعيني وهو يحمل التاج في يده؟»

«بالكاد أعتبر ذلك دليلًا قاطعًا. هل لحقتْ بباقي التاج أيُّ أضرار؟»

«أجل، لقد كان مثنيًّا.»

«ألا تعتقد إذن أنه كان يحاول إصلاحه؟»

«ليباركك الرب! إنك تفعل كلَّ ما في وُسعك من أجله ومن أجلي، ولكنها مهمة ثقيلة. ما الذي كان يفعله هناك من الأساس؟ وإن كانت نواياه بريئة، لمَ لم يفصح عنها؟»

«بالضبط! وإن كان مذنبًا، لِمَ لم يخترع أي كذبة؟ يبدو لي أن صمته يوحي بالأمرين. هناك العديد من النقاط الغريبة التي تخص هذه القضية. ماذا كان رأي الشرطة في الضوضاء التي أيقظتك من نومك؟»

«لقد اعتبروا أنها قد تكون بسبب إغلاق آرثر لباب غرفة نومه.»

«يا لها من قصة محتملة! كما لو أن مَن يرتكب جريمة سيغلق بابه بقوةٍ توقظ منزلًا بأكمله! ما الذي قالوه إذن عن اختفاء هذه الجواهر؟»

«إنهم ما زالوا يفحصون الألواح الخشبية ويفتشون الأثاث على أمل العثور عليها.»

«هل فكروا في البحث خارج المنزل؟»

«أجل، لقد عملوا بجهد استثنائي. لقد فُتِّشَت الحديقة بأكملها بالفعل تفتيشًا دقيقًا.»

قال هولمز: «حسنًا، يا سيدي العزيز، أليس من الواضح لك الآن أن هذه المسألة أعمقُ بكثير مما كنتَ أنت أو الشرطة تظنون؟ لقد بدت لك أنها قضية بسيطة، ولكنها تبدو لي شديدة التعقيد. فكِّر في تفاصيل نظريتك. إنك تفترض أن ابنك قام من سريره، وفي مخاطرة كبيرة، توجَّه إلى غرفة ملابسك وفتح مكتبك وأخذ تاجك وكسر بقوةِ يديه فقط جزءًا صغيرًا منه وذهب إلى مكانٍ آخرَ وأخفى فيه ثلاث جواهر من أصل تسع وثلاثين، بمهارةٍ تجعل من المستحيل لأحد أن يعثر عليها، ثم عاد بالستِّ والثلاثين الأخرى إلى الغرفة التي عرَّض فيها نفسَه للخطر الهائل بأن يجري اكتشافه! وأنا أسألك الآن: هل ترى أن هذه النظرية مقبولة؟»

صاح هولدر بإيماءةِ يأسٍ قائلًا: «ولكن ما البدائل الأخرى؟ لو كانت دوافعه بريئة، فلمَ لا يوضِّحها؟»

فأجاب هولمز: «مهمتنا هي اكتشاف ذلك، والآن، إذا سمحت يا سيد هولدر، سنتوجَّه إلى ستريتام معًا ونخصِّص ساعةً لإلقاء نظرةٍ أدقَّ على التفاصيل.»

أصرَّ صديقي على أن أرافقهما في رحلتهما الاستكشافية، وهو ما كنت أتوقُ إليه بما يكفي؛ لأن القصة التي استمعنا إليها كانت قد أثارت فضولي وتعاطفي الشديدين. أعترف أن تورُّط ابن المصرفي في القضية بدا واضحًا لي كما كان بالنسبة إلى والده البائس، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنت أثق ثقةً شديدة في حصافة هولمز جعلتني أشعر أنه لا بد أن يكون هناك بعض الأسباب التي تدعو إلى الأمل ما دام لم يُرضِه التفسيرُ المُجمَع عليه. بالكاد تحدَّث طَوال الطريق إلى الضاحية الجنوبية، ولكنه جلس واضعًا ذقنه على صدره وقبعته تغطي عينيه وكان غارقًا في التفكير. بدا أن بصيص الأمل الصغير الذي مُنِحَ لعميلنا قد دبَّ فيه الروح حتى إنه دخل في حوار عابر معي حول شئون عمله. قادتنا رحلة قصيرة بالقطار ورحلةُ سيرٍ أقصر إلى فيربانك؛ المنزل المتواضع للمصرفي العظيم.

كان فيربانك منزلًا مربَّعَ الشكل ذا حجم جيد، مبنيًّا بالحجر الأبيض، ويبعد عن الطريق قليلًا. وأمام بوابتَي مدخله الحديديتَين الكبيرتَين، يمتد طريق مزدوج مخصَّص للعربات له مَرْج مغطًّى بالثلوج. وعلى اليمين توجد أَجَمَةٌ صغيرة تؤدي إلى ممرٍّ ضيِّق بين سياجَين أنيقَين يمتد من الطريق إلى باب المطبخ، ويشكِّل مدخلَ البائعين. وعلى اليسار امتدَّ ممر يؤدي إلى الإصطبل، ولكنه لم يكن ضمن إطار الأرض الخاصة بالمنزل، بل كان جزءًا من الطريق العام ولكنه لم يكن يُستخدَم كثيرًا. تركَنا هولمز واقفَين عند الباب ومشى ببطء حول المنزل بأكمله، بطول مقدمة المنزل وممر البائعِين، وكذا حول الحديقة بالخلف إلى الممر المؤدي للإصطبل. تأخَّر هولمز كثيرًا حتى إنني دخلت أنا والسيد هولدر غرفة الطعام وانتظرنا بجانب المدفأة حتى يعود. كنا لا نزال نجلس هناك في صمتٍ عندما فُتِحَ الباب ودخلت شابة صغيرة. كانت أطول من المتوسط، ممشوقة القوام وعيناها سوداوان وشعرها أسود، وقد بدَوا أكثرَ سوادًا نتيجة الشحوب التام لبشرتها. لا أعتقد أنني رأيت مثل هذا الشحوب القاتل في وجه امرأة من قبل. كانت شفتاها أيضًا شاحبتَين، وعيناها محتقنتين بسبب البكاء. وعندما انسلت بهدوء إلى الغرفة، أدهشني شعورها بالحزن الشديد الذي يفوق الحزن الذي أبداه السيد هولدر في الصباح، كما كان الحزن لافتًا للنظر فيها أكثر لأن من الواضح أنها كانت امرأة قوية الشخصية وتتمتع بقدرة هائلة على ضبط النفس. لم تُعِر وجودي انتباهًا وتوجَّهت مباشرة إلى عمِّها، ومرَّرت يدها على رأسه وربَّتت عليه بلطفٍ أنثوي.

سألته قائلة: «لقد أمرت بالإفراج عن آرثر، أليس كذلك يا أبي؟»

«لا، لا، يا عزيزتي، لا بد من استقصاء الأمر بدقة.»

«ولكنني واثقة أنه بريء، أنت تعلم أن إحساس المرأة لا يخطئ. أعلم أنه لم يرتكب جرمًا وأنك ستندم على تصرُّفك بمثل هذه القسوة.»

«إن كان بريئًا، لمَ لمْ يتحدث إذن؟»

«مَن يدري؟ ربما لأنه كان غاضبًا بشدة منك لشكِّك فيه.»

«كيف يمكنني ألا أشك فيه وقد رأيته بالفعل وهو يحمل التاج في يده؟»

«أوه، ولكنه أمسك به ليلقي نظرة عليه فحسب. أوه، صدقني أرجوك أنا متأكدة أنه بريء. أوقف البحث في القضية وأنهِ الأمر. إنه لأمرٌ مروِّع تصوُّر عزيزنا آرثر وهو في السجن!»

«لن أدع أبدًا الأمر يمر حتى يُعثَر على الأحجار الثمينة، لن أدعه يمر أبدًا يا ماري! إن عاطفتك نحو آرثر تعميكِ عن العواقب الرهيبة للأمر عليَّ. وبدلًا من التكتُّم على الأمر، أحضرتُ سيدًا من لندن ليستقصي الأمر بدقة أكبر.»

سألته وهي تستدير نحوي: «هذا السيد؟»

«لا، صديقه. لقد طلب منَّا أن نتركه وحده، إنه في ممر الإصطبل الآن.»

رفعت حاجبيها الأسودين قائلة: «ممر الإصطبل؟ ما الذي يأمل في إيجاده هناك؟ أوه! أعتقد أنه هو هذا الشخص. أنا واثقة يا سيدي أنك ستنجح في إثبات أن ابن عمي آرثر بريء من هذه الجريمة، وهو ما أثق فيه تمامًا.»

قال هولمز وهو يعود إلى ممسحة الأرجل لينفض الثلوج عن حذائه: «أشاركِ الرأي تمامًا، وأثق في أننا، بمساعدتكِ، سنُثبِت ذلك. أعتقد أنني أتشرَّف بمخاطبة الآنسة ماري هولدر. هل يمكنني أن أطرح عليكِ سؤالًا أو اثنين؟»

«تفضل أرجوك يا سيدي، ما دام ذلك قد يساعد في تفسير هذه المسألة الرهيبة.»

«هل سمعتِ أي شيء ليلة أمس؟»

«لم أسمع أي شيء حتى بدأ عمي في الكلام بصوتٍ عالٍ. هذا ما سمعته وأسرعت إليه لأرى ما الأمر.»

«لقد أغلقتِ النوافذ والأبواب في الليلة السابقة، هل أوصدتِ كل النوافذ؟»

«أجل.»

«هل كانت كلها موصدة هذا الصباح؟»

«أجل.»

«لديكِ خادمة لها حبيب، أليس كذلك؟ أعتقد أنكِ قد أشرتِ لعمكِ ليلة أمس أنها كانت بالخارج لرؤيته، أليس هذا صحيحًا؟»

«بلى، وهي الفتاة التي كانت تخدمنا في غرفة الجلوس والتي ربما تكون قد سمعت كلام عمي عن التاج.»

«حسنًا، تستنتجين أنها ربما تكون قد خرجت لتخبر حبيبها، وأن كليهما ربما يكونان قد خطَّطا للسرقة.»

صاح المصرفي بنفادِ صبرٍ قائلًا: «ولكن ما فائدة كل هذه النظريات الغامضة في حين أنني قد أخبرتكَ بأنني رأيت آرثر وهو يحمل التاج في يده؟»

«انتظر قليلًا يا سيد هولدر، لا بد أن نعود لتلك النقطة. فيما يخص هذه الفتاة يا آنسة هولدر، لقد رأيتِها وهي تعود من باب المطبخ كما أظن، أليس كذلك؟»

«بلى، عندما ذهبت لأتأكد إن كان الباب موصدًا أم لا، رأيتُها وهي تتسلل عائدة منه. ورأيت الرجل أيضًا في الظلام.»

«هل تعرفينه؟»

«أوه، أجل! إنه بائع الخضراوات الذي يجلب الخضراوات لنا. اسمه فرانسيس بروسبر.»

«هل كان يقف إلى يسار الباب؟ بعبارة أخرى، هل كان يقف بعيدًا في الممر لدرجةٍ لا تُمكِّنه من الوصول إلى الباب؟»

«أجل.»

«وهو رجل ذو ساق خشبية، أليس كذلك؟»

نما تعبير يشبه الخوف في عيني الشابة السوداوين المعبرتين وقالت: «يا إلهي! إنك مثل الساحر! كيف تسنَّى لك معرفة ذلك؟» ابتسمت، ولكن في المقابل لم ترتسم أي ابتسامة على وجه هولمز الرفيع المتحفز.

قال هولمز: «أرجو أن أصعد إلى الطابق العلوي الآن. وقد أحتاج إلى تفقُّد خارج المنزل مرة أخرى. أفضِّل أن ألقي نظرة على النوافذ السفلية قبل أن أصعد.»

مشى بسرعة من نافذة إلى الأخرى، ولم يتوقَّف سوى عند النافذة الكبيرة الموجودة في الردهة، والتي تطلُّ على ممر الإصطبل. فتحها وفحص حافتها فحصًا دقيقًا بعدسته المكبرة الضخمة. وقال أخيرًا: «سأصعد الآن إلى الطابق العلوي.»

كانت غرفة الملابس الخاصة بالمصرفي صغيرة ذات أثاث بسيط، بها سجادة رمادية ومكتب كبير ومرآة طويلة. اتجه هولمز إلى المكتب أولًا وفحص القفل بدقة.

«أي مفتاح كان يستخدم لفتحه؟»

«المفتاح الذي أشار إليه ابني، مفتاح خزانة غرفة التخزين.»

«هل هو لديك هنا؟»

«إنه هناك على التسريحة.»

أخذه شيرلوك هولمز وفتح المكتب.

ثم قال: «إنه قفل لا يُحدِث صوتًا، لا عجب أنه لم يوقظك. تحتوي هذه الحقيبة، كما أظن، على التاج. لا بد أن نلقي نظرة عليه.» فتح هولمز الحقيبة وأخذ التاج ووضعه على الطاولة. كان عملًا فنيًّا رائعًا، وكانت الأحجار الستة والثلاثون هي أروع ما رأيت على الإطلاق. عند أحد جانبي التاج كانت توجد حافة مكسورة انتُزع منها جزء يحمل ثلاثة أحجار كريمة.

قال هولمز: «الآن يا سيد هولدر، هذا هو الجزء المقابل للجزء الذي فُقد للأسف الشديد. هل لي أن أطلب منك أن تكسره؟»

تراجع المصرفي في رعب وقال: «لا يمكنني حتى أن أجرؤ على المحاولة.»

«إذن سأفعل أنا ذلك.» فجأة، حاول هولمز بكل قوَّته أن يكسره، ولكن بلا جدوى. فقال: «أظن أنه يتحرك قليلًا، ولكن على الرغم من أنني أتمتَّع بأصابع قوية بنحوٍ استثنائي، فسأحتاج إلى وقت طويل جدًّا لأكسره. لا يمكن لرجل عادي أن يكسره. والآن ما الذي تظن أنه سيحدث إذا كسرته يا سيد هولدر؟ ستَصدر ضجة تضاهي الضجة التي تصدر من إطلاق طلقة مسدس. فهل تريد أن تقنعني بأن كلَّ ذلك قد حدث على بُعدِ بضع ياردات من سريرك ولم تسمع شيئًا؟»

«لا أدري ماذا أقول. كل شيء غامض بالنسبة إليَّ.»

«ولكن ربما قد يتَّضح لك الأمر كلما تقدَّمنا في التحقيق. ما رأيكِ يا آنسة هولدر؟»

«أعترف أنني ما زالت حائرة مثل عمي تمامًا.»

«لم يكن ابنك يرتدي حذاءً أو شبشبًا عندما رأيته، أليس كذلك؟»

«لم يكن يرتدي سوى سروال وقميص.»

«شكرًا لك. لقد حظينا بتوفيق استثنائي خلال هذا التحقيق بلا شك، وسنكون نحن المذنبين إن لم ننجح في تفسير هذه المسألة. بعد إذنك يا سيد هولدر، سأواصل الآن تحقيقاتي بالخارج.»

ذهب وحده بناءً على طلبه؛ إذ إنه أوضح أن أي آثار أقدام إضافية قد تجعل مهمته أكثر صعوبة. ظل يعمل لمدة ساعة أو أكثر، ثم عاد أخيرًا وحذاؤه مغطًّى بالثلوج وملامح وجهه غامضة كالعادة.

وقال: «أعتقد أنني رأيت الآن كلَّ ما يمكن رؤيته يا سيد هولدر. سيمكنني خدمتك بنحوٍ أفضل إذا عُدت إلى منزلي.»

«ولكن الأحجار الكريمة يا سيد هولمز، أين هي؟»

«لا أعرف.»

فرك المصرفي يديه وصاح قائلًا: «لن أراها مرة أخرى! وماذا عن ابني؟ لقد أعطيتني أملًا.»

«رأيي لم يتغير بأي حال من الأحوال.»

«إذن، فبحق الرب، ما حقيقة العمل الشيطاني الذي حدث في منزلي ليلة أمس؟»

«إذا زرتني في منزلي بشارع بيكر صباح الغد ما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، فسأكون على استعدادٍ لبذل قصارى جهدي لتفسير المسألة لك. كما فهمت، إنك تعطيني تفويضًا كاملًا بالتصرُّف نيابة عنك شريطة استعادة الجواهر، وإنك لا تضع حدًّا للمبلغ الذي قد أطلبه، أليس كذلك؟»

«سأقدِّم ثروتي كلها لاستعادة الجواهر.»

«جيد جدًّا، سأبحث في الأمر خلال هذا الوقت. إلى اللقاء. من الممكن أن أحتاج إلى أن آتي إلى هنا مرة أخرى قبل المساء.»

كان من الواضح لي أن رفيقي قد حسم أمر القضية، ولكن الاستنتاجات التي وصل إليها كانت أكثر غموضًا مما يمكنني تخيُّله. حاولت العديد من المرات أثناء رحلة عودتنا إلى المنزل أن أعرف منه أي معلومات عن الأمر، ولكنه كان يراوغ دائمًا ويتحدث في موضوعٍ آخرَ حتى يئست من المحاولة في النهاية. لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة بعدُ عندما وصلنا إلى المنزل. سارع هولمز إلى غرفته ثم خرج مرة أخرى بعد بضع دقائق وهو يرتدي ملابس متسكع وضيع. كانت ياقته مرفوعة وكان يرتدي معطفًا لامعًا رثًّا ورابطة عنق حمراء وحذاءً باليًا ذا رقبة عالية؛ وهو ما كان تمثيلًا مثاليًّا لهذه الطبقة.

قال وهو يلقي نظرة سريعة على نفسه في المرآة الموضوعة فوق المدفأة: «أعتقد أن هذا كافٍ. كنت أتمنى أن ترافقني يا واطسون، ولكنني أخشى أن ذلك لن يكون مناسبًا. قد أكون على الطريق الصحيح في هذه المسألة أو أسعى وراء سراب، ولكنني سأعرف قريبًا هل هو هذا أم ذاك. أتمنى أن أعود خلال بضع ساعات.» قطع شريحة من قطعة اللحم الموضوعة على المنضدة الجانبية، ووضعها بين قطعتين من الخبز ودفع بهذه الوجبة البسيطة في جيبه وانطلق في رحلته الاستكشافية.

كنت قد انتهيت للتو من تناول الشاي عندما عاد، ومن الواضح أنه كان في حالة معنوية ممتازة؛ إذ إنه كان يمسك بحذاء قديم ذي جوانب مطاطية ويأرجحه. رماه في أحد الأركان ثم صب لنفسه كوبًا من الشاي.

وقال: «كنت أمرُّ من هنا، ففكرت في القيام بزيارة سريعة. سأذهب على الفور.»

«إلى أين؟»

«أوه، إلى الجانب الآخر من ويست إند. قد يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن أعود، لا تنتظرني في حال تأخرت.»

«كيف تسير الأمور؟»

«أوه، لا هي بالجيدة ولا بالسيئة. لكن ليس لدي ما أشكو منه. لقد ذهبت إلى ستريتام منذ أن رأيتك آخر مرة، ولكنني لم أزُر منزل هولدر. إنها قضية صغيرة لطيفة للغاية، ولم أكن لأفوِّتها بأي ثَمَن. ومع ذلك، يجب ألا أجلس هنا وأثرثر معك، بل لا بد أن أتخلص من هذه الملابس المشينة وأن أعود لهيئتي البالغة الاحترام.»

كنت أستطيع أن أرى من خلال أسلوبه أنه كان لديه أسباب قوية تجعله يشعر بالرضا أكثر مما كانت توحي به كلماته وحدَها. كانت عيناه تلمعان، حتى خداه الشاحبان كانا متورِّدين قليلًا. سارع إلى الطابق العلوي، وبعد دقائق قليلة سمعتُ صوت باب الردهة يُغلق بقوة، وهو ما أخبرني أنه قد خرج مرة أخرى ليستكمل مطاردته التي تناسب طبيعته تمامًا.

انتظرت حتى منتصف الليل، ولكن لم يكن هناك أي علامة على عودته؛ لذا ذهبت إلى غرفتي. لم يكن غريبًا أن يظل خارج المنزل لأيام وليالٍ متتالية عندما يسعى لكشف خبايا مسألةٍ ما؛ لذا لم يكن تأخُّره مفاجئًا لي. لا أعرف في أي ساعةٍ عاد، ولكن عندما نزلت لتناول الإفطار في الصباح، كان موجودًا وكان يحمل فنجان قهوة في يد والصحيفة في اليد الأخرى، وكان يبدو منتعشًا وأنيقًا جدًّا.

وقال: «لا تؤاخذني في أنني قد بدأت بدونك يا واطسون، ولكنك تتذكر أن عميلنا لديه موعد مبكر هذا الصباح.»

«يا إلهي! لقد تجاوزت التاسعة الآن. لن أتفاجأ إن كان هذا هو. أعتقد أنني سمعت صوت جرس.»

كان صديقنا المصرفي بالفعل. صُدِمتُ بالتغيير الذي قد حلَّ به؛ فوجهه الذي كان عريضًا وضخمًا بطبيعته، صار الآن منكمشًا ومنهارًا، بينما بدا لي أن شعره قد ظهر عليه

على الأقل بعض الشيب. دخل بوهن وخمول كانا حتى أشد إيلامًا من العنف الذي أبداه في صباح اليوم السابق، وارتمى ببطء شديد على الكرسي ذي الذراعين الذي دفعته إلى الأمام ليجلس عليه.

وقال: «لا أدري ما الذي فعلته لأتعرَّض لبلاء شديد كهذا. فقط قبل يومين كنت رجلًا سعيدًا ناجحًا لا يُثقل كاهلي شيء. أما الآن فقد صرت أواجه عهدًا موحشًا وشائنًا. تصيبني الأحزان الواحد تلو الآخر. لقد تركتني ابنة أخي، ماري.»

«تركتك؟»

«أجل، كان سريرها وغرفتها فارغَين هذا الصباح ووجدت رسالة لي على طاولة الردهة. كنت قد قلت لها الليلة الماضية بحزن وليس بغضب، إنها لو كانت قد وافقت على الزواج من ابني، فلربما كان حاله قد انصلح. ربما كان من الرعونة أن أقول هذا. وهي تشير إلى تلك النقطة في رسالتها:

عمي العزيز

أشعر أنني قد تسببت لك في مشكلة، وأنني إن كنت قد تصرفت بنحوٍ مختلف، فربما لم تكن لتقع هذه المأساة الرهيبة على الإطلاق؛ ومن ثَمَّ لا يمكنني أن أشعر بالسعادة مرة أخرى في منزلك، وأعتقد أنني لا بد أن أتركك إلى الأبد. لا تقلق بشأن مستقبلي؛ فأنا أعرف ماذا أفعل، وقبل كل شيء، لا تبحث عني لأن ذلك سيكون جهدًا بلا جدوى وسيؤذيني. في الحياة أو الموت، سأظل دائمًا ابنتك المُحبَّة.

ماري

ما الذي يمكن أن تعنيه بهذه الرسالة يا سيد هولمز؟ هل تعتقد أنها تشير إلى أنها تنوي الانتحار؟»

«لا، لا، لا يوجد شيء من هذا القبيل. ربما يكون هذا هو أفضل حلٍّ مُمكن. أنا واثق يا سيد هولدر أنك تقترب من نهاية مشاكلك.»

«ها! هل تظن ذلك؟ لقد سمعت شيئًا، يا سيد هولمز؛ لقد عرفت شيئًا! أين الأحجار الكريمة؟»

«لا أظن أن ألف جنيه إسترليني لكل حجر كريم مبلغ كبير في رأيك، أليس كذلك؟»

«أنا مستعد لدفع عشرة آلاف.»

«لن يكون ذلك ضروريًّا، ثلاثة آلاف إسترليني تكفي. وأعتقد أنه سيكون هناك مكافأة صغيرة، هل دفتر شيكاتك معك؟ إليك قلمًا. من الأفضل أن نزيد المبلغ إلى أربعة آلاف إسترليني.»

كتب المصرفي الشيك المطلوب بوجهٍ مذهول. توجَّه هولمز إلى مكتبه وأخرج قطعة مثلثية صغيرة من الذهب وفيها ثلاثة أحجار كريمة وألقاها على الطاولة.

التقطها عميلنا بصرخة فرح.

شهق قائلًا: «إنها لديك! أنا بأمان! أنا بأمان!»

كان ردُّ فعله الفرح بنفس شدة الحزن الذي كان عليه، وضم جواهره المستردة إلى صدره.

قال هولمز بشيء من الصرامة: «إنك مدين بشيء آخرَ يا سيد هولدر.»

«مدين؟!» التقط القلم وأردف قائلًا: «حدِّد المبلغ وسأدفعه.»

«لا، إنك لست مدينًا لي. أنت مدين باعتذار متواضع لذلك الشاب النبيل، ابنك، الذي تصرَّف في هذه المسألة على نحوٍ لو تصرَّف ابني مثله، إن قُدر أن يكون لي ابن يومًا، لكان مدعاة لفخري.»

«إذن لم يكن آرثر هو الفاعل؟»

«أخبرتك بالأمس، وأكررها اليوم، لم يكن هو.»

«هل أنت متأكد من ذلك؟! إذن دعنا نذهب إليه على الفور لنخبره أن الحقيقة قد كُشِفَت.»

«إنه يعلمها بالفعل. بعدما اكتُشفت المسألة بالكامل، قابلته وعندما وجدت أنه يرفض أن يخبرني بالقصة، أخبرته أنا بها، وحينها اعترف أنني على حق وأضاف بعض التفاصيل القليلة التي لم تكن واضحة بالكامل لي بعد. ومع ذلك، قد يجعله الخبر الذي قلته لنا هذا الصباح يتحدث.»

«بحق الرب أخبرني إذن، ما حقيقة هذا اللغز الغريب؟!»

«سأفعل، وسأخبرك بالخطوات التي أوصلتني إلى الحل. ولكن دعني أقول لك أولًا ما يصعب عليَّ قوله ويصعب عليك سماعه: لقد كانت هناك علاقة بين السير جورج بيرنويل وابنة أخيك ماري؛ فلقد هربا معًا الآن.»

«ماري؟ غير ممكن!»

«مع الأسف إنه ليس فقط ممكنًا، بل مؤكدٌ. لا أنت ولا ابنك كنتما تعرفان المعدن الحقيقي لهذا الرجل عندما سمحتما له أن يكون جزءًا من دائرة عائلتكما. إنه واحد من أخطر الرجال في إنجلترا، إنه مقامر فاسد وشرير ميئوس منه تمامًا، إنه رجل بلا قلب ولا ضمير. إن ابنة أخيك لا تعرف شيئًا عن هؤلاء الرجال. وعندما عبَّر لها عن حبه، كما فعل مع المئات من قبلها، شعرت بالإطراء أنها هي وحدَها من لمست قلبه. يعلم الشيطان ما قاله لها، ولكنها في النهاية أصبحت أداة في يده وكانت معتادة على رؤيته كل مساء تقريبًا.»

صاح المصرفي بوجهٍ شاحب قائلًا: «لا أستطيع أن أصدق، ولن أصدق!»

«سأخبرك إذن بما حدث في منزلك الليلة الماضية. تسللت ابنة أخيك إلى أسفل عندما، كما اعتَقَدْتُ، ذهبت إلى غرفتك، وتحدثت مع حبيبها عبْر النافذة المؤدِّية إلى ممر الإصطبل. لقد حُفِرَت آثارُ قدميه في الجليد؛ فقد وقف هناك لفترة طويلة. لقد أخبرته عن التاج، فأشعل هذا الخبر جشعه للحصول على المال، وطوَّعها لإرادته. لا أشك في أنها كانت تحبك، ولكن هناك بعض النساء في العالم يطفئ فيهن حب العشيق أي حب آخر، وأعتقد أنها واحدة منهن. بالكاد أنصتت لتعليماته عندما رأتك تهبط الدَّرَج، فأغلقت النافذة بسرعة وأخبرتك عن خروج إحدى الخادمات للحديث مع عشيقها الذي له ساقٌ خشبية، وهو ما كان صحيحًا تمامًا.

ذهب ابنك آرثر إلى الفراش بعدما تحدث معك، ولكن كان نومه سيئًا بسبب قلقه بشأن ديونه في النادي. سمع في منتصف الليل صوت خطوات خفيفة تعبر أمام باب غرفته، فنهض ونظر إلى الخارج وفوجئ برؤية ابنة عمه تتسلل بخفة بطول الممر حتى اختفت في غرفة ملابسك. شَلَّته الدهشة، وارتدى بعض الملابس وانتظر هناك في الظلام ليرى ما سيحدث في هذا الأمر الغريب. خرجت من الغرفة مرة أخرى على الفور، وعلى ضوء مصباح الممر، رآها ابنك وهي تحمل التاج الثمين في يديها. هبطت الدَّرَج، وركض آرثر خلفها والرعب يملؤه واختبأ خلف الستارة بالقرب من باب غرفتك بحيث يتمكن من رؤية ما يحدث في الردهة بالأسفل. رآها وهي تفتح النافذة خلسة وتعطي التاج لشخصٍ ما في الظلام، ثم تغلق النافذة مرة أخرى وتسارع بالعودة إلى غرفتها وهي تمر بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه خلف الستارة.

لم يكن باستطاعته أن يقوم بأي تصرُّف ما دامت موجودة في المكان دون أن يخاطر بتعريض المرأة التي كان يحبها لفضيحةٍ مروعة. ولكن بمجرد رحيلها، أدرك كم أن مصيبةً كهذه ستُحطمك وكم كان من المهم تصحيح الوضع. هُرِع إلى أسفل وهو حافي القدمين،

تمامًا كما رأيته، وفتح النافذة وقفز إلى الخارج على الجليد وركض بطول الممر حيث كان بإمكانه رؤيةُ خيالٍ أسودَ في ضوء القمر. حاول السير جورج بيرنويل الفرار، ولكن آرثر أمسك به ودار صراعٌ بينهما، وكان ابنك يشد التاج من ناحية، ويشده غريمه من الناحية الأخرى. وأثناء المشاجرة، ضرب ابنك السير جورج وجرحه فوق عينه. ثم انكسر شيء فجأة، وعندما وجد ابنك أن التاج بحوزته، عاد إلى المنزل مرة أخرى وأغلق النافذة وصعد إلى غرفتك، ولاحظ حينئذٍ أن التاج قد انثنى أثناء الصراع وكان يحاول تقويمه عندما ظهرت أنت في المكان.»

شهق المصرفي قائلًا: «هل هذا ممكن؟»

«ثم أثرتَ غضبه عندما كنت تُهينه في الوقت الذي كان يشعر فيه أنه يستحق منك الشكر الشديد. لم يستطع شرحَ ما حدث فعلًا دون أن يخون الإنسانة التي بلا شك لا تستحق ولا حتى القليل من اهتمامه. ومع ذلك، فقد اختار التصرُّفَ الأكثر شهامةً وحفظَ سرَّها.»

صاح السيد هولدر قائلًا: «ولهذا السبب صرخت وفقدت الوعي عندما رأت التاج. أوه، يا إلهي! كم كنت أحمق أعمى! لهذا طلب أن أسمح له بالخروج لخمس دقائق! كان الشاب العزيز يريد أن يرى إن كانت القطعة المفقودة موجودةً في مسرح الصراع أم لا. كم كنت قاسيًا وأسأت الحكم عليه!»

أردف هولمز قائلًا: «عندما وصلتُ إلى المنزل، تجوَّلت حوله بحرصٍ شديد لأرى ما إن كانت هناك آثار في الجليد قد تساعدني. كنت أعلم أنه لم تتساقط أي ثلوج أخرى منذ الليلة السابقة، وأنه كان هناك صقيع قوي سيحافظ على الآثار. مررت على ممر البائعين، ولكنني وجدت أن كل آثار الأقدام مداسة ولا يمكن تمييزها. ومع ذلك، فبعد هذا الجزء مباشرة، وعند الجانب الأبعد لباب المطبخ، كانت توجد آثار أقدام امرأة قد وقفت تتحدَّث مع رجلٍ أظهرت آثارُ أقدامه المستديرة على أحد الجوانب أنه كان ذا ساقٍ خشبية. كما تمكنت من معرفة أنهما قد قُوطعا؛ إذ إن المرأة قد عادت إلى الباب مرة أخرى بسرعة كما أظهرت آثار أصابع القدم العميقة وآثار كعب القدم الخفيفة، بينما انتظر صاحب الساق الخشبية قليلًا ثم رحل. ظننت في ذلك الوقت أن هذه قد تكون آثار أقدام الخادمة وحبيبها اللذين كنتَ قد أخبرتني عنهما بالفعل، وأظهر التحقيق أن الأمر كان كذلك فعلًا. سرت حول الحديقة دون أن أرى أي شيء سوى الآثار العشوائية التي استنتجت أنها تخص الشرطة، ولكن عندما وصلت إلى ممر الإصطبل وجدت أمامي قصة طويلة ومعقدة مكتوبة في الجليد.

كان هناك خطٌّ مزدوجٌ من آثار الأقدام لرجلٍ كان يرتدي حذاءً ذا رقبة عالية، ولسروري، رأيت خطًّا آخرَ لرجلٍ حافي القدمين فاقتنعت على الفور بما أخبرتني به أنها هي آثار أقدام ابنك. كان الأول يمشي في كلا الاتجاهين، بينما كان الآخر يركض بسرعة، وبما أن آثار أقدامه كانت مطبوعة في بعض الأماكن فوق آثار الأقدام المحفورة التي تخص الحذاء ذا الرقبة، فقد كان من الواضح أنه كان يتبعه. تتبعت الآثار ووجدت أنها تقود إلى نافذة الردهة حيث تآكل الجليد كله بفعل صاحب الحذاء ذي الرقبة أثناء انتظاره. بعد ذلك، مشيت إلى الطرف الآخر الذي كان على بُعد مائة ياردة أو أكثر في الممر. ووجدت آثارًا تدل على أن الرجل الذي كان يرتدي حذاءً ذا رقبة عالية قد استدار، وعلى أن الجليد قد تشقَّق كما لو كان قد وقع صراع، وأخيرًا، وجدت بضع قطرات من الدم أثبتت لي أنني لم أكن مخطئًا. حينئذٍ، ركض الرجل الذي يرتدي الحذاء ذا الرقبة في الممر، ثم أظهرتْ بقعةُ دمٍ صغيرة أخرى أنه هو من أُصيب. وعندما وصل إلى الطريق السريع على الطرف الآخر، وجدت أن الآثار الموجودة على الرصيف قد أُزيلت، ومن ثم كانت هذه هي نهاية ذلك الدليل.

ومع ذلك، فحصت بعد دخولي المنزل، كما تتذكر، حافة وإطار نافذة الردهة بعدستي المكبرة، وتمكنت على الفور من إدراك أن شخصًا ما قد عبَر منها إلى الخارج. تمكنت من تمييز شكل مشط قدم حيثما وطأت قدم مبتلة وهي تدخل المنزل. حينئذٍ بدأت أتمكَّن من تكوين رأي حولَ ما حدث. كان هناك رجل ينتظر خارج النافذة، وأحضر أحدهم الأحجار الكريمة، وقد راقب ابنك هذه الوقائع ولاحق اللص وصارعه وشدَّ كلٌّ منهما التاج وهو ما ألحق به أضرارًا تسببت فيها قوَّتهما المشتركة، والتي لم يكن من الممكن أن يتسبب فيها أي منهما وحدَه. عاد ابنك وبحوزته الغنيمة، ولكن جزءًا منها كان في قبضة خصمه. لقد كان كل شيء واضحًا في ذلك الوقت، ولكن بقي سؤال وهو: مَن كان هذا الرجل ومَن الذي أحضر التاج إليه؟

أحد مبادئي الأساسية هو أنه بعدما تستبعد المستحيل، فما يبقى، مهما كان مستبعدًا، لا بد أن يكون هو الحقيقة. كنت أعرف أنك لم تكن أنت مَن أخذت التاج إلى أسفل؛ لذا لم يتبقَّ سوى ابنة أخيك والخادمات. ولكن لو كانت الخادمات، لِمَ قد يقرر ابنك أن يتهم نفسه بدلًا منهن؟ لا يمكن أن يكون هناك سبب ممكن لهذا. ولكن بما أنه كان يحب ابنة عمه، فقد كان هناك تفسير ممتاز لسبب حفظه لسرِّها — خاصةً وأن السرَّ كان مشينًا.

وعندما تذكرت أنك رأيتها تقف عند تلك النافذة، وكيف فقدت الوعي عندما رأت التاج مرة أخرى، أصبح تخميني يقينًا.

ولكن مَن الذي يمكن أن يكون شريكها؟ من الواضح أنه حبيب لها؛ فمن الذي يمكن أن يفوق حبُّه الحبَّ والعرفان اللذين تكنهما لك؟ علمت أنك لا تخرج إلا قليلًا، وأن دائرة أصدقائك محدودة للغاية، ولكن السير جورج بيرنويل كان ضمن هذه الدائرة. وكنت قد سمعت عنه من قبل أنه رجل له سمعة سيئة مع النساء. لا بد أنه هو مَن كان يرتدي ذلك الحذاء ذا الرقبة العالية ويحتفظ بالجواهر المفقودة. وعلى الرغم من علْمه أن آرثر قد كشفه، فربما كان لا يزال يطمئن نفسه أنه بأمانٍ حيث إن آرثر لن يستطيع أن يقول كلمة واحدة دون تعريض سمعة أسرته للخطر.

حسنًا، سينبئك إدراكك الجيد بالخطوات التي اتخذتها بعد ذلك. ذهبت إلى منزل السير جورج على هيئة رجل متسكع، وتمكَّنت من التعرُّف على خادمه، وعلمت منه أن سيده قد جُرِح رأسه في الليلة السابقة، وأخيرًا حرصت على شراء أحد أحذية بيرنويل القديمة البالية بعد أن دفعت لخادمه ستة شلنات. أخذت الحذاء وذهبت إلى ستريتام ووجدت أن آثاره تطابق تمامًا آثار الأقدام الموجودة.»

قال السيد هولدر: «لقد رأيت متشردًا يرتدي ملابسَ رثة في الممر مساء أمس.»

«بالضبط، كنتُ أنا. وجدت أنني قد وضعت يدي على الرجل المطلوب، فعُدت إلى المنزل وبدلت ملابسي. عندئذٍ كان عليَّ أن ألعب دورًا حسَّاسًا؛ إذ إنني رأيت أنه لا بد من تجنُّب الملاحقة القضائية لتحاشي الفضيحة، وكنت أعلم أن وغدًا شريرًا كهذا سيعلم أننا مغلولو الأيدي في هذه المسألة. ذهبت وقابلته. نفى كل شيء في البداية بالطبع. ولكن عندما واجهته بكل تفصيلة دقيقة لِما حدث، حاول تهديدي وأخذ هراوة كانت معلَّقة على الحائط ليضربني بها. لكنني كنت أعرف ما سيفعله جيدًا، فوجَّهت المسدس نحو رأسه قبل أن يتمكَّن من مهاجمتي، وعندئذٍ، صار أكثر عقلانية. أخبرته أننا سنعطيه ثَمَن الأحجار الكريمة التي بحوزته؛ ألف جنيه إسترليني لكل قطعة. وهنا أبدى أولى علامات الحزن وقال: «أوه! اللعنة! لقد بِعْت الثلاثة لقاء ستمائة جنيه إسترليني!» سرعان ما تمكَّنت من الحصول على عنوان المُشتَري بعد أن وعدته أنه لن تكون هناك ملاحقة قضائية. على الفور، توجَّهت إلى المُشتَري، وبعد الكثير من المساومة، حصلت على الأحجار لقاء ألف جنيه إسترليني لكل قطعة. وبعد ذلك، زرت ابنك وأخبرته أن كل شيء على ما يُرام، ثم أويت إلى فراشي أخيرًا في حوالي الساعة الثانية، بعد ما يمكنني أن أسميه يوم عمل شاق للغاية.»

قال المصرفي وهو ينهض: «يومٌ أنقذ إنجلترا من فضيحةٍ عامةٍ ضخمة. أنا عاجز عن شكرك يا سيدي، ولكنني لن أدخر وُسعًا في إبداء امتناني لما فعلته. لقد فاقت مهارتك كلَّ ما سمعته بالفعل، والآن لا بد أن أذهب سريعًا إلى ابني العزيز لأعتذر له عن الخطأ الذي ارتكبته في حقه. أما فيما يخص ما أخبرتني به عن ماري المسكينة، فهو يؤلمني كثيرًا. فحتى مهارتك لا يمكنها أن تخبرني بمكانها الحالي.»

أجاب هولمز قائلًا: «أعتقد أننا يمكننا أن نقول بكل ثقة إنها أينما يكون السير جورج بيرنويل. كما أنه من المؤكد كذلك أنها سرعان ما ستتلقى ما يكفي من العقاب على خطاياها أيًّا كانت.»

مغامرة كوبر بيتشيز

قال شيرلوك هولمز وهو يُلقي صفحة إعلانات جريدة ديلي تليجراف جانبًا: «غالبًا ما يجِد من يُحبُّ الفنَّ من أجل الفن سعادة شديدة في أبسط أشكاله وأقلِّها أهمية. يُسعدني أنك قد أدركتَ هذه الحقيقة يا واطسون، فلم تُولِ اهتمامًا كبيرًا بالسجلات التي قد تكرَّمتَ بإخراجها — وأعترف أنك كنتَ تُدوِّنها بين الحين والآخر — الخاصَّة بالقضايا الشهيرة العديدة التي تَولَّيتُها؛ وكذلك لم تُولِ اهتمامًا كبيرًا بالمُحاكمات المُثيرة التي قد مثَلتُ فيها، بل بالوقائع التي قد تكون في حدِّ ذاتها غير مُهمَّة، ولكنها قد أتاحت لي مجالًا لإعمال مَلَكات الاستنتاج والتحليل والبناء المنطقي التي اخترتُ أن تكونَ مجال عملي.»

قلتُ وأنا أبتسم: «ومع ذلك، لا يُمكنني أن أغفر لنفسي تُهمة تعمُّد الإثارة التي قد وجَّهتَها لما دوَّنتُه.»

«ربما تكون قد أخطأت.» هكذا قال وهو يأخذ فحمة مُتوهِّجة بالمِلقَط ويُشعل بها غليونه الطويل المصنوع من خشب الكرز الذي يُدخِّنه عندما يكون في مِزاج مُولع بالجدال، والذي عادة ما يكون بديلًا لغليونه المصنوع من الطين الذي يُدخِّنه عندما يكون في حالة تفكير وتأمُّل، ثم أردف قائلًا: «ربما تكون قد أخطأت في مُحاولة إضفاء عامل الإثارة والتشويق على كلِّ كتاباتك بدلًا من الالتزام بتسجيل الحُجَج المنطقية المَحضة، التي في الواقع هي السِّمة البارزة الوحيدة للأمر برمته بدءًا بالسبب ووصولًا إلى النتيجة.»

«أرى أنَّني قد أوفيتُك حقَّك في هذا الأمر بالفعل.» هكذا عَلَّقتُ بشيءٍ من البرود؛ إذ إنني كنتُ أشمئزُّ من الغرور الذي كنتُ قد لاحظتُ أكثر من مرةٍ أنه صفةٌ قوية في شخصية صديقي المُتفرِّدة.

«لا، إنها ليست أنانية أو غرورًا.» هكذا أجاب، كما كانت عادته، على ما كنتُ أفكر فيه وليس على ما قُلته. «إن طالبتُ أن توَفَّى براعتي حقَّها؛ فهذا لأنه شيء غير شخصي؛ إنه شيء يتخطَّاني. الجريمة أمر مُعتاد، أما المنطق فشيءٌ نادر؛ ولذلك فلا بدَّ أن تركز على المنطق لا الجريمة؛ لقد حَططتَ من قيمة ما كان ينبغي أن يُسَجَّل كمجموعةٍ من المُحاضرات، وجعلتَها مجرَّد سلسلة من الحكايات.»

كان صباحًا باردًا في أوائل الربيع، وجلسنا بعد الإفطار على جانبَي نِيران المدفأة المُبهجة في الغُرفة القديمة بشارع بيكر. هبط ضباب كثيف بين خطوط البيوت المُلوَّنة باللون البُنِّي الرمادي، وبدت النوافذ المُقابلة عبر الأكاليل الصفراء الثقيلة كلطخاتٍ مُظلِمة عديمة الشكل. كان مصباحنا الغازيُّ مُضاءً، ولمعَ ضوءُه على القماش الأبيض وعلى الأطباق الخزَف والمعادن؛ إذ لم تكن الطاولة قد نُظِّفَت بعد. كان شيرلوك هولمز صامتًا طوال الصباح مُنهمكًا في مُطالعة أعمدة الإعلانات لعددٍ من الجرائد، حتى ظهر أخيرًا بمِزاجٍ نَكِد، بعد أن يئس من البحث، كما بدا، ليُحاضِرني عن نَواقِصي الأدبيَّة.

«وفي نفس الوقت.» هكذا أردَف بعد صمتٍ جلس خلاله ينفُثُ دخان غليونه ويُحدِّق في النار، «لا يُمكن بتعمُّد الإثارة؛ إذ إنَّه من بين كلِّ هذه القضايا التي تفضَّلتَ بالاهتمام بها، ثمة نسبة معقولة منها لا تتعامَل مع الجريمة بتعريفِها القانوني على الإطلاق. فالمسألة الصغيرة التي حاولتَ مُساعدة ملكٍ بوهيميٍّ فيها، والتجربة الفريدة للسيدة سازرلاند، والمشكلة المُتعلقة بالرجل ذي الشفة المُلتوية، وواقعة النبيل الأعزب؛ كانت كلها أمورًا خارجة عن الإطار المعروف للقانون. ولكن في تحاشيك تَعمُّد الإثارة، أخشى أنك قد اقتربتَ ممَّا هو تافِه.»

«ربما كانت النتيجة كما قلت.» هكذا أجبتُه، ثم أردفتُ قائلًا: «ولكنَّ الأساليب التي قد اتَّبعتُها كانت جديدة ومُثيرةً للاهتمام.»

«أُف! لماذا قد يهتمُّ الجمهور الغافِل يا صديقي العزيز بالدرجات الأرقى من التحليل المنطقي والاستدلال، والذي بالكاد يُمكنه تمييز الحائك من شكل أسنانه أو مُجهِّز حُروف الطباعة من قَساوة جلد إصبعه الأيسر؟! ولكن لا يُمكنني أن ألومك بالطبع إن كنتَ تافهًا؛ فأيام القضايا العظيمة قد وَلَّت. لقد فقد الناس، أو المجرمون على الأقل، جرأتهم وقُدرتهم على الإبداع. أمَّا بالنسبة لِمهنتي المُتواضعة، فيبدو أنها تتحوَّل إلى أداةٍ لاستعادة الأقلام الرصاص الضائعة ولإسداء النُّصح إلى فتَيات المدارس الداخلية. ولكنَّني أعتقد أنني قد

وصلتُ إلى القاع أخيرًا؛ فقد تُمثِّل هذه الرسالة التي تسلَّمتُها هذا الصباح نقطة البداية بالنسبة لي كما أتصوَّر. اقرأْها!» ثُمَّ ألقى نَحوي خطابًا مُجعَّدًا.

كان من مونتيجيو بليس بتاريخ الليلة السابقة، وذُكِرَ فيه ما يلي:

عزيزي السيد هولمز، أتوقُ بشدَّةٍ لاستشارَتِك حول ما إن كان عليَّ قَبول عرْضٍ بالعمل كمُربِّيةٍ أم لا. سأزورك في العاشرة والنصف غدًا إن لم يكن يُزعجك. مع خالص تحياتي.

فيوليت هانتر

سألتُ هولمز قائلًا: «هل تعرِف هذه الشابة؟»

«لا.»

«إنها العاشرة والنصف الآن!»

«أجل، وليس لديَّ أدنى شكٍّ أنها هي من تدُقُّ الجرَس الآن.»

«قد تكتشفُ أنَّ المسألة مُثيرة للاهتمام أكثر ممَّا تعتقِد. هل تتذكَّر قضية الجوهرة الزرقاء التي بدَت في البداية أنَّها مسألة تافِهة، ثمَّ تطوَّر الأمر لتحقيقٍ جِدِّي؟ قد يكون الأمر كذلك في هذه القضية أيضًا.»

«حسنًا، دعنا نأمُل ذلك. ولكن شكوكنا ستتضح قريبًا؛ إذ إنَّ الشابَّة المَعنيَّة قد وصلتْ هنا بالفِعل إن لم أكن مُخطئًا.»

فُتِحَ الباب بينما كان يتحدَّثُ، ودخلتِ الغرفةَ سيدةٌ شابَّة ترتدي ملابس بسيطة ولكن أنيقة. كان وجهها مُشرقًا حادًّا به نَمَش يُشبه النِّقاط الموجودة على بيضة طائر الزقزاق، وكان أسلوبها مُفعمًا بالنشاط ينمُّ عن أنها امرأةٌ عازِمة على تحقيق أهدافها في هذا العالم.

«أنا مُتأكدة من أنك ستَعذُرني على الإزعاج الذي سببتُه لك.» هكذا قالت بينما وقَفَ رفيقي ليُحيِّيها، «ولكنَّني قد مررتُ بتجربةٍ شديدة الغرابة، وبما أنني ليس لديَّ والدان أو أيُّ أقارِب يُمكنني أن أسألَهم النُّصح، فقد فكَّرتُ أنك ربما ستتفضَّل بأن تُخبِرَني بما يجِب عليَّ فِعله.»

«اجلسي أرجوكِ يا آنسة هانتر. يُسعِدني أن أفعل كلَّ ما يُمكنني لمُساعدتك.»

كان بوسعي أن أرى أنَّ هولمز قد انبَهر، بِصورةٍ إيجابية، بأسلوب عميلتِه الجديدة وكلامها. نظر إليها مُتفحِّصًا بطريقته المُستقصية، ثم جمع شتات نفسه وأرخى جَفنَيه وعقد أطراف أصابعه معًا ليستمع إلى قصتها.

تحدَّثَت قائلة: «أعملُ مُربية منذ خمسة أعوام في عائلة الكولونيل سبينس مونرو، إلَّا أنه تلقَّى تكليفًا منذ شهرَين بالذهاب إلى هاليفكس بنوفا سكوشا، وأخذ أطفاله معه إلى أمريكا، فوجدتُ نفسي بلا عمل. وضعتُ إعلانًا لطلبِ العمل وراسلتُ إعلانات التوظيف، ولكن بلا جدوى. بدأتِ الأموال القليلة التي كنتُ قد ادَّخرتُها تنفد، ولم أكن أعلم ما يتوجَّبُ عليَّ فعله.

تُوجَد وكالة معروفة لتوظيف المُربِّيات في ويست إند تُدعى ويستوايز، كنتُ أذهب إليها مرة في الأسبوع تقريبًا لأرى إن كانت هناك أيُّ فرصة عملٍ جديدة قد تُناسبني. كان ويستواي هو اسم مُؤسِّس هذه الوكالة، لكن كانت السيدة ستوبر هي من تُديرها. تجلس السيدة ستوبر في مكتبها الصغير، بينما تنتظِر السيداتُ اللواتي يَبحثنَ عن عملٍ في غرفة انتظار، ثم تدخل كلُّ سيدةٍ على حِدَةٍ لتُقابلها، فتُطالِع دفاترها لترى إن كان لديها أيُّ فُرَص عمل تُناسب هؤلاء السيدات.

حسنًا، عندما ذهبتُ الأسبوع الماضي، دخلتُ المكتب الصغير كالعادة لأقابلها، ولكنني لم أجد السيدة ستوبر بمُفردها. كان يجلس إلى جانبها رجلٌ شديد البَدانة ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ عريضة، وله لُغد ضخم ثقيل تدلَّتْ ثناياه على رَقبتِه. واستقَرَّ على أنفِه زَوجان من النَّظارات يتفحَّص من خلالهما السيدات اللاتي يدخُلنَ بجدِّيَّةٍ شديدة. انتفض بشدَّة في جلسته عندما دخلتُ واستدار سريعًا للسيدة ستوبر.

وقال: «هذا يكفي، لا يُمكنني أن أطمَعَ فيما هو أفضل من ذلك؛ هذا رائع! رائع!» بدا شديد التحمُّس وفرَك يديه معًا بودٍّ شديد. كان رجلًا مُريح المظهر لدرجة أنَّ النظر إليه كان يبعَثُ على السرور.

سألَني قائلًا: «إنك تَبحثِينَ عن عملٍ يا سيدتي. أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي.»

«كمربِّية؟»

«أجل يا سيدي.»

«وما هو الراتِب الذي تَتقاضَينه؟»

«كنتُ أتقاضى ٤ جنيهات في الشهر في عملي الأخير مع الكولونيل سبينس مونرو.»

صاح وهو يُلوِّح بيديه السَّمينتَين في الهواء وكأنه في حالة غَلَيان: «أوه، لا لا! هذا أجرٌ مُخزٍ لا يتقاضاه سوى العبيد! يا له من أمرٍ مُقزِّز!» ثم أردف: «كيف يُمكن لأيِّ شخصٍ أن يُقدِّم مبلغًا يُرثى له كهذا، لسيدة تتمتَّع بمثل هذه المزايا والمهارات؟»

فأجبتُه قائلة: «مهاراتي يا سيدي قد تكون أقلَّ ممَّا تتخيَّل. أعرِف القليل من الفرنسية والألمانية، والقليل من المُوسيقى والرسم ...»

صاح قائلًا: «أوه لا! كلُّ ذلك لا يُهم؛ مربط الفرس هو: هل تتمتَّعين بسلوكٍ ووقارٍ يليق بسيدة أم لا؟ هذا هو الأمر باختِصار. إذا كانت الإجابة لا، إذن فأنت لا تَصلُحين لتربية طفل قد يلعَب في يومٍ من الأيام دَورًا مهمًّا في تاريخ البلاد. أما إذا كانت الإجابة نعم، فلِمَ إذن، وكيف يُمكن لأيِّ رجل أن يطلُب منك أن تُقلِّلي من قِيمتك وتقبلي براتبٍ يقلُّ عن ثلاثة أرقام؟ راتبُك معي يا سيِّدتي يبدأ من ١٠٠ جُنيه في السنة الواحدة.»

يُمكنك التخيُّل يا سيِّد هولمز أنَّ هذا العرْض بدا لامرأةٍ مُعدِمة مِثلي كحلمٍ جميل يصعُب تصديقه. ولكنه عندما رأى نظرةَ الشكِّ التي ربما تكون قد ارتسمَتْ على وجهي، فتح دفتر شيكاتٍ وقَطَعَ منه شيكًا.

«ومن عاداتي أيضًا.» هكذا قال وهو يبتسِم بدَماثةٍ شديدة حتى صارت عَيناه مُجرَّد فتحتين لامِعَتَين وسط تجاعيد وجهِهِ البيضاء، «أن أدفع للسيدات الشابَّاتِ نِصف راتِبِهنَّ مُقدمًا حتى يَتمكنَّ من الوفاء بأي نفقاتٍ ولو بسيطة تخصُّ التنقُّلات والملْبس.»

لم أقابِل في حَياتي رجُلًا مُدهشًا وعطوفًا كهذا كما بدا لي. جاءت هذه الدفعة المُقدمة في وقتها المناسب؛ إذ إنني كنتُ مديونةً للتجار، ومع ذلك فقد كان هناك شيء غير طبيعي يتعلَّق بهذا الأمر برمَّته، جعلني أرغب في معرفة ولو القليل قبل أن أُلزم نفسي بالعمل.

سألتُه قائلة: «هل لي أنْ أسألك أين تعيش يا سيدي؟»

«هامبشير. في مكان ريفي ساحر؛ كوبر بيتشيز، على بُعد خمسة أميالٍ من الجانب البعيد من وينشستر. إنها أكثر الأماكن الريفية جمالًا يا سيدتي العزيزة، وأجمل منزلٍ ريفي قديم بين كلِّ المنازل.»

«وماذا عن مهامِّي يا سيدي؟ يَسرُّني أن أعرف ماذا ستكون.»

«طفل واحد؛ طفلٌ واحد صغير وحيد عمرُه ستُّ سنوات فحسب. أوه، إن رأيتِه وهو يقتُل الصراصير بفردَةِ نعلٍ! طاخ! طاخ! طاخ! يقتُل ثلاثةً منها قبل أن تطرُف لكِ عَينٌ!» اضطجع على كرسيِّه ثم ضحِك بحرارةٍ حتى أصبحت عَيناه ظاهرةً بالكاد.

جفلتُ قليلًا من نَوعية التَّسلية التي يتمتَّع بها الطفل، لكنَّ ضحِكَ الأبِ جعلني أعتقد أنه ربما كان يمزَح.

ثم سألته: «مُهمَّتي الوحيدة إذن هي تولِّي مسئولية طفل وحيد. صحيح؟»

صاح قائلًا: «لا لا، ليست الوحيدة، أيَّتُها الشابَّة العزيزة.» وأردف قائلًا: «ستكون مُهمَّتك، وأنا مُتأكد من حُسن إدراكك، أن تُطيعي أيَّ أوامر بسيطة قد تُعطيها لكِ زَوجتي، شريطةَ أن تكون دائمًا هذه الأوامر تَليق بسيدةٍ مُطيعة. هل تَجدين أيَّ صعوبةٍ في ذلك؟»

«يَسرُّني المُساعدة.»

«جيِّد جدًّا. بالنسبة للملابس على سبيل المثال، نحن أناس يصعُب إرضاؤهم، كما تَعلمين، ولكنَّنا طيِّبون. فإذا طلبْنا منك أن تَرتدي أيَّ رِداءٍ قد نُعطيه لكِ، فهل ستعترِضين على هذه الرغبة البسيطة؟»

أجبتُ وأنا مُندهِشة لحدٍّ كبيرٍ مِمَّا قاله: «لا.»

«وهل سيُضايقكِ إن طلبْنا منكِ أن تجلسي هنا أو هناك؟»

«أوه، لا.»

«أو إن طلبْنا منكِ أن تَقُصِّي شَعرَكِ قبلَ أن تأتي؟»

كنتُ بالكاد أستطيعُ تصديق أُذنَيَّ! كما قد تُلاحِظ يا سيد هولمز، شَعْري غزير إلى حدٍّ ما، ويميل لونُه إلى درجةٍ مُميَّزة من اللون الكستنائي. إنه يُعتبَر جميلًا، ولم أكن أتخيَّل أن أُضحِّي به بهذه الطريقة الفظَّة.

فقلت: «أخشى أنَّ هذا مُستحيل تمامًا.» كان يُراقِبني بعينَيه الصغيرتَين بِتَوقٍ، ورأيتُ مسحةً من الحُزن ترتسِم على وجهه بينما كنتُ أتحدَّث.

وقال: «أخشى أنَّ ذلك أمرٌ ضروريٌ للغاية. إنها رَغبةٌ بسيطة لدى زَوجتي، ورغباتُ السيدات كما تعلمينَ يا سيدتي، لا بُدَّ أن تُؤخَذ في الاعتبار؛ إذن لن تَقُصِّي شَعْرك. صحيح؟»

أجبتُ بحزم: «لا يا سيدي، لا يُمكنني حقًّا.»

«أوه، حسَنًا؛ إذن ذلك يحسِمُ الأمر. إنه أمرٌ مُؤسِف؛ إذ كنتِ ستُبلين بلاءً حسنًا في الجوانب الأخرى. في هذه الحالة يا سيدة ستوبر، أفضِّلُ أن أرى المزيد من السيِّدات الشابَّات اللاتي يرغبْنَ في العمل.»

كانت المُديرة تجلِس طوال هذا الوقت مُشتغِلةً بأوراقها دُون أن تقول كلمةً واحدة لأيٍّ مِنَّا، ولكنها نظرَتْ إليَّ الآنَ نظرةً سريعة وارتَسَم على وَجهها ضِيقٌ شديد؛ فلم يَسعْني سوى الشكِّ في أنَّ رَفْضي للعرْض قد أفقدَها الحصول على عُمولةٍ جيدة.

ثم سألتني: «هل تَرغبين في أن نَحتفِظ باسمك في السجلَّات؟»
«أجل، من فضلك يا سيدة ستوبر.»
«حسنًا، هذا حقًّا عديم الجدوى؛ إذ إنَّك تَرفُضين أفضلَ عرْضٍ لدَينا بهذه الطريقة.» هكذا قالت بحِدَّة. «لا يُمكنك أن تتوقَّعي منَّا أن نبذُل جُهدًا في أن نجِد لكِ عرضًا آخَرَ كهذا. يُومُك سعيد يا آنسة هانتر.» دقَّتْ جرَسًا على الطاولة، ثم قادَني المُساعد إلى الخارج.

حسنًا يا سيد هولمز عندما عدتُ إلى مَسكني ووجدتُ القليل من الطعام في الخِزانة، وفاتورتَين أو ثلاثًا على الطاولة، بدأتُ أسأل نفسي ما إن كنتُ قد فعلتُ شيئًا في غاية الحَماقة. في النهاية، إن كان هؤلاء الناس مَهووسين بأشياء غريبة ويتوقَّعون الطاعة في أكثر الأشياء غرابة، فعلى الأقلِّ كانوا مُستعدِّين للدفْع لقاء غَرابتهم. لا يحصُلُ سوى القليل جدًّا من المُربيات في إنجلترا على ١٠٠ جُنيه في السنة. إلى جانب ذلك، فماذا جلب لي شَعْري الغزير الطويل؟ الكثير من الناس يُصبِح مظهرهم أفضل بعد قَصِّه، وربما أكون ضِمن هؤلاء الناس. في اليوم التالي، بدأتُ أعتقد بأنَّني قد أخطأت، وفي اليوم الذي تلاه تأكدتُ من ذلك. كنتُ قد تغلبتُ على كبريائي تقريبًا فيما يخصُّ العودة لوكالة التوظيف والسؤال عمَّا إن كان العمل ما زال شاغرًا عندما تَسلَّمتُ هذه الرسالة من الرجل نفسه. إنها معي هنا وسأقرؤها لكَ:

كوبر بيتشيز بالقُرب من وينشستر

عزيزتي الآنسة هانتر: لقد تفضَّلتِ السيدة ستوبر بإعطائي عنوانك، وها أنا أكتُبُ إليكِ لأسألكِ ما إن كُنتِ قد أعدتِ النظر في قرارك أم لا. زَوجتي حريصة جدًّا على أن تأتي؛ لأنَّ وصفي لكِ قد جذَبَها كثيرًا. نحنُ مُستعدُّون أن نُقدِّم لكِ ٣٠ جُنيهًا في الثلاثة الأشهر، أو ١٢٠ جُنيهًا في السنة لنُعوِّضك عن أيِّ إزعاجٍ طفيف قد تُسبِّبه رغباتُنا لكِ، وهي ليست طلباتٍ مُرهقةً على أي حال. زَوجتي مُولَعة باللَّون الأزرق البرَّاق وترغَبُ في أن ترتدي ثَوبًا بهذا اللون في المنزل صباحًا. ومع ذلك، فلا داعيَ لأنْ تُرهِقي نفسك بتحمُّل نفقاتِ شِراء واحدٍ، إذ إنَّنا لدَينا ثوبُ ابنتِنا العزيزة أَلِيس الموجودة الآن في فيلادلفيا، وهو ما أعتقِد أنه سيُناسبك تمامًا. أما بالنسبة لرغبتنا في أن تَجلسي هنا أو هناك، أو أن تَشغلي نفسك طبقًا لما تَقتضيه طلباتُنا، فلا أعتقِد أنَّ الأمر يستحقُّ أنْ يُسبِّب لكِ أيَّ إزعاج. أما فيما يتعلَّق بشعرك، فهو أمرٌ مُؤسِفٌ بلا شك، خاصَّةً أنَّني لم

يَتسنَّ لي أن أُعَبِّرَ عن مدى جماله خلال مُقابلتنا القصيرة، ولكنَّني أخشى أنَّني سأظلُّ مُصرًّا على هذه النقطة، وأتمنَّى أن تُعوِّضَك زيادة الرَّاتب عن خسارته. أمَّا بالنسبة لِمَهامِّك الخاصَّة بالطفل، فهي مَهامُّ خفيفة للغاية. والآن حاوِلي أن تأتي، وسأُقابِلك بعربةٍ يجرُّها حصان في وينشستر. أخبريني بِميعاد قطارك. مع خالص تحيَّاتي.

جيفرو روكاسل

هذا هو الخطاب الذي تلقَّيتُه للتوِّ يا سيد هولمز، وقد عقدتُ العزم على قَبول العرض. وعلى الرغم من ذلك فقد فكرتُ أن أضع المسألة برمَّتِها بين يديك للنظر فيها قبل أن أتَّخِذ أيَّ خطوة أخيرة.»

قال هولمز وهو يبتسم: «حسنًا يا آنسة هانتر، إن كنتِ قد قرَّرتِ بالفعل، فالأمر مَحسوم إذن.»

«ولكنَّكَ لن تَنصحَني أن أرفُض. صحيح؟»

«أعترِف أنه ليس العمل الذي أحبُّ أن تتقدَّم شقيقتي إليه.»

«ما معنى كلِّ ذلك يا سيد هولمز؟»

«أوه، ليس لديَّ بيانات، لا يُمكنني الجزْم. ربما تكونين قد كوَّنتِ رأيًا صحيحًا بالفعل؟»

«حسنًا، يبدو لي أنه ليس هناك سوى احتمالية واحدة. بدا أنَّ السيد روكاسل رجلٌ ودود شديد الطيبة. أليس من المُحتمَل أن تكون زَوجتُه مجنونة، وأنه يرغَبُ في أن يُبقي الأمر سِرًّا خَوفًا من أن تُنقَل إلى مصحَّةٍ عقلية، وأنه يُساير رغَباتِها بكلِّ طريقةٍ مُمكنة حتى يتجنَّبَ أيَّ ثَورةٍ مُحتمَلة؟»

«هذا أحدُ التفسيرات المُمكنة؛ في الواقع، هو التفسير الأرجَح حسبما تبدو عليه الأمور في الوقت الراهن. ولكن على أيِّ حال، لا يبدو أنه منزلٌ يليق بسيدة شابة.»

«ولكن المال يا سيِّد هولمز، المال!»

«حسنًا، الأجرُ جيِّد بالطبع؛ جيِّد على نحوٍ مُبالَغٍ فيه، وهذا هو ما يُقلِقني. لِمَ قد يدفعون لكِ ١٢٠ جنيهًا في السنة، بينما بإمكانهم أن يُوظِّفوا أيَّ مُربية أخرى لقاء ٤٠ جُنيهًا؟ لا بُدَّ أن يكون هناك سبب قوي وراء ذلك.»

«ظننتُ أنَّني إن أخبرتُك بالظروف كلها فستتفهَّمُ بعد ذلك رغبتي في مُساعدتِك. سأشعُر بثقةٍ أكبر بكثيرٍ إذا شعرتُ بأنَّك تُسانِدُني.»

«أوه، تأكدي من ذلك تمامًا. أؤكد لكِ أنَّ مشكلتك الصغيرة تُبشِّر بأن تكون أكثر قضية مُثيرة للاهتمام مَرَّت عليَّ منذ بضعة أشهر. هناك شيء ما غَير مألوفٍ يخصُّ بعض تفاصيلها. إن تشكَّكتِ أو وجدتِ نفسك في خطر ...»

«خطر! ما هو الخطر الذي تتوقَّعه؟»

هزَّ هولمز رأسه بعبوسٍ وقال: «لن يُصبِح خطرًا إن تَمكنَّا من تحديده. ولكنَّني إن تلقيتُ منكِ برقيةً في أيِّ وقت، ليلًا أو نهارًا، فسآتي لُمساعدتك على الفور.»

«هذا يكفي.» هكذا قالتْ ونهضتْ بِسرعة من مقعدها وقد أغرَق القلق قسَمات وجهها. «سأذهب لهامبشير وأنا مُطمئنَّة الآن. سأكتُب للسيد روكاسل على الفور، وسأضحِّي بشعري المسكين الليلة وأتَّجِه إلى وينشستر غدًا.» ثم ودَّعتْنا مُوجِّهة بعض كلماتِ الامتنان لهولمز، وتمنَّت لنا ليلةً سعيدة، ومشت سريعًا.

وبينما كنَّا نَسمع وقعَ خطواتها السريعة الثابتة وهي تَهبِطُ الدَّرَج، قلت: «على الأقل، يبدو أنها شابَّة قادِرة للغاية على الاعتِناء بنفسها.»

قال هولمز بِعُبوس: «وهو ما ستحتاجه. سأكون مُخطئًا بشدَّة إن لم نسمَعْ أيَّ شيءٍ عنها قبل مرور أيام.»

لم يمْضِ وقتٌ طويل حتى تحقَّقتْ نُبوءة صديقي. مرَّ أسبوعان كنتُ كثيرًا ما أجدُ نفسي خلالهما أفكر فيها وأتساءل عن ماهية التجربة الإنسانية الغريبة التي توَرَّطتْ فيها هذه المرأة الوحيدة. الراتب الاستثنائي والشروط الغريبة والمهامُّ الخفيفة، كانت كلها تُشير إلى شيءٍ غير طبيعي. غير أنَّ تحديد ما إذا كان الأمر هوَسًا أو مَكيدة، أو ما إذا كان الرجل خيِّرًا أو شريرًا، كان يفُوق قُدراتي. أمَّا بالنسبة لهولمز، فقد لاحظتُ أنه كان يجلِسُ لمدَّة نِصف ساعة مُتواصلة مَعقود الحاجِبين وشاردَ الذهن، ولكنَّه كان يلوِّح بيدِه مُقلِّلًا من شأن الأمر كلما ذكرتُه. «معلومات! معلومات! معلومات!» هكذا كان يصيح بنفاد صبر، «لا يُمكنني أن أصنع الطُّوب من دُون طين.» إلَّا أنه كان ينتهي به الحال دائمًا وهو يُغمغِم قائلًا إنه إن كانت له أخت، فما كان يَنبغي أن تقبَلَ وَضعًا كهذا على الإطلاق.

وصلت البرقية التي تَسلَّمناها أخيرًا في وقتٍ مُتأخِّر من إحدى الليالي بينما كنتُ أوشِكُ على أن آوي إلى الفِراش، وكان هولمز يُحضِّر نفسه لقضاء ليلةٍ كاملة من الليالي التي كان يُكرِّسها للأبحاث الكيميائية التي كان ينخرِط فيها باستمرار، والتي كنتُ أتركه فيها مُنكبًّا

على إحدى المُعوجَّات وأنابيب الاختبار في المساء، وأجِده في نفس الوَضْع عندما أنزل في الصباح لتناوُل الإفطار. فتح الظرف الأصفر وألقى نظرةً سريعة على الرسالة ثُمَّ ألقاه لي.

«تفَقَّد دليل قطارات برادشو.» هكذا قال ثُمَّ عاد لدراساته الكيميائية سريعًا.

كان استدعاؤها لهولمز مُوجَزًا ومُلحًّا.

أرجوك قابِلْني في فندق بلاك سوان في وينشستر ظهيرة غد. تعالَ أرجوك! أنا في حيرةٍ من أمري.

هانتر

سأل هولمز وهو ينظر لأعلى: «هل ستأتي معي.»

«أجل، أريدُ ذلك.»

«تفقَّد جدول القطارات إذن.»

«يُوجَد قطار سينطلِق في التاسِعة والنصف.» هكذا قلتُ وأنا ألقي نظرةً على دليل برادشو للقطارات، «سيصِل وينشستر في الحادية عشرة والنصف.»

«هذا مُناسب تمامًا. إذن ربما من الأفضل أن أؤجِّل تحليلي للأسيتونات، لأننا قد نحتاج لأن نكون في أفضل حالاتنا في الصباح.»

بحلول الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كنَّا في طريقِنا بالفعل إلى العاصمة الإنجليزية القديمة. كان رأس هولمز مَدفونًا في الصُّحف الصباحية طوال الطريق، ولكن بعد أن مرَرْنا بحدود هامبشير، ألقى بها وبدأ في الاستمتاع بالمناظر الطبيعية. كان يومًا ربيعيًّا مثاليًّا؛ سماء زرقاء فاتحة مُرقَّطة بسُحب بيضاء صغيرة صافية تتحرَّك من الغرب إلى الشرق. كانت الشمس مُشرقة للغاية، وعلى الرغم من ذلك كانت هناك قَرصةٌ من البرد تُقلِّل من طاقة الناس. ظهرت الأسطح الحمراء والرماديَّة الصغيرة لَمباني المَزارع من وسط اللون الأخضر الفاتح لأوراق الشجر الجديدة في جميع أنحاء الريف حتى التلال المُتموِّجة حول ألديرشوت.

«أليست جميلة ومُنعشة؟» هكذا صحْتُ بحماس شخصٍ كان يُعاني لتوِّهِ من ضباب شارع بيكر.

ولكن هولمز هزَّ رأسه بعُبوس.

وقال: «هل تعلم يا واطسون، هذه إحدى اللعنات التي يُعاني منها عقلٌ لا يهدأ مثل عقلي، فأربِط بين كلِّ شيءٍ أراه وبين المسألة التي أبحثُها. عندما تنظُر أنت إلى تلك البيوت

المُتفرِّقة، يَبهرُك جمالها؛ أمَّا عندما أنظر أنا، فكلُّ ما أفكر فيه هو شعورٌ بِكَمْ هي مَعزولة، وبإمكانية ارتكاب جرائم فيها والإفلات دُون عِقاب.

صحتُ قائلًا: «يا إلهي! من ذا الذي يربِط بين الجريمة وبين هذه المنازل القديمة الجميلة؟»

«إنها دائمًا ما تُصيبني بشيءٍ من الرُّعب. أنا مُقتنِع يا واطسون بناءً على تجربتي أنَّ الجرائم التي تُرتكَب في أحقر أزقَّة لندن وأقذرِها لا تُضاهي في فظاعتها تلك التي تُرتكبُ في الريف الجميل اللطيف.»

«إنك تُفزعُني!»

«ولكن السبب شديد الوضوح؛ فضغْط الرأي العام في المُدن قد ينجح في تحقيق ما يفشل فيه القانون. لا يُوجَد زقاق مهما كانت حقارَته لا تستدرُّ فيه صرخة طفلٍ مُعذَّبٍ أو صوت وقوع سكِّير أرضًا بعدما تلقَّى ضربة، تَعاطُفَ الجيران وتُثير سخَطَهم، وحينئذٍ تُصبِح كل آليات العدالة مُتاحةً بحيث إنَّ كلمةً واحدة قد تُحرِّكها، فلا يفصل بين ارتكاب الجريمة وقفص الاتهام سوى خُطوة واحدة. ولكن انظر لهذه البيوت المُوحِشة، كُلٌّ في حقلِه الخاص، والتي يَسكنها في الغالب أناس فقراءُ جُهَلاء لا يَعلمون سوى القليل عن القانون. فكِّر في الأعمال الوَحشيَّة الشَّيطانية والشرِّ الخَفيِّ الذي يُمكن أن يستمرَّ عامًا وراء عام في أماكن كهذه، وما خَفِيَ كان أعظم. إن كانت هذه السيدة التي طلبتْ منَّا المُساعدة قد ذهبت إلى وينشستر، ما كنتُ لأخاف عليها مُطلقًا. أمَّا هذه الخمسة الأميال في الريف فهي ما تُمثِّل خطرًا حقيقيًّا. ومع ذلك، فمِنَ الواضح أنها ليست مُهدَّدة شخصيًّا.»

«لا، إن كانت تقدِر على أن تأتي لُمقابلتِنا في وينشستر، إذن يُمكنها الهرب.»

«بالضبط، إنها تتمتَّع بِحُريَّتها كاملة.»

«فماذا يُمكن أن يكون الأمر إذن؟ هل تقترِح أيَّ تفسير؟»

«لقد فكرتُ في سبعة تفسيرات مُختلفة، يُغطي كلٌّ منها الحقائق كما نعرِفها. ولكن لن يُحدِّد مدى صحة أيٍّ منها سوى المعلومات الجديدة التي سنَجِدُها في انتظارنا بلا شك. حسنًا، ها هو برج الكاتدرائية، وسنعلَمُ قريبًا كلَّ شيءٍ من الآنسة هانتر.»

إن نُزُل بلاك سوان نُزُلٌ شهيرٌ في الشارع الرئيسي، على مسافةٍ قريبةٍ من المحطة، وهناك وجدْنا الآنسة الشابَّة في انتظارنا. كانت تجلِس في إحدى قاعات الجلوس، وكان الغداء جاهزًا على الطاولة.

قالت بحماس: «أنا في غايةِ السعادة بمَجيئكم. إنه لُطفٌ شديد منكم، ولكنَّني لا أعلم ما يتوجَّبُ عليَّ فعله. ستكون نَصيحتُك لا تُقدَّر بثمنٍ بالنسبة لي.»

«أخبرينا بما حدَث لكِ أرجوكِ.»

«سأفعل، ويجِبُ أنْ أُسرِع؛ إذ إنَّني وعدتُ السيد روكاسل أن أعود قبل الثالثة. أخذتُ إذنه أن آتي إلى المدينة هذا الصباح، ولكنه لا يَعلم شيئًا عن سبب قُدومي.»

قال هولمز: «لنضعِ النِّقاط على الحروف إذن.» هكذا قال ثُمَّ مدَّ ساقَيه الطويلتَين النَّحيلتَين إلى الأمام نحوَ نِيران المدفأة وهيَّأ نفسه للإنصات.

«أولًا، يُمكنني القول إنَّني لم ألقَ أيَّ سوء مُعاملة من السيد والسيدة روكاسل في المُجمل. من الإنصاف لهما أن أقول ذلك، ولكنَّني لا أستطيع فَهمَهما ويُثيران قلقي.»

«ما الذي لا يُمكنكِ فهمُه؟»

«أسباب سلوكهما. ولكنَّني سأخبرُك بكلِّ شيءٍ كما حدَث تمامًا. عندما أتيت، استقبَلَني السيد روكاسل هنا واصطحَبَني في عربةٍ يجرُّها حصان إلى كوبر بيتشيز. إنه مكان جميل كما قال، ولكن المنزل في حدِّ ذاته ليس كذلك؛ فهو عبارة عن كُتلة كبيرة مُربعة مَطليَّة بماء الكلس، ولكنها مُلطَّخة وتَمتلِئ بالبُقَع التي تُخلِّفها الرُّطوبة والجوُّ السَّيِّئ. تُوجَد أفنِيَة حوله، وأشجار على ثلاثة جوانب، ويُوجَد على الجانب الرابع حقل ينحدِر نزولًا إلى طريق ساوثامبتون السريع، وينعطِفُ على بُعدِ حَوالي مائة ياردة من الباب الأمامي. يتبع الفناء الأمامي المنزل، أما الأشجار التي تُحيط به فهي جُزء من مُمتلكات اللورد ساذرتون. وقد سُمِّي المكان نسبة إلى مجموعة من أشجار الزان النُّحاسية اللون (كوبر بيتشيز) التي تُوجَد أمام باب الرَّدهة مُباشرةً.

أقلَّني السيد روكاسل، وكان في غاية اللطف، وعَرَّفَني ذلك المساء على زَوجته وابنه. لم تثبُت صحَّة التَّخمين الذي بدا لنا مُحتَملًا يا سيد هولمز في منزلك ببيكر ستريت. فالسيدة روكاسل ليست مجنونة؛ بل وجدتُ أنها امرأة صامتة ذات وجهٍ شاحِب، وأصغر كثيرًا من زَوجها، إذ لا يَتجاوز عُمرها ثلاثين عامًا، كما أعتقد، بينما لا يقلُّ عمره عن خمسةٍ وأربعين عامًا. استنتجْتُ من مُحادثاتِهما أنهما مُتزوِّجان منذ حوالي سبع سنوات، وأنه كان أرْملَ، وأنَّ طِفلته الوحيدة من الزَّوجة الأولى كانت ابنَته التي سافرَتْ إلى فيلادلفيا. أخبرتْني السيدة روكاسل على انفرادٍ أنَّ السببَ وراء سفر ابنته هو أنها كانت تنفِر من زَوجة أبيها نُفورًا غير مُبرَّر. وبما أن ابنته لم يكن عُمرها ليقلَّ عن عشرين عامًا، فيُمكِنُني أن أتخيَّل أنَّ وضعها لا بُدَّ أنه كان غير مُريح في وجود زَوجة أبيها الشابَّة.

لم يكن هناك أيُّ شيءٍ يُميِّز السيدة روكاسل كما بدا لي، لا في طريقة تفكيرها ولا في مَظهرها؛ فهي لم تُبهِرني لا سلبًا ولا إيجابًا؛ كانت نَكِرة. كان من السهل مُلاحظة كَمْ كانت شديدةَ الإخلاص لزَوجها وابنها الصغير. كانت عَيناها الرَّمادِيَّتان الفاتِحَتان تتنقَّلان باستمرارٍ من زَوجها لابنها، وتَرصُدان كلَّ رغبةٍ صغيرة قد يُريدانِها وتُهرَع لتلبيتِها إن أمكن. أما هو فقد كان لطيفًا معها بأسلوبه الوَدود الصَّاخِب، وقد بدا أنهما زَوجان سعيدان في المُجمَل. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هذه المرأة تُخبِّئ حُزنًا دفينًا بداخلها؛ فغالبًا ما تكون غارقةً في التفكير ويرتَسِم على وجهها نظرةُ حزنٍ عَميق. كما أنني رأيتُها على حينِ غرَّةٍ أكثر من مرَّةٍ وهي تبكي. كنتُ أفكِّر أحيانًا في أنَّ سلوك طفلها هو ما أثقلها بالهموم، إذ إنَّني لم يَسبِقْ أنِ التقيتُ مَخلوقًا صغيرًا مُدلَّلًا ومُشاكسًا كهذا. إنَّ حجمَهُ صغير بالنِّسبة لسِنِّه، ورأسه ضخم لا يُناسِبُ حجمَه، وهو يقضي حياتَهُ كلَّها إمَّا في نَوباتِ غضبٍ وحشيَّة أو في فتراتٍ من العُبوس والحُزن. وفكرتُه الوحيدة عن التَّسلية كما يبدو، هي تَعذيب أيِّ مخلوقٍ أضعفَ منه، كما أنه يُظهِر موهبةً استثنائية في التَّخطيط للإمساك بالفئران والعصافير الصغيرة والحَشَرات. ولكنَّني أُفضِّل ألَّا أتحدَّث عن هذا المخلوق يا سيد هولمز، كما أنه لا علاقة له بقِصَّتي لا من قريبٍ ولا من بعيد.»

عَلَّقَ صديقي قائلًا: «أنا سعيد بكلِّ هذه التفاصيل، سواءً أكانت تبدو ذات صلةٍ لكِ أم لا.»

«سأحاول ألَّا أُغفِلَ أيَّ تفصيلةٍ مُهمة. الشيء الوحيد غير المُريح في المنزل، والذي أذهلَني على الفور، هو مظهر الخدَم وسلوكهم؛ لا يُوجَد سوى خادِمَين فقط، رجلٌ وزَوجته. اسمه تُولر، وهو رجل فظٌّ خشِنٌ أشيَبُ الشَّعر والذقن، وتفوح منه رائحة الخمر دائمًا. وجدتُه مخمورًا بشدَّة مرَّتَين منذ أن بدأتُ العمل، ومع ذلك فقد بدا أنَّ السيد روكاسل لم يُلاحظ ذلك. أما زوجة تولر فقد كانت فارعة الطول قويَّةً عابِسة الوجه، وصامتة كالسيِّدة روكاسل تمامًا، ولكن أقلَّ ودًّا منها بكثير. إنهما زَوجان شديدا التَّعاسة، ولكنَّني أقضي مُعظم وقتي، لحُسن الحظ، في غرفة الأطفال وفي غرفتي الخاصَّة، وكلتاهما مُتجاورتان وتقَعان في ركنٍ من أركان المبنى.

كانت حياتي هادئة جدًّا لمدة يَومَين بعد وصولي إلى كوبر بيتشيز؛ أمَّا في اليوم الثالث، فقد نزلَتِ السيدة روكاسل بعد الإفطار مُباشرة وهمَسَتْ بشيءٍ لزَوجها.

فقال وهو يلتفتُ ناظرًا إليَّ: «أوه، أجل، إنَّنا في غاية العِرفان لكِ يا آنسة هانتر على تلبيَتِك لرغباتنا فيما يتعلَّقُ بقصِّ شعرك؛ أؤكد لكِ أنه لم ينتقِص ذرَّةً من جمال مظهرك.

سنرى الآن إن كان الثوب الأزرق البرَّاق سيُناسِبُك. ستَجدينه موضوعًا على السرير في غرفتك، وسنكون في غاية الامتِنان إن تكرَّمتِ بارتِدائه.»

كان الثوب الذي جهَّزوه لي ذا لونٍ أزرقَ مُميَّزٍ، وكان مصنوعًا من مادَّةٍ مُمتازة، نوع من أنواع الصُّوف الطبيعي، ولكنه كان به علاماتٌ لا تُخطِئها عَين بأنه قد تَمَّ ارتداؤه من قبل. لم يكن هذا الثَّوبُ لِيُناسِب مقاسي على هذا النحو إن كان قد فُصِّلَ لي خصيصًا. أبدى كلٌّ من السيِّد والسيدة روكاسل إعجابًا شديدًا بمظهري وأنا أرتديه، وهو ما قد بدا إعجابًا مُبالغًا في شدَّتِه. كانا يَنتظرانِني في غُرفة الاستقبال، والتي كانت كبيرة جدًّا بحيث إنها تمتدُّ بطول واجهة المنزل بأكمله ولها ثلاث نوافذ طويلة تمتدُّ إلى الأرض. كان قد وُضِعَ مقعدٌ بالقُرب من النافذة الوسطى وظهره يُقابلها. طلبوا منِّي أن أجلس على هذا المقعد، ثم بدأ السيد روكاسل وهو يَذرَع الغرفة ذهابًا وإيابًا يَقُصُّ عليَّ مجموعةً من أطرف القصص التي سمِعتُها على الإطلاق. لا يُمكنك أن تتخيَّل كم كان مُضحكًا! فظللتُ أضحكُ حتى أصابَني التَّعَب. أما السيدة روكاسل على الجانب الآخر، التي كانت تفتقِر لحسِّ الدُّعابة بوضوح، فلم تبتَسِم، بل جلستْ واضعةً يدَيها على رُكبَتَيها، وعلى وجهها نظرةٌ حزينة قلِقَة. بعد ساعةٍ أو نحو ذلك، قال السيد روكاسل فجأةً إنه قد حان الوقت للشُّروع في مهامِّ اليوم، وإنه يُمكنني أن أُغيِّر ثوبي وأذهب لإدوارد الصغير في غُرفته.

بعد ذلك بيومَين، قام بالأداء نفسه في ظروفٍ مُشابِهة تمامًا. ومرة أُخرى بدَّلتُ ثَوبي وجلستُ على المقعد بالقُرب من النافذة وضحكتُ بحرارةٍ شديدة على القصص المُضحكة التي كان لدى السيد روكاسل مخزونٌ ضخم منها، والتي كان لا يُضاهِيه في قَصِّها أيُّ شخص. بعد ذلك، سلَّمني روايةً ظهر غلافها أصفر، وحَرَّكَ مقعدي إلى الجانب قليلًا، بحيث لا يَقَعُ ظِلِّي على الصفحة، وطلب منِّي أن أقرأ له بصوتٍ عالٍ. قرأتُ لمدَّةِ عشر دقائق تقريبًا، وبدأتُ القراءة من مُنتصف الفصل، ثم فجأة، وأنا في مُنتصف الجملة، أمرَني أن أتوقَّف وأن أذهب لتغيير ثَوبي.

يُمكِنك أن تتخيَّل بسهولةٍ يا سيد هولمز مدى الفضول الذي اعتراني بشأن ما قد يَعنيه هذا السلوك الغريب. لقد كانوا في شدَّة الحِرص، كما لاحظتُ، على أن يكون وَجهي مُشيحًا عن النافذة، بحيث مَلأتْني رغبةٌ محمومة أن أرى ما كان يجري خلف ظهري. بدا الأمر مُستحيلًا في البداية، لكنني سُرعان ما وجدتُ وسيلة. كانت مرآة يدي مكسورة، فتملَّكتْني فِكرة مُبهِجة وأخفيتُ جُزءًا من المرآة في منديلي. في المرة التالية، وبينما كنتُ

أضحك بحرارة، رفعتُ منديلي ووضعتُه على عَيني، وتمكنتُ بالقليل من التعديل أن أرى كلَّ ما كان يحدُث خلفي. أعترِف أن خيبة الأمل قد أصابتْني، فلم يكن هناك أيُّ شيء. على الأقلِّ كان هذا هو انطباعي الأول، ولكن عندما نظرتُ ثانية رأيتُ رجلًا يقِف في طريق ساوثامبتون. رجل مُلتحٍ صغير الحجم يرتدي بدلةً رماديَّة، بدا كأنَّهُ ينظر في اتِّجاهي. إنه أحد الطرق السريعة المهمَّة، وعادة ما يُوجَد أناس هناك. إلَّا أن هذا الرجل كان يستنِد على السور الذي يُطوِّقُ حقلَنا وكان ينظر بِتَوقٍ لأعلى. خفضتُ منديلي وألقيتُ نظرةً خاطفة على السيدة روكاسل، فوجدتُ عينَيها مُثبَّتَتين عليَّ وهي تُحدِّق فيَّ مُتفحِّصة. لم تَقُل أيَّ شيء، ولكنني مُقتنِعة أنها تنبَّأتْ أنَّني أُمسِكُ بمرآةٍ في يدي، وأنَّني قد رأيتُ ما يُوجَد خلفي؛ فنهضَتْ في الحال.

وقالت: «جيفرو، يُوجَد رجلٌ وقِحٌ يقِف على الطريق هناك ويُحدِّق في الآنسة هانتر.»

فسألني: «هل هذا أحدُ أصدقائك يا آنسة هانتر؟»

«لا، أنا لا أعرِف أيَّ شخصٍ في هذه الأنحاء.»

«يا إلهي! يا لَوَقاحَتِه! أرجوكِ التفِتي إليه ولَوِّحي له أن يذهب بعيدًا.»

«من الأفضل بلا شكٍّ ألَّا نُعيرَه أيَّ انتباه.»

«لا، لا، لا يَجِبُ أن نَترُكه يتسكَّع هنا باستمرار. استديري أرجوكِ ولوِّحي له هكذا أن يذهب.»

فعلتُ كما أخبرَتْني، وفي اللحظة نفسها أغلقتِ السيدة روكاسل الستائر. كان ذلك منذ أسبوع، ومنذ ذلك الوقت لم أجلس عند النافذة، ولم أرتدِ الثوب الأزرق مرَّةً أخرى، ولا رأيتُ الرجل ينتظِر على الطريق.»

قال هولمز: «أكملي أرجوكِ، تُبَشِّر حكايتُك أن تكون شديدة الإثارة.»

«أخشى أنك ستَجِد أنَّ الحكاية غير مُترابِطة، وقد يَتبيَّن أنه لا يُوجَد سوى علاقة طفيفة بين الوقائع المُختلفة التي سأحكيها. في يومي الأول في كوبر بيتشيز، أخذتْني السيدة روكاسل لمبنًى خارجي صغير بالقُرب من باب المطبخ. وعندما اقتربْنا منه، سمعتُ صوت صليل مِنشار، وصوتًا آخَرَ كأنَّه حَيوان كبير يتحرَّك.»

«انظري إلى هذا!» هكذا قالت السيدة روكاسل وهي تُريني شقًّا بين لَوحَين. ثم أردفت: «أليس جميلًا؟»

نظرتُ من خلاله ولاحظتُ زَوجًا من العُيون المُتوهِّجة، وشكلًا مُبهمًا مُكوَّمًا في الظلام.

«لا تخافي.» هكذا قالت رَبَّة عملي وهي تَضحك عليَّ عندما جفلتُ. «إنه كارلو، كلبي الماستيف. إنه كلبي اسمًا، ولكنَّ سائِسنا تُولَر العجوز هو الوحيد الذي يستطيع التعامُل معه. لا نُطعمه سوى مرة واحدة في اليوم، ولا نُعطيه الكثير من الطعام حتى يكون مُفعمًا بالنشاط دائمًا. يُطلقه تولر كلَّ ليلة. وليُساعِدِ الربُّ المُعتديَ الذي سيُطبِقُ أنيابه عليه. أتوسَّل إليكِ ألَّا تطأ قدمُك عتبة الباب ليلًا تحتَ أيِّ ظرفٍ مهما كان، فقد يُكلِّفك ذلك حياتك.»

لم يكن تحذيرها مُبالغًا فيه؛ إذ إنَّني بعد ليلتَين لاحِقَتَين حدَث أن نظرتُ من نافذة غُرفة نَومي في حوالي الساعة الثانية فجرًا. كانت ليلةً جميلة يَسطعُ فيها ضوء القمر ويعكس ضوءه على العُشب الموجود أمام المنزل، فبدا فِضِّيًّا لامعًا كلَمَعان ضوء النهار. كنتُ أقف مُستغرقةً في الجمال الهادئ للمنظر، عندما أدركتُ أنَّ شيئًا ما كان يتحرَّك أسفل ظلِّ أشجار الزَّان، وعندما ظهر في ضوء القمر رأيتُ ماهيَّتَه. كان كلبًا ضخمًا في حجم العِجْل، يَميل إلى اللَّونِ البرونزي، ذا فكٍّ مُتهدِّلٍ وخطمٍ أسود وعظام ضخمة بارزة. كان يسير ببطء عبر العُشب، واختفى في الظلِّ في الجهة الأخرى. ألقى شكل هذا الحارس المُفزِع بالرُّعبِ في قلبي، رُعبٌ لا يُمكن أن يَتسبَّب فيه أيُّ لِص.

والآنَ لديَّ شيء غريب جدًّا لأُخبِرك به. لقد قصصتُ شعري في لندن كما تعلم، ووضعتُه في بَكَرةٍ كبيرة في قاع حقيبَتي. في إحدى الليالي بعد أن أوى الطفلُ إلى الفراش، بدأتُ أُسلِّي نفسي بفحص أثاث غُرفتي وبإعادة ترتيب مُتعلَّقاتي البسيطة. وجدتُ صندوقَ أدراجٍ قديمًا في الغرفة، كان الدُّرْجان العُلويَّان مفتوحين وفارغَين، وكان الدُّرْج السُّفليُّ مُقفلًا. وضعتُ ملابسي في الدُّرجَين العُلويَّين حتى امتلآ. وبما أنَّني كان لا يزال لديَّ الكثير لأضعه، كان من الطبيعي أن أنزعج لعدم قُدرتي على استخدام الدُّرج الثالث. فكَّرتُ في أنه قد يكون قد أُقْفِلَ سهوًا، فأخرجتُ سلسلةَ مَفاتيحي وحاولتُ فتحَه. ناسَبَ المِفتاحُ الأول القُفل تمامًا، وفتحتُ الدُّرْج. لم يكن فيه سوى شيءٍ واحد، ولكنَّني مُتأكِّدة من أنك لن تُخمِّن أبدًا ما هو هذا الشيء. لقد كانت بَكرة شعري المقصوص.

أخذتُها وفحصتها؛ كان لونُه نفس الدَّرَجة المُميزة من اللون الكستنائي، وله سُمك شعري نفسه. ولكن استحالة الأمر تَملَّكتْني، فكيف يُمكن أن يكون شعري مُقفلًا عليه في الدُّرْج؟ فتحتُ حقيبتي بيدَين مُرتعِشتَين وأفرغتُ مُحتوياتِها وسحبتُ بكرةَ شعري من قاعها. وضعتُ خُصلتَي الشَّعر إلى جانب بعضهما، وأؤكد لكَ أنَّهُما كانتا مُتطابِقَتَين.

أوليس أمرًا غريبًا؟ كانت الحيرة تَملؤني بحيثُ لم أتمكَّن من فكِّ لُغز الأمر برمَّتِه. أعدتُ الشَّعر الغريب إلى الدُّرْج، ولم أقُلْ عن الأمر شيئًا للسيد والسيدة روكاسل، إذ إنَّني شعرتُ أنَّني قد ارتكبتُ خطأً بفتحي لدُرجٍ كانا قد أغلَقاه.

أنا سريعة المُلاحظة بطبيعتي، كما قد تكون لاحظتَ يا سيد هولمز، وسُرعان ما رسمتُ خريطةً جيدة للمنزِل بأكمِلِه في عقلي. ومع ذلك، فقد بدا أنَّ هناك جناحًا واحدًا لم يكن يَسكنه أيُّ شخصٍ على الإطلاق. كان هناك بابٌ يُفضي إلى هذا الجناح ويقَع في مُقابل الباب الذي يُفضي لمسكن السيد والسيدة تولر، ولكنَّه كان مُغلقًا باستمرار. ولكن في يومٍ قررتُ أن أصعَدَ السُّلَّم، فقابلتُ السيد روكاسل في طريقي وهو يخرُج من هذا الباب ويحمِل مفاتيحه في يدِه وقد ارتسمتْ على وجهه نظرةٌ جعلته يبدو شخصًا مُختلفًا للغاية عن الرجل المُبتسِم الذي اعتدتُ عليه. كانت وجنتاه حَمراوَين وحاجِباه مَعقودَين غضبًا والعُروق تنفِر من جَبينِه انفعالًا. أغلق الباب ومرَّ أمامي دُون أن ينظُر إليَّ أو ينبِس ببنتِ شَفة.

أثار هذا فُضولي، لذا عندما خرجتُ للتنزُّه في الفناء وأنا أحمل الطفل، سرتُ إلى الجانب الذي سأتمكن خلالَه من رُؤية نوافذ هذا الجُزء من المنزل. كانت هناك أربع نوافذ مُتتالية، ثلاثٌ منها كانت مُتَّسِخة، بينما كانت النافذة الرابعة مُغلقة؛ كان من الواضِح أنها جميعًا مَهجورة. وبينما كنتُ أذرَعُ الفناء جيئةً وذهابًا وأنا أُلقي عليها نظرةً خاطفة أحيانًا، خرج السيد روكاسل نحوي، وهو يبدو مَرِحًا ومُبهِجًا أكثر من أيِّ وقت.

قال: «أوه! مِن المُؤكَّد أنك تَظنِّين أنَّني تصرفتُ بشكلٍ وقحٍ حينَ مَررتُ إلى جانِبِك دُون أن أقول أيَّ شيءٍ يا سيِّدَتي العزيزة؛ فقد كنتُ مَشغولًا بأمورٍ تتعلَّق بالعمل.»

أكدتُ له أنَّني لم أشعُر بأيِّ إهانة، وقلت: «بِالمُناسَبة، يبدو أنك لدَيْكَ مجموعة من الغُرَف الإضافية بالأعلى، ونافذة إحداها مُغلَقة.»

بدا مُتفاجئًا ومَذهولًا بعضَ الشيء من المُلاحظة التي أبديتُها.

قال: «التصوير الفوتوغرافي هو إحدى هُواياتي. لقد جهَّزتُ غرفة مُظلمة لهذا الغرَض بالأعلى. ولكن يا إلهي! لقد صادفتْنا شابَّةٌ دقيقة المُلاحَظة بحق، من كان سيصدِّقُ ذلك؟ من كان سيُصدِّق ذلك على الإطلاق؟» كان يتحدَّث بنبرةٍ مازِحة، ولكن نظرة عينَيه وهو ينظر إليَّ لم تكن كذلك. وجدتُ في نظرته الشكَّ والانزِعاج، ولم يكن فيها أيُّ دُعابة.

حسنًا، منذُ هذه اللحظة يا سيد هولمز فهمتُ أنَّ هناك شيئًا ما يتعلَّق بهذه الغُرَف لم أكن أعرِفه، وكنتُ أتحرَّقُ شوقًا لدخولها. لم يكن الأمر مُجرَّدَ فضول، على الرغم من

أنَّني فضوليَّة لا أُنكِر ذلك، بل كان شعورًا بالمسئولية؛ شعورًا أنَّ دخولي هذا المكان قد يَجلُب بعض الخير. إنهم يَتغنَّون بغريزة المرأة؛ ربما كانت غريزة المرأة هي ما أعطتْني هذا الشعور. كان الشعور موجودًا على أيِّ حال، وكنتُ أترقَّبُ بِحِرصٍ شديد أيَّ فرصةٍ لأَمُرَّ من الباب المُحَرَّم.

لم تُواتِني هذه الفُرصة سوى أمس فحسب. يُمكنني أن أخبرك أنه بخلاف السيد روكاسل، فإن كل من تولر وزوجته يفعلان شيئًا ما في هذه الغرف المهجورة، وقد رأيتُه ذات مرَّةٍ يحمِل معه حقيبة كبيرة من القماش الأسود وهو يَمرُّ من الباب. كان يُفرِط في الشَّراب مُؤخَّرًا، وقد كان ثَمِلًا ليلةَ أمس؛ وعندما صعدتُ بالأعلى وجدتُ المفتاح في الباب. ليس لديَّ أيُّ شكٍّ على الإطلاق أنَّهُ قد ترَكه هُناك. كان كلٌّ من السيد والسيدة روكاسل في الطابق السُّفلي وكان الطفل مَعهما؛ لذا كانت لديَّ فرصة رائعة. أدرتُ المفتاح بِرفقٍ في الباب وفتحتُه وتسلَّلتُ عبْرَه.

وجدتُ مَمرًّا صغيرًا أمامي جُدرانه غير مكسوَّةٍ بوَرَق الحائط وأرضيتُه تخلو من السجَّاد وينعطِف إلى اليمين في نهايته. كان هناك ثلاثة أبواب مُتتالية عند هذه الزاوية، وكان أولها وثالثها مَفتوحَين. كان كلاهما يُفضي لغُرفتَين فارغتَين مُترِبَتَين وكئيبتَين، في كلِّ واحدةٍ منهما نافذة تتراكم عليها أوساخ كثيفة، حجبتْ ضوء المساء فلم يتسلَّلْ منه إلَّا قدرٌ خافِت. كان الباب الأوسط مُوصدًا، وبطوله كان مُثبَّتًا عليه واحدٌ من القضبان العريضة لأحد الأسِرَّة الحديدية ومُقفلًا عند إحدى نهاياته بحلقةٍ مُثبَّتة في الحائط، ومعقودًا بحبلٍ قوي من الجهة الأخرى. كان الباب نفسه مُوصدًا كذلك، ولم يكن به مفتاح. تَوافَقَ هذا الباب المَتروس تمامًا مع النافذة المُغلَقة التي رأيتُها بالخارج، إلَّا أنَّني عرفتُ من بصيص الضوء الذي يخرج من أسفل الباب أنها لم تكن مُظلمة. كان من الواضح أنه تُوجَد كوَّة تسمح بدخول الضوء من الأعلى. بينما كنتُ أقف في المَمرِّ أُحدِّق بالباب المشئوم وأتساءل عن السرِّ الذي يُخفيه وراءه، سمعتُ فجأةً صوت خطواتٍ داخل الغرفة ورأيتُ ظلًّا يمرُّ إلى الأمام وإلى الخلف من خلال شريط الضوء الصغير الخافِت الذي كان يأتي من خلف عتبة الباب. انتابني خَوفٌ جُنونيٌّ غير منطقي عند رؤية ذلك يا سيد هولمز، وخانتْني أعصابي المُرتعِبة فجأة، فاستدرتُ وركضت؛ ركضتُ كما لو أنَّ يدًا مُروِّعةً كانت تُلاحِقُني وتُحاوِلُ الإمساك بتنُّورة ثَوبي. هُرِعتُ بطول المَمر، عبر الباب، نحو ذراعَي السيد روكاسل الذي كان ينتظر بالخارج.

«حسنًا.» هكذا قال وهو يبتسِم، «كُنتِ أنتِ إذن. لقد فكرتُ في أنَّهُ لا بُدَّ أن تكوني أنتِ عندما رأيتُ الباب مفتوحًا.»

قلتُ لاهِثة: «أوه، أنا مُرتعِبة!»

«أوه يا شابَّتي العزيزة! أوه يا شابَّتي العزيزة!» لا يُمكنك أن تتخيَّل كم كانت طريقتُه حَنُونةً وتَبْعَثُ على الهدوء، «وما الذي أخافَكِ يا شابَّتي العزيزة؟»

ومع ذلك، فقد كان صوتُه مُتصنَّعًا؛ كان يُبالِغُ في إظهار الحنان، فكنتُ حريصةً على تَوخِّي الحذَر منه.

أجبتُه قائلة: «كنتُ حمقاء بما يكفي لدُخول الجناح الفارغ. ولكنَّه كان مُوحشًا بِشدَّة ومُخيفًا في هذا الضوء الخافت، فشعرتُ بالخَوف وركضتُ إلى الخارج مرَّةً أخرى. أوه، إنَّ الصمت قاتل هناك!»

قال وهو ينظرُ إليَّ مُتفحِّصًا: «هذا فحسب؟»

فأجبتُه: «لماذا؟ ما الذي ظننْتَه؟»

«لِمَ تعتقدين أنَّني أوصِدُ هذا الباب؟»

«أنا لا أعلم على الإطلاق.»

«لأمنعَ من ليس لهم شأنٌ من الدخول. هل تَرَينَ ما أعني؟» كان لا يزال مُبتسِمًا بِودٍّ شديد.

«تأكَّد أنَّني لو كنتُ أعلم ...»

«أنتِ تعلمين الآن. إن وضعتِ قدمًا على تلك العتَبَةِ مرَّة أخرى ...» — وهنا في لحظةٍ قَسَتِ ابتسامتُه الحنونة وتحوَّلتْ إلى تكشيرةٍ غاضبة ونظرَ إليَّ والشَّرَر يتطايَرُ من عَينِه فصار وجهه كوجهِ الشيطان — «سأُلقي بكِ إلى كلب الماستيف.»

كنتُ أشعُر بالهلَع الشديد بحيث إنَّني لا أعرف ما الذي فعلته. أعتقد أنَّني تَجاوزتُه مُندفعة نحو غُرفتي. لا أتذكر أيَّ شيءٍ حتى وجدتُ نفسي مُستلقيةً على سريري وأنا أرتعِدُ من رأسي حتى أخمص قدمي. فكرت فيك حينئذٍ يا سيد هولمز، لم يعُد يُمكِنُني العَيش هناك دون بعض النُّصح. لقد كنتُ خائفة من المنزل ومن الرجل وزوجته ومن الخدَم، وحتى من الطفل. كانوا جميعهم مُروِّعين بالنسبة لي. فقط لو كان يُمكنني أن أصطحِبك معي لكان كلُّ شيءٍ سيصير على ما يُرام. كان يُمكنني بالتأكيد أن أهرُب من المنزل، ولكنَّ فضولي كان بنفس قوَّةِ مَخاوفي. لذا عقدتُ العزمَ سريعًا على أن أُرسِلَ لك تلغرافًا، فارتديتُ قُبَّعتي وعباءتي وذهبتُ إلى مكتب البريد الذي يبعُد حوالي نِصف ميلٍ من المنزل، ثم عدتُ

وأنا أشعر بالراحة الشديدة. راوَدَني شكٌّ رهيب عندما اقتربتُ من الباب خوفًا من أن يكون الكلب طليقًا، ولكنَّني تذكرتُ أن تولر كان قد أفرَطَ في الشراب حتى الثَّمَل ذلك المساء وأنه كان الشَّخص الوحيد في المنزل الذي يستطيع التحكُّم في هذا المخلوق المُتوحِّش أو أن يُطلِق سراحه. تَسلَّلتُ في أمانٍ، ولم أتمكَّن من النوم مُعظمَ الليل من فرْطِ سُروري لأنَّني سأراك. لم أجد صعوبةً في الحصول على إذنٍ للقُدوم إلى وينشستر هذا الصباح، ولكنَّني لا بُدَّ أن أعود قبل الثالثة عصرًا؛ لأن السيد والسيدة روكاسل سيقومان بزيارةٍ وسيَغيبان المساء كله، ومن ثَمَّ لا بُدَّ أن أعتني بالطفل. والآن ها قد أخبرتُك بكلِّ مُغامراتي يا سيد هولمز، وسأكون في غاية السعادة إن كنتَ تستطيع أن تُخبِرَني بمعنى كلِّ ذلك. والأهمُّ، بما يتَوَجَّب عليَّ فعله.»

استمعتُ أنا وهولمز إلى هذه القصة الاستثنائية في ذهول. نهضَ صديقي وأخذ يَذرَعُ الغرفة جَيئةً وذَهابًا ويداه في جُيوبه وترتسِم الجِدِّيةُ الشديدة على وجهه.

سأل قائلًا: «هل لا يزال تولر مخمورًا؟»

«أجل، لقد سمعتُ زوجته وهي تُخبِر السيدة روكاسل أنها لم تتمكَّن من إفاقته.»

«هذا جيد، وسيخرُج آل روكاسل الليلة. أليس كذلك؟»

«بلى.»

«هل يُوجَد قَبوٌ في المنزل ذو قفلٍ جيد؟»

«أجل، قَبو النَّبيذ.»

«لقد تصرَّفتِ في خِضمِّ كلِّ هذه الأحداث، كما يبدو لي، بشجاعة وحِكمة شديدتَين يا آنسة هانتر. هل تَظُنِّين أنه بإمكانك أن تؤدِّي عملًا إضافيًّا؟ لم أكن لأطلُب هذا منكِ إن لم أكن أرى أنك امرأة استثنائية.»

«سأحاول. ما هو العمل؟»

«سنَصِل أنا وصديقي إلى كوبر بيتشيز في حوالي السابعة. بحلول هذا الوقت سيكون آل روكاسل قد رحلوا بالفعل، أما تولر، حسنًا، فلنأمُل أن يكون مخمورًا. لن يتبقَّى سوى السيدة تولر التي قد تُشكِّل خطرًا. إن أمكنَكِ أن تُرسليها إلى القَبوِ في مُهمَّةٍ ما، ثُم تُوصِدي بابَهُ بالمِفتاح، فَستُسهِّلين الأمور كثيرًا.»

«سأفعل.»

«ممتاز! سنبحث الأمر بالتفصيل إذن. لا يُوجَد سوى تفسيرٍ واحد منطقي بلا شك، وهو أنهم أحضروكِ لتُجسِّدي دَورَ شخصٍ بعينه، وأنَّ هذا الشخص مَحبوسٌ في هذه

الحُجرة؛ هذا واضِح. أما بالنِّسبة لهوية هذا السجين، فهي بلا شك الابنة؛ الآنسة أليس روكاسل، إن كنتُ أتذكَّر جيدًا، التي قيل إنها قد سافرتْ إلى أمريكا. لقد اختاروكِ قَطْعًا لأنك تُشبهينَها في الطول والهيئة ولون الشعر. من المُحتمَل جدًّا أن شعرها قد قُصَّ أثناء مرَضٍ ما كانت تُعاني منه، ومن ثَم كان لا بُدَّ من التضحية بشعركِ أنتِ أيضًا بالتأكيد. لقد رأيتِ خُصلةَ شعرِها بالصُّدفة. أما الرجل الذي كان ينتظِر على الطريق، فهو بلا شكٍّ صديقٌ لها، وربما يكون خطيبها. وقطعًا عندما ارتديتِ ثَوبها وبَدَوتِ مِثلها، فقد اقتنَع من ضَحِكك كُلَّما رآكِ، وبعد ذلك من لفتاتكِ، أنَّ الآنسة روكاسل في غاية السعادة، وأنها لم تعُد ترغَبُ في اهتمامه. أما الكلب، فيُطلِقون سراحه ليلًا ليمنعوه من مُحاولة الاقتراب منها. هناك الكثير من الأشياء الواضحة تمامًا، ولكن النقطة الأكثر خطورة في القضية كلها هي تصرُّفات الطفل وطبيعته.»

انفعلتُ قائلًا: «ما علاقة ذلك بالأمر؟»

«يا عزيزي واطسون، إنك كطبيب تكتسِبُ معلوماتٍ كاشفة باستمرار عن مُيول الطفل من خلال دراسة أبَوَيْه. أفلا ترى أنَّ العكس صحيح أيضًا؟ كثيرًا ما أكتَسِبُ أولَ نظرةٍ حقيقية عميقة عن شخصية الآباء من دراسة سلوك أطفالهم. سلوك هذا الطفل قاسٍ بشكلٍ غير طبيعي، قَسوة لأجل القسوة فحسب، وسواء كان يَستمدُّ ذلك من أبيه الدائم الابتسام كما أظن، أو من أُمِّه، فهذا يُنبئ بالشرِّ للفتاة المسكينة التي وقعت بين أنيابهم.»

«أنا مُتأكدة من أنك على حقٍّ يا سيد هولمز.» هكذا صاحت عميلتنا، «إنني أستحضِر الكثير من المواقف التي تَجعَلُني أقطع بأنك قد أصبْتَ كبد الحقيقة. أوه، دَعْنا لا نُضيِّع ولو لحظةً واحدة وأن نُسارع بمُساعدة هذه المخلوقة المسكينة.»

«إنَّنا نتعامَلُ مع رجلٍ شديد المكر؛ لذا لا بُدَّ أن نكون حذِرين. لا يُمكننا القيام بأيِّ شيء حتى الساعة السابعة، فبِحلول هذا الوقت سنكون معكِ، ولن يَمرَّ وقتٌ طويل قبل أن نحلَّ هذا اللغز.»

التزمْنا بالميعاد الذي حدَّدْناه، فكانت الساعة السابعة بالضبط عندما وصلْنا كوبر بيتشيز بعد أن رتَّبْنا فخًّا في حانةٍ عامَّة تقَع على أحد جوانب الطريق. كانت مجموعة الأشجار ذات الأوراق الداكنة التي تتلألأ كالمَعدِن المصقول في ضوء شمس الغروب كافية لتمييز المنزل، حتى وإن لم تكن الآنسة هانتر تقِف مُبتسمةً على الباب.

سأل هولمز: «هل تمكَّنتِ من القيام بالأمر؟»

سُمِعَ صوت ضجيجٍ عالٍ آتيًا من مكانٍ ما بالطابق السُّفلي. قالت هانتر: «هذه السيدة تولر في القبو. زَوجها غارقٌ في النوم يُشَخِّر على سجَّادة المطبخ. ها هي المفاتيح، وهي نُسخة طِبق الأصل من مفاتيح السيد روكاسل.»

«لقد قمتِ بعملٍ جيِّدٍ حقًّا!» هكذا صاح هولمز بحماس. «والآن قُودي الطريق، وقريبًا سنشهَدُ نهاية هذا الأمر المُظلم.»

صعدْنا الدَّرَج وفتحنا الباب ومَشَيْنا بطول أحدِ الممرَّات، ووجدنا أنفسنا أمام المتاريس التي كانت الآنسة هانتر قد وصفتْها لنا. قطع هولمز الحبْل وأزاح القضيب العريض، ثم جرَّبَ مفاتيحَ مُختلفة لفتح القفل، ولكن دون نجاح. لم يَصدُر أيُّ صوتٍ من الداخل، فجعل هذا الصمتُ وجه هولمز مُكفهِرًّا.

قال: «أنا واثقٌ من أنَّ الأوان لم يفُتْ بعد. أعتقد يا آنسة هانتر أنه من الأفضل أن ندخل من دونك. والآن يا واطسون، ادفَعِ الباب بكتِفك، وسنرى إن كنَّا سنستطيع الدخول أم لا.»

كان بابًا قديمًا مُتهالِكًا، فانفتحَ على الفور دون أن نحتاج لأن نُوحِّد قُوانا لدفعه. هُرِعنا سويًّا داخل الغرفة، كانت فارغة. لم يكن هناك أيُّ أثاث سوى سريرٍ مصنوع من القشِّ وطاولة صغيرة وسلَّةٍ مليئة بالملابس. كانت الكوَّة الموجودة في السقف مفتوحة، ولم تكن السَّجينة موجودة.

قال هولمز: «كان بعضُ الشرِّ يكمُن هنا؛ لقد خمَّن هذا الرجل الجميل نوايا الآنسة هانتر وأخذ ضحيَّتَه بعيدًا.»

«ولكن كيف؟»

«عبْر الكوَّة. سنرى عمَّا قريبٍ كيف تمكَّن من فِعل ذلك.» تسلَّق نحو السقف مُتأرجِحًا ثمَّ صرخ قائلًا: «أوه أجل! ها هي نهاية سُلَّمٍ طويل خفيف موضوع في مُقابل إفريز السقف؛ هكذا نفَّذ الأمر.»

قالت الآنسة هانتر: «ولكن هذا مُستحيل، لم يكن السُّلَّم موجودًا عندما خرج آل روكاسل.»

«لقد عاد ووَضَعه. أقول لكِ إنَّه رجل ذكي وخطير؛ لن أتفاجأ إن كان ما أسمَعُه الآن هو صوت خطواته على الدَّرَج. أعتقِد يا واطسون أنه سيكون من الأفضل لك أيضًا أن يكون مُسدَّسك جاهزًا.»

لم يلبَثْ أنِ انتهى من قول هذه الكلمات قبْل أن يظهر رجلٌ عند باب الغرفة، رجلٌ سمين قويُّ البِنية يحمِل عصًا ثقيلةً في يدِه. صرخَتِ الآنسة هانتر وانكمشَتْ مُواجِهةً للحائط عند رُؤيته، إلَّا أنَّ شيرلوك هولمز اندفع إلى الأمام وواجَهَهُ.

وقال شيرلوك: «أيُّها الشرير! أين ابنتك؟»

أدار الرجل السمين عينَه ناظرًا في أرجاء المكان، ثم نظر إلى الكوَّة المفتوحة.

وصرخ قائلًا: «هل تُوجِّهُ هذا السؤال لي أنا؟! أيُّها اللُّصوص! جواسيس ولُصوص! لقد أمسكتُ بكم. أليس كذلك؟ أنتم في قبضتي وسأُلقِّنُكم درسًا!» استدار وهبطَ الدَّرَج بأسرَعِ ما يُمكنه مُحدِثًا جَلَبة.

صرختِ الآنسة هانتر قائلة: «سيأتي بالكلب!»

فقلتُ: «مُسدَّسي معي!»

صرخ هولمز قائلًا: «من الأفضل أن تُغلِقَ الباب الأمامي.» وهُرِعنا جميعًا نهبِط الدَّرَج. ولم نلبَثْ أن وصلنا إلى الرَّدْهة فسمِعنا صوت نباحِ كلبٍ وصرخةَ ألمٍ حادَّةٍ صاحَبَها صوتٌ مُقلقٌ كان من المُروِّع سماعه. خرج عجوز ذو وجهٍ أحمر وأوصالُه ترتَعِد، من بابٍ خلفي.

وصرخ قائلًا: «يا إلهي! لقد قام أحدهم بإطلاق سراح الكلب! لم يُطعِمه أحدٌ منذ يَومَين. بسرعة، بسرعة قبل فوات الأوان!»

هُرِعتُ أنا وهولمز خارجين من المنزل وركضْنا حول جانِبه وتولر يُسرع خلفَنا. رأيْنا الوَحْشَ الضَّخم الجائع وخطمه الأسود مدفونًا في نحْر روكاسل، وهو يتلوَّى ويصرُخ على الأرض. ركضتُ نحوَه وأطلقتُ النار على دِماغه، فوقَعَ أرضًا وأسنانُه البيضاء الحادَّة لا تزال مدفونة في ثنايا رقبة روكاسل. أزحْناه عن الكلب بعْدَ عناءٍ شديد وحملناه إلى المنزل، كان لا يزال حيًّا، ولكنَّه كان مُشوَّهًا بصورةٍ مُروِّعة. وضعناه على أريكة، وفعلتُ كلَّ ما في وُسعي لأخفِّف ألَمَهُ بعدما أرسلتُ تولر حاملًا الأخبار لزَوجته. كنَّا جميعًا مُلتفِّين حوله عندما انفتح الباب ودخلتِ الغرفة امرأةٌ نحيلةٌ طويلةُ القامة.

صرخت الآنسة هانتر: «السيدة تولر!»

«أجل يا آنسة هانتر. لقد أخرَجَني السيد روكاسل عندما عاد قبل أن يصعد إليكم. أوه، من المُؤسِف أنكِ لم تَدَعيني أعلَم ما كنتِ تُخطِّطين له يا آنسة هانتر، كنتُ سأُخبِرُك أنَّ مجهوداتك ستضيع هباءً.»

«هه!» هكذا قال هولمز وهو ينظر إليها بتمعُّن. «يبدو أنَّ السيدة تولر تعلم عن هذا الأمر أكثر من أيِّ شخصٍ آخَر.»

«أجل يا سيِّدي هذا صحيح، وأنا على أتَمِّ الاستعداد أن أُخبِرَك بما أعرِف.»

«إذن اجلسي أرجوكِ ودَعِينا نَسمعكِ؛ إذ إنَّ هناك العديد من النقاط التي أعترِف أنَّني ما زلتُ أجهلها.»

فردَّتْ قائلة: «سأوضِّحُ لك كلَّ شيءٍ الآن، وكنتُ سأفعل ذلك من قبل لو كنتُ قد تمكَّنتُ من الخروج من القبو. إن وصلَ هذا الأمر إلى مَحكمة الجُنح، فستتذكَّر يا سيد هولمز أنَّني كنتُ أنا من وقَفَ إلى جانب صديقتِك، وأنَّني كنتُ صديقة الآنسة أليس أيضًا.

لم تكن الآنسة أليس سعيدةً في المنزل قطُّ منذ أن تزوَّج والدها مرَّةً أخرى. كانت تشعُر بالتَّهميش ولم يكن لها رأيٌ في أيِّ شيء، ولكن لم تَصِر الأمور سيئةً بحقٍّ بالنسبة لها إلَّا عندما قابلتِ السيد فاولر في منزل أحد الأصدقاء، بحسْب ما أعرف. تتمتَّع الآنسة أليس بحقوقٍ حسْب الوصية، ولكنَّها كانت شديدة الهدوء والصَّبر، بحيث إنها لم تَقُلْ أيَّ شيءٍ عن الأمر، وتركتْ كُلَّ شيء تحت تصرُّف السيد روكاسل. كان يَعلَمُ أنه لا خوفَ منها، ولكن عندما لاحت في الأُفُق فُرصة وجود زَوج سيُطالِبُ بكلِّ ما يُمكن أن يُعطيَهُ له القانون، فكَّرَ والدها أنه قد حان الوقت ليضعَ حدًّا للأمر. كان يُريدُها أن تُوقِّع ورقةً تسمَحُ له باستِخدام مالها في حالة زَواجها أو عدمه. وعندما رفضتْ أن تُوقِّع هذه الورقة، ظلَّ يضغط عليها حتى أصيبَتْ بِحُمَّى دِماغية، ولِمُدَّة ستَّةِ أسابيع كانت على وَشْك المَوت. وعلى الرغم من أنَّها قد تحسَّنَتْ أخيرًا بعدما قصَّتْ شعرَها الجميل، فقد كانت مُنهكةً وفي شدَّةِ الإعياء، إلَّا أنَّ ذلك لم يُؤثِّر في خطيبها الشاب، فظلَّ مُتمسِّكًا بها بإخلاصٍ كما يتصرَّفُ أيُّ رجلٍ حقيقي.»

«هاه.» هكذا قال هولمز، «أعتقِد أنَّ ما تكرَّمتِ بإخبارنا به يُوضِّح المسألة تمامًا، وأنَّني يُمكنني استنتاج الباقي؛ إذن فقد لجأ السيد روكاسل بعد ذلك لأسلوب الحَبْس. أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي.»

«وأحضر الآنسة هانتر من لندن ليتخلَّص من الإصرار المُزعِج للسيد فاولر.»

«أجل يا سيدي.»

«ولكن لأنَّ السيد فاولر رجل مُثابِرٌ، كما يَجِبُ أن يكون البَحَّار، فقد راقَبَ المنزِل، وبعدما تقابلتُما نجح في إقناعِك بِحُجَجٍ وكلامٍ معسول أو غير ذلك، أنَّ مَصلحتكما مُشتركة.»

ردَّتِ السيدة تولر بهدوء: «كان السيد فاولر سخيًّا ومعسول الكلام.»

«وبهذه الطريقة نجَحَ في أن يُوفِّر ما يكفي من الشَّراب لزَوجِكِ حتى لا يُفيق من الثَّمَل، وفي تجهيز سُلَّمٍ في اللحظة التي يُغادِرُ فيها سيِّدُك المنزل.»

«أنت محقٌّ يا سيدي، هذا هو ما حدَث تمامًا.»

«أنا مُتأكد من أنَّنا ندين لكِ بالاعتِذار يا سيدة تولر.» هكذا قال هولمز، «إذ إنَّك وضَّحتِ لنا بِلا أدنى شكٍّ كلَّ ما كان يُحيِّرنا. ها هو جرَّاح البلدة والسيدة روكاسل قد أتيا، لذا أعتقد يا واطسون أنَّنا من الأفضل أن نَصطَحِبَ الآنسة هانتر إلى وينشستر مرَّةً أخرى؛ إذ إنَّ وجودنا هنا حاليًّا يبدو لي غير مُبرَّر.»

وبذلك حُلَّ لُغز المنزل المُقبض الذي تقبَعُ أشجار الزان النُّحاسية أمام بابه. نجا السيد روكاسل، ولكنه عاش مُحطَّمًا. فقط ما أبقاه حيًّا هو رعاية زَوجتِه المُخلِصة. لا يزال السيد والسيدة روكاسل يعيشان مع خادِمَيهِمَا القَديمَين، اللذين على الأرجح يَعرِفان الكثير عن تاريخ آل روكاسل، بحيث إنَّه يجِد صعوبة في الابتِعاد عنهما. تزوَّج السيد فاولر والسيدة روكاسل بِرُخصة خاصَّة في ساوثامبتون بعد فِرارِهما بيوم، بعدها حصل فاولر على تكليفٍ حكومي في جزيرة موريشيوس. أما بالنسبة للآنسة فيوليت هانتر، فقد خيَّبَ صديقي هولمز أملي ولم يُبدِ أيَّ اهتمام آخَرَ بها بعدَما لم تَعُد مركزَ واحدةٍ من مُعضِلاتِه التي يَسعى لحلِّها، وهي الآن تترأَّس مدرسةً خاصَّة في والسول، وأعتقِد أنها حقَّقتْ فيها نجاحًا كبيرًا.


هنداوي